

دوستو یقسی

الأعمال
الأدبية
الكاملة
٩

الجرم والعقاب

٢

ترجمة: الدكتور سامي الدروزي

الرئيسة المصرية العامة للتأليف والنشر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
المطبعة الثقافية

إهداء 2005
الكاتب الإعلامي/ فاروق خورشيد
القاهرة

أعمال دوستويفسكي الأدبية

٩

ترجمة
الدكتور سامي الدروبي



دوستويفسكي

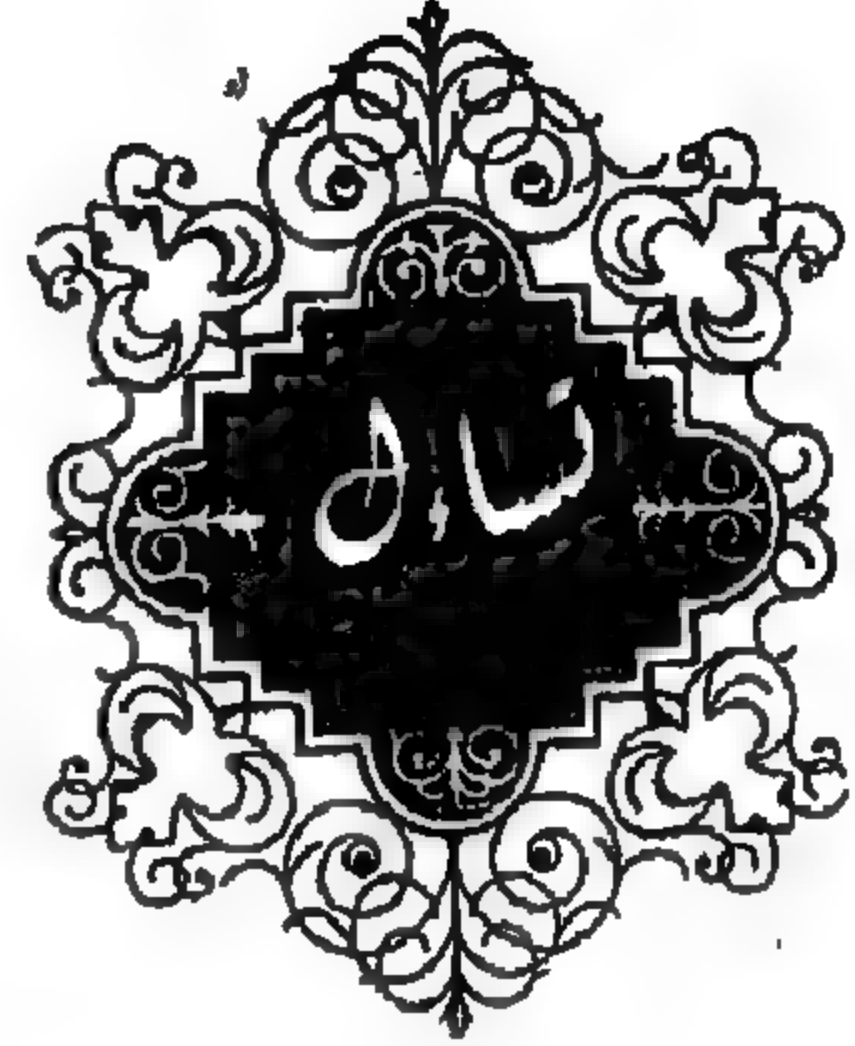
الجرمة والعقاب

« الجريمة والعقاب » (Prestouplénié) nakazanié

ظهرت في مجلة « الرسول الروسى » في اعداد سنة ١٨٦٦ ،
من كانون الثانى (يناير) الى كانون الاول (ديسمبر) ، المجلدات
من ٦١ الى ٦٦ .

الجزء
الرابع

الفصل الأول



راسكولنيكوف مرةً أخرى : « هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمي ؟ » • وأخذ يتفكر في الزائر الذي لم يكن يُنتظر ، أخذ يتفكر فيه محاذراً مرتاباً • ثم قال أخيراً ، بصوت عالٍ ، وقد استولى عليه اضطراب كبير وحيرة شديدة :

– سفدريجايلوف ! ولكن هذا مستحيل ، مستحيل •

ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر •

– جئت إليك لسبيين ، أولهما رغبتى فى أن أتعرف إليك شخصياً ، لأننى أسمع عنك مديحاً كثيراً منذ مدة طويلة • والثانى أننى أتجراً فأمل أن لا ترفض مساعدتى فى أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا • فإنى إذا لم أعتمد إلا على نفسى ، ولم يوص بى أحد ، لا يكون لى أمل كبير فى أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلنى ، لأنها تسيء الظن بى • أما اذا عاوتتنى أنت •••

قاطعهُ راسكولنيكوف قائلاً :

– لا تعوّل على معاوتتى •••

– انهما لم تصلا الا أمس ، أليس كذلك ؟ اسمح لى أن ألقى عليك

هذا السؤال •

لم يجب راسكولنيكوف •

ـ وصلتنا أمس • أعرف ذلك • وأنا نفسى لم أصل الا أمس الأول • اليك ما أريد أن أقوله لك فى هذا الصدد يا روديون رومانوفتش • انتى لا أرى داعياً الى تبرئة نفسى ، ولكن أرجو أن تأذن لى بالقضاء هذا السؤال : ما هو الذنب العظيم الذى اقترفته أنا ، اذا نحن أردنا أن نحكم فى الأمر حكماً سليماً مبرراً من الغرض ؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت •

ـ أليس ذنبى هو أنتى لاحقت فى بيتى فتاة لا تملك عن نفسها دفاعاً ، وأنتى « أسأت إليها بعروض دنيئة » ؟ هذا هو ذنبى ، أليس كذلك ؟ هانت ذا ترى أنتى أسبق غيرى الى وصف ذنبى • ولكن أرجو أن تسلم معى بأننى أنا أيضاً انسان ، وأنه ما من انسان * ... أقصد أنتى أنا أيضاً يمكن أن أفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون ارادتنا) • فمتى سلّمت معى بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شىء تفسيراً طبيعياً الى أبعد الحدود • ان السؤال الوحيد الذى يجب طرحه هو السؤال التالى : أنا شيطان أم ضحية ؟ فماذا لو كنت ضحية ؟ لعلى حين عرضت على الفتاة التى ألهمت هواى أن تسافر معى الى أمريكا أو الى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام ، وأنتى كنت فوق ذلك أظن أنتى أحقق السعادة لنا كلينا ! ما العقل الا خادم الأهواء ! وهكذا كنت أسىء الى نفسى مثلما كنت أسىء اليها ...

قاطع راسكولنيكوف يقول باشمئزاز :

ـ ليست هذه هى المسألة • فسواء أكنتَ مخطئاً أم كنتَ مصيباً ، فأنت تثير الاشمئزاز • لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك ، بل أطرّدك ، وما عليك الا أن تنصرف !

انفجر سفدريجاييلوف يقهقه على حين فجأة •



سفدریجایلو ف
بریشه الفناة السوفیاتية الکسنندرا کورساکوفا

ثم قال وهو يضحك ضحكاً صريحاً :

- يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل • كنت أريد أن أعمد في معاملتك الى الحيلة والمكر ؟ أما وأنت وضعت اصبعك على النقطة الحساسة ، فسوف ...

- دعك من هذا الكلام ! انك لتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة !

فقال سفدريجاييلوف مردداً وهو ما يزال يقهقه :

- ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ولكن أليست هذه « حرباً مشروعة » ؟ أليس هذا مكرراً « مسموحاً به » ؟ ... لكنك قطعت على طريق الكلام مع ذلك • مهما يكن من أمر ، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد ، لولا حادث الحديقة • ان مارتا بتروفنا ...

- مارتا بتروفنا ! يقال انك أرسلتها الى العالم الآخر ، مارتا

بتروفنا ...

كذلك قاطعه زاسكولنيكوف بفظاظة • فأجاب سفدريجاييلوف

قائلاً :

- أسمعت عن هذا أيضاً ؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال ؟ أما سؤالك فانتى لا أدري حقاً بم أجيبك عنه ، رغم أن ضميري مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية • ولا يذهبن بك الظن خاصة الى أن هناك أى أمر أخشاه • إن كل شيء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق : لقد أثبت الفحص الطبى أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتوفاة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة ! ... ولم يمكن اكتشاف أى شيء آخر ... لا ، ليس هذا ما يقلقنى • ولكننى قد تسبألت طوال الرحلة في القطار : ألم أساهم في هذه النازلة مع ذلك بغض المساهمة ...

بأحداث اضطراب نفسى أو شيء من هذا القيل • على أنتى انتهيت الى أن
هذا أيضاً مستحيل •

أخذ راسكوليكوف يضحك ، وقال له :

— هناك ما يدعوك الى القلق حقاً •

— ولكن لماذا تضحك ؟ فكر قليلاً : انتى لم أضربها بالسوط الا
ضربتين اثنتين ••• ضربتين لم تخلّفا أثراً • لا تحسبى رجلاً مستخفاً
مستهتراً ، أرجوك ! أنا أعرف أن سلوكى كان دنيئاً ، الخ • ولكنى أعلم
أيضاً أن دلائل « الاهتمام » هذه لم تكن تسوء مارتا بتروفا • كانت مارتا
قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة الى أن تقبع فى البيت • لم يكن
قد بقى أى سبب يدعوها الى الظهور فى المدينة ، بعد أن أغرقت جميع
الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة
أيضاً) • وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها من السماء • فكان أول
هم لها أن تقرن الخيل بالعربة ••• لست فى حاجة الى أن ألفت نظرك
الى أن بعض النساء يشعرن بلذة قوية حادة حين تلحق بهن اهانة ، مهما
يكن غضبهن منها • بل ان جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف:
فالنوع الانسانى يحب الاهانات كثيراً ، هل لاحظت هذا ؟ ولكن النساء
يحبينها حباً خاصاً ، حتى ليتمكن أن يُقال انهن لا يمكن أن يعشن بغير
اهانات أو اساءات •

خطر. ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن ينهض وأن
ينصرف ليختم الحديث • ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب
قد صدّاه عن ذلك ، فسأل فى ذهول :

— هل تحب الضرب كثيراً ؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء :

— لا كثيراً جداً • فأنا ومارتا بتروفنا ، مثلاً ، لم نكد نتضارب قط • كنا نعيش دائماً في وفاق ووثام ، وكانت راضية عني في جميع الأحيان • ولم أعمد الى استعمال السوط ، طوال السنين السبع التي عشناها معاً ، الا مرتين اثنتين (هذا اذا استئينا مرة ثالثة مشتبهة) : فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين ، أى منذ وصولنا الى الريف ، وأما المرة الثانية والأخيرة فم منذ مدة قصيرة كما تعلم • وأنت تظن مع ذلك أنني شيطان رجيم ، أنني رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية !... هـ هـ هـ • • • بالمناسبة : هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الفتى — لقد نسيت أنا اسمه ! — الذي لُطِّخ بالوحل على مرأى من الناس ، منذ بضع سنين ، في عهد « النقد المفيد » * ، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية في قطار ؟ هل تتذكر ؟ أظن أن ذلك حدث في نفس السنة التي وقعت فيها الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة « العصر » * (لا شك في أنك تتذكر المحاضرة العامة عن « ليالى مصر » ، ألا تتذكرها ؟ آه • • • العيون السوداء ! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية ؟) • فإليك رأيي : أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذي ضرب المرأة الألمانية بالسوط ، لأنه لا مجال هنا للاستحسان حقاً • • • ولكننى لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصريح بأن المرء يصادف في بعض الأحيان « ألمانيات » يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من « تقديم » ، فيما يخيل الى ، يستطيع أن يسيطر على نفسه ازاءهن

سيطرة كاملة وأن يكون مسئولاً عن سلوكه معهن . ان أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية + ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجةً تتصف بالانصاف +

قال سفدرىجايلوف هذه الكلمات ، وعاد يضحك فجأة + واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل يبيّت مشروعاً ثابتاً +

قال له راسكولنيكوف :

— أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام ، هه ؟

— هذا صحيح تقريباً + ماذا ؟ هل يدهشك أن ترانى ليسن الطبع ؟

— بل يدهشنى أن أراك مسرفاً فى لين الطبع ؟

— ألا تنى لم أستا من فظاظه أسئلتك ؟ أهذا هو السبب ؟ ولكن علام أستاذ ؟

ثم أضاف سفدرىجايلوف يقول معبراً عن سذاجة تثير الاستغراب :

— أنت سألتنى ، وأنا أجبتك !

ثم تابع يقول وقد لاح فى وجهه التأمل :

— أنا لا أكاد أهتم بشئ + وفى هذه اللحظة خاصة ، لا يشغلنى أى

شغل + لك أن تظن أننى أسعى الى خطب ودك ، لا سيما وأن لى شأنًا

مع أختك ، كما سبق أن أعلنت لك ذلك + ولكننى أقول لك بصراحة

اننى أشعر بضجر شديد وسأم قوى ، ولا سيما منذ ثلاثة أيام ، حتى لقد

أحسست من لقائك ببهجة + + لا تزعل يا روديون زومانوفيتش اذا أنا

صارحتك بأنك تبدو لى غريباً غرابة رهيفة • لك أن تزعم ما تشاء ، ولكن فيك شيئاً ما ، ولا سيما فى هذه اللحظة ، ليس فى هذه اللحظة نفسها ، بل الآن على وجه عام ••• هيساً ! سأكف عن الكلام ، سأكف عن الكلام ، لا تقطب حاجيك هكذا •• لست دباً الى الحد الذى تظن ••

- قد لا تكون دباً البتة ! بل انه ليدو لى أنك تنتمى الى مجتمع راق جداً ، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل ينتمى الى المجتمع الراقى •

أجاب سفدرىجايلوف يقول بلهجة جافة ، بل بلهجة فيها شيء من التعالى :

- لا يهمنى رأى أحد ، لذلك لا يقلقنى أن أسلك سلوك لص • ولعل هذا هو الثوب الذى يسهل ارتداؤه أكثر مما يسهل ارتداء أى ثوب آخر فى أجوائنا ومناخنا ••• ولا سيما إذا كان بالمرء ميل طبيعى الى ذلك •••

أضاف سفدرىجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد •

- سمعت أنك تعرف ناساً كثيرين هنا • فلست بمن يمكن أن يسمى رجلاً « بغير علاقات » ، كما يقال ، فما مجيئك الى إذا لم يكن لك هدف محدّد !

استأنف سفدرىجايلوف كلامه ، فقال ذون أن يجيب عن السؤال الرئيسى :

- صدقت • اننى أعرف ناساً كثيرين • وقد التقيت حتى الآن بعدة

أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التى قضيتها هنا ، فتعرفتهم ، وتعرفونى فيما يخيّل الى . اننى ارتدى ثياباً حسنة ، أليس كذلك ؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شئ . أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعى لم تمسنا بسوء * ولما كانت أملاكى غابات ومراعى فى الدرجة الأولى ، فالموارد مستمرة . . . ولكننى لن أذهب الى أولئك الناس . لقد كنت أضجر منهم حتى فى الماضى . . . وأنا منذ أخذت أطوف هنا ، لم أعقد صلةً بأحد . . . أهذه مدينة ؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة كهذه المدينة ؟ هلاًّ شرحت لى هذا ، من فضلك ! هى مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع ! حقاً ان أشياء كثيرة قد فاتتني حين كنت أتكع هنا منذ ثمانى سنين . وقد أصبحت الآن لا أعوّل الا على التشريع ، شهد الله . . .

— أى تشريع ؟

— أما هذه النوادى ، وهذه المطاعم التى تسمى مطاعم دوسو *، وهذه الحلقات . . . أما جميع مشاريع التقدم هذه . . . ففى وسعها أن تستغنى عنى . ثم أية لذة يمكن أن يجدها المرء فى الغش ؟

كذلك تابع سفدريجاييلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذى ألقى عليه .

— هل كنت تغش أيضاً ؟

— كيف لا أغش ؟ كنا منذ ثمانى سنين جماعة من أناس محترمين نحاول أن نقتل الوقت ، وكنا — لاحظ هذا ! — على جانب عظيم من رقى الآداب . وكان بيتنا شعراء ، ورأسماليون . . . ان الناس الذين هم على جانب عظيم من رقى الآداب هم على وجه العموم ، عندنا ، فى مجتمعنا

الروسي ، أوغاد ... لا شك أنك لاحظت ذلك ، هه ؟ ومنذ أقمت في الريف انما عزفت عن هذا • غير أنني قد أوشكت ، قبل ذلك الأوان ، أن أودع في السجن ، لديون علىّ ، وذلك بسبب يوناني صغير من نيجين * ، وفي ذلك الوقت انما ظهرت مارتا بتروفنا ، فساومت ، ثم فدتني بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التي علىّ سبعين ألف روبل) • وتزوجنا زواجاً شرعياً • وسرعان ما أخذتني الى عندها في الريف ، كما يؤخذ كنز من الكنوز • كانت أكبر مني سنّاً بخمسة أعوام • وكانت تحبني كثيراً • لاحظت أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالي الذي وقعته لاسم شخص آخر ، من أجل أن تستخدمه ضدّي عند اللزوم ، بحيث تدمرنني متى حاولت أن أتحرّك من تحت النير • أوه ! ما كانت لتردد في أن تفعل ذلك ! ان تناقضات كثيرة تجتمع لدى النساء ، أليس كذلك ؟

- ولولا ذلك السند لكنت هربت ، هه ؟

- لا أعرف بماذا أجيبك • كان السند لا يضايقني كثيراً • لم أكن أشتهي أن أذهب الى أى مكان • ومارتا بتروفنا قد اقترحت علىّ السفر الى الخارج مرتين ، حين لاحظت ضجري • ولكن علام السفر ؟ كنت قد سافرت الى الخارج قبل ذلك ، فلم أشعر هنالك بارتياح • ليس هذا هو الأمر تماماً ... ولكن كان ثمة شمس تشرق ، وكان ثمة خليج نابولي ، وكان ثمة البحر ... فكنت أنظر ، فأشعر بحزن شديد • والأنكى من هذا أن المرء يكون عندئذ حزيناً حقاً • لا ، لا ، ان البقاء في البلاد أفضل من ذلك • هنا على الأقل يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شيء ، وأن يبرىء بذلك نفسه • قد أحب أن أسافر الآن راضياً الى القطب الشمالي ،

لأن « خمرتى فسدت » * ، فأصبحت أكره أن أشرب ، بينما الشئ الوحيد الذى يبقى لى أن أفعله هو أن أشرب .. لقد جرّبت هذا .. بالمناسبة : يقال ان بيرج * سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد ، وانه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر ، هل هذا صحيح ؟

— ماذا ؟ تسافر فى منطاد ؟

— أنا ؟ لا ... وانما قلت هذا هكذا ...

كذلك جميع يقول سفديريجايلوف ، كما لو كان يفكر فى السؤال الملقى فعلاً •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « الى أين يريد أن يصل من هذا كله ؟ » •

وتابع سفديريجايلوف كلامه فقال حالماً شاردا الفكر :

— لا ، كان السند لا يزعبنى • فأنا الذى كنت لا أحب أن أترك الريف • ثم ان مارتا بتروفنا قد ردت الى السند منذ سنة تقريباً ، بمناسبة عيدى ، حتى لقد أضافت اليه مبلغاً محترماً • كانت تملك ثروة ، هه ؟ قالت لى : « هانت ذا ترى مدى ثقتى بك يا أركادى ايفانوفتش » • أوكد لك أن هذا ما قالته لى • لا شك فى أنك لا تصدّق أن هذا ما قالته لى • اعترف بأنك لا تصدّق ! ولكن يجب أن تعلم أننى كنت قد أصبحت مالكة محترماً • وكنت معروفاً جداً فى المنطقة • وكنت أستحضر كتباً أيضاً • شجعتنى مارتا بتروفنا على ذلك فى أول الأمر ، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهدنى القراءة •

— يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارتا بتروفنا ، أليس كذلك ؟

- أنا ؟ ربما ! هذا جائز جداً • قل لى بالمناسبة : هل تؤمن بعودة
الأرواح ؟

- أية أرواح ؟

- الأرواح العائدة • ما هذا السؤال ؟

- وأنت ، هل تؤمن بذلك ؟

- نعم ولا ، اذا شئت • أقصد اننى لا أؤمن بها تماماً ؟

- هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ألقى سفيدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة خاصة • ثم قال له
وقد انعقف فمه بابتسامة غريبة :

- ان مارتا بتروفا لا يفوتها أن تزورنى •

- كيف ؟ تزورك ؟

- نعم ، زارتنى حتى الآن ثلاث مرات • فأما المرة الأولى ففي يوم
دفنها نفسه ، عشية رحيلى ، بعد العودة من المقبرة بساعة • وأما المرة
الثانية فأمس الأول ، أثناء السفر ، قيل طلوع الصباح ، فى محطة مالايا
فيشيرا * • وأما المرة الثالثة ، فمنذ ساعتين ، فى مسكنى ، فى الغرفة التى
أقيم بها • كنت وحدى •

- وكنت ... يقظاً ؟

- يقظاً كل اليقظة • ولقد كنت يقظاً فى المرات الثلاث جميعاً •
تأتى ، فتكلمنى دقيقة ، ثم تنصرف خارجة من الباب • حتى ليخيل الى
أننى أسمع خطواتها •

قال راسكولنيكوف فجأة :

- لماذا كنت أقدر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شىء من هذا

القييل ؟

ثم دُهِش من أنه قال هذا الكلام •
كان راسكولنيكوف منفعلًا انفعاليًا شديدًا • سأله سفيدريجاييلوف
مذهولاً :

- ح • • قأ ؟ كنت تقدّر ذلك ؟ حقاً ؟ ألم أقل لك ان بيننا شيئاً
مشتركا ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

- لم تقل لى شيئاً من ذلك قط !

- ألم أقل لك ذلك ؟

- لا !

- غريب • خيّل الىّ أنّى قلته لك • منذ قليل ، حين دخلت
عليك ، فرأيتك مضطجعاً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم ، قلت لنفسى
فوراً : « هذا هو ! هذا هو بعينه » •

صاح راسكولنيكوف يسأله :

- ماذا تقصد بقولك : « هذا هو بعينه » ؟

- ماذا أقصد ؟ بصراحة : لا أدري !

بهذا أجاب سفيدريجاييلوف متمتماً ، مرتبكاً ارتباكاً صادقا •
وساد الصمت دقيقة • وكان كل من الرجلين ينظر فى عينى الآخر؟
هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً :

- ذلك كله سخف • وماذا تقول لك حين تزورك ؟

- هى ؟ تصوّر أنّها تكلمنى فى أتفه السفاسف • والانسان يبلغ
من غرابة الطبع أن هذا بعينه هو ما يغضبنى • حين زارتنى فى المرة
الأولى ، كنت متعباً كما تعلم : القداس ، صلاة الجنازة ، الموكب ، المأدبة •
وكنت وحيداً فى حجرة مكتبى ، وكنت أدخن سيجاراً • ها هى ذى

تدخل ، فتقول لى : « أسبب هذه المشاكل كلها اذن انما نسيت يا آر كادى ايفانوفتش أن تعبى اليوم ساعة الجدار فى المطبخ ؟ » وكنت أنا الذى أتولى تعبئة ساعة الجدار تلك فى كل أسبوع فعلاً ، منذ سبع سنين ، فاذا نسيت أن أفعل ذلك ، ذكرتنى به . وفى الغد ، كنت فى طريقى الى هنا . ودخل القطار ، عند الفجر ، الى محطة من المحطات . كنت محطماً من التعب . وكانت عيناى محقتين من شدة النعاس ، لأننى لم أكن قد نمت تقريباً طوال الليل . أمرت لنفسى بفنجان شاي . وهأنا ذا أرى مارتا بتروفنا تجلس الى جانبى وفى يديها ورق لعب . قالت لى : « هل تحب ، يا آر كادى ايفانوفتش ، أن تعرف مايقوله ورق اللعب فى أمر سفرك ؟ » . كانت مارتا بتروفنا خيرة جداً فى فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب . لن أغفر لنفسى ما حييت اننى لم أقبل اقتراحها . لقد هربت مذعوراً . صحيح أن الجرس قد رن فى تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار . واليوم ، بينما كنت جالساً أشعر بثقل فى معدتى بعد غداء ردىء جىء الى به من المطعم ، وفيما أنا أدخن سيجاراً - اننى ما ان أجلس حتى أدخن - دخلت على مارتا بتروفنا على حين بغته ، متزينة بأجمل زينة ، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً ، وقالت لى : « يومك سعيد يا آر كادى ايفانوفتش ! هل ثوبى الجديد يوافق ذوقك ؟ ما كان لآيسكا أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب » . (آيسكا * خياطة فى القرية كانت فى الماضى من الأتقان وقد تعلمت الخياطة بموسكو ، فتاة حلوة جداً) . وأخذت مارتا تتبخر أمامى . أنعمت النظر فى ثوبها ، وتفرست فيها بانتباه ، وجهاً لوجه ، ثم قلت لها : « حقاً لا داعى يا مارتا بتروفنا ، الى أن تكلفى نفسك عناء المجيء الى لتحديثنى فى مثل هذه الترهات ! » فقالت لى : « آه ! .. ريباه ! .. هل صار حراماً على حتى أن أزعجك ؟ » ، فقلت لها عندئذ لأغظها : « أريد يا مارتا بتروفنا أن أتزوج

مرة ثانية « ، فقالت لى : « هذا شأنك أنت يا آر كادى ايفانوفتش • ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانية بعد دفن زوجتك فوراً • وهبك اخترت اختياراً موفقاً ، فان الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هى ، وستكونان أضحوكة الشرفاء من الناس ، هذا كل شيء ! » • قالت ذلك ثم خرجت حتى لكأنتى كنت أسمع حفيف ذيل ثوبها • سخف ، أليس كذلك ؟

سأله راسكولنيكوف :

— قل لى : أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً ؟

فأجابه سفيدريجاييلوف شارداً الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال :

— ينذر أن أكذب •

— وقبل ذلك ، هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

— مرة واحدة فى حياتى ، منذ ست سنين • كان عندى خادم اسمه فيلكا * • فما ان تمَّ دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً : « يا فيلكا ، هات غليونى ! » • فاذا هو يدخل ، فيمضى قدماً الى الخزانة التى كانت تُصَفُّ فيها غلايينى • كنت جالساً فقلت لِنَفْسِي : « هو يفعل ذلك لينتقم منى » • ان مشاجرة عنيفة كانت قد شبت بينى وبينه قبل موته بقليل • قلت له : « كيف تجرؤ أن تمثل أمامى بكمٍ مثقوبة عند الكوع ؟ اخرج من هنا أيها الحقير ! » • فاستدار على عقبيه ، وخرج ، ثم لم يرجع بعد ذلك قط ! لم أقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لما رتا بتروفا • أردت فى لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه ، ولكننى ترددت بعد ذلك •

— هلم استشر طبيباً !

— لست فى حاجة اليك حتى أعلم أنتى مريض ، وان أكن لا أعرف

ما هو مرضى حقاً • وفى رأى أن صحتى خير من صحتك خمس مرات •

أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وانما سألتك هل تؤمن
أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة •

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب :

- لا ، لا يمكن أن أؤمن بوجودها في حال من الأحوال !

جمجم سفيدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه ، وهو ينظر الى
جانب ، مائل الرأس قليلاً :

- ماذا يقال لك عادة ؟ يقال لك : « أنت مريض ، وكل ما تراه
اذن ليس الا نتيجة هذيانك » • ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم •
أنا أسلم بأن الرؤى لا تظهر الا للمرضى ، ولكن هذا يبرهن على أن
الرؤى لا يمكن أن تظهر الا للمرضى ، دون أن يبرهن على أن الرؤى
لا وجود لها في ذاتها •

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً :

- لا وجود لها حتماً !

فتابع سفيدريجايلوف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو
راسكولنيكوف ببطء :

- لا ؟ أنت تؤمن بأنها لا وجود لها ؟ ولكن اذا فكّرنا في الأمر
على النحو التالي (ساعدني ، من فضلك) : الأرواح العائدة أجزاء من
عوالم أخرى هي بداية هذه العوالم ان صح التعبير • والانسان السليم
المعافي ليس في حاجة بطبيعته الى أن يراها ، لأن الانسان السليم المعافي
ينتمي الى هذه الحياة الدنيا كل قبل كل شيء ، وعليه اذن أن يحيا هذه
الحياة الأرضية وحدها ، في سبيل النظام والانسجام • ولكن ما ان يمرض
هذا الانسان ، ما ان يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلى
على الفور امكانية عالم آخر ، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك

العالم الآخر ، فاذا مات انتقل الى ذلك العالم الآخر رأساً • • • انتى
أجرى هذا التفكير منذ زمان طويل • فاذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة ،
كان فى امكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذى أجرىه •

قال راسكولنيكوف :

- أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة •

وظل سفيدريجايلوف حالماً شارد الفكر • ثم قال فجأة :

- هه ! ••• ماذا اذا لم يكن فى الحياة الآخرة الا عناكب أو أشياء

من هذا القليل ؟! •••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه مجنون ! » •

وتابع سفيدريجايلوف كلامه :

- نحن نتصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها ،
على أنها شىء ضخم ، ضخم ! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة ؟
تصور فجأة أنه ليس هناك ، بدلاً من هذا كله ، الا حجرة صغيرة ،
الا شىء يشبه حمّاماً فى قرية ، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب فى جميع
أركانها ، وتصور أن هذا هو الأبدية كلها • أنا مثلاً انما تبدو لى
الأبدية فى هذه الصورة أحياناً •

صاح راسكولنيكوف يقول متزعجاً :

- هل يمكن ، هل يمكن حقاً أن لا يكون فى ذهنك تصور أبعد

على العزاء وأقرب الى الصدق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو يتسم ابتسامة غير محدّدة :

- أقرب الى الصدق ! هل تعلم ؟ لو كان الأمر بيدى لصنعت الأمور

على هذا النحو نفسه ! •••

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجئ يسرى في جسمه .

ورفع سفيدريجايلوف رأسه ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، ثم انفجر ضاحكاً ، وهتف يقول :

- لا ، لا ، ان أمرنا لعجيب حقاً ! منذ نصف ساعة فقط ، لم نكن قد التقينا بعد ، وكنا نعد أنفسنا عدوين . وبيننا ، عدا ذلك ، مسألة لم نخرجها الى النور بعد ، ومع هذا تركناها واسترسلنا في هذا النوع الغريب من الأدب . هل كذبت عليك حين قلت لك اننا ثمرتا أرض واحدة ؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة :

- من فضلك : قل ما تريد أن تقوله بغير إبطاء ، واذكر لي السبب الذي دفعتك الى تشريفى بهذه الزيارة . . . ذلك أننى . . . مستعجل . . . يجب أن أخرج . . .

- طيب ، طيب . . . ان أختك آفدوتيا رومانوفنا ستزوج السيد لوجين ، السيد بطرس بتروفيتش لوجين ، أليس كذلك ؟

- ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختى ، وأن لا تذكر اسمها ؟ اننى لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضورى ، اذا صحّ أنك أنت سفيدريجايلوف حقاً !

- ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد نجت من أجل التحدث في أمرها ؟

- طيب . . . تكلم . . . ولكن أسرع !

- أنا على يقين من أنك قد كوّنت رأياً في السيد لوجين (الذى يمت الى بقربى مصاهرة) ، اذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة ،

أو كنت قد جمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة • هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا • فى رأى أن آفدوتيا رومانوفنا انما تضحى فى هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة فى سبيل ••• فى سبيل أسرتها • لقد بدا لى • بعد كل ما سمعته عنك • أنك • من جهتك • سيسرك كثيراً أن لا يتم هذا الزواج • شريطة أن لا يساء الى أختك • وأنا الآن • بعد أن عرفتك شخصياً • مقتنع بهذا أكثر من اقتناعى به فى أى وقت مضى • قال راسكولنيكوف :

— هذا كله سذاجة من جانبك ••• معذرة ••• أردت أن أقول ان هذا كله وقاحة من جانبك •

— هل تقصد بذلك أننى أدافع عن مصلحتى ؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش ! لو كنت أتكلم فى سبيل مصلحتى • لما كنت صريحاً هذه الصراحة • فما أنا غبى غباوة كاملة على كل حال • بالمناسبة : سأكشف لك عن أمر سيكولوجى غريب ! منذ قليل • حين كنت أبرر الحب الذى أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسى اننى أنا ضحية • ألا فاعلم اننى لا أشعر الآن بأى حب • لا أشعر الآن بأى حب البتة • حتى اننى استغرب أنا نفسى كيف شعرت فى الماضى فعلاً •••

قاطع راسكولنيكوف قائلاً :

— مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ • وما فطرت عليه من فسق

وعهر •••

— حقاً ! أنا رجل عاطل داعر • ولكن أختك • من جهة أخرى • لها من المزايا والحسنات ما جعلنى لا أستطيع أنا نفسى أن أمتنع عن أن أتأثر بعض التأثير ••• ولكن ذلك كله لم يكن الا لغواً وعبثاً ••• أنا أدرك هذا الآن •

- وهل تدركه منذ مدة طويلة ؟

- بدأت أدركه منذ بعض الوقت ، ولكننى لم أقتنع به اقتناعاً مطلقاً
الا أمس الأول ، تقريباً فى نفس الدقيقة التى وصلت فيها الى بطرسبرج .
وحتى فى موسكو كنت ما أزال أتصور أننى آت من أجل أن أخطب
آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسى منافساً للسيد لوجين .

- اغفر لى مقاطعتك ... ولكن أرجوك ... رحماك ... ألا
تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً الى الكلام عن الغرض من زيارتك ؟
اننى مستعجل ... يجب أن أخرج .

- بكل سرور . حين وصلت الى هنا عازماً على القيام ... برحلة ،
أردت أولاً أن أتخذ بعض الاجراءات . لقد أبقيت أولادى عند خالتهم .
وهم أغنياء لا حاجة بهم الى . وأى أب أنا لهم على كل حال ؟ لم أحمل
معنى الا المال الذى أهديته الى مارتا بتروفنا منذ سنة . هذا يكفينى .
معذرة ، اننى أصل الى الوقائع بسرعة شديدة . اننى قبل سفرى الذى
قد يتم على كل حال ، أريد أن أفرغ من السيد لوجين . ليس يعنى
هذا أننى أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة ، ولكنه هو السبب
فى الشجار الذى وقع بينى وبين مارتا بتروفنا ، حين علمت أنها
دبرت أمر هذا الزواج . اننى أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا
بواسطة ، وبحضورك اذا شئت ، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير
يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين ، بل وأن هناك شروراً كبيرة يجب أن
توقعها منه ؛ وأن أطلب منها ثانياً ، بعد التماس غفرانها عن المتاعب التى
سببتها لها ، أن تأذن لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فى سبيل أن
أسهل لها القطيعة مع السيد لوجين ، وهى قطيعة أحسب أنها لن تسوءها
اذا هى تصورت امكانها .

صاح راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه :

— ألا انك لمجنون فعلاً ، ألا انك لمجنون فعلاً • كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام ؟

— كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة • ولكننى أحب أن أقول لك أولاً اننى على كونى لا أملك ثراءً كبيراً ، أستطيع التصرف فى هذه العشرة آلاف روبل • بتعبير آخر : ان هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذى لا غنى لى عنه ، فاذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنا ، فسأنفقه انفاقاً أشد غباوة وحماسة • هذه أولى • وأما الثانية فهى أن ضميرى مرتاح كل الارتياح : اننى أقدم هذا المال دون أى حساب • صدّق أو لا تصدّق ، ولكنكما ، أنت وآفدوتيا رومانوفنا ، ستدركان هذا فيما بعد • الحقيقة اننى سببت بعض المتاعب وبعض الازعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة ، واذ كنت أشعر بندامة صادقة وأعانى من عذاب الضمير ، فاننى أرغب من كل قلبى لا أن أكفر عن خطيئتى ، فأقدم لأختك تعويضاً مالياً ، بل أن أكون ، بكل بساطة ، نافعاً لها فى أمر من الأمور على نحو من الأنحاء ، لأننى على كل حال لست بالإنسان الذى لا يمتاز الا باقتراف الشر • ولو كان فى عرضى هذا جزء من مليون جزء من حساب ، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها • ثم اننى ما كان لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فحسب ، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع • أضف الى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج إحدى الفتيات فى وقت قريب كل القرب ، وهذا ينفى عنى كل شبهة فى اضممار أى شر لآفدوتيا رومانوفنا • وأقول فى الحتام ان آفدوتيا رومانوفنا ، اذا هى تزوجت السيد لوجين ، ستقضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتش ••• بل احكم على الأمر بنفسك فى هدوء وسكينة •

وكان سفيدريجايلوف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، هادئاً كل الهدوء ، ساكناً كل السكينة .

قال راسكولنيكوف :

- أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام ، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال زاهر بوقاحة لا تقتفر .

- أبداً . من يسمعك يظن أن الانسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الانسان الا شراً في هذا العالم الأرضي ، وأنه لا يجوز أن يفعل له أى خير ، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة . ألا ان هذا المضحك حقاً . هل اذا مت مثلاً ، فأورثت أختك الصغيرة فى وصيتى هذا المبلغ نفسه ، هل ترفض أختك قبوله حتى فى هذه الحالة ؟

- جائز جداً أن ترفضه .

- لا ! ودعنا من هذا على كل حال . المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل ! ومهما يكن من أمر ، فانتى أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث .

- لا ، لن أطلعها عليه .

- فى هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتش أن أسعى بنفسى الى الحصول على موعد منها ، وقد يزعجها هذا .

- واذا أطلعتها على هذا الحديث ، ألن تسعى بنفسك الى الحصول على هذا الموعد ؟

- لا أدري بماذا أجيبك . انتى أود كثيراً أن أراها مرة .

- لا تعوّل على هذا !

- خسارة . على أنك لا تعرفنى . أفليس من الجائز أن تتوثق

العلاقات بيننا ؟

— أأنت تظن حقاً أن العلاقات بيننا قد تتوثق ؟

أجاب سفيدريجاييلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

— لم لا ؟ ليس معنى هذا أنني أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا ... حتى أنني لم أكن أعوّل على أن ... رغم أن هيتك قد لفتت نظري كثيراً في هذا الصباح ...

سأله راسكولنيكوف في قلق :

— أين رأيتني في هذا الصباح ؟

— رأيته بمحض مصادفة ! ما يزال يخيّل إلى أن فيك شيئاً قريباً مني كل القرب ... ولكن لا يقلق أي قلق ، ما أنا بالرجل المزعج : لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين ؟ ولم أضجر الأمير سفرباي الذي يمت إلى بقربي بعيدة والذي هو سيد من كبار السادة ؟ وتسنى لي أن أكتب في « ألبوم » مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن « مادونا » رافائيل * ، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارتا بتروفنا ؟ وقضيت قبل ذلك ليالي بكاملها في عمارة فيازمسكي * بميدان « سوق العلف » ؟ وقد أظير بالمنطاد مع بيرج ...

— رائع . فاسمح لي الآن أن أسألك أأنت تزمع القيام برحلتك قريباً ؟

— أي رحلة ؟

— عجيب ! الرحلة التي حدثني عنها منذ قليل .

— رحلة ؟ آ ... نعم ... رحلة ... فعلاً ... لقد حدثتك عن رحلة ... ولكن هذه مسألة واسعة جداً ... ليتك تعرف عن أي شيء تسألني !

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة . ثم أردف :

- قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة : هناك خطيبة أقترح
عليّ •

- هنا ؟

- نعم •

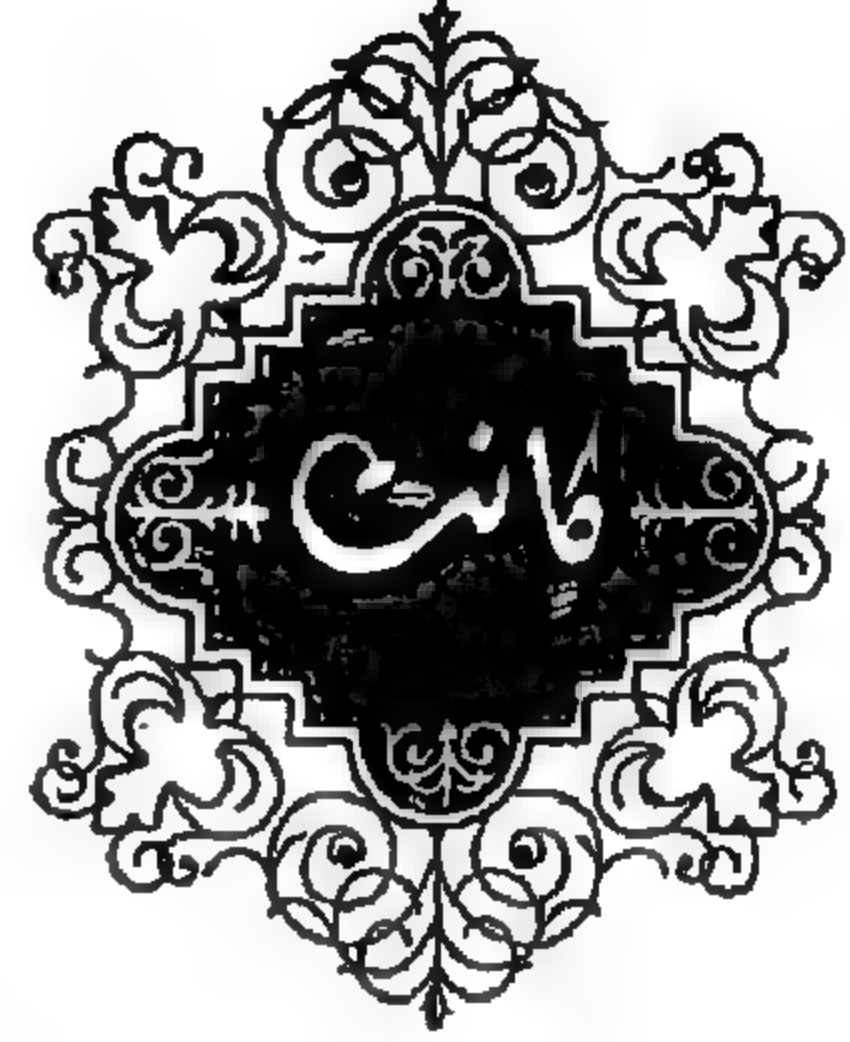
- متى اتسع وقتك لأن •••

- أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا • اننى
أسألك جاداً أن تؤدى لى هذه الخدمة • هيّا ••• الى اللقاء مرة أخرى •
آ ••• نسيت ••• قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش ان مارتا
بتروفنا قد أورثتها فى وصيتها ثلاثة آلاف روبل • هذه هى الحقيقة
دقيقة • لقد اتخذت مارتا بتروفنا هذه الاجراءات قبل موتها بأسبوع ،
اتخذتها بحضورى • وفى وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ
فى غضون أسبوعين أو ثلاثة •

- تقول ••• هذه هى الحقيقة ؟

- نعم هذه هى الحقيقة • أرجوك أن تبلغها اياها • هيّا ••• الى
اللقاء مرة أخرى • هل تعلم أننى أسكن قريباً جداً منك ؟
قال سفيدريجاييلوف ذلك واتجه نحو الباب ؛ وفيما هو يجتاز
العتبة ، التقى برازومبخين !

الفصل الثاني



الساعة قريبة من الثامنة : أسرع الاثنان نحو
عمارة باكاليف ليصلا قبل لوجين •
وسأل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا في
الشارع :

— قل لي : من ذلك الرجل ؟

— هو سفيدريجايلوف ، ذلك الملاك الذي أهينت أختي في منزله
حين كانت تعمل عنده مربية • وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحظاته
الغرامية : طردها زوجته مارتا بتروفنا • ومارتا بتروفنا هذه قد اعتذرت
لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة ؟ وعنهما انما كان يجري
الحديث منذ قليل • لا أدري لماذا أنا خائف من هذا الرجل • لقد وصل
الى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً • هو رجل غريب جداً ؟ يخيل الى
أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة • لكأنه يعرف شيئاً ما ... يجب
أن نحمي دونيا منه ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك ، هل تسمع ؟

— نحميها منه ؟ ولكن أي أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل
بأفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، أشكر لك يا روديا أنك تقول لي هذا
الكلام • لسوف نحميها • أين يسكن ؟

— لا أدري •

- لماذا لم تسأله ؟ خسارة ! سأعرف ذلك على كل حال •
- سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت :
- هل رأيته ؟
- طبعاً • لاحظته ، لاحظته جيداً •
- وألح راسكولنيكوف سائلاً :
- هل رأيته رؤية واضحة ، مميزة ؟
- نعم ، وأتذكره تذكراً واضحاً مميزاً • لو رأيته بين ألف شخص لعرفته • انتى أملك ذاكرة الوجوه •
- وصمتا من جديد •
- وجمجم راسكولنيكوف يقول :
- هم ••• ذلك أنتى ••• ذلك أنتى ••• هل تعلم ؟ لولا ذلك ••• لكان يمكن أن أظن ••• ما أزال أظن ••• أن ذلك لم يكن الا أضغاث أحلام •
- عمّ تتكلم ؟ لست أفهم بوضوح •
- تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوى فمه بإبتسامة :
- اسمع : لما كنتم تقولون جميعاً انتى مجنون ، فقد تصورت منذ قليل انتى قد أكون مجنوناً بالفعل ، وأن ما رأيته لم يكن الا شبحاً •
- ما هذا الذى تقوله ؟
- من يدري ؟ لعلى مجنون مع ذلك ، ولعل كل ما جرى فى الآونة الأخيرة انما جرى فى خيالى وحده !
- روديا ! هل شوشوا عقلك من جديد ؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل ؟ لماذا جاء ؟

لم يجب راسكولنيكوف • وفكر رازوميخين لحظة • ثم بدأ يتكلم فقال :

- طيب ، اسمع تقريرى : لقد جئت اليك ، فوجدتك نائماً • ثم تغدينا ، ثم ذهبت الى بورفير • كان زامبوتوف عنده • أردت أن أبدأ الحديث ، ولكن ذلك لم يثمر • لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم • لم يفهما شيئاً ؟ كانا لا يستطيعان أن يفهما شيئاً ؟ ولكنهما لم يظهرأ أى ارتباك • جذبت بورفير الى النافذة وأخذت أتكلم ، ولكن هذا لم يثمر أيضاً • كنت أنظر الى جهة ، وكان هو ينظر الى جهة أخرى • وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت بوزه ، وقلت له اننى سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية • فلم يزد على أن نظر الى • عندئذ بصقت على الأرض ، وانصرفت • هذا كل شيء • ما أغبى هذا كله ! أما زامبوتوف فلم أبادله كلمة واحدة • ومع ذلك اعتقدت اننى أفسدت الأمر كله ، الى أن تراءت لى فجأة ، وأنا أهبط السلم ، فكرة وضعت يلسماً على قلبى • قلت لنفسى : لماذا نصدع رأسينا ، أنا وأنت ؟ لو كان هناك خطر يتهددك ، لو كان هناك شيء حقاً ، لما قلت كلمة واحدة • ولكنك لا شأن لك فى هذا الأمر كله • ما شأنك أنت وهذا الأمر ؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر • فما عليك اذن الا أن تستخف بهم ، أن تبصق عليهم • ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزئ بهم • لو كنت فى مكانك لأخذت أضللهم وأغرر بهم ! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد ! ابصق على هذا الأمر كله ، لماذا لا تبصق عليه ؟ قد نستطيع فى المستقبل أن نضربهم أيضاً • ولكن فلنضحك الى أن يحين ذلك الحين !

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- طبعاً ، طبعاً !

ولكنه قال بينه وبين نفسه : « ما عساك قائلًا في الغد ؟ » •
 شيء غريب : ان راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى
 الآن « ما عسى يفكر فيه رازوميكين حين يعلم الحقيقة » • فلما خطرت
 هذه الفكرة بباله الآن حدثق الى صديقه بنظرة ثابتة • أما ما رواه له
 رازوميكين عن زيارته لبورفير فانه لم يهتم به كثيراً : ان أموراً كثيرة قد
 جرت بعد تلك الزيارة ! • • •

وفيما كانا يعبران الدهليز التقيا بلوجين • لقد وصل لوجين في
 الساعة الثامنة تماماً ، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدى الى
 الغرفة • وها هم أولاء اثلاثة يدخلون معاً ، ولكن دون أن ينظر أحد
 منهم الى أحد • ودون أن يحيي أحد منهم أحداً • دخل الشابان أولاً ،
 وتلبث بطرس بتروفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللبابة ، وخلع
 هنالك معطفه • وتقدمت بولشيريا ألكسندروفنا الى لقائه عند عتبة الغرفة
 فوراً • وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحيي أخاها •

دخل بطرس بتروفتش ، وسلم على السيدتين بلطف ومودة ، رغم
 أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء • على أنه كان يبدو مرتبكاً
 بعض الارتباك ، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد • وأسرعت
 بولشيريا ألكسندروفنا التي كانت تبدو مرتبكة هي أيضاً ، وأسرعت
 تجلس الجمع كله حول المائدة المستديرة التي كان عليها سماور يغلي
 ماؤه • فكان مكانا دونيا ولوجين متقابلين ، وكان مكانا رازوميكين
 وراسكولنيكوف أمام بولشيريا ألكسندروفنا ، فأما رازوميكين فالى جانب
 لوجين ، وأما راسكولنيكوف فالى جانب أخته •

خيم الصمت برهة من الوقت • وأخرج بطرس بتروفتش من
 جيبه ، بغير تعجل ، منديلاً من قماش الباتيستة تفوح منه روائح عطر ،
 وتمشط كما يتمشط رجل يحس أن كرامته قد أهينت ، فهو عازم لذلك

على أن يطالب بإيضاحات ، ولكنه ظل محافظاً على بشاشة هيئته • كان قد خطر بباله وهو في حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه ، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية ، وليفهمهما الوضع كله • ولكن لم يعزم أمره على انفاذ هذه الفكرة التي خطرت بباله • ثم ان هذا الرجل يكره الأمور التي يعوزها اليقين الثابت ، وهناك نقطة لا بد من إيضاحها : لئن خالفت هاتان السيدتان أوامره صراحة ، فلا بد أن هناك شيئاً دعا الى ذلك ، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة ، وفي وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب •

قال يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة رسمية :

- أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة •

- نحمد الله يا بطرس بتروفتش !

- يسرني أن أعرف هذا • ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً ؟

أجابت دونيا قائلة :

- أنا شابة وقوية فلا أتعب • أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة •

- ما العمل ؟ ان طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة • ان « أنا

روسيا » كما يقال ، واسعة كثيراً • • • أما أنا فأنسى ، رغم رغبتي القوية ، لم أستطع أن آتي الى المحطة لاستقبالكما • أمل مع ذلك أن يكون كل شيء قد تمّ بدون مزعجات •

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بنبرة خاصة :

- لا يا بطرس بتروفتش ! لقد لقينا مزعجات كثيرة ، وشعرنا

بضيق شديد • ولولا أن الله أرسل إلينا دمترى بروكوفتش بالأمس ،

اذن لضعنا •

ثم أضافت تعرف لوجين بدمترى بروكوفتش :

— هذا دمترى بروكوفتش *

قدمدم لوجين. يقول وهو يلقي على رازوميخين نظرة مواربة خالية من المودة :

— ولكن ... سبق لى أن سُررت ... أمس ...

ثم قطب حاجبيه وصمت *

نستطيع أن نصف بطرس بتروفتش على وجه العموم بقولنا انه ينتمى الى تلك الفئة من الناس التى تبدو فى المجتمع لطيفة ودوداً ، أو قل تبدو متطلعة الى اللطف والمودة ، ولكن ما ان يسؤها شىء حتى تفقد على الفور وسائلها ، فاذا هى تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه قرساناً مرحين يزخرون نشاطاً ويحظون باعتبار الناس عامة *

وساد صمت شامل من جديد * فراسكولنيكوف مصرّ على السكوت اصراراً عتيداً ، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة ، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله * وهكذا شعرت بولشيريا ألكسندروفنا بنذر الخطر * فلهجأت الى آخر ما تملك من موارد ، فبادرت تقول :

— مانت مارتا بتروفنا ، هل تعرف هذا ؟

— أعرفه طبعاً * علمت به منذ أخذت تسرى الشائعة ... وأزيدك علماً فأقول ان آرКАДى ايفانوفتش سفيدريجاييلوف قد أسرع يجىء الى بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً * هذه هى على كل حال الأخبار الدقيقة التى وصلتني *

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق ، وهى تبادل أمها نظرة سريعة :

— الى بطرسبرج ؟ الى هنا ؟



بطرس پتروفتش لوجین

- نعم • ولا شك في أن له نيات يضمورها ، اذا نحن نظرنا الى استعجاله السفر ، والى الأحداث التي سبقت هذا السفر على وجه العموم •
صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- رباه ! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحة هنا أيضاً ؟
- يخيّل الى أنكما يجب أن لا تبالغا في القلق ، لا أنت ولا آفدوتيا رومانوفنا ، على شرط أن ترغبا طبعاً في أن تتحاشيا كل صلة به • أما أنا فساكون يقظاً ساهراً ، وسأبادر منذ الآن الى استطلاع محل سكناه •
وتابعت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت :

- آه يا بطرس بتروفتش ! انك لا تعرف مدى ما أحدثته في نفسي من خوف ورعب • اننى لم أره في حياتى الا مرتين ، ولكنه بدا لى مريعاً ، مريعاً ! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارتا بتروفنا !

- يصعب القطع برأى فيما يتعلق بهذه النقطة • أنا أملك معلومات دقيقة محدّدة • لست أنكر أنه قد عجل مجرى الأمور بما أحدثته الاهانة فيها من أثر نفسي ان صح التعبير • أما عن سلوك الرجل وعن أخلاقه عامة فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • لا أدري هل أصبح الآن غنياً ، ولا أدري كم أورثته مارتا بتروفنا على وجه الدقة ، ولكننى سأعرف هذا بعد مدة لن تطول • ومهما يكن من أمر ، فمما لا شك فيه أنه ، وقد أصبح يملك مالا ، سوف يستأنف فوراً ، هنا ببطرسبرج ، طراز الحياة التى كان يعيشها فى الماضى • هذا انسان هو أكثر أشباهه انحلال خلق ، وفساد طبع • وهناك أسباب قوية تدعونى الى الاعتقاد بأن مارتا بتروفنا التى شاء سوء حظها أن تُفقت به وأن تحرره من ديونه منذ ثمانى سنين ، قد خدمته فى ميادين أخرى : بفضل جهودها وحدها ، وبفضل تضحياتها انما استطاعت أن تخلق فى المهد قضية إجرامية وحشية

فضيحة كان يمكن أن تؤدى به الى سبيريا • ذلك هو هذا الرجل اذا كنت
تحرصين على معرفته !

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

— آه ! رباہ !

وكان راسكولنيكوف يصغى بانتباه •

سأله دونيا بلهجة قاسية رصينة :

— هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك ؟

— أنا انما أكرر ما سمعته بنفسى من فم المرحومة مارتا بتروفنا
مختوماً بخاتم السر • يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة
النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً • فى ذلك الوقت كانت تعيش
هنا — ويظهر أنها ما تزال تعيش الى الآن — سيدة أجنبية اسمها ريسليش،
وهى مرابية صغيرة لها عدا ذلك أعمال أخرى • ولقد كان السيد
سفديريجايلوف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل •
وكانت تعيش معها فتاة تمت اليها بقرابة بعيدة ، فتاة صغيرة فى الخامسة
عشرة من عمرها أو فى الرابعة عشرة ، كانت صماء خرساء ، وكانت
السيدة ريسليش تمحضنها كرهاً لا حدود له ، وتلومها على كل لقمة خبز
تأكلها ، حتى لقد كانت تضربها ضرباً خالياً من أية شفقة انسانية • وفى
ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوقة فى الطابق الذى يقع تحت سقف المنزل •
وقد انتهى التحقيق الى أن الفتاة ماتت منتحرة ، فطويت القضية بعد اتمام
الاجراءات المعتادة • غير أن وشاية جاءت بعد ذلك تقول ان الطفلة قد
اعتدى عليها السيد سفديريجايلوف اعتداء مشيناً قاسياً • صحيح أن هذا
كله ظل يكتنفه الغموض ، فان الوشاية قد صدرت عن ألمانية أخرى هى
امرأة سيئة السمعة لا توحى بأية ثقة • ولم تتبع ذلك أية اجراءات : فبفضل

جهود مارتا بتروفا وبفضل مالها بقي كل شيء في حدود الشائعة • غير أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة • ولا شك أنك سمعت يا آفدوتيا رومانوفنا ، حين كنت عندهم ، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر معاملات سيئة ، في العهد الذي كانت فيه القناة ما تزال قائمة •

- بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً •

- تماماً ، ولكنه أجبر على الانتحار ، أو قولى دفع اليه ، بتأثير نظام الازعاجات والاضطهادات التي كان يمارسها السيد سفيدريجايلوف •

قالت دونيا بخشونة :

- لم أكن أعرف ذلك • ولكننى سمعت قصة غريبة جداً تروى أن فيليب هذا كان فتى مصاباً بمرض الوسواس ، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع فى البيت • كان الناس يقولون عنه ان قراءاته هى التى ذهبت بعقله ، وأنه انتحر هرباً من سخریات السيد سفيدريجايلوف ، لا من ضرباته • ومهما يكن من أمر فان السيد سفيدريجايلوف ، كان طوال مدة اقامتى عندهم ، يعامل الخدم بحضورى معاملة حسنة ، حتى لقد كان هؤلاء يخبونه ، رغم أنهم يتهمونه فى الواقع بأنه كان السبب فى موت فيليب •

قال لوجين وهو يلوى فمه بابتسامة ملتبسة المعنى :

- أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة الى التسامح • هذا رجل ماكر فعلاً ، وهو الى ذلك مغرٍ داعر • أليست مارتا بتروفا ، التى ماتت تلك الميتة الغريبة ، دليلاً محزناً على ذلك ؟ أنا انما أردت أن أساعدكما بنصائحى ، أنت وأمك ، لأننى أتبأ بمحاولات جديدة سيقوم بها وأنتما تجهلانها • وانى من جهتى لعل اقتناع جازم بأن

هذا الرجل سيودع فى السجن يوماً من الأيام بسبب ديون • ان مارتا بتروفنا التى كانت لا تفكر الا فى أولادها لم يكن فى نيتها حثماً ، فى يوم من الأيام ، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها ، واذا أورثته شيئاً مع ذلك ، فان هذا الميراث لا يمكن أن يكون الا مبلغاً زهيداً « عارضاً » ، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفى صاحبه الذى عُرف بعادات خاصة الا سنة واحدة فى أكثر تقدير •

قالت دونيا :

— بطرس بتروفتش ، أرجوك ، لا تتكلمن عن السيد سفيدريجايلوف !
ان الكلام عنه يؤلمنى •

وقال راسكولنيكوف فجأة ، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة :
— جاء الى منذ قليل •

فاذا بصيحات التعجب تتعالى فى جميع الجهات ، واذا بجميع الوجوه تلتفت اليه • وانفعل حتى بطرس بتروفتش •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

— جاء الى منذ ساعة ونصف ، بينما كنت ما أزال نائماً • دخل ، فأيقظنى ، وعرفنى بنفسه • كان منطلقاً مرحاً ، وكان يأمل جازماً أن تتعقد بينى وبينه صلات • وقد ألحَّ خاصةً على أن يلقاك يا دونيا ، وطلب منى أن أكون وسيطاً له فى تهيئة هذا اللقاء • هناك عرض يريد أن يبسطه لك • وقد ذكر لى ما هو هذا العرض • ومن جهة أخرى أبلغنى رسمياً أن مارتا بتروفنا قد اتسع وقتها ، قبل وفاتها بثمانية أيام ، أن تورثك فى وصيتها ثلاثة آلاف روبل ، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا فى أقرب فرصة •

هتف بولشيريا الكسندروفنا تقول وهي ترسم اشارة الصليب :

- الحمد لله ! صلى لها يا دونيا صلى لها !

قال لوجين :

- هذا صحيح •

وقالت دونيا مستطلعة :

- هيه ، وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك قال انه هو نفسه ليس غنياً ، وان الثروة كلها قد آلت

الى اولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم • ثم أضاف انه قد نزل في مكان ما ،

غير بعيد عن بيتي ، ولكنني لا أدري أين يقع مسكنه على وجه الدقة ،

ولا سألته عن ذلك على كل حال •

سألت بولشيريا الكسندروفنا مرتاعة :

- ولكن ماذا يريد ، ماذا يريد أن يعرض على دونيا ؟ هل قال لك

ماذا يريد أن يعرض عليها ؟

- نعم ، قال لي •

- فما الذي يريد أن يعرضه عليها ؟

- سأذكر فيما بعد •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم صمت وعاد يشرب الشاي •

فأخرج بطرس بتروفتش ساعته ونظر فيها ، ثم قال :

- انتي مضطر الى أن أترككم حتماً ، فهناك عمل ملح مستعجل

يناديني •

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهرأ بعض الانزعاج :

- وبذلك لن أضايقكم •

فقلت دونيا :

- ابق يا بطرس بتروفتش ! ألم تكن تنوى أن تقضى السهرة معنا ؟
ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماما ؟
فقال بطرس بتروفتش : كان شديد :
- هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا .

وجلس ، لكنه ظل ممسكاً بقبعة بيده ، وتابع يقول :
- كنت أريد فعلاً أن أناقشك وأناقش أمك المحترمة في أمور
خطيرة جداً . ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أمامي شيئاً عن
عروض السيد سفيدريجايلوف ، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن
أشرح شيئاً أمام ... أشخاص آخرين في أمور هي على درجة
عظيمة جداً من خطورة الشأن ! ... ثم ان احداً لم يكثرث إطلاقاً
برجائي الملح ...

واكتسى وجهه لوجين تعبيراً عن المرارة ، وصمت في وقار ورصانة .
قلت دونيا :

- أنا وحدي السبب في أن رغبتك في أن لا يحضر أخى حديثنا لم
تُحقق . لقد كتبت تقول ان أخى أهانك ، وأنا أرى أنه يجب ايضاح
الأمور بأقصى سرعة ، وأن عليكما أن تتصالحا . اذا كان روديا قد أهانك
حقاً ، فانه يكون من « واجبه » أن يعتذر لك ، و « سوف يفعل » ذلك .
فسرعان ما استرد بطرس بتروفتش ثقته ، فقال :

- يا آفدوتيا رومانوفنا ، هناك أمور لا يمكن أن ينساها المرء مهما
يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة . ان لكل شيء حدوداً لا يمكن أن
يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها ، ومتى تجاوزها كانت العودة الى
الوراء مستحيلة استحالة كاملة .

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاذ الصبر :

- ليس هذا تماماً ما كنت أكلّمك فيه • افهم جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن على نقطة واحدة : هل يمكن ايضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا ؟ اننى أنبّهك بصراحة ، منذ البداية ، الى اننى لا أرى لنا أى مخرج آخر ، فاذا كنت تحرص على أى حرص فيجب أن تنتهى هذه القصة فى هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر • أعود فأكرر أن أخى سيعتذر لك اذا هو كان مخطئاً •

قال لوجين وقد ازداد احتياجه شيئاً بعد شيء :

- يدهشنى يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحى المسألة هذا الطرح • اننى على ما أكنه لك من اعتبار عظيم ، ومن حب كبير ان صح التعبير ، أستطيع جيداً أن لا أحب فرداً من أفراد أسرتك • واننى على تطلعى الى أن أسعد بزواجك أستطيع جيداً أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع •• قاطعته دونيا تقول مندفعة :

- مهلاً مهلاً ! دعك من فرط الحساسية هذا يا بطرس بتروفتش • ولتكن ذلك الرجل الذكى النيل الذى رأيتك فيه دائماً والذى أحب أن أراه فيك • لقد وعدتك وعداً صريحاً ، وأنا خطيبتك • فلتق بى اذن فى هذه القضية ، ولتكن على يقين من اننى أستطيع أن أقضى فى الأمر محايدة غير متحيزة • ان وقوفى موقف الحكم يدهش أخى مثلما يدهشك • وحين دعوته اليوم ، بعد تلقى رسالتك ، الى حضور لقائنا هذا حتماً ، فاننى لم أقل له شيئاً عما أنتويه • ألا فافهم اننى سأكون مضطرة الى أن أختار أحكما وأترك الثانى اذا أتما لم تتصالحا • ان المسألة مطروحة على هذا النحو ، من جهتك ومن جهته على السواء • فلا أستطيع ولا ينبغي لى أن أخدع فى أمر اختياري • أنت ترى أن على أن أقطع

صلتى بأخى ، وهو يرى أن علىَّ أن أقطع صلتى بك • فأنا أريد وأستطيع أن أعرف فى هذه اللحظة أهو أخ لى حقاً ، وأستطيع أن أعرف أيضاً أنا عزيزة عليك حقاً ، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمنى ، هل أنت زوج لى حقاً •

قال لوجين منزعجاً :

— يا آفدوتيا رومانوفنا ، ان أقوالك هذه زاخرة بالمعانى فى نظرى ، بل فى وسعى أن أقول انها جارحة جداً اذا نحن نظرنا الى الوضع الذى يشرفنى أن أحتله بالنسبة اليك • فبغضَّ النظر عن طريقتك الغريبة المثيرة هذه فى الموازنة بينى أنا وبين ... شاب مغرور ، فأننى أرى أنك تصورين امكان تراجعك عن الوعد الذى قطعته لى • فأنت تقولين « أنت أو هو » ، مبرهنةً بذلك على ضعف شأنى عندك ، وقلة قيمتى فى نظرك • ألا فاعلمى أننى لا أستطيع أن أقبل هذا ، نظراً للعلاقات التى بيننا ، و ... الالتزامات التى تربطنا •

صرخت دونيا وقد احمر وجهها من الغضب احمراراً شديداً :

— كيف تقول هذا الكلام ؟ لقد وضعتُ مصلحتك فى منزلة أثمن ما ملكت حتى الآن ، وضعتها فى منزلة كل ما كان حتى الآن حياتى « كلها » ، وهأنت ذا تشكو فجأة من ضعف شأنك عندى وقلة قيمتك فى نظرى ! ...

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاقة ، وغضب رازومихين غضباً شديداً •

ولكن بطرس بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض ، وأن يفهم ذلك الدليل ، حتى لقد كان يغدو أشدَّ شراسة وأميل الى المشاجرة

عند كل كلمة جديدة ، فكأنه يجد لذة في أن الأمور قد صارت الى هذه الحال .

قال متفخماً :

- ان حب رفيق الحياة ، ان حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الأخ . ومهما يكن من أمر ، فأنا لا أرضى أن أوضع في ميزان واحد مع ... وعلى كل حال ، ورغم أنني قد أعلنت صراحة منذ لحظة أنني لا أستطيع ولا أريد أن أعرض ، بحضور أخيك ، جميع الموضوعات التي تشغل بالي ، فأننى أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرحني كثيراً .

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا :

- ان ابنك قد أهاننى أمس بحضور السيد رازودكين (أو السيد ... هذا اسمك ، أليس كذلك ؟ معذرة ... لقد نسيت اسمك - كذلك قال لرازوميخين وهو يحييه تحية متلطفة -) ، أقول ان ابنك قد أهاننى أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرة سبق أن عبرت لك عنها في حديث حميم جرى بينى وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة ، اذ قلت اننى أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاة ذقت مباحج اليسر والرخاء والدعة ، لأن ذلك يكفل السعادة ، بل ويضمن الأخلاق أيضاً . ولكن ابنك قد تعمد أن يضخم دلالة هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة ، فاتهمنى بأبشع التهم ، ونسب الى أسوأ الأهداف والخطط ، مستنداً في ذلك الى رسالتك أنت فيما أظن . لسوف يسعدنى كثيراً يا بولشيريا ألكسندروفنا أن تقنعينى بأن الأمر لم يكن كذلك ، فيحمل الى هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة . اذكرى لى الكلمات التي

عمدت الى استعمالها لنقل أقوالى والتعبير عن آرائى فى الرسالة التى بعثت بها الى روديون رومانوفتش !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا مجمعة :

— لا أتذكر • لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسى • لا أدرى كيف أعادها لك روديا ••• لعله بالغ قليلاً •••

— ما كان ليستطيع أن يبلغ لولا ما أوحيت به اليه •

قالت بولشيريا ألكسندروفنا فى وقار :

— يا بطرس بتروفتش ، الدليل على أننا ، أنا ودونيا ، لم نؤول أقوالك تأويلاً سيئاً جداً ، هو وجودنا كلتينا « هنا » •

قالت دونيا مؤيدة محبذة :

— أحسنت يا ماما !

فقال لوجين مستاءً :

— اذن أنا المخطيء !

فبادرت بولشيريا ألكسندروفنا تضيف قولها متشجعة :

— اسمع يا بطرس بتروفتش ، انك لا تبرح تتهم روديون ، وقد كتبت أنت نفسك فى حقه أشياء غير صحيحة •

— لا أذكر أننى كتبت أى شىء غير صحيح •

قال راسكولنيكوف بلهجة لاذعة ، حتى دون أن يلتفت نحو

لوجين :

— كتبت أننى وهبت بالأمس مالا لا لأرملة الموظف الذى داسته

الحيل — وهذه هى الحقيقة — بل لابنته (التى لم أكن قد رأيتها فى الواقع

قبل الأمس يوماً) • كتبت ذلك لتوقع بينى وبين أهلى ، ولتزرع فى

قلوبنا الشقاق ؟ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدرح
فى سلوك فتاة لا تعرفها • فهذا كله ليس فيه الا نميمة وحقارة •
أخذ لوجين يرتجف من فرط الغضب ارتجافاً شديداً وقال :

- معذرة أيها السيد ، لئن أفضت فى الكلام ، فى رسالتى ، عن
أعمالك وصفاتك ، فانما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين
رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذى تحدثه فى نفسى • أما
رسالتى فاننى أتحدثك أن تجد فيها سطراً واحداً يشتمل على غير الصدق ،
أى بتعبير آخر أن تبرهن لى على أنك لم تبدد مالك ، وأن تبرهن لى على
أن تلك الأسرة ، مهما تكن فقيرة بائسة ، ليس بين أفرادها أحد ساقط •
- أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوى اصبع تلك الفتاة
المنسكينة التى ترميها بالحجر

- معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمك وأختك ؟

- فعلتُ هذا ، ان كنت تحرص على أن تعلم ذلك • أجلستها الى
جانب أمى ودونيا فى هذا اليوم نفسه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تنادى ابنها :

- روديا !

واحمرت دونيتشكا • وقطب رازوميخين حاجبيه • وابتسم لوجين
ابتسامة مسمومة فيها احتقار • وقال يخاطب دونيا :

- احكمى بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا : هل من سبيل الى تفاهم ؟
أمل أن تُحل هذه القضية الآن ، وأن توضح مرة واحدة الى الأبد •
أما أنا فاننى انسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلى
اللطيف ، وحتى تتناقلوا أسراركم بخفية •

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته • ثم واصل كلامه قائلاً :

— ولكننى أسمع لنفسى وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم الى أننى أمل أن لا أُجبر فى المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح • واليك أنت خاصة يا بولشيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً انما أتقدم بهذا الطلب ، لا سيما وأن رسالتى قد بعثت بها اليك أنت ، لا الى أى شخص آخر غيرك •

انزعجت بولشيريا ألكسندروفنا وقالت :

— أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بطرس بتروفتش ؟ لقد شرحت لك دونيا ، مع ذلك ، الأسباب التى جعلتنا لا نلبى رغبتك • لقد كانت نياتها حسنة • ثم انك حين تكتب الى انما تكتب بلهجة من يلقي أوامر • فهل يجب أن تعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ ؟ ألا ان عكس هذا هو ما ينبغى أن يكون • فأنت أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللفظ فى معاملتنا ، لأننا محضناك ثقة كاملة فتركنا كل شىء فى سبيل أن ننجى الى هنا ، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيئتك ، واقعيتين تحت سلطانتك •

— ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولشيريا ألكسندروفنا ، لاسيما وأنكم ستقبضون ، كما أبلغتم ذلك منذ قليل ، مبلغ ثلاثة آلاف روبل أورثكم اياها مارتا بتروفنا فى وصيتها • يبدو لى أن هذا المبلغ قد جاء فى أوانه ، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة فى مخاطبتى • هذا ما أضافه لوجين بصوت حائق •

فقال دونيا مهتاجة غاضبة :

— فى وسع المرء حقاً ، حين يسمع قولك هذا ، أن يفترض أنك كنت تعول على فقرنا وعوزنا •••

- علي كل حال ، لم يبق في امكاني الآن أن أعوّل على هذا الفقر
وهذا العوز ؛ وأنا خاصة لا أريد أن أعرقل اطلاقكم على العروض
السرية التي عرضها أركادي ايفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيك ،
والتي أرى أن لها عندك شأنًا كبيراً ، حتى لقد تسرك كثيراً •

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

- آه ! يا رب !

وأصبح رازومبخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه •
سأل راسكولنيكوف أخته :

- ألا تشعرين الآن بالحجل يا أختي ؟

فقالت دونيا :

- نعم ، أشعر بالحجل •

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً ،
صرخت تقول لبطرس بتروفتش :

- بطرس بتروفتش ! اذهب من هنا !

لم يكن يبدو على بطرس بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الحادثة •
لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه ، وبقوته ، وأسرف في الاعتماد على ضعف
ضحيته • وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه •

شحب وجهه ، وتشنجت شفتاه • ثم قال :

- اذا اجتزت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا ، مودّعاً بكلمات
كهذه الكلمات ، فاعلمي أنني لن أرجع قط • يجب أن تفكّري في هذا •
وليس من عادتي أن أنكل عن أقوالى •

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها بوثة واحدة :

— يا للوقاحة ! ألا تعلم أننى لا أريد أن ترجع قط ؟

— ماذا ؟ أهكذا اذن ؟

بهذا هتف لوجين الذى لا شك فى أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة ، فاذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه ، ويتابع كلامه قائلاً :

— هكذا اذن ؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن فى وسعى

أن أحتج ؟

فتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

— ما الذى يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة ؟ ثم كيف يكون فى وسعك أن تحتج ؟ أتظن أننى أَرْضَى أن أزوّج بنتى رجلاً مثلك ؟ هيّا اذهب ! اتركنا الى الأبد ! ألا انا نحن الذين أئمنّا حين تورطنا فى قضية غير شريفة ؟ وأنا الأئمة أكثر من أى شخص آخر ...

— ولكنك ، يا بولشيريا ألكسندروفنا ، قد ربطتني بالوعد الذى قطعته لى ، وتتكلمين عنه الآن . ثم ... ثم ... ثم اننى قد جُررت الى تكبد نفقات ...

ان هذا الادعاء الذى يدعيه بطرس بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذى كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التى كان يبذلها لكبح جماح نفسه ، لم يطق عندئذ صبراً ، فأنفجر يضحك ضحكة صاخبة معربة .

وخرجت بولشيريا ألكسندروفنا عن طورها ، فأخذت تصرخ

سائلة :

— نفقات ؟ أية نفقات ؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا ؟ ولكن



رازومیخین

موظف القطار قد شحنتها لك بالمجان ! ثم ما هذا الكلام الذى تقوله عن الارتباط ؟ أنحن الذين ربطناك اذن ؟ ألا فلتذكر يا بطرس بتروفتش أنك أنت الذى ربطتسا ، بل أنت الذى كبَلتسا تكيلاً ، كبَلت أيدينا وأرجلنا ...

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأُمها متوسلة :

— كفى يا أُمى كفى ! أرجوك !

والتفتت الى بطرس بتروفتش فقالت له :

— هلاً ذهب ، من فضلك ، يا بطرس بتروفتش !

فقال بطرس بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه :

— أنا ذاهب ، غير أن هناك كلمة أخيرة أحب أن أقولها : يبدو أن أمك نسيت نسياناً تاماً أننى قررت أن أأخذك زوجة لى حين كانت سمعتك مضغوطة فى جميع الأقواء . وأحسب أننى اذ خالفت رأى الناس ورددت اليك حسن السمعة كان فى وسعنى أن انتظر تعويضاً فى أقل تقدير ، بل وأن أطلب بمكافأة . آه ... لقد كانت عيناى مغمضتين حتى هذه اللحظة ! اننى لأدرك الآن أننى قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أقم أى وزن للشائعات التى كانت تلوّكها الألسن عنك ...

صرخ رازوميشين يقول وهو يشب عن كرسية ويستعد للعراك :

— انه يريد أن أهشم له رأسه !

وقالت دونيا :

— أنت رجل دنىء سافل !

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميشين :

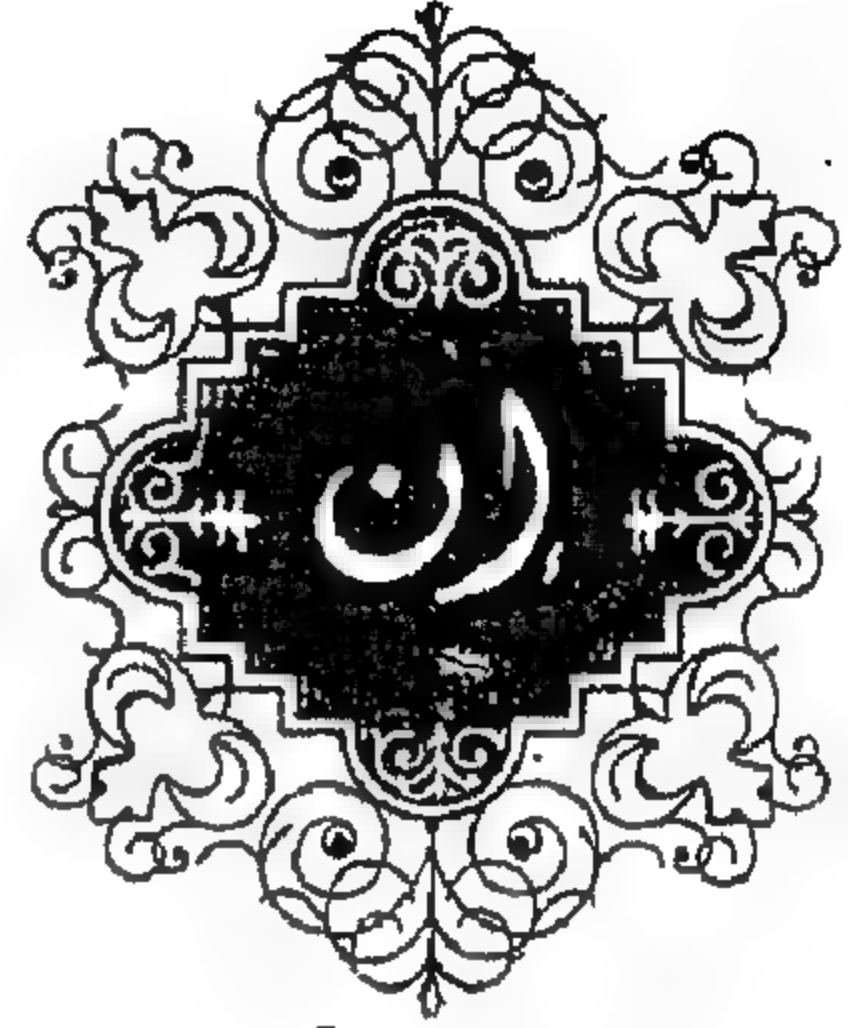
— لا كلمة ، ولا حركة !

ثم اقترب من لوجين ، وقال له تحت أنفه بصوت أجش لكنه واضح :

- هيا اخرج • اياك أن تقول كلمة واحدة ، والا •••
فتأمله بطرس بتروفتش بضع لحظات شاحب الوجه متقبض القسما
من الكره ، ثم استدار وخرج •

قلما حمل قلب انسان من الحق على انسان مثلما حمل قلب هذا
الرجل من الحق على راسكولنيكوف • لقد عدّه مسئولاً عن كل شيء •
ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن ، أثناء هبوطه السلم ، كان
يتخيل أنه لم يخسر القضية ، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال
يمكن تدبيرها •

الفصل الثالث



النقطة الأساسية هي أن بطرس بتروفشس كان حتى آخر دقيقة لا يصدق أن الأمور ستنتهي هذه النهاية • لقد تفاخر وتعاضم وتبجح إلى أبعد حدود التفاخر والتعاضم والتبجح، وكان لا يتصور حتى إمكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه • إن غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبريائه ، إن هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه • هو رجل بدأ من الصفر ، وتعود أن يعجب بنفسه إعجاباً شديداً ، وأن يقدر ذكائه وكفاءاته قدراً عظيماً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان ، حين يخلو إلى نفسه ، يتأمل وجهه في المرأة مدة طويلة ، فرحاً كل الفرحة • على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى ، وينزله في المقام الأول من الاحترام ، إنما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً • ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند والند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة ؟

وحين ذكر دونيا ، بهرارة ، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقها ، فأنما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل • على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف جميع تلك الشائعات ، التي حرصت مارتا بتروفنا نفسها على أن تدحضها ، والتي

أصبحت لا تتأقلمها الألسن في المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة ، بعد أن أعاد الناس الى دونيا اعتبارها ، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً . وما كان له على حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة . ومع ذلك كان يحس أنه قد منَّ على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها الى مستواه ، حتى لقد كان يعدُّ هذا عملاً بطولياً من جانبه . وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه انسان محسن ، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخير ، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح . لذلك كان بطرس بتروفتش ، أثناء هبوطه السلم ، يشعر بأنه انسان لم يفهم حق فهمه ، ولم يقدر حق قدره ، وأنه أهين اهانة بالغة .

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته . حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور امكان العدول عنها . لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة ، منذ بضع سنين ، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشى سكرأ ، ويعدُّ له العدة ويجمع من أجله المال . كان يتخيل ، في قرارة قلبه ، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة) ، فتاة في ريعان الصبا وغضارة الشباب ، على جانب عظيم من الحسن والجمال ، تنتمي الى أسرة كريمة ، وتنعم بتربية حسنة ، ولكنها مروَّعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمت بها ، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً ، وأن تدعن لمشيئته اذعاناً تاماً ، وأن تظل ترى فيه ، طوال حياتها ، الرجل الذي أحسن اليها وأنعم عليها ، فتقدسه تقديساً ، وتمحضه نفسه مخلصاً ، ولا تنتمي الى أحد سواه . ما أكثر المشاهد الجميلة والصور اللذيذة التي تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغرى الممتع ، في اللحظات التي كانت تهدأ فيها نفسه قليلاً حين يخلد الى الراحة من أعماله ! وها قد أوشك هذا الحلم الذي هدهد خياله طوال تلك السنين ، ها قد أوشك أن يتحقق : ان جمال آفدوتيا رومانوفنا

وحسن تربيتها قد اذهلاه ، وان وضعها السيء وحالتها اليائسة يحضنانها عليها ويشدانها اليها كثيراً ؛ بل ان فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله : ان الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشمم ، والنشاط والقوة ، والعفة والفضيلة ، وهى أوسع منه ثقافة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا) ، وان انسانة كهذه الانسانة هى التى ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان ، وهى التى ستمحى أمامه من فرط احترامها له وتقديسها اياه ، فليس عليه الا أن يأمر حتى تطيع !! وقد شاءت المصادفات بما يشبه العمد والقصد ، أن يقرر صاحبنا ، قيل لقيها بقليل ، وبعد تأجيلات كثيرة ، أن يغير ميدان عمله وأن يقتحم مجالاً أوسع ، وأن يشق لنفسه طريقاً فى ذلك المجتمع الراقى الذى طالما شدته اليه أحلامه . كان صاحبنا قد قرر أن يجرب حظّه فى بترسبرج . وهو يعلم حق العلم أن للنساء دوراً عظيماً فى هذا المجال ، وأن فيهن نفعاً كبيراً . ان الفتنة التى تشع من امرأة أخاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجمّل حياته ، وأن تجتذب اليه مودة الناس ، وأن تحيطه بهالة من المهابة والسحر

ولكن ها هو ذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة ! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة نزول الصاعقة . هذه مهزلة فظيعة ، هذا سحق رهيب ! انه لم يزد على أن « تبجح » قليلاً ، ان وقته لم يتسع لأن يقول كل ما فى نفسه ؛ لقد كان يمزح ، لقد اندفع بعض الاندفاع هذا كل شيء فكيف ينتهى الأمر هذه النهاية الخطيرة ؟! انه يجب دونيا على كل حال ، يجب بطريقته الخاصة لا ، لا ، يجب اصلاح كل شيء غداً ، غداً لا بد من معالجة الأمور ، لا بد من مداواة الأمور ، ولا بد خاصة من احباط أعمال ذلك الغر الوقح الذى كان سبب البلاء كله .

وتذكر رازوميخين وهو يشعر بالضيق والانتزعاج أيضاً ، لكنه

لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية • قال يحدث نفسه
ساخراً : « لا ينقصنى الا هذا ... لا ينقصنى الا أن أوازن بينى وبينه ،
أن أضع نفسى فى مستواه ! » •

ان الشخص الذى كان لوجين يخشاه حقاً انما هو سفيدريجاييلوف
الخلاصة : ان هموماً كثيرة كانت تنتظره •

• • • • •

• • • • •

قالت دونيا وهى تعانق أملها وتقبلها :

— لا بل أنا المذنبه ، أنا المذنبه ! لقد استسلمت لاغراء ماله ؟ ولكننى
أقسم لك يا أخى أنتى لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً الى هذا الحد من
الدناءة • ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لاغراء أى شىء
فى هذا العالم ! لا تتهمنى يا أخى !

فتمتت بولشيريا ألكسندروفنا تقول دون شعور ، كأنها لما تدرك
ما جرى بعد :

— الله خلّصنا منه ! الله خلّصنا منه !

وكانوا جميعاً مبتهجين مغتبطين ، حتى لقد انطلقوا بعد خمس
دقائق يضحكون • غير أن دونيا كان يشحب لونها من حين الى حين ،
وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عاتته فى هذه الآونة الأخيرة • ما كان
لبولشيريا ألكسندروفنا أن تعتقد فى يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسرَّ
لحادث كهذا الحادث • كانت فى ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن
القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة ! أما رازوميشين فكان يشعر
بسعادة قصوى • انه لا يجرؤ بعد أن يظهر فرحته اظهارةً كاملاً ، ولكنه

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه كمن اتبأبته حمى • لكان قلبه قد تخلص من عبء ضخمة وحمل ثقيل • سيكون فى وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته ، وأن يضع نفسه فى خدمتهما • وما أكثر ما يستطيع أن يفعله منذ الآن ! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنه مشاريع المستقبل خائفاً من خياله •

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً فى مكانه متجههم الوجه تقريباً ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شارد الفكر • انه وهو الذى ألح أكثر منهم جميعاً على أن يطرد لوجين ، يبدو الآن أقلهم اهتماماً بما جرى • وقد رت دونيا ، رغم ارادتها ، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها ، وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجللة •

سأله دونيا وهى تقترب منه :

— ماذا قال لك سفيدريجايلوف ؟

وصاحت بولشيريا ألكسندروفنا :

— آ ••• نعم ••• نعم ••• ماذا •••

فرفع راسكولنيكوف رأسه ، وقال :

— انه يصرك على أن يهدى اليك عشرة آلاف روبل ، وقد أعرب عن رغبته فى أن يراك مرة أخرى بحضورى •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

— أن يراها ؟ مستحيل ••• لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال • وكيف يجرو أن يقدم اليها مالا ؟

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفيدريجايلوف من حديث ، مغفلاً ذكر ماقصه عليه سفيدريجايلوف

من أن مارتا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها ، وذلك حتى لا يتعد عن الموضوع ، ولا شتمزازه من قول أية كلمة زائدة •
سأله دونيا :
— بماذا أجبت ؟

— قلت له أولاً اننى لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه • فأعلن لى عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل الى أن يحصل منك على موعد • وقد أكد لى أن العاطفة الجامحة التي كان يشعر بها نحوك لم تكن الا هوى طارئاً ، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأية عاطفة • كل ما يريد هو أن لا تتزوجى لوجين • على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة مبهمة •

— ما رأيك فى هذا الرجل يا روديا ؟ ما هو الانطباع الذى أحدثه فى نفسك ؟

— أعترف بأننى لم أفهم حق الفهم • انه يقدم عشرة آلاف روبل ، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً • يصرّح بأنه سيسافر الى مكان لا أدري أين هو ، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسي ما قاله • وفجأة يذكر أيضاً أنه سيتزوج ، وأنهم قد وجدوا له خطيبة ••• أغلب الظن أنه يخفى خطأ معينة قد تكون سوداء • ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيت لك نيات سيئة ، والا لما عمد الى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماسة • ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال عرضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال • مهما يكن من أمر ، فقد بدا لى انساناً غريب الأطوار ••• حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون • ولكن ربما أكون مخطئاً على أن موت مارتا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلف فى نفسه أثراً كبيراً •

- رحمة الله عليها ! لسوف أظل أصلى لها دائماً ، دائماً • ما الذى كان يمكن أن نصير اليه ، أنا ودونيا ، لولا هذه الثلاثة آلاف روبل ؟ رباه ! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء ! آه يا روديا ! فى هذا الصباح كان كل ما بقى لنا من مال هو ثلاثة روبلات ، ولم يكن قد بقى علينا الا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة ، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه •

بدا على دونيا أن عرض سفيدريجايلوف قد أدهشها وأذهلها •
فبقيت واقفة ، ساكنة مفكرة •

قالت فى دمدمة وهى ترتعش :

- ان فى ذهنه أمراً رهيباً !

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد • فقال لدونيا :

- أظن أنه سيتاح لى أن ألقاه أكثر من مرة •
وهتف رازوميشين قائلاً بلمهجة قوية :

- لا تخافوا ، سوف نراقبه مراقبة دقيقة • لن يغيب عن بصرى •
لقد اذن لى روديا بذلك • قال لى هو نفسه منذ قليل : « عليك أن تحمى دونيا » • هل تأذنين لى بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ابتسمت دونيا ، ومدت اليه يدها ، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق • وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تنظر اليها وجلة مرتاعة •
غير أن الأمل فى الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدا روعها وطمأن نفسها •

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا فى محادثة حامية • وحتى راسكولنيكوف ، الذى لزم الصمت ، كان يصغى بانتباه • كان رازوميشين يتكلم فى اسهاب وحرارة كأنه يلقي خطاباً :

— لماذا ، لماذا تسافران ؟ ما عساكما تعملان فى مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك ؟ أأنتم هنا قد اجتمع شملكم ، وكل واحد منكم محتاج الى الآخر ، محتاج اليه اشد الاحتياج • ابقيا بعض الوقت على الأقل • أما أنا فاقبلونى صديقاً ، اقبلونى شريكاً • وانى لأؤكد لكم أننا سننشئ مشروعاً ممتازاً • اسمعوا : سأعرض عليكم مشروعى بأدق تفاصيله • لقد وافقتى هذه الفكرة منذ الصباح ، قبل أن يحدث شئ مما حدث الآن ••• اليكم الموضوع : ان لى عمأ (سأعرفكم به ، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً) ••• وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل ، ويعيش من راتب تقاعدى يفي بحاجاته • وهو ما برح منذ سنتين يلح على أن أقترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة فى المائة • اننى أدرك حيلته : فكل ما يريد هو أن يساعدنى • فى العام الماضى لم أكن محتاجاً الى هذا المبلغ ، أما فى السنة الحالية فأننى لا أنتظر الا وصول عمى لأطلبه منه • فاذا أضفتم ألف روبل من عندكم الى هذه الألف روبل كان معنا ما يكفينا لبدء المشروع ، فنكون شركاء • فما هو ذلك المشروع ؟ •

هنا طفق رازومىخين يشرح مشروعه ، فأفاض فى الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم ، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً ، وأكد أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة ، وأنها ربما درت أرباحاً طائلة • كان رازومىخين يحلم أن يصبح ناشراً ، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه « ضعيف » * فى الألمانية ، والحق أنه لم يزعم له ذلك الا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدد ترجمته ، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفة : لقد كذب ، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف) •

وتابع رازومىخين كلامه قائلاً بحرارة وحماسة :

- فلماذا ، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع أننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح ، أغنى رأس المال ؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً ، ولكننا سوف نعمل ، نعملين أنت يا آفدوتيا رومانوفنا ويعمل روديون. وأعمل أنا . ان نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة ، وان ما سيعيننا وما سيكون مصدر قوتنا ، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التي يجب أن تُترجم . سوف تترجم ، ونشر ، وتتابع في الوقت نفسه دراستنا . اننى أستطيع أن أكون الآن نافعاً ، لأننى حصلت خبرة واسعة . لقد سلخت سنتين كاملتين في العمل مع الناشرين ، فأصبحت أعرف شئون النشر معرفة تامة . صدقونى اذا قلت لكم ان الأمر أيسر مما تظنون . فلماذا ، لماذا لا ننتهز الفرصة التي تعرض لنا ؟ اننى أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدث عنها أحداً قط ، ويكفى أن أعرض فكرة نشرها حتى أجنى من ذلك مائة روبل عن كل كتاب ؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته بخمسمائة روبل ! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشررون الحمقى أىَّ تردد اذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب ! أما الجانب المادى من المشروع ، أغنى الطباعة والورق والبيع وما الى ذلك ، فانكم تستطيعون أن تعتمدوا علىَّ فيه كل الاعتماد . اننى أعرف هذه الأمور معرفة عميقة . وسوف نبدأ بداية متواضعة ، ولكننا سنوسّع المشروع في المستقبل . ومهما يكن من أمر فسوف نجنى ما يسدُّ حاجتنا ويفى بنفقاتنا .

كانت عينا دونيا تسطعان . قالت :

- ان ما تقوله يعجبني كثيراً يا دمترى بروكوفتش !

وتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا فقالت :

- أنا لا أفهم في هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال . قد يكون هذا كله حسناً جداً ، الله أعلم ولكن . . . من جهة أخرى . . . طبعاً . . .

حين يشرع المرء فى شىء ما ، فانه يسير قليلاً فى المجهول !... على كل حال سيكون علينا حتماً ، اذا نحن قررنا المضيّ فى هذا المشروع ، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت .

ونظرت الى راسكولنيكوف .

سألته دونيا :

— ما رأيك أنت يا أخى ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

— رأى أن فكرته ممتازة . ولكن لا ينبغي لنا ، بعد ، أن نفكر فى انشاء دار نشر كبيرة . يجب علينا أن نكتفى بأن ننشر فى البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح . أنا نفسى أعرف كتاباً سيباع حتماً . أما عن كفاءة رازوميشين ، فيجب أن تكونوا مطمئنين . لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح . على كل حال ، سيتسع وقتنا للكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى ...

صاح رازوميشين يقول :

— مرحى ! والآن اسمعوا : توجد هنا ، فى هذا المنزل نفسه ، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذين أجروكم هذه الغرفة . انها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف . هى مفروشة . وليس أجرها باهظاً . فيها ثلاث حجرات . خذوها مؤقتاً . سامضى أرهن ساعتك غداً ، فأجيئكم بالمال ، ثم يدبر كل شىء . الأمر الأساسى هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا ، ومعكما روديا ... ولكن الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

سألت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعة :

— كيف يا روديا ؟ أنت ذاهب ؟

وصاح رازومبخين يسأله مستكراً :

- أفي مثل هذه اللحظة تذهب ؟

وكانت دونيا تنظر الى أخيها بدهشة تمازجها رغبة • كان راسكولنيكوف ممسكاً قبضته يتيها للخروج • وقال بلهجة غريبة :

- لكأنكم حقاً ستدعوني ، أو لكأنكم تودعونني الى الأبد على الأقل •

وكان يتشم ، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء • وأضاف يقول :

- ومن يدري على كل حال ؟ لعلنا نلتقي الآن آخر لقاء فعلاً !

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه ، فإذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير ارادة منه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- ماذا أصابك يا روديا ؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة :

- الى أين. أنت ذاهب يا روديا ؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق بما يريد أن يقوله :

- نعم ، لا بد أن أذهب •••

غير أن قراراً وحشياً صارياً كان يُقرأ في وجهه الشاحب • وتابع كلامه :

- أقصد ••• حين جئت الى هنا ••• كنت أريد أن أقول لك

يا أماء ، ولك أنت أيضاً يا دونيا ، ان من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت • أنا أحس بأنني مريض ، أنا لست هادئ البال ، سأرجع في

المستقبل ، حين ... حين يصبح ذلك فى الامكان • لن أنساكم ، وسأظل
أحبكم ... دعونى ، دعونى وحيداً ! ذلك ما كنت قد قررته • وقد
قررته واعياً كل الوعى ، مدركاً كل الادراك ! ... أريد أن أكون
وحيداً مهما يحدث لى ، سواء أهلك أم لم أهلك ! انسونى نسياناً
تاماً ، ذلكم أفضل ... لا تسألوا عنى ، لا تستطلعوا أخبارى • سوف
أجىء من تلقاء نفسى متى وجب أن أجىء ... أو سوف أدعوكم الى •
ولعل كل شىء سيُسبب بعثاً جديداً حينذاك • أما الآن فاعدلوا عن رؤيتى
وتنازلوا عن لقائى اذا كنتم تحبوننى ، والا شعرت بخوكم بكرة وبغض •
اننى أحس بهذا ... وداعاً !

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

— رباه ! يا رب !

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياحاً لا سبيل الى مغالبتة • وكذلك
كان رازوميخين •

قالت الأم المسكينة تتوسل الى ابنها :

— روديا ، روديا ! فلتتصالح يا روديا ! فلنعد كما كنا !

استدار راسكولنيكوف ببطء ، واتجه نحو الباب ، فأدركته دونيا ،
وهمست تقول له مشتعلة العينين استياءً واستنكاراً :

— أخى ، ماذا تفعل بأمننا !

فألقي عليها نظرة ثقيلة • وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعى
ما أراد أن يقول وعياً تاماً :

— ما هذا بشىء ، سأرجع ، سأرجع ...

• وخرج

هتفت دونيا تقول :

- انسان خالٍ من الاحساس ! أنا ننى فطيع !
 - بل هو مجنون ، لا خالٍ من الاحساس ! لقد فقد عقله ،
 كيف لا ترين هذا ؟ أنت الخالية من الاحساس ...
 كذلك دمدم رازوميخين هامساً فى أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو
 يضغط يدها ضغطاً عنيفاً • ثم هتف يقول لبولشيريا ألكسندروفنا التى
 أصبحت أقرب الى الموت منها الى الحياة •

- سأرجع حالاً !
 وأسرع يخرج من الغرفة •
 كان راسكولنيكوف ينتظره فى آخر الدهليز • وقال له :
 - كنت أعرف أنك ستهرع الى تلحق بى • عد اليهما ، وابق
 معهما • وكن عندهما غداً ••• وكن عندهما دائماً ••• قد أرجع اذا
 استطعت ••• وداعاً !

وابتعد دون أن يمد اليه يده مصافحاً •
 غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك ، حائراً أبلغ الحيرة :
 - ولكن الى أين تذهب ! ماذا بك ؟ ما الذى أصابك ؟

فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى •
 - أقول لك مرة أخيرة الى الأبد : لا تسألنى عن شىء ، فليس
 عندى ما أجيبك به ••• ولا تأت الى ! قد أرجع أنا الى هنا ••• دعنى •••
 أما هما فلا تتركهما ••• هل تفهم ؟

كان الظلام يسود الدهليز • وكان الشابان قريبين من مضباح •
 لبثا قرابة دقيقة ينظر كل منهما فى صاحبه صامتاً • سوف يتذكر
 راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته • ان النظرة الحارة الثابتة التى
 تصدر عن عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفاً وقوة فى كل

لحظة ، وكانت تنفذ الى أعماق نفس رازوميكين ، وتغوص فى قرارة وجدانه • ارتعش رازوميكين فجأة • كأن شيئاً غريباً قد مرّ بينهما ••• .
 هى فكرة تسلل خفية ، تفسد خلصة ، ولكنها فظيعة ، رهيبه ، جهنمية ،
 سرعان ما فهمها هذا وذاك !••• اصفرّ وجه رازوميكين اصفرار الموت !
 قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً :
 - هل فهمت الآن ؟

ثم أضاف :

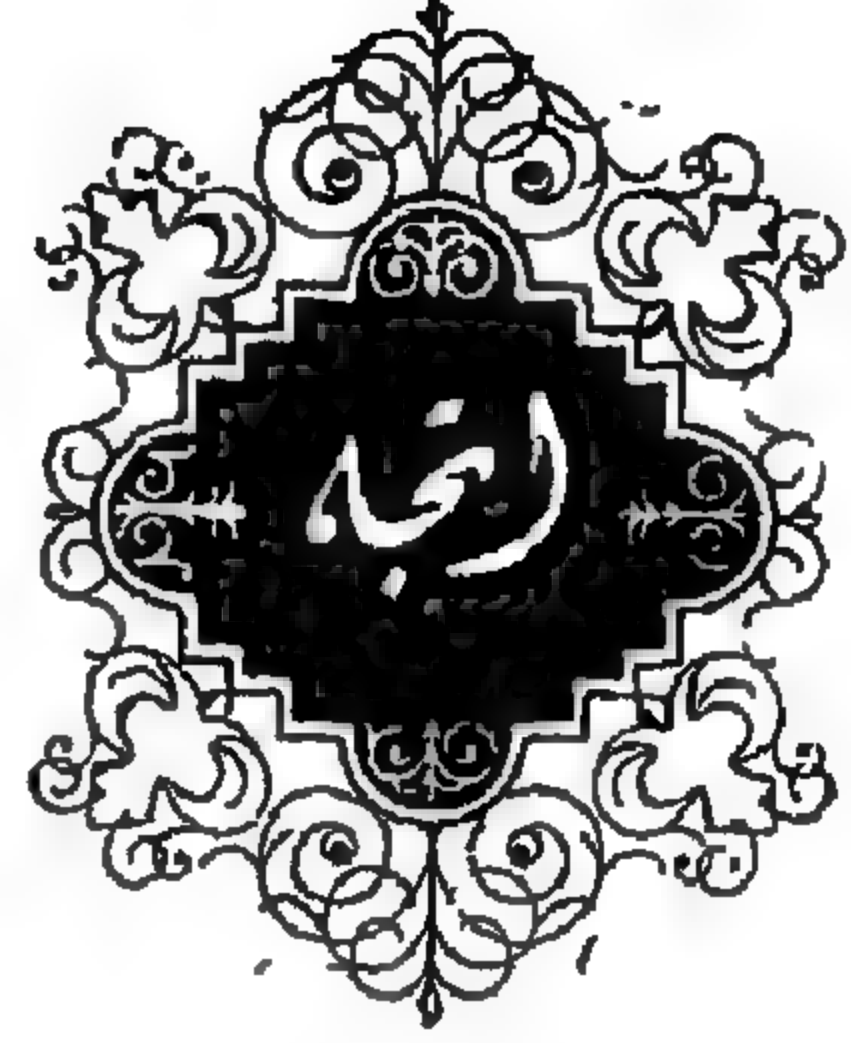
- ارجع الى هناك • عد اليهما •

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة ، ومضى •••

لن أصف ما جرى فى ذلك المساء عند بولشيريا ألكسندروفنا • لن
 أصف كيف رجع رازوميكين الى المرأتين ، كيف هدأ روعهما ، كيف
 أكد لهما أن من الواجب أن يُترك روديا للراحة بعد المرض ، وكيف
 حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة ، وأنه سيأتى يزورهما ، بل وأنه
 سيجيء اليهما كل يوم ، وإنما يجب أن لا يُزعج الآن لأنه فى حالة
 عصية شديدة ، وأنه ، هو رازوميكين ، سيمضى اليه ، ليسهر عليه ،
 ويعتنى به ، ويجيئه بطبيب حاذق ، بأحسن طبيب فى المدينة ، بل بعدد من
 الأطباء يفحصونه فى آن واحد •

الخلاصة أن رازوميكين قد أصبح للمرأتين ، منذ ذلك المساء ،
 ابناً وأخاً •

الفصل الرابع



راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذى تسكن فيه
صونيا قرب القناة • هو منزل من طابقين ، هو
مبنى قديم مطلى بلون أخضر •

استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه
على معلومات موجزة مقتضبة أتاحت له مع ذلك أن يصل الى مسكن الحياط
كابرنائوف • لمح فى ركن من الفناء مدخل سلّم ضيق مظلم ، فصعد
أخيراً الى الطابق الأول ، ودخل الرواق الذى يدور حوله • وفيما هو
يطوّف فى الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرنائوف ، فتّح على
حين فجأة بابٌ يقع على مسافة ثلاث خطوات منه ، فتشبّث بهذا الباب
على غير ارادة منه •
- من هنا ؟

كذلك يسأل صوت امرأة مضطرب •
فأجاب راسكولنيكوف :

- هذا ... هذا أنا ... جئت لأراك !

واجتاز الباب الى حجرة المدخل الصغيرة • كان فى الحجرة كرسي
خاسف وضعت عليه شمعة صغيرة فى طبق متعقف من نحاس •
هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف :
- أهذا أنت ؟ رباه !

ووقفت فى مكانها كالتسمرة •

— من أين الدخول الى غرفتك ؟ من هنا ؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال ، ثم مضى ينتقل الى الغرفة محاولاً أن لا ينظر الى صونيا •

ونبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة ، فوضعتها فى مكانها ، ووقفت أمامه بالغة من شدة القلق والرعب لهذه الزيارة التى لم تكن متوقعة أن الاضطراب الذى اجتاحت نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه • واحمر وجهها الشاحب فجأة ، حتى لقد صعدت الى عينيها دموع • كانت تشعر بخجل وخزى وسعادة فى آن واحد •••

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة ، وجلس على كرسى موضوع قرب المائدة • لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفحص الغرفة كلها •

هى غرفة واسعة سعة كافية ، لكن سقفاً واطياً جداً • انها الغرفة الوحيدة التى أجبرها كابرنائوف • وهى تتصل بمسكنه بباب فى الجدار الأيسر • وعلى الجهة اليمنى ، يوجد فى الجدار باب آخر ، يظل مقفلاً بالفتاح دائماً ، ويفضى الى شقة أخرى • ان الغرفة تشبه أن تكون سقيفة ، لها شكل مضلع رباعى غير منتظم ، فمنظرها لهذا السبب يؤذى البصر • ان حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة ، يقطعها قطعاً موارباً ، فأحدى الزوايا ، وهى زاوية حادة جداً ، تغور فى آخر الغرفة ، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً فى ضوء الشمعة الضئيل الضعيف • أما الزاوية الأخرى فهى منفرجة انفراجاً كبيراً • ولا يكاد يوجد فى الغرفة أثاث • هناك سرير فى الركن الأيمن ، وهناك الى جانب السرير كرسى "أقرب الى الباب • وعلى طول الحائط نفسه ، قبالة الباب المؤدى الى الشقة الثانية ، توجد مائدة من خشب أبيض ، يغطيها غطاء أزرق ، وبقربها كرسيان من قش • وفى حذاء الحائط المقابل ، على مقربة من

الزاوية الحادة ، تقبع منضدة صغيرة غير مدهونة ، وكأنها تائهة في الفضاء .
 ذلك كل ما تضمه الغرفة • أما ورق الجدران فأصفر مهترى ، مدخن
 مسود في الأركان • لا بد أن الغرفة تكون شديدة الرطوبة في الشتاء •
 ان الفقر يخطف البصر ، حتى ان السرير لم يكن له ستارة •

كانت صونيا تنظر صامتة الى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة
 بانتباه يبلغ من الشدة ويهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر
 الأمر ، كأنها واقفة أمام قاض سيوقف عليه مصيرها كله •

قال لها دون أن يرفع عينيه :

- انتى أصل فى ساعة متأخرة جداً ••• أليست هى الحادية عشرة ؟
 قدممت صونيا تقول :

- نعم •

ثم أسرع تضيف ، كأن ذلك خروج لها من المأزق :

- نعم نعم ، هى الحادية عشرة ••• منذ قليل دقت ساعة أصحاب
 البيت • هى الحادية عشرة فعلاً •••

قال راسكولنيكوف متجهماً الوجه :

- أجيء اليك الآن آخر مرة • وقد لا أراك بعد اليوم قط •

قال لها ذلك مع أن هذه هى المرة الأولى التى يزورها فيها •
 سألته :

- أأنت مسافر ؟

- لا أدري ••• سيتقرر كل شىء غداً •

- اذن لن تذهب غداً الى عند كاترين ايفانوفنا ؟

وكان صوت صونيا يختلج •

— لا أدري ... كل شيء رهن بالغد ... بصباح الغد • ثم ان
المسألة ليست هذه : لقد جئت لأقول لك ان ...

ورفع اليها نظرة حاملة ، فأدرك فجأة أنه جالس ، على حين أنها
ما تزال واقفة أمامه •

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة ، فأصبح فيه رقة وعذوبة
ومودة :

— لماذا تبقين واقفة ؟

فجلست • وظل يتأملها قرابة دقيقة ، ظل يتأملها بمحبة ، بعاطفة ،
بما يشبه أن يكون شفقة • ثم قال لها :

— ما أشد نحولك ! ما هذه اليد ؟ انها لتكاد تكون من هزالها
شفافة ! أصابعك أصابع ميت ...
فأجابته قائلة :

— هكذا كنت دائماً •

— حتى حين كنت تقيمين مع أهلك ؟

— نعم •

— نعم نعم ... هذا طبعى ...

كذلك قال بلهجة متقطعة • ان تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبدلا
من جديد فجأة • ونظر مرة أخرى حوالبه •

— أمن أسرة كابرناؤموف استأجرت هذا ؟

— نعم •

— هل يقطنون وراء هذا الباب ؟

— نعم ... لهم غرفة كهذه •

- هل يعيشون جميعاً في غرفة واحدة ؟
- نعم ، يعيشون جميعاً في غرفة واحدة •
- قال راسكولنيكوف متجهماً الهیئة :
- لو كنت أعیش فی مثل هذه الغرفة لشعرت فی الليل بخوف •
- فأجابت صونيا ، وكأنها لم تثنى الى رشدها بعد ، ولا جمعت شتات أفكارها :
- أصحاب البيت لطاف جداً • وجميع الأثاث ، جميع الأثاث لهم • انهم طيبون جداً ، وكثيراً ما يأتي أولادهم الى عندي •
- هم ثناءون ، أليس كذلك ؟
- نعم ... هو يثنى ويخرج • وامراته أيضاً • بل قل انها لا يثنى ، ولكن كأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها • انها طيبة جداً • كان هو قناً • ولهما أولاد • الكبير وحده يثنى • أما الآخرون فهم عليلون فحسب ... لكنهم لا يثأنون •
- ثم أضافت تسأله مدهوشة بعض الدهشة :
- كيف عرفت أنت هذا ؟
- أبوك قص عليّ كل شيء • قال لي كل شيء عنك ... وحكى لي أيضاً كيف خرجت في الساعة السادسة من الصباح لتعودي بعد الساعة الثامنة ، وكيف ركعت كاترين ايفانوفنا أمام سريرك •
- اضطربت صونيا • ثم دمدمت تقول مترددة :
- رأيت اليوم رؤية واضحة مميزة •
- مَنْ ؟
- أبى • كنت سائرة في الشارع ، غير بعيد عن هنا ، عند الناصية ،

فى نحو الساعة العاشرة ، فترأى لى أنه يسير أمامى • لكأنه هو حقاً •
حتى لقد خطر ببالى أن أسرع الى كاترين ايفانوفنا •••
— كنت تتجولين ؟

فقلت صونيا بصوت متقطع ، وقد اضطربت من جديد ، وخفضت
عينها :

— نعم •

— هل كانت كاترين ايفانوفنا تسيء معاملتك حتى لتكاد تضربك
حين كنت تعيشين معهم ؟
صاحت صونيا تقول وهى تنظر الى راسكولنيكوف نظرة فيها ما يشبه
الذعر :

— لا ، لا ، ما هذا الذى تقوله ؟

— أأنت تحيينها اذن ؟

— هى ؟ أظن •••

كذلك قالت صونيا بلمهجة شاكية ، وصوت بطيء ، ضامة يديها
بحركة تتم على الألم • وواصلت كلامها تقول :

— ليتك ••• ليتك تعرفها ! انها كالطفلة تماماً • عقلها مضطرب
اضطراباً تاماً ••• لقد قاست فى حياتها آلاماً كثيرة ••• ومع ذلك ،
ما أذكاهما ! ما أكرمها ! انها طيبة جداً ! أنت لا تعرف ، أنت لا تستطيع
أن تعرف ! آه ! •••

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد • كان الألم يهصر قلبها ،
فكانت تلوى يديها من فرط الكمد ، واحمرَّ خداهما من جديد ، حتى
صارا بلون الأرجوان • كان العذاب يُقرأ فى عينيها • واضح أن وترأ
حساساً جداً قد مُسَّ الآن فى نفسها ، وأنها ترغب رغبة قوية فى أن

تعبّر عن شيء ، فى أن تتكلم ، فى أن تدافع عن كاترين ايفانوفنا • ان نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفىء أوارها يرسم الآن على قسّمات وجهها •
وتابعت كلامها تقول :

- تضربنى ؟ هى تضربنى ؟ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ وهبها ضربتني ! أى خير فى ذلك ؟ انك لا تعرف شيئاً ، لا تعرف شيئاً البتة ! هذه افسانه تعيسة شقية بائسة ... وهى مريضة ... انها تنشد العدالة ... انها تسعى الى العدالة ... هى طاهرة نقيه • انها من شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد فى كل شيء ، تطلب العدالة فى كل شيء • قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هى لا تقترف أى ظلم يجافى العدالة • انها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر ، وهى لذلك تغضب كما يغضب طفل ، كما يغضب طفل ! انها امرأة عادلة ، عادلة ...

- وما الذى ستصيرين اليه ؟

كذلك سألها راسكولنيكوف ، فألقت عليه نظرة مستفهمة • قال لها :

- سيقون على ذراعيك • صحيح أنك كنت قبل الآن تحملين كل شيء على ذراعيك ، وأن أباك كان يجيء اليك أنت ليطلب مالا • يذهب به سكره • ولكن ما الذى سيحدث الآن ؟

قالت صونيا بحزن :

- لا أدري •

- هل يقون هناك ؟

- لا أدري • ان أجر المسكن لم يدفع ، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم ؟ فأعلنت كاترين ايفانوفنا أنها لن تمكث دقيقة واحدة •

— لماذا تتعاضم هذا التعاضم ؟ أعليك تعتمد ؟

— لا تتكلم هكذا ، لا ...

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد ، أو قل اهتمت من جديد ، كما يفعل طائر من طيور الكناري أو غيرها من الطيور :

— نحن نشترك فى كل شيء ، أنا وهى ...

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة :

— ماذا تريد لها أن تكون ؟ آه ... ما أكثر ما ذرفت من دموع ،

ما أكثر ما ذرفت من دموع فى هذا اليوم ! ان عقلها مضطرب ، ألم تلاحظ أنت هذا اذن ؟ نعم ، عقلها مضطرب ، عقلها مختل : تارة تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شيء على ما يرام غداً ، من أجل أن يكون على المائدة مقبلات ... ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغى أن تضمه من أطعمة ؛ وتارة تلوى يديها كمداً وحسرة ، وتبصق دماً ، وتذرف دموعاً ، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس . ثم ما تلبث أن تتعزى من جديد ، واضعةً أملها فيك ، قائلة أنك الآن سندها ، وانها ستقترض مالاً من أحد الناس ، لتعود بى الى مسقط رأسنا ، فننشئ هناك مدرسة لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مفتشة فيها ، ونبدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة . وهى فى هذه الحالة تأخذ تقبلنى وتضمنى الى صدرها وتواسينى وتعزينى . آه ما أقوى ايمانها باحلامها هذه ، ما أقوى ايمانها بهذه الأحلام ! هل يمكننا أن نعارضها ؟ مستحيل ! ... اليوم قضت النهار كله فى مسح الأرض وغسل الملابس وترقيع الثياب . ورغم ضعفها الشديد صعدت الى غرفتها بطشت ، فما ان وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطعت ، وحتى خارت قواها فلم تملك الا أن تنهوى على سزيرها مهدودة . وفى هذا الصباح ذهبنا كلتانا الى السوق من أجل أن نشترى أحذية لبوليتشكا ولينا ، لأن أحذيتهما قد تمزقتا تماماً ،

ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال ، رغم جميع حساباتنا ، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة ، فهي صاحبة ذوق كما تعلم ، فما كان منها الا أن أجهشت تبكى ، هنالك ، فى وسط الدكان ، أمام الباعة • لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً • حقاً كان منظرها يثير أعماق الألم •••

قال راسكولنيكوف وهو يتسهم ابتسامة مرة :

- يفهم المرء بعد هذا أن تعيش هذه الحياة التى تعيشونها •••

فهمت صونيا تقول :

- ولكن هى ، هى ، ألا ترئى لحالها ؟ ألا تشفق عليها ؟ أنا أعلم أنك وهبت لها آخر قرش تملكه ، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد • فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء ؟ آه ! يا رب ! كم من مرة ، كم من مرة أبكيتها • ألا انتى لأشعر بالحزى والعار ! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبى بأسبوع ! نعم ، كنت قاسية ، قاسية ! كم من مرة تصرفت هذا التصرف ! آه ••• ما أشد ما أشعر به اليوم من خزي وعار حين أتذكر هذا !

كانت صونيا تلوى يديها حسرةً وهى تتكلم ، من فرط ما كانت تحس به من ألم •

قال لها راسكولنيكوف :

- أأنت القاسية اذن ؟

- نعم أنا القاسية ، أنا •••

وعادت تتابع كلامها وهى تبكى ، فقالت :

- جئت أزورهم فى ذلك اليوم ، فقال لى المرحوم : « اقرئى لى يا صونيا ، فانتى أحسن صداعاً فى رأسى ••• اقرئى لى هذا الكتاب » • هو كتاب أعاره اياه آندره سيميونوفتش ليزياتيكوف الذى يسكن فى

هذا المنزل ويقتنى كتباً عجيبة ! قلت له : « آن لى أن أذهب » ، ولم أشأ أن أقرأ له ، لأننى قد أتيت الى عندهم خاصة من أجل أن أرى كاترين ايفانوفنا ياقات صغيرة : كانت اليزابت السمسارة قد جاءتنى بياقات وأكمام جميلة جداً ، جديدة كل الجدة ، تزينها رسوم حلوة ، مع أنها بخسة الثمن ، وقد أعجبت كاترين ايفانوفنا بها كثيراً ، فجربتها على نفسها فوجدتها جميلة ، جميلة جداً . فقالت لى : « صونيا ، اهديها الى » ، أرجوك » . نعم هذا ما قالته لى : « أرجوك » ، لأنها هامت بها هياماً جنونياً . ولكن ما عساها تصنع بها ؟ ما حاجتها اليها ؟ المهم أنها أخذت بها ، هكذا ، لأنها تذكرها بالعهود الجميلة الماضية ! ان كاترين ايفانوفنا تنظر فى المرأة ، فتعجب بنفسها ، وليس عندها ثوب تلبسه ، ليس عندها ثوب واحد ، ليس عندها شيء البتة ، منذ سنين عدة ! وهى لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً فى يوم من الأيام ، لأنها شديدة الالباء والكبرياء ، وتؤثر على ذلك أن تعطى ما بقى عندها . ومع ذلك طلبت منى أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة ، لأنها وجدتها جميلة جداً . ولم أشأ أنا أن أحرم نفسى منها ، فقلت لها : « قيم تنفعك هذه الياقات يا كاترين ايفانوفنا ؟ » . نعم ، ذلك ما قلته لها . آه . . . ما كان ينبغى أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال ! ألقت على عندئذ نظرة ينظر لها القلب . . . عبر وجهها عندئذ عن حزن فظيع . . . لأننى رفضت أن أعطيها الياقات . . . وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال . . . ليست الياقات هى التى أحزنتها ، وانما أحزنها رفضى أنا . . . لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح . آه . . . ليتنى أستطيع أن أرجع الى وراء ، وأن أسترده كل ما أفلت من لسانى ! آه . . . اننى . . . ولكن ماذا ؟ لا بد أن هذا كله لا يعينك فى شيء !

سألها راسكولنيكوف :

- أأنت عرفت اليزابت السمسارة ؟
فأجابته مدهوشةً بعض الدهشة :
- نعم ... هل عرفتِها أنت أيضاً ؟
قال راسكولنيكوف بعد صمت ، دون أن يجيب عن سؤال دونيا :
- كاترين ايفانوفنا في آخر درجات مرض السل ، وستموت قريباً ...

- لا ، لا ، لا تقل هذا الكلام •
قالت صونيا ذلك ، وتناولت يديه على غير شعور منها ، كأنها تتوسل
اليه أن لا يحدث هذا الأمر •
قال راسكولنيكوف :

- ولكن الأفضل أن تموت !
فأخذت صونيا تردد مروعةً تائهة العقل زائغة النظرات :
- لا ، ليس هذا أفضل ، ليس هذا أفضل ...
- والأولاد ، ما أنت صانعة بهم عندئذ ، ما دمت لا تستطيعين أن
تأخذهم الى بيتك وأن تضميهم اليك ؟ ...
- آه ... لا أدري ...

بذلك هتفت صونيا يائسة وهي تمسك رأسها بيديها • كان واضحاً
أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرة ، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن
أيقظها •

وعاد الفتى يلج في السؤال بغير رحمة فيقول :
- وماذا اذا مرضت أنت فنقلت الى المستشفى قبل موت كاترين
ايفانوفنا ؟ ما الذي سيحدث عندئذ ؟

— آه ... ما هذا الذى تقوله ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ ذلك مستحيل .

وتقبَّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب .

وتابع راسكولنيكوف القاء أسئلته وهو يتسم ابتسامة لا رحمة فيها :

— مستحيل ؟ كيف ؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضى . فما الذى

سيحدث لهم حين تمرضين ؟ سيصيرون فى الشارع ، وستمضى هى تسعل

وتستجدى وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يكون .

ثم تتهاوى ، فتُنقل الى قسم الشرطة ، ثم الى المستشفى ، فتموت . أما

الأولاد ...

— لا ، لا ، لن يأذن الله بهذا .

ذلك ما أقلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مختنق . كانت قد

استمعت لكلامه صامتةً تنظر اليه مروعةً ، ضامةً يديها فى ضراعة

خرساء كأن كل شيء متوقف عليه .

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً . وانقضت

دقيقة . كانت صونيا واقفةً ، متهدلة الذراعين ، خافضة الرأس ، تعاني

ألماً شديداً وعذاباً رهيباً .

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة :

— وما من وسيلة لإدخار أى مال للأيام السود ، أليس كذلك ؟

فدمدمت تجيبه :

— طبعاً ... لا ...

ثم أضاف ساخراً :

— ولكن هل حاولت ؟

— حاولت .

- ولم تفلح المحاولة ؟ طبعاً لم تفلح ! لا داعى الى السؤال •••
 وعاد يسير فى الغرفة • وانقضت دقيقة أخرى • قال :
 - وسيكون مصير بوليتشكا كمصيرك حتماً •
 فهتفت صونيا تقول بصوت قوى ، طائش ، كأنها طُغت بخنجر :
 - لا ، لا ، هذا مستحيل • ان الله ، ان الله لن يسمح بمثل هذا
 السقوط !

- دعيك من هذا الكلام ! انه يسمح بمثله وأكثر •
 فرددت صونيا تقول خارجة عن طورها :
 - لا ، لا ، ان الله سيحميها !
 أجاب راسكولنيكوف بفرح خبيث :
 - ولكن قد لا يكون هناك اله !
 ثم ضحك ونظر اليها •

عندئذ تشوه وجه صونيا تشوهاً فظيعاً ، وسرت فى قسماتها رعدة
 من تشنج • وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعقب قوى ولوم
 شديد ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكن لم توافها كلمة واحدة ؛ وفجأة
 انفجرت تشنج تشيخاً مرأ ، تشيخاً مرأ جداً ، وهى تغطى وجهها
 بيديها •

قال راسكولنيكوف بعد صمت :
 - تقولين ان كاترين ايفانوفنا قد فقدت عقلها ، ولكننى أرى أنك
 أنت نفسك قد فقدت عقلك •

وانقضت خمس دقائق • كان راسكولنيكوف يسير فى الغرفة طولاً
 وعرضاً ، دون أن يتكلم ، ودون أن ينظر اليها • واقترب منها أخيراً •

كانت عيناه تسطمان • أمسك كتفها بيديه ، وأنعم النظر الى وجهها الغارق فى الدموع • كانت نظرتة جافة ، ملتهبة ، حادة • وكانت شفاهه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً • وانحنى فجأةً بحركة سريعة ، فسجد أمامها ، وقبل قدميها • تراجعت صونيا مروعة كأنها ترى مجنوناً • والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون •

تمتعت تقول شاحبة الوجه ، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً :

— ماذا تفعل ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ أأمامى أنا تسجد ؟

فسرعان ما نهض ، وقال لها بلهجة وحشية :

— أنا لا أسجد أمامك أنت ...

ثم ابتعد نحو النافذة • وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود الى قريبا :

— اسمعى : لقد قلت منذ قليل لرجل كان يهينك انه لا يساوى طرف اصبعك ... واننى قد شرفت أختى حين أتحت لها اليوم أن تجلس الى جانبك •

هتفت صونيا تقول مرتاعة :

— آه ... ما هذا الذى قلته ؟ هل قلته أمامها ؟ جلوسها الى جانبي يشرّفها ؟ ولكننى ... ولكننى أعيش فى العار ! آه ... ما هذا الذى قلته ؟

— أنا لست أقل ذلك مفكراً فى العار والخطيئة ، وإنما قلته مفكراً فى عذابك العظيم ...

ثم أضاف يقول فى حماسة :

— أما أنك خاطئة فهذا صحيح • وخطيئتك الكبرى هى أنك

ضحيت بنفسك وأهلكك نفسك « سدى » • نعم ، انه لأمر فظيع ، انه لأمر فظيع أن تعيش كما تعيشين ، فى الوحل الذى تكرهين ، عالمة أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً ، ولا تستطيعين أن تتقضى أحداً (يكفى المرء أن يفتح عينيه) •

ثم قال خارجاً عن طوره :

— ولكن قولى لى أخيراً : كيف يمكن أن يجتمع فى نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر ؟ ألا انه ليكون أقرب الى العدل كثيراً ، وأقرب الى العقل كثيراً ، أن تلقى بنفسك فى الماء منكسة الرأس ، وأن تنتهى من هذا الوضع مرة واحدة الى الأبد !...

سألته صونيا بصوت ضعيف ، وهى ترفع نحوه نظرتها الأليمة :

— وما عسى يصيرون اليه ، هم ، اذا أنا فعلت ذلك ؟

غير أن هذه الفكرة التى أوحى اليها راسكولنيكوف لم يد أنها أدهشتها • وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة خاصة •

لقد قرأ راسكولنيكوف فى نظرة الفتاة كل شيء • ان تلك الفكرة كانت تراودها اذن • لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً ، مرات كثيرة ، فى امكان وضع حد لحياتها آخر الأمر ، وبلغت من جد التفكير فى هذا أن النصيحة التى أسداها اليها راسكولنيكوف لم تثر فى نفسها أية دهشة تقريباً • حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التى قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقى ، ولم تدرك الزاوية الخاصة التى كان راسكولنيكوف ينظر منها الى موضع العار ، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك) • ولكن راسكولنيكوف أدرك ادراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن ، وأدرك ادراكاً تاماً أنها تعاني هذا العذاب منذ مدة طويلة •

وتساءل راسكولنيكوف : « ما الذى أمكن أن يمنعها حتى الآن من انفاذ عزمها على التخلص من حياتها ؟ » • وعندئذ فقط انما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى فى نظر صونيا ، وقيمة هذه المسكينة كاترين ايفانوفنا المصدورة ، شبه المجنونة ، التى تدق رأسها بالحيطان •

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك ادراكاً واضحاً كذلك أن صونيا ، بحكم طبيعتها وبحكم تربيتها ، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة ؟ حتى انه ليحيره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى فى هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجنَّ هى أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعته فتتحرر غرقاً فى الماء • صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس الا حادثة طارئة فى المجتمع ، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة وأأسفاه ! ليست وحيدة البتة ، ولا هى استثنائية ! غير أن كون هذه الحادثة طارئة ، بالاضافة الى ما بقى للفتاة من تربيتها الماضية ، وبالاضافة الى ماضيها كله ، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التى قطعتها على هذا الطريق الدنىء الذى سلكته • فما الذى كان يبقياها على هذا الطريق اذن ؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً ، فان هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مساً خفيفاً بحكم طبيعة الأشياء ، أما قلبها فلم تتسلل اليه قطرة واحدة من رذيلة • ان راسكولنيكوف يرى هذا كله : لقد كانت صونيا واقفةً أمامه على حقيقتها •••

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هناك ثلاثة طرق تفتح أمامها : أن تلقى بنفسها فى القناة ، أن تصير الى ملجأ للمجانين ••• أن تدفع فى الدعارة التى تخبل العقل وتجعد القلب • » • ان هذه الفكرة الأخيرة هى التى ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين ، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن ، وهو الى ذلك شاب ، وهو الى ذلك ذو فكر مجرد ، والفكر المجرد

قاس ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث ، أعني افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات الى الصدق ...

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه : « ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية ، هل يمكن أن تغوص في هذا المستنقع واعية شاعرة ؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القذر فعلاً ؟ هل من الجائز أنها لم تستطع أن تحتل حياة كهذه الحياة حتى الآن الا لأن الرذيلة لا تبدو لها كريمة حقيرة الى هذا الحد ؟ » فلما وصل راسكولنيكوف من تساؤله الى هنا ، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل : « لا ، لا ، ان الشيء الذي صدّها عن اغراق نفسها في انقناة حتى الآن انما هو فكرة « الخطيئة » ، وكذلك « هم » ... ولئن لم تجن حتى الآن ... ولكن من ذا الذي يزعم أنها لم تجن حتى الآن ؟ أصبح أنها ما تزال تملك عقلها ؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هي ، وأن تفكر كما تفكر ، اذا كان ما يزال سليم العقل ؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو ، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع القذر الذي أخذ يغوص فيه ، وأن يحرك يده في الوقت نفسه بإشارة تتم على العجز ، وأن يسدّ أذنيه كلما حدثت عن الخطر ؟ أليس معجزة من المعجزات أنها تنتظر ؟ نعم ، لا شك في ذلك . ولكن أليست هذه علامات جنون ؟ »

وتلبث راسكولنيكوف على هذه الفكرة في اصرار وعناد . ان حلاً كهذا يرضيه أكثر من أى حل آخر . وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد .

سألها :

- اذن أنت تصلين لله يا صونيا ؟

لم تجب صونيا ، وكان واقفاً أمامها ينتظر جوابها •
ودمدت صونيا تقول بسرعة بقوة عنيفة ، وهي تلقى عليه نظرة
مختلصة ساطعة :

- ما الذى يمكن أن أصير اليه ان لم أؤمن بالله ؟

وتناولت يده ، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً •

قال يحدث نفسه : « نعم ، تلك هى الحقيقة » •

وسألها ليجبرها على الكلام :

- وماذا يفعل الله من أجلك ؟

فلبث صونيا صامتة مدة طويلة ، كأنها لا تستطيع أن تجيب •
وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف • وهتفت تقول له أخيراً وهي تنظر
اليه بقسوة وغضب :

- اسكت ، لا تسألنى عن شيء بعد الآن • أنت لا تستحق أن •••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً فى عناد واصرار : « تلك
هى الحقيقة ، تلك هى الحقيقة • • » •

ودمدت صونيا تقول بسرعة وهي تخفض عينيها من جديد :

- الله يفعل كل شيء !

وبعاطفة جديدة كل الجدة ، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مرضاً ،
كان راسكولنيكوف يتفرس فى هذا الوجه الصغير ، النحيل ، الشاحب ،
غير المتسق ، المتكسر الزوايا ، ويتفرس فى هاتين العينين الزرقاوين
الرقيقتين العذبتين اللطولتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيب قوى



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وأن تعبيرا عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والنعف ؛
ويتفرد في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذي ما يزال يرتجف استياءً
وغضباً . . . فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد
شيء ، حتى ليكاد يكون مستحيلاً . وكان يردد قائلاً لنفسه : « هذه
مخلوقة ضعيفة العقل ، هذه مخلوقة ضعيفة العقل . »

وكان على المنضدة كتاب لاحظته راسكولنيكوف عدة مرات حين
مروره أمام المنضدة . فيها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه . انه
الانجيل باللغة الروسية : كتاب مجلد ، عتيق مهترى .

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة :

- من أين هذا الكتاب ؟

وكان ما يزال واقفاً في مكانه نفسه على بعد ثلاث خطوات من

المائدة .

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر اليه :

- جئ الى به .

- من جاءك به ؟

- اليزابت . كنت قد طلبته منها .

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه : « اليزابت ! ما أغرب هذا ! » ،

ان كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً أكثر فأكثر ، من لحظة الى أخرى .

وقرَّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتصفحه .

وسألها فجأة :

- أين يجيء ذكر لعازر ؟

فطلت صونيا مطرقةً الى الأرض بعناد ولم تجبه • وكانت واقفة
غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة •

— أين الحديث عن قيام لعازر ؟ * أرنه يا صونيا •
فألقت نظرة مواربة • ودمذمت تقول له بقسوة دون أن تقترب منه :
— لست تبحث عنه فى موضعه • انه فى الانجيل الرابع •
قال لها :

— ابحتى عنه واقريه لى يا صونيا •

ثم جلس ، ووضع كوعيه على المائدة ، وأسند رأسه الى يده ، لافتاً
عينيه ، متجههم الهيئة ، متهيئاً للاصغاء ، قائلاً لنفسه : « بعد ثلاثة أسابيع ،
سأكون الفرسخ السابع * ، فيما أظن ، اللهم الا أن يحدث لى ما هو
شر من ذلك » •

دنت صونيا من المائدة مترددة ، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف
فى شك وريب • وتناولت الكتاب مع ذلك •

سألته وهى تنظر اليه من فوق المائدة بطرف عينها :

— ألم تقرأه اذن من قبل ؟

وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء • أجابها راسكولنيكوف :
— قرأته منذ زمن طويل ... فى أيام الدراسة •

— وفى الكنيسة ، ألم تسمعه ؟

— لا أذهب الى الكنيسة • هل تذهين أنت الى الكنيسة أحياناً

كثيرة ؟

تمت صونيا تقول :

... لا

فابتسم راسكولنيكوف •

... فهمت • وأغلب الظن أنك لن تحضري دفن أبيك في الغد
أيضاً ، أليس كذلك ؟

... بل سأحضر ... لقد ذهبت الى الكنيسة في الأسبوع الماضي
أيضاً • وأقمت قداساً •

... لمن ؟

... لاليزابت • لقد قتلت بساطور •

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر • وأخذ يشعر
بدوار •

... هل كنت صديقة لاليزابت ؟

... نعم ... كانت اليزابت امرأة صالحة ... وكانت تجيء الى ...
نادراً ... لم يكن في وسعها أن تزورني أكثر من ذلك • وكنا نقرأ
معاً ... وكنا نتحدث ... مسترى الله * ...

ترجعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً في نفس
راسكولنيكوف • وقال لنفسه : « وهذه معلومات جديدة ! أحاديث سرية
بين اليزابت وصونيا ... بين مخلوقتين كلتاهما ضعيفة العقل ! هنا يصبح
المرء نفسه ضعيف العقل ... بالعدوى ! ... » •

وهتف يقول لها بالحاح وحق :

... اقرئي !

ولكن صونيا ما تزال مترددة • كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً •

لكأنها لا تجرؤ أن تقرأ له • وكان هو ينظر اليها معذباً ، قائلاً لنفسه :
« يا للمجنونة المسكينة ! » •

تمتعت تقول له بصوت خافت ، كأنها مقطوعة الأنفاس :

— ما حاجتك الى ذلك وأنت لا تؤمن ؟

فأجابها يقول مصراً :

— بل اقرئى ! أريد أن تقرئى ! أما كنت تقرئين لاليزابت ؟ • • •

فتحت صونيا الكتاب ، ووجدت العبارات المطلوبة • كانت يداها ترتجفان ، وكان صوتها مختنقاً • حاولت مرتين أن تبدأ القراءة ، ولكنها لم تفلح فى نطق الكلمة الأولى • ثم قرأت أخيراً :

« وكان انسان مريضاً ، وهو لعازر ، من بيت عنيا • • • » * •

ولكن صوتها اختلج وتحطم منذ الكلمة الثالثة ، كما يتحطم وتر مشدود • لقد انقطع تنفسها • وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً •

أدرك راسكولنيكوف بعض الادراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له ، فكان كلما ازداد ادراكاً لهذا ، ازداد الحاحاً فى طلب القراءة بفضاظة وغضب • كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز فى نفسها أن تكشف عما يخصها « هى » ، وأن تبوح به • أدرك أن هذه العواطف هى « سرها » فعلاً ، ربما منذ مراهقتها ، منذ الوقت الذى كانت تعيش فيه مع أسرتها بين أب شقى وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة ، قرب أطفال جياع ساغبين ، فى بيئة لا ترتفع فيها الا صرخات مسعورة وملامات متصلة لا تنقطع • ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه — هو واثق من هذا — أنها على تألمها الشديد وخوفها القوى تحس رغم حزنها وخشيته برغبة جارفة مؤلمة فى أن تقرأ ، وفى أن تقرأ له « هو » ، من أجل

أن يسمع ، ومن أجل أن يسمع « الآن » خاصة ، « مهما يحدث بعد ذلك » . كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة ، وكان يدركها من احتياج أعصابها .

تحاملت صونيا على نفسها ، وبذلت جهداً كبيراً ، فكبحت التشنج الذى ألمَّ بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى ، وتابعت قراءة الإصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، ووصلت الى الآية التاسعة عشرة :

« وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما . فلما سمعت مرثا أن يسوع أتى لاقته . وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت . فقالت مرثا ليسوع : يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى . لكننى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله اياه . »

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرة أخرى ، وهى تشعر بالحجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتحطم من جديد . . . ثم تابعت القراءة :

« قال لها يسوع : سيقوم أخوك . قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة ، فى اليوم الأخير . قال لها يسوع : أنا القيامة والحياة . من آمن بى فسيحيا ولو مات . وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت الى الأبد . أتؤمنين بهذا ؟ » .

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد ، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بايمانها هى نفسها على رؤوس الأشهاد :

« قالت له مرثا : نعم يا سيد . أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله ، الآتى الى العالم . » .

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة ، ولكنها رفعت عينيها «إليه» بحركة قوية ، فسرعان ما ثابت الى نفسها ، واستمرت تقرأ • كان راسكولنيكوف يصفى الى القراءة ساكناً جامداً ، دون أن يلتفت ، واضعاً كوعيه على المائدة ، ناظراً الى جانب • وبلغت صونيا الآية الثانية والثلاثين :

« فلما أتت مريم الى حيث كان يسوع ورأته ، خرَّت عند رجله قائلةً : يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى • فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب • وقال : أين وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظر • بكى يسوع • فقال اليهود : انظروا كيف كان يحبه • وقال بعض منهم : ألم يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » •

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر اليها منفعلاً مضطرباً • نعم ، صدق ظنه ! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعانى من حمى حقيقية • انه توقع ذلك • وكانت تقترب من الآيات التى تروى المعجزة العظيمة الكبرى ، فكان شعور بالانتصار يجتاح نفسها • ان صوتها يرن رنين معدن • ان الفرح والظفر يترجعان فى نفسها ويشدان ازرها • واختلطت الأسطر أمام عينيها ، واضطرب بصرها ، لكنها كانت تعرف ما تقرأه على ظهر القلب • انها حين قرأت الآية الأخيرة : « ألم يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » ، قد خفضت صوتها ، معبرةً بحماسة ملتهبة عن شك واستياء أولئك اليهود العمى الذين سيركون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة ، وسيجهشون باكين ، وسيؤمنون • قالت لنفسها : وهو ، « هو » أيضاً ، الأعمى ، الذى لا يؤمن ، هو أيضاً سيسمع ، وهو أيضاً سيؤمن ،

نعم ، نعم ، سيؤمن ، سيؤمن فوراً ، حالاً . فكان هذا التوقع يجعلها تترعش فرحاً . وتابعت قراءتها :

« فأنزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء الى القبر . وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر . قالت له مرثا أخت الميت : يا سيد ، قد أتن لأنه هنا منذ أربعة أيام . »

أبرزت صونيا في قراءتها كلمة « أربعة » . وتابعت تقرأ :

« قال لها يسوع : ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله . فرفعوا الحجر ، ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : أيها الأب ، أشكرك لأنك سمعت لي . وأنا كنت أعلم أنك تسمع لي في كل حين . ولكن لأجل هذا الجمع الواقف حولي قلت هذا ، ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني . ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلم خارجاً . فخرج الميت . »

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوى ظافر ، وكانت ترتجف وترعش كأنها ترى المشهد بعينيها .

« . . . ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلّوه ودعوه يذهب . »

« فكثيرون من اليهود الذين جاءوا الى مريم ومرثا ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به . »

لم تمض صونيا في القراءة الى أبعد من هذا . لقد عجزت عن ذلك . فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة ، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع :

— هذا كل ما يروى عن قيام لعازر .

وتجمدت فى مكانها مشيخةً وجهها ، كأنها تستحي أن ترفع
عينها نحو راسكولنيكوف • وكانت ما تزال ترتجف من الحمى •

كان عقب الشمعة التى ذابت فى الصحن المتعقف منذ مدة ، تلقى
ضياءً ضعيفاً على القاتل والموس وقد ضمتهما قراءة « الكتاب الخالد »
فى هذه الغرفة البائسة •

وانقضت خمس دقائق أو تزيد •

ونفض راسكولنيكوف ، واقرب من صونيا ، وقال لها فجأة بصوت
قوى وقد اكفهر وجهه :

— انما جئت لأحدثك فى أمر بعينه •

فنظرت اليه صونيا صامته • وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية
قال :

— تركت اليوم أهلى : أمى وأختى • فلن أذهب اليهما بعد الآن •
لقد قطعت صلتى بهما قطيعة تامة •

فسألته صونيا مصعوقة :

— لماذا ؟

ان اللقاء الذى تمَّ بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل
قد ترك فى نفسها أثراً خارقاً ، رغم أنها لم تستطع أن تحدِّده • فلما
سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذعراً •

أضاف راسكولنيكوف يقول :

— لم يبق لى سواك • هلمى نسافر معاً • لقد جئت اليك • نحن
ملعونان كلانا ، فلنسافر معاً !

وكانت عيناه تسطمان • قالت صونيا لنفسها هي أيضاً : « ان هيئته
تدل على أنه مجنون » •

وسألته مرتاعة :
- نسافر الى أين ؟

وتراجعت متقهقرة على غير ارادة منها • قال لها :

- أننى لى أن أعرف ! كل ما أعرفه أن الطريق الذى سنقطعه
واحد • أنا واثق بهذا ، ولا أعرف شيئاً سواه • وان هدفنا واحد
أيضاً •

كانت تنظر اليه ولا تفهم • كل ما كانت تدركه هو أنه انسان
شقى شقاء رهيباً ، شقى الى غير نهاية •

وأضاف راسكولنيكوف يقول :

- ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه • أما أنا فقد
فهمتك • أنا فى حاجة اليك • ولهذا السبب انما جئتك •

تمت صونيا قائلة :

- لست أفهم ...

- ستفهمين فى المستقبل • ألم تفعلنى مثل الذى فعلت أنا ؟ أنت
أيضاً خرقت القانون ، أنت أيضاً ... أنت أيضاً دمّرت حياة ... هي
حياتك طبعاً ، ولكن ما الفرق ؟ كان يمكنك أن تعيشى بروحك • ولسوف
ينتهى بك المطاف فى المستقبل الى قرب « سوق العلف » • ولكنك لن
تستطيعى أن تحتلمى ذلك ، فان بقيت « وحيدة » فسوف تفقدين عقلك
مثل • انك منذ الآن أشبه بمجنونة • فلماذا لا نسافر اذن معاً ، لماذا
لا نتبع طريقاً واحداً ؟ فلنسافر !

تمت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً
قوياً :

— لماذا ، لماذا تقول هذا الكلام ...

— لماذا ؟ لأن بقائى على هذه الحال أصبح مستحيلاً . هذا هو
السبب . لا بد للمرء آخر الأمر من أن يبكى ، بدلاً من أن يصرخ
قائلاً كطفل صغير : « الله لن يسمح بهذا » . قولى لى : ما الذى سيحدث
إذا اقتادوك غداً الى المستشفى ؟ ان الأخرى قد فقدت عقلها ، وهى مصابة
بداء السل ، وستموت قريباً . والأولاد ؟ هل يمكن أن لا تضع بوليتشكا
هى أيضاً ؟ ألم ترى هنا ، فى نواصى الشوارع ، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم
فى طلب الصدقات ؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات ، وفى أى
ظروف تعيش . ان الأطفال لا يمكن أن يبقوا فى أمثال تلك الأماكن
أطفالاً . فى أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذى عمره سبع سنين ،
يصبح داعراً أو لصاً . والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح ، « لهم
ملكوت الرب » * ؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم . هم انسانية
المستقبل ...

رددت صونيا تقول وهى تلوى يديها ألماً وتجهش باكية بكاء
هسترياً :

— ما العمل اذن ؟ ما العمل اذن ؟

— ما العمل ؟ نحطم مرة واحدة كل ما يجب تحطيمه ، ولا شيء
غير ذلك . نتحمل العذاب . ماذا ؟ ألا تفهمين ؟ سوف تفهمين
فى المستقبل ! الحرية والسيطرة ، السيطرة خاصة ! السيطرة على جميع
المخلوقات المرتجفة ، على كل هؤلاء النمل . ذلك هو الهدف ! تذكرى
هذا ! تلك هى وصيتى لك . لعل هذه آخر مرة أكلمك فيها . اذا لم

أجىء غداً ، فستعلمين كل شيء بنفسك ، فاذكري حينئذ كلماتي • قد تفهمين معناها في يوم من الأيام ، بعد سنة ، ولكن اذا جئت غداً ، فسأقول لك من الذى قتل اليزابت • وداعاً !

ارتعشت صونيا ذعراً • وسألته وهى ترمقه بنظرة متوحشة :

— أأنت تعرف حقاً ... من الذى قتلها ؟

— أعرف ذلك ، وسأقوله لك ... لك وحدك ! لقد وقع اختياري عليك • لن أجىء اليك لاستغفرك ؛ وانما لأحدثك ببساطة • لقد اخترتك منذ مدة طويلة لأحدثك ، اخترتك منذ اللحظة التى كلمنى فيها أبوك عنك ، وكانت اليزابت ما تزال حية • وداعاً ! لا تناولينى يدك ! الى الغد ! •

وخرج • كانت صونيا تنظر اليه وكأنها تنظر الى مجنون ، ولكنها كانت هى نفسها أشبه بمجنونة ، وكانت تشعر بذلك • وكانت تحس بدوار •

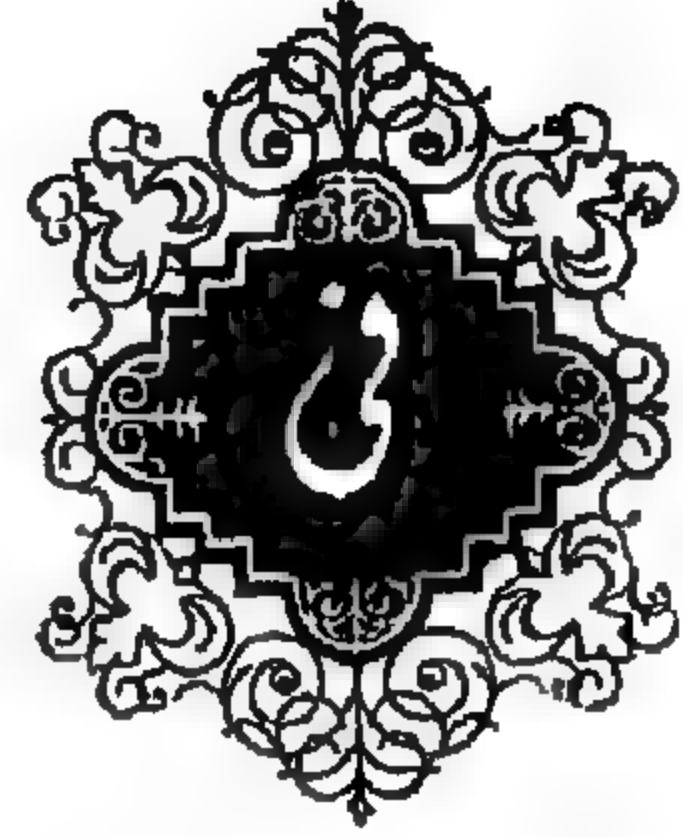
تساءلت : « رباه ! كيف يعرف من الذى قتل اليزابت ؟ ما معنى هذه الأقوال ؟ فطيع ، فطيع !... » • ولكن لم يخطر ببالها « أن ... » • لم يخطر ببالها هذا فى لحظة من اللحظات ، لم يخطر ببالها فى أية لحظة من اللحظات ! وقالت تحدث نفسها : « لا بد أنه شقى ، لا بد أنه شقى شقاء رهيباً ! ترك أمه وأخته • لماذا ؟ ماذا جرى ؟ ما نيته ؟ ماذا قال لى ؟ لقد لثم قدميَّ وقال لى ... قال لى ... نعم ... قال لى ذلك بوضوح ... قال لى انه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدونى • آه ... رباه !... »

قضت صونيا الليل كله فى حمى وهذيان • فتارة تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكى وتلوى يديها ألماً ، وتارة تهوى الى نوم محموم

فترى فى الحلم بوليتشكا وكاترين ايفانوفنا واليزابت وقراءة الانجيل ..
وتراه هو ... هو ... بوجهه الشاحب ، وعينه المتقدتين ، يلثم قدميها ،
ويبكي ... آه ... يارب ! ...

وراء الباب ، وراء ذلك الباب نفسه الذى يفصل غرفة صونيا عن
شقة جرتروود كارلوفنا ريسليش ، كانت توجد غرفة وسيطة ، خالية منذ
مدة طويلة ، هى جزء من شقة السيدة ريسليش ، وكانت السيدة ريسليش
تريد أن تؤجرها ، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل
العمارة ، والأوراق الصغيرة الملصقة على زجاج النوافذ التى تطل على
القناة . وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خالية غير مسكونة . غير
أن السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق بالباب فى هذه الغرفة الحالية ،
فأصغى الى كل الحديث الذى جرى بين صونيا وراسكولنيكوف ، حتى اذا
خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظة يفكر ، ثم رجع سائراً على رءوس
الأصابع الى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الحالية ، فتناول كرسيًا وجاء يضعه
برفق وهدوء على الباب المؤدى الى غرفة صونيا . لقد شاقه الحديث الذى
جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً ، ورأى أنه جدير بأن يسمع
وأن يحفظ ؟ وبلغ من شدة اعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه
به أنه حمل الكرسي وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر فى المرة القادمة
التي قد يكون الغد موعدها - من يدرى ؟ - أن يزعج نفسه بالبقاء واقفاً
طوال ساعة كاملة . هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة ، فتكون
متعته من جميع النواحي كاملة .

الفصل الخامس



الغد ، في الساعة الحادية عشرة تماماً ، حين وصل راسكولنيكوف الى قسم الشرطة ، ودخل على مكاتب مفوض التحقيقات ، وطلب مقابلة بورفير بتروفتش ، أدهشه أنه طُلب اليه أن ينتظر . لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى ، وكان يتنبأ أن يُستقبل فوراً .

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار ، بينما كان يذهب ويجيء من حوله. أناس لا يبدو عليهم أنهم يكثرثون به أي اكتراث . وفي الغرفة المجاورة التي يدل مظهرها على أنها غرفة مكتب ، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة ، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يعمله هناك .

وكان راسكولنيكوف يُجِيل على ما حوله نظرةً قلقة فيها ارتياب ، متسائلاً : ترى ألا يوجد هنا ، على مقربة منه ، شخص سرّي ما ، جاسوسٌ ما ، مكلف بمراقبته ، وبمنعه من الخروج اذا هو أراد أن يخرج ؟ ولكن لا . . . لم يكن ثمة شيء من هذا القليل . لم يكن ثمة الا مستخدمون صغار ، غارقون في أعمالهم الصغيرة ، وأشخاصٌ آخرون ، لكن هؤلاء الأشخاص الآخرين كانوا هم أيضاً لا يهتمون به ، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواه . وها هي ذى فكرة تنبت في ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً : لو كان ذلك الشخص اللغز الذى لقيه بالأمس ، لو كان ذلك الشيخ الذى ظهر له من تحت الأرض ، لو كان يعلم كل شيء ، لو كان قد رأى كل شيء ، أفكان يترك له ، هو راسكولنيكوف ، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً ؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة ، حتى الساعة التى ارتأى فيها أن يجيء من تلقاء نفسه ليدلى بإفادته ؟ اذن لم يش به ذلك الرجل بعد ... او أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أى شيء على كل حال ؟) • واذن لم يكن كل ما حدث له بالأمس ، هو راسكولنيكوف ، الا سراياً ، الا رؤيا ضخمتها خياله المهتاج المريض • ان هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس ، فى لحظة هى من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات احساسه باليأس •

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر فى هذا كله مرة أخرى ، وفيما كان يتهيأ لكفاح جديد ، شعر فجأة بارتعاش ، فغلت نفسه غلياناً شديداً اذ تصور أنه انما يرتعش خوفاً ، لأنه سيقف أمام بورفير بتروفتش الكريه • ان أقطع شيء هو أن يلقى هذا الرجل من جديد • انه يكرهه كرهاً لا حدود له ، كرهاً ليس له نهاية • وكان يخشى أن يؤدى به هذا الكره ، على نحو من الأنحاء ، الى أن يفضح نفسه • وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعاشه فوراً • وأعدّ راسكولنيكوف نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء ، وحلف ليقيناً صامتاً الى أبعد حدود الصمت ، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر فى هذه المرة على مزاجه المهتاج المريض ، مهما يحدث من أمر ...

وفى اللحظة التى اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار ، دُعِيَ الى الدخول على بورفير بتروفتش •

كان بورفير بتروفتش عندئذ وحيداً فى غرفته • انها جبرة لا هى

بالكبرة ولا هي بالصغيرة ، تضم مكتباً كبيراً موضوعاً أمام ديوان مغطى
بقماش مشمّع ، وتضم منضدة ، وخزانة في ركن من الأركان ، وعدة
كراسي من خشب أصفر تقشر طلاؤه ؛ وهذا كله من أثاث الإدارة •
وفي الجدار الذي يقع في آخر الغرفة ، أو قل في الحاجز الذي يقع في
آخر الغرفة ، يوجد باب مغلق : فلا بد إذن أن وراء هذا الحاجز حجرات
أخرى •

فما إن أُدخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفير بتروفتش ذلك
الباب الذي كان قد دخل منه ، وبقي الرجلان وحيدين •

استقبل مفوض الشرطة زائره طلق المحيّا متودداً متحياً في ظاهر
الأمر ؛ ولم يستطع راسكولنيكوف إلا بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض
العلامات أن بورفير بتروفتش مرتبك بعض الارتباك ، فكأنه أزعج أثناء
قيامه بمهمة سرية •

بدأ بورفير بتروفتش يتكلم وهو يمد إلى راسكولنيكوف يديه
فقال :

— آ... عزيزي... هأنت ذا اذن... في نواحيننا... تفضل...
اجلس يا عزيزي ! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولي يا عزيزي ،
« فقط » ، هكذا !... لا تحسب هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم التخرج ،
أرجوك... ولكن لماذا لا تجلس ؟ اجلس هنا ، على الديوان...
جلس راسكولنيكوف دون أن يحول عنه عينيه •

وقال يحدث نفسه مرتباً : « في نواحيننا... اعتذارات عن رفع
الكلفة وعدم التخرج... هذا التعبير الفرنسي « فقط »... صحيح أنه
مدّ إلى يديه ، لكنه لم يناولني لا هذه ولا تلك منهما ، بل سحبهما
في الوقت المناسب... » •

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصده ، ولكن ما ان تلتق نظراتهما حتى يحولّاهما بسرعة كومض البرق +

قال راسكولنيكوف :

- جئتك بالعريضة الصغيرة ... في موضوع الساعة ... اليك هي + أهكذا يجب أن تُحرّر أم على أن أعيد كتابتها ؟

- ماذا ؟ أى عريضة ؟ آ ... نعم ، نعم ، اطمئن ، هذا هو المطلوب تماماً .

كذلك قال بورفير بتروفتش بسرعة كأن أمراً ما كان يستحقه ، ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة + وواصل كلامه بذلك التعجل نفسه فقال مؤكداً :

- ذلك هو المطلوب تماماً + لا يجب أكثر من هذا ...

ووضع الورقة على مكتبه + ثم بعد دقيقة ، بينما كان يتكلم في أمر آخر ، تناول الورقة من جديد ومضى يرتبها في درج المنضدة .

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

- قلت لى بالأمس ، « فيما يخيّل الى » ... انك تود ... أن تستجوبنى ... رسمياً ... عن علاقاتى ... بالمرأة القتل ...

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه : مؤنباً : « عجيب ... لماذا أضفت جملة « يخيّل الى » هذه ؟ »

ثم أسرع يقول لنفسه على الفور : « ولكن لماذا أقلق هذا القلق كله من قولى « يخيّل الى » ؟ »

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفير بتروفتش ، وهذه

الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها قد كانت كافية لأن تحدث في نفسه ارتياباً شديداً ... وأن هذا كله خطر ، خطر خطراً رهيباً ، فقال لنفسه مقررماً : « غلط ، غلط ، سأفصح أمري من جديد » .

جميع بورفير بتروفتش يقول :

- نعم ، نعم ، اطمئن ... ليس الأمر بمستعجل ... ليس الأمر بمستعجل البتة ...

وكان بورفير بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً ، ولكن دون ما هدف فيما يبدو ، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة ، ثم يجذبه نحو مكتبه ، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد .

وكان وهو يسير يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الريّابة ، ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة ، فيحدثق الى محدثه وجهاً لوجه . انه لمشهد غريب ، مشهد هذا الرجل القصير السمين ، المدور ككرة ، الذي كان كأنه يتدحرج من هنا وهناك ، ثم يعود يشب على الفور من جميع الجدران ، وجميع الأركان .

- أماننا متسع من الوقت ، أماننا متسع من الوقت ... هل تدخن ؟ هل تملك ما ... اليك سيجارة (قال ذلك وهو يفتح علبة سجائره) ... اننى استقبلك هنا ، ولكن شقتى هناك ، وراء هذا الحاجز . أنا أسكن على نفقة الدولة ، ولكنى أسكن مؤقتاً فى خارج الدائرة كما تعلم ... نعم ، ذلك أن هناك اصلاحات صغيرة وجب اجراؤها هنا ، وقد أوشكت الآن أن تنتهى . شىء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة ، هه ؟ شىء عظيم جداً . ما رأيك ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

- نعم ، شيء عظيم جداً !

فردد بورفير بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف :

- شيء عظيم جداً ، شيء عظيم جداً

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً ، وهو يحدّق الى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه :

- نعم ، شيء عظيم جداً .

ان هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة (أن السكى على نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض بعض المناقضة ما كان قاضى التحقيق يرمى به راسكولنيكوف من نظرة جادة ، متأملة ، ملغلة . ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش ، فيسأل بورفير بتروفتش فجأة ، وهو يلقي عليه نظرة تكاد تكون وقحة ، حتى وكأنه يجد في وقاحته هذه لذة ومتعة :

- هل تعلم أن هناك ، فيما يقال ، قاعدة قضائية ، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق ، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة ، وذلك من أجل أن يعطمش الشخص الذى يستجوبه ، أو قل من أجل أن يسهيه ، من أجل أن ينوّم انتباهه ، ثم اذا هو يهوى على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب ؟ أليس هذا

صحيحاً ؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبِقَ حتى الآن تطبيقاً دقيقاً ،
وروعى مراعاة تامة •

- اذن ، اذن ، أنت تظن أنني انما حدثتك عن المساكن التي تقدمها
الدولة على نفقتها ، من أجل أن ... هه ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ، وغضن جفنيه وطرف بعينه وبان في
وجهه تعبير عن مرح ومكر ، وامحت تجاعيد جبينه الدقيقة ، وتضيق
عيناه الصغيرتان ، وتمددت أخيراً قسماته ، فحدّق الى عيني راسكولنيكوف
وانفجر يضحك ضحكاً عصياً طويلاً يهز جسمه كله • وأراد
راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته في الضحك ، فهمّ أن
يضحك هو أيضاً ، ولكن بورفير بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف
يوشك أن يشاركه ضحكه ، انتابته نوبة مسعورة من ضحك بلغ من
القوة أن وجهه احمر احمراراً شديداً ، فتغلب اشمزاز راسكولنيكوف
عندئذ على عقله ، فأمسك عن الضحك ، وقطب حاجبيه ، ونظر الى بورفير
بتروفتش طويلاً ، نظرة كارهة حاقدة ، وظل لا يحوّل عنه بصره الى أن
انتهى بورفير من ضحكه المصطنع المفتعل • والحق أن الرجلين كليهما لم
يلتزم جانب الحكمة والتبصر والتعقل : فأما بورفير فكان كمن يسخر من
زائره صراحةً ، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره
شديد ، وهو كره لم يظهر على القاضي أنه ضاق به أو انزعج منه على كل
حال • وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف : لقد أدرك راسكولنيكوف
أن بورفير لم يكن مرتبكاً أي ارتباك منذ قليل ، وأنه هو الذي وقع

فى الفتح ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك ، أمراً مبيتاً مخبأً سينصب على رأسه بعد لحظة ...

لذلك انتقل الى الجرد قدماً ، فنهض متاولاً قبعته ، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها احتياجاً قوياً :

- يا بورفير بتروفتش ، لقد أعربت أمس عن رغبتك فى أن ترانى من أجل أن تستجوبنى (أبرز راسكولنيكوف كلمة « تستجوبنى » هذه) ، وهأنا ذا قد جئت ، فإن كنت فى حاجة الى أن تعرف شيئاً ما ، فاستجوبنى ، والا فاسمح لى أن أنصرف . ليس فى وقتى متسع . هناك أمور تنادىنى ... يجب على أن أحضر دفن ذلك الموظف الذى داسته الحيل أمس ...

وأضاف يقول :

- وقد سمعت أنت عن الحادثة التى وقعت له ...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فإزداد من ذلك غضبه ، وتابع كلامه فقال :

- لقد تعبت من هذا كله ، تعبت ، هل تفهم ؟ تعبت منذ زمن طويل ... ولعل ذلك أحد الأسباب التى جعلتنى مريضاً ...

وشعر مرةً أخرى بأن الجملة التى أضافها عن مرضه ليست فى محلها أيضاً ، فتابع يقول رافعاً صوته :

- الخلاصة ... استجوبنى من فضلك ... أو دعنى أنصرف فوراً . ولكن اذا استجوبتنى فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول

المطلوبة والقواعد المتبعة ، وبغير ذلك لا أسمح لك به • لذلك أودّعك الآن فليس علينا أن نجتمع في خلوة •

صات بورفير بتروفتش يقول مغيّراً لهجته ووضعته على حين فجأة ، منقطعاً عن الضحك دفعة واحدة :

— عجيب ! ماذا جرى لك ؟

ثم أردف يقول :

— اطمئن ، أرجوك ...

وكان يذهب ويحىء مهموم البال • وفجأة طلب الى راسكولنيكوف أن يجلس ، وقال له :

— لدينا متسع من الوقت ، لدينا متسع من الوقت ، وهذا كله لقيمة له البتة • بالعكس : أنا مسرور جداً من أنك جئت إلينا أخيراً ! اننى استقبلك كما يُستقبل ضيف • أما عن ذلك الضحك اللعين ، فاعذرني يا عزيزى روديون رومانوفتش ... هذا هو اسمك ، أليس كذلك ؟ روديون رومانوفتش ... ان ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسى مرحاً شديداً ... حقاً انه ليتفق لى أحياناً أن أثواب ككرة من المطاط طوال نصف ساعة • اننى سريع الى الضحك • حتى اننى أخشى أن أصاب بنوبة قلبية • ولكن لماذا لا تجلس ؟ هلاًّ جلست ! أرجوك أن تجلس يا عزيزى ، والا اعتقدت أنك زعلان !

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغى ويلاحظ ، وما يزال مقطب الحاجبين من الغضب • وقد جلس ، لكنه ظل ممسكاً قبضته بيده •

وتابع بورفير بتروفتش كلامه وهو ما يزال يتجول في الغرفة ، ويتحاشى نظرة ضيفه ، فقال :

— سأذكر لك شيئاً يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لأعطيك فكرةً عن طبيعتى . أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى ، فأنا اذن لا أعاشر الناس ولا أختلف الى المجتمع كثيراً ، وأنا اذن رجل غامض ، مجهول . وأنا عدا ذلك انسان مكتمل التكوين ، متعظم الجسم ، متخدر الاحساس ، و . . . و . . . هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أنه عندنا ، أقصد عندنا فى روسيا ، ولا سيما فى أوساطنا البطرسبرجية ، ما ان يلتق شخصان ذكيان — مثلنا نحن ، أنا وأنت ، ان صح التعبير — حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للآخر ؟ ان كلاّ منهما ينظر الى صاحبه ككليين من خرف ، وان كلاّ منهما يخشى صاحبه ويخاف منه . ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، السيدات مثلاً . . . أو أفراد المجتمع الراقى . . . أفراد الطبقة العليا . . . نعم ، ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، ذلك واجب لا مفرّ منه ، * . ولكن أفراد الطبقة المتوسطة . . . الأفراد الذين هم مثلنا . . . يكونون دائماً مرتبكين صموتين . . . أعنى منهم أولئك الذين يفكّرون . فما سبب هذا يا عزيزى ؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هى التى تعوزنا ، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه ؟ لا أدرى . . . فما رأيك أنت ؟ ولكن هلاًّ تركت قبعتك ! لكأنك تريد أن تتصرف فوراً . هذا مؤسف . أما أنا فمسرور حقاً . . .

ترك راسكولنيكوف قبعته ، ولكنه ظل صامتاً متجهماً الوجه يصغى بجدٍ وحرصاً الى ثمرات بورفير بتروفتش المفككة ، متسائلاً بينه وبين نفسه : « أريد حقاً أن ينوّم اتباهى بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه السخيف ؟ ، »

وواصل بورفير بتروفتش كلامه يقول :

— لست أقدم لك قهوة ، فليس هذا بالمكان المناسب • ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق ••• لتسلّيه قليلاً ••• هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم ••• وأرجوك خاصة يا عزيزى أن لا ترعل اذا رأيتنى على هذه الحال أسير فى الغرفة طويلاً وعرضاً ••• معذرة يا عزيزى ••• انتى أخشى كثيراً أن أزعلك ••• ولكن لا بد لى من شىء من الرياضة ••• انتى جالس دائماً ••• ويسرنى كثيراً أن يتاح لى الآن أن أمشى قليلاً خلال خمس دقائق ••• هى البواسير يا عزيزى ••• وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية ••• يقال ان رجالاً من مستشارى الدولة ، رجالاً من كبار موظفى الدولة ، يقفزون على الحبل كل يوم على نظام مطرد ، ويجدون فى ذلك لذة • نعم ، ان العلم هو الذى يطالب بهذا فى أيامنا ••• أما التزاماتى هنا ، أما هذه الاستجابات وهذه الشكليات كلها التى جئت على ذكرها ، فعليك أن تعلم حقاً يا عزيزى روديون رومانوفتش أن هذه الاستجابات كثيراً ما تحيّر القاضى أكثر مما تحيّر المتهم ••• كما أُلعبت أنت الى ذلك بكثير من رهاقة الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمع الى شىء من هذا البتة) • نعم ، ان المرء ليرتبك ، ان المرء ليرتبك حقاً ، وتختلط عليه الأمور • وهذا يتكرر هو نفسه دائماً ، يتكرر هو نفسه دائماً ، على وتيرة واحدة ، كقرع الطبل ••• نعمة واحدة ••• على أننا موعودون الآن باصلاحات ، فستغير اسمائنا * على الأقل • هى • هى • هى •! ••• أما عن أساليبنا القضائية — على حدّ تعبيرك الظريف الفكه — فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • قل لى من فضلك : أى متهم لا يعرف ، ولو كان أجهل فلاح ، أن المحقق انما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حدّ تعبيرك المناسب الموفق) ، بأن يلقي عليه أسئلة لا تمت الى الموضوع بصلة ، ثم يهوى على رأسه بالموضوع كأنه يهوى عليه بساطور •••

هىء هىء هىء ... تعبيرك الموفق أيضاً ... هىء هىء ! ... اذن لقد ظننت فعلاً أننى حين حدثتك عن مسألة السكنى على نفقة الدولة انما كنت أريد ... هىء هىء ! يا لك من فتى مليء بالسخرية ! لا ، لن أفعل شيئاً من هذا . آ ... بالمناسبة ... ان كلمة تستدعى كلمة أخرى ، وان فكرة تستحضر فكرة ثانية ... لقد أشرت ، منذ قليل ، الى أصول الاستجواب وقواعده ، كما تتذكر ... أشرت الى الشكل الذى يجب التقيد به فى الاستجواب . ولكن قل لى : ما هو الشكل ؟ ان الشكل ، فى كثير من الأحيان ، لا يكون له أى معنى . ورب حديث ودى أنفع كثيراً من استجواب يتقيد فيه المحقق بالشكل ، ويلتزم فيه القواعد والأصول . طبعاً ... لا يمكن أن يختفى الشكل اختفاء تاماً ، فى وسعك أن تطمئن من هذه الناحية . ولكن ما الشكل فى حقيقة الأمر ؟ ليس ينبغى للشكل أن يعرقل عمل قاضى التحقيق فى كل لحظة . ان مهنة قاضى التحقيق فنٌ حر ان صح التعبير ... أو هى شىء يشبه أن يكون ... هىء هىء هىء ! ...

توقف بورفير بتروفتش ليسترد أنفاسه . كان يتكلم متدفقاً كالسيل ، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل ، وتارةً يدس كلمة صغيرة أشبه بلفظ ، ليعود بعد ذلك فوراً الى هذره التافه ولغوه السخيف . وكان كمن يركض فى الغرفة ركضاً ، هازأً ساقيه القصيرتين السميتين مزيداً من الهز ، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره ، محرّكاً يده اليسرى بإشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً . ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثاً أمام الباب ، وبدا عليه أنه يصيح بسمعه لحظة . تساءل راسكولنيكوف : « أهو ينتظر شيئاً ؟ »

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال مرحباً وهو يلقي نظرة فيها طيبة أرعشت الشاب وأثارت شكوكه وريبه :

- الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من إجراءاتنا القضائية...
 هيء هيء... ان أسألينا - بعضها لا كلها طبعاً - توهم بأنها مستوحاة
 من سيكولوجيا عميقة ، مع أنها في حقيقة الأمر مضحكة تماماً ، بل هي
 في كثير من الأحيان عقيمة ، ولا سيما عند التقيد بالشكل تقيداً دقيقاً ،
 ولكن... فلنعد الى مسألة الشكل هذه نفسها : لتفرض أنني مكلف
 بالتحقيق في قضية ، وأنتى أعرف أو قل أعتقد أنتى أعرف أن الجانى هو
 فلان أو فلان... أنت تنهياً لمهنة القضاء يا روديون رومانوفتش ، أليس
 كذلك ؟

- نعم ، كنت أدرس القانون .

- طيب ، هذا اذن مثال صغير يمكن أن يفيدك فى المستقبل ، ان
 صح التعبير... لا يذهبن بك الظن الى أنتى أريد أن ألقنك دروساً
 أنت الذى تكتب مقالات عن الاجرام . لا ، فانما أنا أضرب لك هذا المثال
 من حيث هو واقعة . لتفرض أنتى ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو
 الجانى . فعلام أقلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة ، حتى ولو ملكت
 أدلة عليه ؟ صحيح أنتى قد اضطر أن أعقل فلاناً بأقصى سرعة ، ولكن
 فلاناً الآخر الذى ليس له ذلك الطبع نفسه ، قد أتركه يتجول فى المدينة ،
 هه ؟ أحسب أنك لا تفهم عنى تماماً ، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد
 من الوضوح . لتفرض أنتى قبضت عليه قبل الأوان ، أفلمت أمنجه
 بذلك نوعاً من عون نفسى ؟ هيء هيء ! أضحكك هذا الكلام ؟ (ان
 راسكولنيكوف لم يخطر بباله قط أن يضحك . كان جالساً ، كازاً
 شفتيه ، لا يحول عن عينى بورفير بتروفتش نظرتة المتقدة الملهبة) .

هذا هو الأمر رغم ذلك ، ولا سيما مع بعض الأفراد • نعم نعم ، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً ، ولا بد من تنويع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد • قد تقول لى إن هناك اثباتات ••• طيب : لنسلم بأن هناك اثباتات ! ولكن الاثباتات يا عزيزى تكون فى أكثر الأحيان ذات حدين ، وأنا قاضى تحقيق ، فعندى اذن نواحى ضعف ، أعترف لك بذلك • أنا أتمنى أن يكون دليلى قاطعاً صارماً كاستدلال رياضى ، كبرهان رياضى • أنا فى حاجة الى برهان بديهي كقولك ان اثنين واثنتين أربعة ، أو الى شىء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً فى وضوحه وجلالته • فاذا اعتقلت الشخص قبل الأوان ، فأتى مهما يكن اقتناعى قوياً بأنه هو الجانى ، أحرم نفسى بذلك من الوسائل التى ستحملة على الكشف عن نفسه كشفاً أتم • لماذا؟ لأننى أكون قد ألزمته بوضع معين ان صح التعبير ، أى أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية ، ففلت منى ويدخل فى قوقعته ، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر • يقال ان الناس الأذكياء فى سياستوبول ، بعد معركة ألما * رأساً ، قد خافوا كثيراً فى أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولى على سياستوبول فى الحال • فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار على الأصول ، فبدأ يحفر الخندق الأول ، شرُّوا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً • فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر ، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت • ما بالك تضحك أيضاً ؟ أما تزال لا تصدقنى ؟ أنت على حق ، من وجهة نظرك ، على ح •• ق ! هذه حالات خاصة ، وأنا أوافقك كل الموافقة • ان الحالة التى أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً • ولكن يجب علينا يا عزيزى روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التى تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة ، والتى على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتسجل فى الكتب ، لا وجود لها ، وذلك لسبب بسيط هو

أن كل فعل (ولنفرض أنه جريمة) سرعان ما يتحول الى حالة خاصة ، بل الى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أى فعل آخر . وفى بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة فى نوعها . وفى تلك الحالات أدع الشخص وحيداً ، لا أزعجه ، لا أعتقله ، ولكنه اذا علم أننى فى كل ساعة ، بل فى كل دقيقة ، أعرف كل شيء ، وأننى أراقبه ولا تنمض عيني عنه ؟ اذا أصبح فريسة ارتياب مستمر وخوف متصل ، فيمينا ليأخذني عندئذ دوار ، وليأتين من تلقاء نفسه . وقد يحدث أيضاً أن ينساق الى اقتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة ، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضى . وتلك هى المتعة واللذة فى الأمر . يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط ، ويمكن أن يحدث لرجل من أشباهنا ، لرجل ذكى عصرى مثقف . ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزى أن نعرف الاتجاه الذى تطور فيه شخص من الأشخاص . ثم ان هناك الأعصاب ، الأعصاب ، أترك نسيت الأعصاب ؟ الأعصاب هى الضعيفة الآن ، هى المريضة ، هى المستثارة . وما قولك فى الالتهاب ؟ ان احتياجاً كثيراً قد تجمع وتراكم فى الناس ! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب ! فهل يضيرنى اذن أن أترك الرجل يتجول فى المدينة حراً طليقاً ؟ ألا فليستمر على التجول . اننى لا أعترض على هذا أى اعتراض . فأنا أعلم ، مهما يحدث ، أنه «فريستى الصغيرة» ، وأنه لن يفلت منى ! الى أين عساه يهرب ؟ الى الخارج ؟ قد يهرب بولندى الى الخارج ، أما « هو » فانه لن يهرب ، لا سيما وأنه تحت بصرى وسمعى ، واننى اتخذت الاحتياطات اللازمة . أترأه يفر الى آخر البلاد ؟ ولكن فى آخر البلاد لا يعيش الا فلاحون ، لا يعيش الا روس حقيقيون ، أما هو الذى تثقف ثقافة حديثة ، فانه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا هى . هى . على أن هذا كله أمازيج

لم يجب رسامكولنيكوف • ظل جالساً ، صاحب الوجه ، جامداً ،
ما ينفك يحدّق الى وجه بورفير بتروفتش بانتباه ثابت •
حدث نفسه يقول متجمداً من الرعب : « هذا درس رائع ... »
ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تعبت بالفأرة كما كانت بالأمس • لا ،
ليست قوته هي ما يريد اليوم أن يظهره لي في غير طائل ، أو أن يوحى
الىّ به ... هو أذكى من أن يفعل ذلك • ان له الآن هدفاً آخر ، فما هو
هذا الهدف ؟ دعك يا صاحبي ، غباءٌ ما تفعل ، سيخافات ... أنت تحاول
أن تخيفني ... أنت تمكر وتختال ... ليس لديك أي دليل • ورجل
الأمس لا وجود له • أنت تحاول أن تربكني وأن تشوشني وأن تثير
أعصابي سلفاً حتى تهوى علىّ بالضربة المفاجئة متى انهدت قواي ...
ولكن خاب فالك ، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً ، نعم ،
سوف تطيش ضربتك ... ولكن ما باله يوحى الىّ بما يجب أن أعمله !

الى هذا الحد ، ليس الأمر طبيعياً !... أهو يعوّال على أعصابى المريضة ؟
لا ، لا يا صاحبي ، لقد أخطأ ظنك ، وعمى بصرك ... ومهما تكن قد
أعددت من شيء ... طيب ، سنرى ماذا ما أعددت !... »

واستجمع راسكولنيكوف قواه كلها ، يستعد لمواجهة نازلة رهيبه
مجهولة . ودّ في بعض اللحظات لو ينقض على بورفير بتروفتش فيخنقه
في الحال . انه منذ دخوله قد خشي أن يشعر بمثل هذا الغضب . وهو
يشعر الآن بأن فمه جاف ، وبأن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، وبأن الزبد
يتقاطر على شفتيه . ومع ذلك قرر أن يصمت ، وأن لا يقول كلمة واحدة
قبل أن يحين الحين . أدرك أن هذه هي الحطة المثلى في ظرف كظرفه ،
فهو بذلك يتجنب فضح نفسه بكلامه ، وهو بذلك أيضاً يثير أعصاب
محدثه بصمته ، فلعل محدثه هو الذي سيفضح نفسه ويكشف عن
نياته اذ يتكلم . ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل .

استأنف بورفير كلامه بمزيد من المرح ، حتى لقد كان ينقنق
تلذذاً ، فقال وهو ما يزال يدور في الغرفة :

— لا ، أنت لا تصدقني . أرى أنك لا تصدقني . تظن أنني أمطرك
بأمازيح صغيرة تافهة . وانك لعلّى حق طبعاً . فان الله نفسه قد وهب لي
مظهراً جسياً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين الا خواطر مضحكة . أنا
مهرّج ! ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك ، بل أن أكرره على مسامعك ،
يا عزيزي روديون رومانوفتش : يجب عليك أن تعذر الشيخ الذي
يكلمك . أنت شاب ، أنت في زهرة العمر ان صحّ التعبير ، وأنت لذلك
تقدر الذكاء الانساني قدراً كبيراً كسائر الشباب . ان حدة الفكر وحجج
العقل المجردة تفتنك . أنت على وجه العموم تشبه « المجلس الحربي
الأعلى » * الذي كان بالنمسا في الماضي ، هذا اذا صدق حكمي في الشؤون
العسكرية : ان أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابوليون وأسروه ،

فى خططهم التى وضعوها على الورق • نعم ، انهم فى مكاتبهم ، قد هياؤا كل شىء ، ورتبوا كل شىء ، بدقة كاملة ، ونظام رائع • ذلك ما فعلوه على الورق • أما فى الواقع فان قائدهم الجنرال ماك هو الذى استسلم مع جيشه كله • • • • • هى • هى • هى • • • • • أنتى أرى ، يا عزيزى روديون رومانوفتش أنك تسخر منى ، لأننى أنا المدنى أضرب أمثلة مستمدة من التاريخ الحربى • ولكن ما حيلتى ؟ هذه نقطة الضعف فى ، انتى أحب فن الحرب ، وأبلغ من حبه أنتى أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد • لا شك أنتى خطأت اختيار مهنتى فى هذه الحياة • كان على أن أعمل فى الجيش • هذا حق • لو عملت فى الجيش ، فلعلنى لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابليون ، ولكننى أصبح « ميجر » ناجحاً • • • • • هى • هى • هى • • • • • الخلاصة • • • • • ما دمت الآن بسبيل أن أقول لك الحقيقة عن هذه « الحالة الخاصة » ، فان الواقع والطبيعة ، يا سيدى العزيز ، هما من الأمور الهامة جداً • نعم ، صدق شيخاً مثلى • انتى أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين قال بورفير بتروفتش هذا الكلام ، فانه وهو الذى لا يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً ؛ حتى ان صوته تغير ، وظهره تحذب) • ثم انتى رجل صريح • أأست رجلاً صريحاً ؟ ما رأيك ؟ أظن أن هذا واضح • الخلاصة : أنا أقول لك هذا كله مجاناً ، لا أطلب جزاء ولا شكوراً • فلأكمل كلامى : أن يكون المرء ذكياً فتلك ميزة لامعة فى رأى • ان الفكر زينة الطبيعة ان صح التعبير ، وهو عزاء الحياة • وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكى أن يعتمد اليه من حيل • فكيف تريد لقاضى تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل فى شعاب هذه الحيل ، ولا سيما اذا كان خياله نفسه يضلله لأنه انسان كسائر البشر ؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب الى نجدة قاضى التحقيق المسكين ،

فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق • وذلك هو البلاء ، وذلك هو ما ينسأه شبابنا « الذكى » الذى « يتخطى جميع الحواجز » (على حد التعبير الذى استعملته أنت بالأمس فى كثير من الرهافة والمكر) • قد يعتمد صاحبنا الى الكذب - أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعيين ، عن « حالة خاصة » ، عن رجل مجهول - وقد يكذب كذباً فيه غاية البراعة والمكر • وقد يظن عندئذ أنه سينتصر ، أنه سيقطف ثمرات مكره ، ولكن هاهو ذا يغمى عليه فجأة فى اللحظة الحرجة الخطرة ! لنسلم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه • فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد فى غرفة فاسدة الهواء • ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدّم الينا قرينة من القرائن • صحيح أنه ذرّ الرماد فى العيون بكثير من الحذق والبراعة ، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة الى درجة كافية وذلك هو الفخ ! وفى مرة أخرى ينساق مع ذكائه المتوقد ، فيأخذ يعبت بالشخص الذى يشبه فيه ؟ فيُشحب لونه عمداً كأنما ليتسلى ، ولكن شحوبه لا يخلو عندئذ من عنصر طبيعى فكأنه شحوب حقيقى ، وهذه قرينة أخرى يقدمها • وهبه استطاع أن يخدع محدثه فى تلك اللحظة ، فإن محدثه لا بد أن يرجع عن خطئه فى الليل • نعم ، هكذا تجري الأمور فى كل خطوة • ثم انه يبادر هو نفسه الى السبق ، فيأخذ يتدخل فى أمور لا يسأله أحد عنها ، ويثرثر دون انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه ، ويسترسل فى تلميحات والماعات • نعم ... يجيء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة : « لماذا لم يُعتقل حتى الآن ؟ » النخ • هى • هى • • • وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكى رجل ، يمكن أن يقع لعالم نفسى ، يمكن أن يقع لأديب • ان الطبيعة مرآة ، ان الطبيعة أصفى مرآة ، فيكفى المرء أن ينظر فيها • نعم ، هذا هو الأمر •

ولكن ما بالك تصفر اصفراراً شديداً يا روديون رومانوفتش ؟ هل
ينقصك هواء ؟ أأفتح النافذة ؟

هتف راسكولنيكوف يقول :

- لا ، لا تزعج نفسك !

ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله :

- أرجوك ، لا تزعج نفسك !

وقف بورفير أمامه ، وانتظر قليلاً ، ثم انطلق يضحك هو نفسه
ضحكاً مجلجلاً • فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكه الهستري فجأة ،
وقال بصوت قوى متميز ، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على
ساقيه المصطكتين :

- يا بورفير بتروفتش ، اننى أرى أخيراً بوضوح أنك تشبه فى

وتنسب الى مقتل العجوز واختها اليزابث • وانى لأعترف لك من جهتى
بأننى قد سئمت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة • فان كنت تعتقد أن
من واجبك أن تلاحقنى ملاحقة قانونية فلاحقنى ، وان كنت تعتقد أن
من واجبك أن تعتقلنى فاعتقلنى ، ولكننى لا أسمح لأحد أبداً بأن
يضحك علىّ وأن يعذبنى هذا التعذيب •

وأخذت شفتاه ترتجفان ، وسطعت عيناه غضباً ، ودوى صوته دويّاً
قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكظوماً • قال يصرخ بكل قواه ، وهو
يضرب المكتب بقبضة يده :

- لا ، لن أسمح بهذا أبداً ، هل تسمع يا بورفير بتروفتش ؟ لن

أسمح بهذا أبداً !

فصاح بورفير بتروفتش يقول مرتاع الهیئة :

- آه • • يا رب ! • • ماذا هنالك ؟ عزيزى روديون رومانوفتش ،

صديقى ، ماذا أصابك ؟



قاضي التحقيق ، بورفير بتروفيتش

بريشة الفنانة السموفياتية ألكسندرا كورساكوفا

فصرخ راسكولنيكوف يردد مرة أخرى قوله :

- لن أسمح بهذا أبداً !

فقدم بورفير بتروفتش يقول بارتياح ويكاد يلصق وجهه بوجه راسكولنيكوف :

- طيب ، طيب ، اخفض صوتك ! والا قد يسمعون فيجيئون ،

فما عسى نقول لهم اذا جاءوا ؟ هلاً فكرت في هذا !

فكان راسكولنيكوف يردد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً :

- لن أسمح بهذا أبداً ، لن أسمح بهذا أبداً !

فاستدار بورفير وهرع الى النافذة يفتحها بسرعة شديدة ، قائلاً :

- ليدخل شيء من هواء . وأنت تحسن صنعاً يا عزيزي اذا شربت

قليلاً من الماء ، فهذه نوبة ...

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء ، غير أن ابريقاً ملآن كان

يوجد هناك في ركن من أركان الغرفة ، فقدم يقول وهو يركض نحو

الابريق :

- اشرب يا صديقي العزيز ، فعسى أن يحسن اليك شرب قليل

من الماء .

دُهِش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا

العطف اللذين أظهرهما له بورفير بتروفتش ، فوقف فاغر الفم يلاحظ

صاحبة باستطلاع شديد . ولكنه رفض الماء .

قال بورفير بتروفتش :

- روديون رومانوفتش ، عزيزي ! لسوف تفقد صوابك ان أنت

أصررت هذا الاصرار ، أوكد لك ... خذ ... اشرب ... اشرب

ولو جرعة واحدة . -

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس • وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس الى شفّتيه بطريقة آليّة ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة ، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئزاز •

قال بورفير بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاحظة والمراعاة ، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب :

— نعم ، هذه نوبة حقاً ! ... هانت ذا قد عدت الى مرضك القديم • رباه ! هل يمكن أن لا يدارى المرء نفسه الى هذا الحد ؟ لقد جاءنى دمترى بروكوفتش أيضاً ، أمس ... أنا أوافق ... أوافق على أن لى طبعاً سيئاً ... أتكلم ... وأتكلم ... وهذه هى النتائج التى تستخرجانها من كلامى ! .. رباه ! نعم ، جاءنى أمس ، مساءً ، بعدك ، وتعشينا ، وتكلم ، وتكلم ، فلم أفعل الا أن أرفع ذراعى الى السماء ! بالمناسبة ، يخطر ببالى الآن هذا السؤال : أتراك أنت أرسلته ؟ ولكن اجلس يا عزيزى ! هلاًّ جلست ! اجلس ، ناشدتك الله ! ...

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

— لا ، لم أرسله أنا ... ولكنى علمت أنه جاء اليك ، وكنت أعرف سبب مجيئه أيضاً ...

— كنت تعرف سبب مجيئه ؟

— نعم ، كنت أعرف سبب مجيئه ، فماذا تستتج من ذلك ؟

— يا عزيزى روديون رومانوفتش ، هل تظن أننى أجهل أى عمل من أعمالك ؟ اننى أعرف كل شئ ، اننى مطلع على كل شئ ! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت « تستأجر تلك الشقة » عند هبوط الليل ، وأنتك شددت حبل الجرس ، وأنتك ألقيت أسئلة عن الدم ، وأنتك حيرت العمال

والبوابين • اننى أفهم حق الفهم الحالة النفسية التى كنت عليها • ولكننى
أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً ، أحلف لك ! •• سوف
يستولى عليك الدوار • ان الغضب الذى أثارته فيك الاساءات ، اساءات
القدر أولاً واساءات رجال الشرطة بعد ذلك ، ان هذا الغضب ، مهما
يكن غضباً نبيلاً ، يغلى غلياناً شديداً فى نفسك ، وأنت لذلك تمضى الى
هنا وهناك ، لتجبر الناس ، ان صح التعبير ، على أن يصفوا اليك ،
ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدة الى الأبد • نعم ،
لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات ، وسئمت جميع هذه الشبهات •
أليس هذا صحيحاً ؟ ألم أدرك حائتك النفسية ؟ ••• ولكننى أقول لك
انك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك ، وانما ستجعل صديقنا
رازوميخين يفقد عقله أيضاً • انه « أطيب » كثيراً من أن يُقحمَ فى مثل
هذه الأمور ، وأنت تعلم ذلك حق العلم • انك أنت مريض ، أما هو
فإنسان طيب ، وسيلتصق مرضك به ••• سأقصُ عليك هذا حين تهدأ
يا عزيزى ••• ولكن ما بالك لا تجلس ؟ اجلس يا عزيزى ناشدتك
الله ! ارجوك ، استرح ، ان وجهك منقلب ••• هلاً جلست ! •••

جلس راسكولنيكوف • لقد انقطع ارتجافه ، ولكن جسمه كله كان
يحترق من الحمى • وكان يصغى الى بورفير بتروفتش الذى يتحرك
حوله بكثير من المودة والصداقة ، كان يصغى اليه بدهشة ذاهلة واتباه
شديد • ولكنه كان لا يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضى
التحقيق ، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً الى التصديق • ان الأقوال
المفاجئة ، غير المتوقعة ، التى قالها بورفير عن الشقة قد صعقته صعقاً :
« كيف ؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه ؟ ويتحدث عنها هو
نفسه ؟ » •

تابع بورفير كلامه فقال بسرعة :

- نعم ، فى حولياتنا القضائية حالة تشبه هذه الحالة تقريباً ، حالة سيكولوجية مرضية ، كالحالة الراهنة • اتهم رجل نفسه بارتكاب جريمة قتل • يا لها من قصة ! لقد اخترع عالماً بكامله من الأوهام ، وقدّم وقائع ، ووصف ظروفًا شابت بعضها ببعض ! لماذا ؟ لأنه ، على غير ارادة منه اطلاقاً ، كان مسئولاً بعض المسئولية عن جريمة القتل تلك - بعض المسئولية فقط - فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسبب دفعهم الى ارتكاب جريمة القتل ، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب ، وأخذ يرتكب حماقات ، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام ، واختلطت فى عقله الأمور ، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل • ولكن مجكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً ، فبرّئ المسكين ، وجعل تحت الوصاية • شكراً لمجكمة النقض ! آ آ آ ... طبعاً يا عزيزى ... من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة الى الاحتياج هذا الجنوح ، وحين يذهب فى الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء ... ان هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية • حتى لقد يحدث لانسان فى مثل هذه الحالات أن يرغب فى اللقاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس • هذا احساس له اغراء شديد • هو المرض يا روديون رومانوفتش ، هو المرض ! أنت قد أسرفت فى اهمال معالجة مرضك ! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً ، لا صاحبك السمين البسيط ذاك ! هو الهذيان يا صاحبنى ! كل شيء مردّه عندك الى الهذيان !

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عيني راسكولنيكوف ، لحظة •

« هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن ؟ مستحيل ، مستحيل ، ومع ذلك ... » • ان هذه الفكرة الأخيرة قد روعت راسكولنيكوف ، وكان يحس مدى ما تدفعه اليه من حنق مسعور ، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله •

صاح يقول وهو يركّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ الى لعبة بورفير :

- أنا لم أكن أهذى ! كنت أملك نفسي تماماً ، أملك نفسي تماماً ، أملك نفسي تماماً ؟

- نعم ، أسمع وأفهم . أمس أيضاً قلت أنك لم تكن تهذى ، حتى لقد ألححت على هذه النقطة . كل ما يمكن أن تقوله ، أنا أفهمه . هـى هـى !... ولكن اصنع الى قليلاً يا عزيزى الشهم ، يا عزيزى الطبيب روديون رومانوفتش . هبنا سلّمنا بهذا ... لو كنت أنت الجانى حقاً ، لو كنت أنت الجانى فعلاً ، أو لو كان لك أى شأن فى هذه القضية المشثومة ، أكنت تلح هذا السلاح على أنك لم تكن تهذى ، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعياً كل الوعى ؟ أهذا ممكن ؟ فى رأى أنك كنت ستعتمد عندئذ الى نقيض ذلك تماماً ! لو كنت تشعر بأنك الجانى ، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلحّ ، خلافاً لذلك ، على أنك انما فعلت ما فعلت وأنت فى حالة هذيان ؟ أليس كذلك ؟

كان فى هذا السؤال مكر . ارتد راسكولنيكوف الى الوراء مستنداً الى ظهر الأريكة ؛ ومال بورفير بتروفتش نحو صامتاً ، فأخذ راسكولنيكوف يحدّق اليه مدهوشاً متحيراً .

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

- كلمة أخرى عن السيد رازوميخين ، أقصد عن مسألة كونه أتى الى من تلقاء نفسه أو بتحريض منك . لقد كان من الأفضل لك أن تقول انه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك ، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء الى بتحريض منك .

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحّ على هذا فى وقت من الأوقات .

وشعر بقشعريرة تسرى في ظهره • ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد تقبضت شفتاه على ابتسامة أليمة :

— ما تزال تكذب •

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلماته كما يجب أن يزنها :

— أنت تريد أن تبيّن لى من جديد أنك ترى مكرى رؤية واضحة، وأنت تعرف كل أجوبتى سلفاً • أنت تحاول أن تخيفنى ، أو أنت تسخر منى لا أكثر •

وفيما كان يقول له هذا الكلام ، ظل يحدّق اليه ، ثم اذا بعداوة لا حدود لها تسطع فى عينيه ، فهتف يقول :

— أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • انك تعلم حق العلم أن خير خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق فى حدود الامكان ، وأن لا يخفى ما لا حاجة الى اخفائه • أنا لا أصدّقك !

قال بورفير ضاحكاً ساخراً :

— ما أصدقك ! ان المرء لا يعرف حقاً من أى طرف يمسكك • هذه اذن فكرة ثابتة عندك ! أنت اذن لا تصدقنى ؟ ولكننى أؤكد لك أنك تصدقنى ، وأنتك صدقتنى حتى الآن بعض التصديق ، وسأفعل ما يجعلك تصدقنى تصديقاً كاملاً ، لأننى أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً ، ولأننى أتمنى لك الخير مخلصاً •

أخذت شفتا راسكولنيكوف ترتجفان •

وتابع بورفير بثروفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف امساکاً رقيقاً ، بمودة وصداقة ، فوق الكوع قليلاً :

- نعم ، أتمنى لك الخير ، ثق بهذا ... وأقول لك مرةً أخيرة ان عليك أن تعتني بصحتك . من أجلك انما جاءت أسرتك ، فكّر في هذا ولا تنسه ! يجب عليك أن تهدى روع أهلك ، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة ، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروّعهم ...

- ما شأنك أنت وهذا ؟ ثم من أين علمته ؟ وفيم يهتمك ويعنيك ؟ أنت اذن تراقبني ، وأنت تحرص على أن أعرف هذا !

- اسمع يا عزيزي ، أنا انما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت ، منك أنت ! أليست تلاحظ اذن أنك من شدة ثورة أعصابك أول من يقصّ كل شيء ، على وعلى الآخرين ؟ ولقد عرفت أيضاً ، في مساء أمس ، تفاصيل شائقة جداً ، من السيد رازوميخين ، دمترى بروكوفتش رازوميخين . لقد قاطعتني الآن ، ولكنني أقول لك انك رغم رهافة فكرك قد أفقدك شكك وحذرک القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً . انظر مثلاً في مسألة الجرس تلك التي أتينا على ذكرها منذ قليل ، والتي هي واقعة هامة جداً ، ثمينة جداً (هي كذلك بلا جدال) : طيب ، لقد أطلعتك بنفسى على هذه الواقعة ، أفلا تستخرج أنت من هذا شيئاً ؟ هل كنت أفعل ذلك لو كنت أرتاب فيك أى ارتياب ؟ بالعكس ، فلو كنت أرتاب فيك حقاً ، لكان على أن أنوّم مخاوفك ، وأن لا أدعك ترى أنني على علم بهذه الواقعة ، وأن أوجهك في اتجاه آخر تماماً ثم أهوى عليك بها فجأة كأنها ضربة مطرقة (على حد تعبيرك) . لو كنت أرتاب فيك أقل ارتياب لأخذت ألقى عليك أسئلة كهذه الأسئلة : « قل لى أيها السيد : ما الذى ذهب بك الى شقة المجنى عليها ، فى الساعة العاشرة من المساء ، بل فى الساعة الحادية عشرة تقريباً ؟ لماذا شددت حبل الجرس ؟ ولماذا ألقىت أسئلة عن الدم ؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيّر البوابين ، وأردت أن تقاد الى قسم الشرطة ؟ ، كان ينبغي لى ، وفقاً للأصول المتبعة ،

أن انتزع منك افادة ، ثم أن أفتش منزلك ، وربما أن أعثلك • ولكننى فعلت خلاف ذلك تماماً • واذن فانا لا أشبهه فيك أى اشتباه • حقاً لقد فقدت القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً ، فأنت لا ترى شيئاً ••• أكرر لك هذا !•••

ارتجف راسكولنيكوف من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفير بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك •

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة :

— أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • لست أفهم نياتك ، ولكنك تكذب ، تكذب • منذ قليل لم تكن تكلمنى بهذا المعنى • لا يمكن أن يخطئنى ظنى • أنت تكذب !

استأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال متحمساً ، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية ، دون أن يبدو عليه أى اكتراث بما قد يكون رأى راسكولنيكوف فيه :

— أنا أكذب ؟ أنا أكذب ؟ عجيب كلامك ! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل ، أنا قاضى التحقيق ؟ لقد أوحيت اليك أنا نفسى بالوسائل التى تستطيع أن تدافع بها عن نفسك ؟ لقد عرضت عليك أنا نفسى تلك السيكولوجيا كلها : « المرض ، الهذيان ، غت الالهانات ، الكآبة ، رجال الشرطة ••• » ، النخ النخ • هى هى هى ! ومع ذلك أسارع فأقول لك ان جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه ، وجميع أساليب التملص هذه ، وجميع هذه الأعذار والتعللات ليست قوية متينة ، حتى انها ذات حدين • فاذا أنت تعللت « بالمرض والهذيان » واذا أنت قلت « انك قد راودتك هلوسات » وانك أصبحت لا تتذكر شيئاً » ، فان كلامك هذا كله يكون جميلاً ، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ : لماذا تراودك هذه

الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها ؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوساتك غير هذه تماماً ، أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟
هىء هىء هىء !... .

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبرياء واحتقار • ثم قال بصوت قوى وهو ينهض فيصدم بورفير قليلاً :

- باختصار يا بورفير بتروفتش : أريد أن أعرف أأنت تعدنى مبرأً من كل شبهة أم لا ؟ تكلم يا بورفير بتروفتش ، تكلم كلاماً واضحاً ، بسرعة ، حالاً !

هتف بورفير بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أى ارتباك :
- حقاً انك لمتعب !... ما حاجتك الى أن تعرف هذا ، الى أن تعرف هذا كله ، مع أن أحداً لم يبدأ حتى فى أن يقلق راحتك أى اقلاق ؟ يا لك من طفل ! لسان حالك يقول : « أريد أن ألعب بالنار ! » . فلماذا ، لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب كله ؟ هلاًّ شرحت لى الأسباب التى تدفعك الى أن تلقى علينا هذه الأسئلة كلها ؟ هه ؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً :

- أكرر لك أأنتى أصبحت لا أطيق أن أحتمل ...

- أن تحتمل ماذا ؟ عدم اليقين ؟

كذلك قاطعه بورفير • فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد :

- كفى سخرية ! لا أستطيع ! هل تفهم ؟

- اخفض صوتك ، اخفض صوتك ، والا سمعوك ! اننى أنبهك الى هذا جاداً • حذار ! لست أمزح !

كذلك قال بورفير متمتماً ، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن عما كان عليه منذ قليل ، حين كان أشبه بتعبير وجهه امرأة مروعة • بالعكس : هو الآن « يلقى أوامر » • انه قاسى الهيئة ، مقطب الحاجبين ، فكأنه عدل دفعة واحدة عن جميع الأسرار وجميع الالامعات الملتبسة • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة •

اضطرب راسكولنيكوف ، وأوشك أن يندفع فى نوبة غضب جديدة ، ولكن الشئ الغريب أنه خضع فى هذه المرة أيضاً للأمر الذى صدر اليه ، فخفض صوته •
وهمس يقول من جديد :

– لن أَرْضَى بأن أُعَذِّب هذا التعذيب •••

لقد أدرك ، وهو يشعر بألم يمازجه كره ، أنه لا يستطيع الا أن يخضع لهذا الأمر القاطع • ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً • وأضاف يقول :

– اعتقلنى ! فتش بيتى ! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من أن تعبت بى هذا العبث !••• ليس من حَقِّكَ أن •••

فقاطعه بورفير قائلاً وهو يتسهم تلك الابتسامة الساخرة نفسها ، مع تظاهره بالسُرور من رؤية راسكولنيكوف :

– ما هذا الكلام يا عزيزى ؟ انا انما دعوتك بغير كلفة ، دعوتك كما يدعو صديق صديقه •

– لا أريد صداقتك ، لا أريدها ، أنا أبصق عليها ، هل تسمع ؟ انظر : هاأنا ذا أتناول قبعتى وأنصرف • فما عساك تقول الآن اذا كان فى نيتك أن تعتقلنى ؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب •

فقال بورفير مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد ، فوق الكوع قليلاً ، ويوقفه قرب الباب :

- ولكن ألا تريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة ؟

كان مرح بورفير يزداد ازدياداً واضحاً ، وكان مزاحه يظهر ظهوراً أقوى ، فأنتهى ذلك الى اخراج راسكولنيكوف عن طوره + فقال وهو يتجمد في مكانه فجأة ، وينظر الى بورفير مذعوراً :

- أية مفاجأة صغيرة ؟ ماذا تعنى ؟

- المفاجأة الصغيرة قابعة هناك ، وراء هذا الباب ، هـى هـى هـى ! حتى لقد أقفلت عليها بالفتاح ، مخافة أن تهرب +

قال بورفير ذلك وهو يومئ بيده الى الباب المغلق فى الحاجز ، الباب المفضى الى شقته .

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه :

- ماذا ؟ أين ؟

ولكن الباب كان مقفلاً بالفتاح فعلاً .

قال بورفير :

- الباب مقفل + اليك المفتاح !

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبه .

زأر راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه :

- أنت تكذب ! أنت لا تفعل غير أن تكذب ! أنت تكذب أيها

المهرج اللعين !

قال راسكولنيكوف ذلك وهجم على بورفير ، فراجع بورفير نحو الباب ، ولكن دون أن يظهر عليه أى رعب • وقال :

— ولكن ، يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لست تستطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا • لقد خرجتَ عن طورك • لا تصرخ ، والا استدعيتَ رجالى !

— أنت تكذب ! لن يحدث شيء ! استدع رجالك ! لقد كنت تعلم أنتى مريض ، فأردت أن تهيج أعصابى وترهقنى ارهاقاً يدفعنى الى أن أفضح نفسى ! تلك كانت غايتك • لا • • • لا بد لك من وقائع ! أريد وقائع ! لقد فهمتُ الآن كل شيء • أنت لا تملك وقائع ، أنت لا تملك الا افتراضات تافهة سخيفة حقيرة ، هى افتراضات زامبوتوف ! كنت تعرف طبيعى ، فأردت أن تخرجنى عن طورى لتفقدنى بعد ذلك صوابى بقساوسة ونواب • • • أأستتظروهم هم ؟ ماذا تنتظر ؟ أين هم ؟ انت بهم !

— أى نواب تعنى يا عزيزى ؟ ما هذا الكلام العجيب ؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها ! ليس فى وسعى ، من باب « التقيد بالشكل ومراعاة الأصول » ، على حد تعبيرك ، ليس فى وسعى أن • • • انك تجهل أصول الاجراءات القانونية يا عزيزى ! ولكنك سترى • • • سوف تتقيد بالشكل ونراعى الأصول •

بهذا جمجم بورفير ، وكان أثناء ذلك يصيح بسمعه صوب الباب •

وفعللاً ، سُمعت فى تلك اللحظة ضجة فى الغرفة المجاورة •

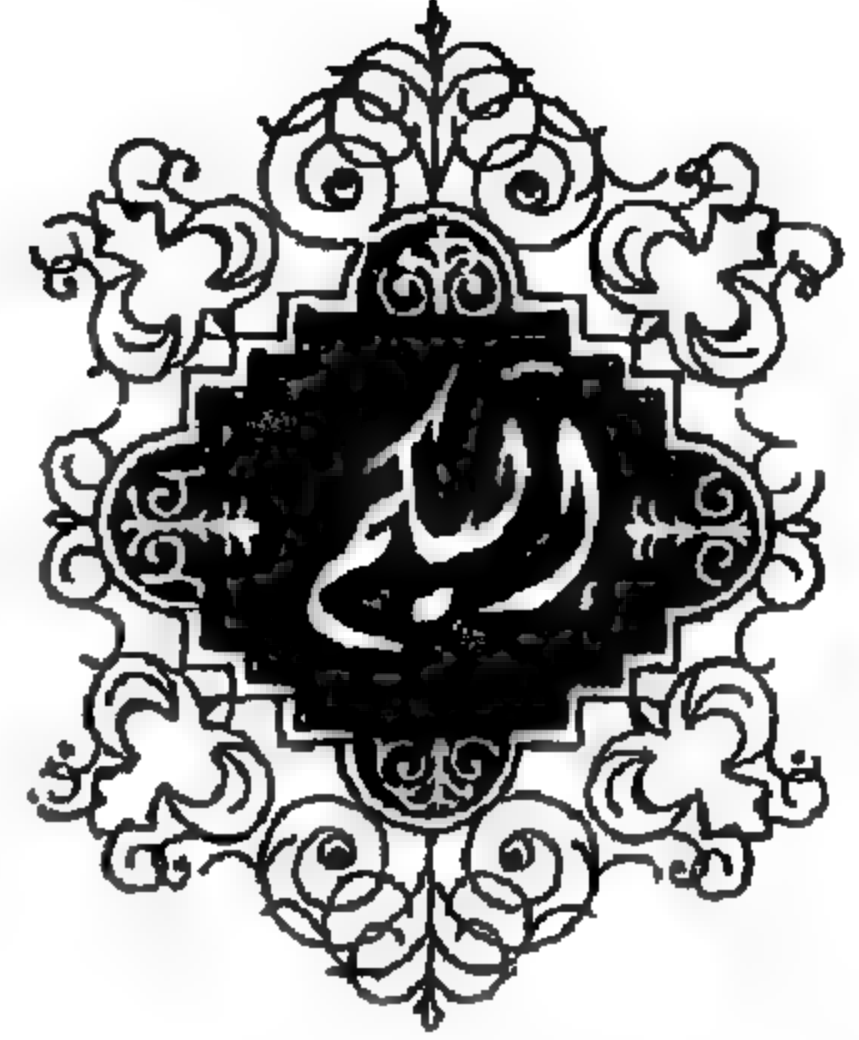
هتف راسكولنيكوف يقول :

— آ • • • ها هم أولاء يجيئون ! لقد استدعيتهم ، لقد كنت

تنتظرهم ، لقد كنت تعوّل عليهم ... طيب ... ائت بهم جميعاً الى هنا
... ائت بالنواب ، وبالشهود ، وبجميع من تشاء ... ائت بهم ! أنا
مستعد ، مستعد !

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينذاك ، حادثاً يبلغ من البعد عن
التوقع والتنبؤ في سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفير بتروفتش
كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة .

الفصل السادس



كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره
في المستقبل :

ان الضجة التي سمعت من وراء الباب قد
ازدادت بسرعة شديدة ، ثم شقَّ الباب قليلاً .
فصاح بورفير بتروفتش يسأل غاضباً :

— ماذا هنالك ؟ ألم أنبهكم مع ذلك ؟

فلم يحصل على جواب ، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين
كانوا يقفون وراء الباب يحاولون أن يصدُّوا أحد الناس عن اقتحامه .
فسأل بورفير بتروفتش متوجساً :

— ماذا هنالك ؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً :

— جيء بالمعتقل نيقولا .

فصرخ بورفير قائلاً وهو يهرع نحو الباب :

— لا داعي الى ذلك ! اذهبوا ! يمكن الانتظار ! من الذي جاء به
الى هنا ؟ ما هذه الفوضى ؟

فبدأ ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال :

— ولكنه ...

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة •

ان صراعاً حقيقياً قد تشب في ثانيّين ؟ وبدا أن أحداً من الناس كان يُصدّ بالقوة عن الدخول ، ثم اذا برجل شاحب الوجه جداً يقتحم غرفة بورفير بتروفتش •

ان مظهر هذا الرجل كان في أول الأمر غريباً كل الغرابة • كان شاخصاً ببصره الى أمام ، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً • وفي عينيه يسطع عزم وحشي ، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه في الوقت نفسه ، كأنه قد اقتيد الى المقصلة • وشفتاه بيضاوان بياضاً تاماً ، وهما تختلجان قليلاً •

هو رجل ما يزال شاباً ، يرتدى ثياب عامل ، متوسط الطول ، نحيل الجسم ، قد قصّ شعره على صورة صحن ، وقسمات وجهه دقيقة قاسية •

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثيرون ، وكان بعضهم يحاول أن يدخل •

ان هذا المشهد الذي وصفناه الآن لم يدم الا دقيقة واحدة •

قال بورفير بتروفتش مدمماً من بين أسنانه ، منزعجاً أشد الانزعاج ، خارجاً عن طوره :

— اذهب ! لم يحن الحين بعد ! انتظر حتى أستدعيك ! لماذا أسرعتم في المجيء به هذا الاسراع كله ؟

ولكن نيقولا جثا على ركبتيه • فهتف بورفير بتروفتش يقول مذهولاً :



نمقولا ، الدهان

بريشمة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوفا

— ماذا دهالك ؟

فقال نيقولا فجأةً ، بصوت مختنق لكنه قوى :

— أنا الجانى ! هذه جريمتى ! أنا القاتل !

فخيم صمتٌ مطبق خلال عشر ثوان ، حتى لكأن جميع الحضور قد جمدوا • وحتى الحارس سقطت يدها ، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً ، ولبث هناك ساكناً لا يتحرك •

وهتف بورفير بتروفتش يسأل نيقولا بعد أن خرج من ذهوله القصير :

— ماذا هنالك ؟

فكرر نيقولا بعد صمت قصير :

— أنا ... القاتل !

— كيف ؟ أنت ؟ من ذا قتلت ؟

— آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابت ايفانوفنا • قتلتهما بضربات

ساطور ...

وأضاف يقول فجأةً :

— كنت قد فقدت عقلى ...

وصمت مرةً أخرى ، وكان ما يزال راكعاً •

بدت علائم التفكير على بورفير بتروفتش بضع لحظات، ولكنه استرد نشاطه وحماسه فجأةً ، فأوماً للحضور بحركة من يده أن اخرجوا • فأسرعوا يطيعون أمره ؛ وأغلق الباب من جديد • وبعد ذلك ، نظر بورفير بتروفتش الى راسكولنيكوف الذى كان واقفاً فى ركن من الغرفة يتأمل نيقولا زائع الهيئة • وهم أن يكلمه ، ولكنه أمسك فجأةً ،

وتفرس فيه ، ثم أسرع ينتقل ببصره الى نيقولا ، ثم الى راسكولنيكوف ،
ثم الى نيقولا مرةً أخرى •

لا يدري المرء ما هو ذلك الغضب الذى استبد ببورفير بتروفتش
على حين فجأة ، فاذا هو يهجم على نيقولا فيقول له بلهجة تشبه أن يكون
فيها كره :

— لماذا تنجىء تقول لى منذ الآن انك كنت قد فقدت عقلك ؟ أنا لما
أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا ! قل : أأنت الذى قتلت ؟

قال نيقولا :

— نعم ، أنا الذى قتلت • أصرّح بذلك •

— هيه ••• وبماذا قتلت ؟

— بساطور كنت قد حملته •

— ألا انك لم تعجل حقاً • وحدك ؟

لم يفهم نيقولا السؤال •

— هل قتلتهما وحدك ؟

— نعم • ميتكا برىء • لم يشارك فى الجريمة أية مشاركة •

— لا تتعجل هذا التعجل كله فى الكلام عن ميتكا • هيه ••• ولكن

كيف فعلت ، كيف فعلت لتنزل السلم ؟ لقد رآكما البوابون كليكما •

أجاب نيقولا متعجلاً ، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى

سرعة :

— انما ركضت عندئذ ••• مع ميتكا ••• دفعاً للشبهات •

هتف بورفير بتروفتش يقول :

— هذا هو الأمر ، هذا هو الأمر •

وجمعهم يقول بينه وبين نفسه :

— انه يكرر ما لُقِّن من كلام •

ولمح راسكولنيكوف فجأةً من جديد •

أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بيقولاً أنه كان قد نسي وجود راسكولنيكوف لحظة من الزمان • وها هو ذا قد تذكره الآن فجأةً ، حتى لقد اضطرب •

قال لراسكولنيكوف وهو يرتدى نحوه :

— روديون رومانوفتش ، عزيزى ، معذرة • ليس فى امكانك أن تبقى هنا ، أرجوك ••• حقاً لم يبق لك هنا شأن ••• وأنا نفسى ••• يا للمفاجأة !••• أرجوك •••

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه ، ويشير له الى الباب •

طبعى أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعدُ ماذا جرى ، ولكنه قد استرد ثقته • فقال يخاطب بورفير بتروفتش :

— لكأنك لم تكن تتوقع هذا •

فأجابه بورفير :

— ولا كنتَ تتوقعه أنت يا عزيزى ! انظر كيف ترتجف يدك !

— وأنت أيضاً ترتجف يا بورفير بتروفتش !

— نعم ، أنا أيضاً أرتجف ••• لأتنبأ لم أكن أتوقع هذا •

وكانا قد وصلا الى الباب. وكان بورفير ينتظر خروج راسكولنيكوف

نافذ الصبر •

قال راسكولنيكوف فجأة :

— وأين المفاجأة الصغيرة ؟ لماذا لم تطلع علىّ بها ؟

قال بورفير بتروفتش مقهقهة :

— انه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك ! هيه ! انك لا تخلو من سخرية • هيا ، الى اللقاء !

— أحسب أن من الأفضل أن تقول : « الوداع » !

فغمغم بورفير بتروفتش يقول متقبّض الشفتين كأنه يتسّم :

— كل شيء مرهون بإرادة الله ، كل شيء مرهون بإرادة الله •

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدّق اليه • وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى فى وسط الجمهور بوابى « تلك » العمارة اللذين اقترح عليهما فى ذلك المساء أن يقتاداه الى قسم الشرطة • كانا واقفين ، وكأنهما ينتظران شيئاً ما • لكنه ما ان صار فى السلم حتى سمع وراءه صوت بورفير بتروفتش من جديد • فلما التفت رآه قد أدركه وهو يلهث لهاثاً قوياً •

— كلمة ، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش • فيما يتعلق بكل ما حدث ستجرى الأمور على مشيئة الله ، ولكن ما يزال علىّ ، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول ، أن ألقى عليك بعض الأسئلة • لهذا سنلتقى مرة أخرى ، أليس كذلك ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسماً • ثم أردف يقول مرة أخرى :

— أليس كذلك ؟

فى وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك .

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً ، وأصبح يشعر برغبة قوية فى التفاخر :

- وأنت أيضاً ، يا بورفير بتروفتش ، لا تؤاخذنى على ما بدر منى منذ قليل . لقد اندفعت بعض الاندفاع ...

فعاد بورفير بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح :

- لا قيمة لهذا ... لا قيمة لهذا ... أنا أيضاً سىء الطبع ...
أعترف بذلك ، اعترف بذلك . ولكننا سنلتقى من جديد ، ان شاء الله .
سنلتقى أكثر من مرة .

قال راسكولنيكوف :

- وستعارف تعارفاً نهائياً . أليس كذلك ؟

فقال بورفير بتروفتش مؤيداً :

- نعم ، ستعارف تعارفاً نهائياً .

قال ذلك وهو ينظر الى راسكولنيكوف فى جد وحرص ، رغم أنه يغمز بعينه . وأضاف يسأله :

- أأنت ذاهب الآن الى عشاء عيد ميلاد ؟

- بل الى عشاء جنازة .

- نعم نعم ، عشاء جنازة ! راع صحتك . الصحة أهم شيء ، هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

- لا أدري حقاً يا بورفير بتروفتش ما الذى يجب أن أتمناه لك .

ولكنه التفت فجأة ، فأضاف يقول وهو يقابل بورفير وجهاً لوجه :
 - انتى أتمنى لك نجاحاً كبيراً • ولكن ما أسخف وظيفتك !
 وكان بورفير يهيمُ أن ينصرف ، ولكنه ما ان سمع هذا الكلام حتى
 سأل ناصباً أذنيه :

- وظيفتى سخيفة ؟ لماذا ؟

- دعك ••• دعك !

لا شك فى أنك عذبت هذا المسكين نيولاً عذاباً شديداً ، عذاباً
 سيكولوجياً ••• على طريقته ••• الى أن اعترف • لا شك فى أنك
 ظلمت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك : « أنت القاتل ، أنت القاتل » • والآن
 وقد اعترف ستمضى تحقنه بنعمة أخرى قائلاً له : « أنت تكذب • لست
 أنت القاتل • لا يمكن أن تكون أنت القاتل • لقد دُفعت الى التظاهر
 بأنك أنت القاتل ، ولكن ••• » فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة
 والحالة هذه ؟

- هـى هـى هـى ••• اذن لقد لاحظت منذ قليل ما قلته أنا لنيولاً
 من أنه « يردد ما لقن » ؟

- كيف لا ألاحظ ذلك ؟

- ها ••• انك لحاضر الذهن حقاً ! انك تلاحظ كل شئ ! ان لك
 فكراً فكهاً حاداً ! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية • هيه •••
 يقال ان جوجول كان ، بين سائر الكتاب ، هو الذى يملك هذه الموهبة
 الى أقصى درجة ، أليس كذلك ؟

- نعم ، جوجول •

- صحيح • هو جوجول • الى اللقاء !

عاد راسكولنيكوف الى بيته رأساً • وكان قد بلغ من شدة الارهاق والاعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتمى على ديوانه ، فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء الا ليسترريح ويستجمع شتات أفكاره • لم يحاول حتى أن يعلل سلوكه ويقول • كان مذهولاً مشدوهاً • كان يرى في اعترافه يقول شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب ، شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه وأن ينفذ الى كنهه • ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية : ان كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ، ولا بد أن يعودوا اليه ويتشبهوا به من جديد • على أنه سيقى حراً الى أن يحين ذلك الحين • فينبغي له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته ، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه !

لا يمكن تفاديه ؟ الى أى حد ؟ وأخذ الموقف يتضح • فحين تذكر راسكولنيكوف ، « على وجه الاجمال » ، المشهد الذى جرى بينه وبين بورفير ، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً • صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفير بعد ، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته • ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته ، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من « اللعبة » التى حاولها بورفير • لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماً بأن يقدم لبورفير وقائع ثابتة • كان بورفير يعرف ما يتصف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضى ، وقد نفذ الى حقيقة طبعه منذ أول نظرة ، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة ، وان يكن قد أسرف فى التعجل بعض الاسراف • صحيح أن راسكولنيكوف قد تورط فى كلامه مع بورفير ، ولكنه لما تقدم له « وقائع ثابتة » • فليس هناك حتى الآن الا ظنون وتخمينات • ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته ؟ ألم يكن مخطئاً البته ؟ ما هى النتيجة المعينة المحددة التى كان بورفير يسعى اليها اليوم ؟ هل كان قد دبّر

شيئاً لهذا اليوم نفسه ؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة ؟ أكان يتوقع شيئاً ما ؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لولا أن نزلت ، بفضل نيقولا ، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان ؟ كان بورفير قد اكتشف كل لعبته تقريباً • صحيح أنه قد أسرف في التعجل بعض الاسراف ، ولكنه قد اكتشف لعبته على كل حال (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) • ولو كان يملك معلومات أخرى لما قصر في اظهارها والاستناد اليها • ثم ما هي تلك المفاجأة التي ألمع اليها ؟ أكانت هذه مزاحاة ؟ وهل لهذه المزاحاة من معنى أم هي ليست بذات معنى ؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة ؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس ؟ وأين اختفى ذلك الرجل ؟ أين هو اليوم ؟ ذلك أنه اذا صدق أن بورفير يملك شيئاً اثباتياً ، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس •

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره ، مائلاً الى أمام ، واضعاً كوعيه على ركبتيه ، دافئاً وجهه في يديه • وما يزال ارتعاش عصبى يهز جسمه كله • ونهض أخيراً ، فتناول قبعته ، ولبث يحلم خلال لحظة ، ثم اتجه نحو الباب •

ان نوعاً من احساس تنبؤى كان يقول له انه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان • وشعر فجأة بشيء من فرح : أراد أن يذهب الى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة • كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً ، ولكنه يستطيع أن يصل الى المأدبة في حينها ، فيرى هنالك صونيا فوراً •

توقف ، وفكّر ، وظهرت على شفّيته ابتسامة مريضة • وقال يردد بينه وبين نفسه :

- اليوم ! اليوم ! فى هذا اليوم نفسه يجب ***

وفى اللحظة التى همّ فيها أن يفتح الباب ، ففتح الباب من تلقاء نفسه فجأة • ارتعش راسكولنيكوف ، وتراجع الى الوراء بوثبة • كان الباب يفتح ببطء ورفق • وظهر شكل انسانى ، هو شكل الرجل الذى خرج بالأمس « من تحت الأرض » •

وقف الرجل على العتبة ، ونظر الى راسكولنيكوف صامتاً ، ثم تقدم فى الغرفة خطوة • هو اليوم كما كان بالأمس حزين الوجه جداً ، وها هو ذا يزفر زفرة كبيرة بعد لحظة قصيرة • ليس يعوزه الا أن يسند خده على راحة يده ، وأن يميل برأسه الى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه •

سأله راسكولنيكوف كالمجنون :

- ماذا تريد ؟

فلزم الرجل الصمت لحظةً أخرى ، ثم انحنى أمامه فجأة حتى كاد يلامس الأرض ، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال •
صاح راسكولنيكوف يسأله :

- ماذا تفعل ؟

فقال الرجل بصوت خافت :

- أنا مذنب !

- ما ذنبك ؟

- أننى راودتنى أفكار شريرة خبيثة !

ونظر كل منهما الى الآخر • وتابع الرجل كلامه فقال :

- كنت 'منزعجاً • فلما جئت أنت فى ذلك اليوم ، ولعلك كنت

عندئذ فى حالة سكر ، فطلبت من البوابين أن يقتادوك الى قسم الشرطة ، وألقيت أسئلة عن الدم ، آلمنى أن أرى أنهم لم يكثرثوا بالأمر ، وعدوك سكران لا أكثر ، وبلغت من شدة الألم أننى أرقت فلم أستطع الى النوم سيلاً • واذ حفظت عنوانك ، فقد جئت مساء أمس أسألك •••

قاطعته راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك :

— من الذى جاء ؟

— أنا ، أنا الذى أسأت اليك •

— أنت اذن من تلك العمارة ؟

— نعم ، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين ، ألا تتذكر ؟
لى هنالك دكان صغيرة ، منذ زمن طويل • أنا أعمل فى اصلاح الفراء ، وأقوم بعمل فى بيتى • والأمر الذى آلمنى خاصة •••

تذكر راسكولنيكوف تذكرًا واضحًا ، على حين فجأة ، كل المشهد الذى جرى أمس تحت الباب الكبير • فقال لنفسه : حقًا كان هنالك ، عدا البوابين ، أشخاص عدة بينهم نساء • وتذكر أيضًا أن صوتًا من الأصوات قد اقترح اقتياده الى قسم الشرطة • انه لم ير وجه الرجل الذى تكلم حينذاك ؟ ولو قد رآه لما كان فى وسعه أن يتعرفه على كل حال • ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه •

هذا هو اذن تفسير ليلة أمس تلك المروعة ! وأفزع ما فى الأمر أنه كاد يضيع نفسه فعلاً بسبب حادثة « تافهة » الى هذا الحد من التفاهة • ان هذا الرجل لا يستطيع اذن أن يروى شيئًا آخر غير ذهابه الى الشقة وسؤاله عن الدم • معنى هذا أن بورفير أيضًا لا يملك أى دليل قاطع ، لا يملك أية واقعة ثابتة ، عدا ذلك « الهذيان » ، عدا تلك « السيكولوجيا ذات الحدين » • هو لا يتصور اذن واقعة أخرى

(ولا يجب عليه أن يتصور ، لا يجب عليه ، لا يجب عليه) ... ما الذى كان يمكن أن يصنعوه به اذن ؟ كيف كان يمكن أن يربكوه وأن يورطوه فى الاعتراف ولو اعتقلوه ؟ وينتج عن هذا اذن أن حادثة ذهابه الى الشقة لم يعلم بها بورفير بتروفتش الا منذ قليل ، وكان قبل ذلك يجهلها •

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد مضت فى ذهنه فكرة مباغتة :

- أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفير ... اننى ذهبت الى هناك ؟

- بورفير ؟

- نعم ، قاضى التحقيق •

- صحيح • قلت له ذلك • فلأن البوابين لم يذهبوا اليه فى ذلك اليوم ، ذهبتُ اليه أنا •

- اليوم ؟

- قبلك بدقيقة واحدة • وقد سمعت كل شيء ، كل شيء ، سمعت

كيف كان يعذبك ؟

- أين ؟ كيف ؟ متى ؟

- منذ قليل ، هناك ، عنده ، وراء الحاجز • بقيت هنالك طول

الوقت •

- كيف ؟ أأنت « المفاجأة الصغيرة » اذن ؟ ولكن كيف تمَّ

هذا ؟ قل !

بدأ الرجل يتكلم فقال :

- حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطيعوتى ، ويرفضون أن

يذهبوا الى قسم الشرطة بحجة أن الوقت متأخر ، وأن قاضى التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا اليه بسرعة أكبر ، تضايقت كثيراً ، وأرقت طول الليل ، وحصلت على معلوماتى • فلما حصلت عليها ، ذهبت الى قسم الشرطة فى هذا الصباح • فى المرة الأولى لم يكن القاضى هناك ، فرجعت بعد ساعة ، فلم أستقبل • وفى المرة الثالثة قبلونى • رويت للقاضى الأشياء كما وقعت ، فأخذ يركض فى الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده ، ويقول : « ماذا تفعلون معى يا عصابة من قطاع الطرق ؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجيئوننى به ! » • وبعد ذلك خرج راكضاً ، ونادى أحداً ، فأخذ يكلمه فى ركن • ثم عاد نحوى ، وأخذ يلقي على أسئلة ويشتمنى • لا منى كثيراً • وقصصت أنا عليه كل شئ ، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيئنى ، وقلت له أنك لم تعرفنى • عندئذ عاد يجرى فى الغرفة ويلطم صدره • كان يركض ركضاً ، وكان غاضباً • • • ومنذ ذكر له أنك أتيت ، قال لى : « أسرع ، اختبئ وراء الحاجز ، وابق هنالك بدون حراك ، مهما تسمع » • وحمل الى بنفسه كرسيّاً ، وأغلق على الباب قائلاً : « قد استدعيتك » • ولكن حين جيئ بنيقولا ، صرفنى بعد أن صرفك فوراً • وقال لى : « سأستدعيتك مرةً أخرى لأستجوبك » •

– وهل استجوب نيقولا أمامك ؟

– صرفنى بعد أن صرفك فوراً ، وأخذ يستجوب نيقولا •

توقف الرجل عن الكلام ، وانحنى مرةً أخرى ، ولا مست احدى أصابعه الأرض مرةً أخرى ، وقال :

– اغفر لى وشائتى والاساءة التى ألحقتها بك •

فأجابه راسكولنيكوف :

— الله يغفر لك !

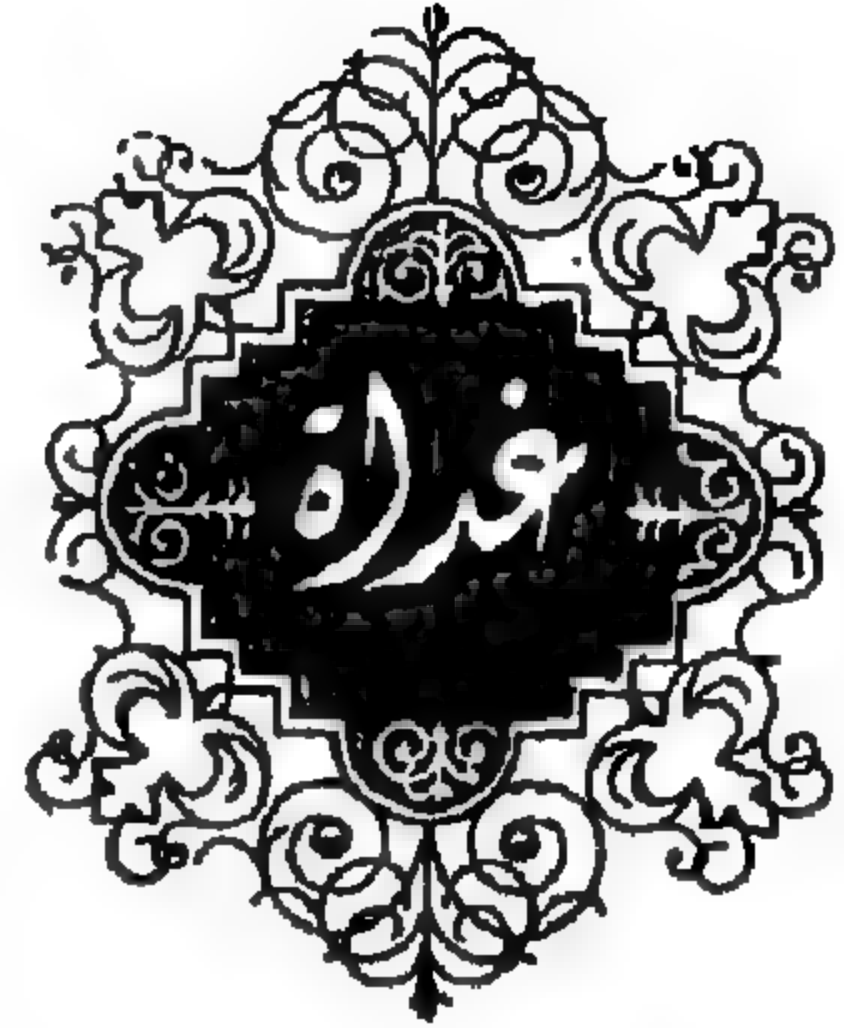
وبعد أن نطق الرجل بذلك الكلام انحنى مرة ثالثة ، ولكنه لم ينحن في هذه المرة حتى الأرض ، بل حتى الحزام فقط ، ثم استدار على عقبيه ببطء وخرج من الغرفة •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « كل شيء ذو حدين ، كل شيء هو الآن ذو حدين » • ثم غادر الغرفة هو أيضاً ، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أى وقت مضى •

قال وهو يهبط السام ويتسم ابتسامة ساخرة : « الآن ستتابع الصراع » • وكانت الابتسامة الساخرة موجهةً ضدّ نفسه في هذه المرة : كان يتذكر عندئذ « جيبه » ، بكره واحتقار •

الجزء
الخامس

الفصل الأول



اليوم المشؤم الذي جرت فيه المناقشة الحادة بين بطرس بتروفتش وبين دونيا وبولشسيرا ألكسندروفنا ، استيقظ بطرس بتروفتش من نومه وثاب الى صوابه ، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض ، أنه مضطر الى أن يقبل ، قبوله لواقع راهن حاسم ، الأمر الذي كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً . ان الأفعى السوداء ، أفعى الأناثية الجريحة المهانة ، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل . فما ان نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر الى وجهه في المرأة . لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد في افراز الصفراء . غير أن كل خطر من هذه الناحية كان ، حتى الآن على الأقل ، قد تمّ تفاديه . فلما تأمل في المرأة وجهه النحيل الأبيض المتعجّن قليلاً منذ بعض الوقت ، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد في مكان ما خطية قد تشوقه أكثر مما شاقته دونيا . ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه ، فبضق بصقة قوية من شدة غضبه ، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة في شفتي صديقه الشاب أندره سيميونوفتش ليزياتيكوف الذي يسكن معه . ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بطرس بتروفتش الذي أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينه وبينه في الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجلها له . وتضاعف غضبه وحنقه حين قدّر فجأة أنه ما كان ينبغي

له أن يطلع آندره سيميونوفتش على نتائج المقابلة • هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ أمس بشدة الاندفاع ، وفورة الغضب ، وتسرع البوح • • • وشاءت المصادفات طوال ذلك الصباح ، كأنما عن قصد وعمد ، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات ، وأن تلاحقه المنغصات بعد المنغصات • فحتى في مجلس الشيوخ كان ينتظره اخفاق في القضية التي كان يعالجها • وقد أحققه خاصة مالك الشقة التي استأجرها بطرس بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب ، وأصلحها على نفقته هو • فان مالك الشقة هذا ، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بعض الغنى ، وأصله ألماني ، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بنداً واحداً من بنود عقد الإيجار ، وأصرّ على أن يدفع له بطرس بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد ، رغم أن بطرس بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جددت تجديداً شبه تام • وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث ، فان صاحب المتجر لم يشأ أن يرد اليه روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث ، رغم أن قطعة واحدة من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد • قال بطرس بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه : « لن أتزوج مع ذلك خصيصة من أجل أثاث ! » • وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد ، فتساءل : « أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع ، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً ؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة ؟ » • وتراءت له صورة دونيتشكا الفاتنة الأخاذة ، فتمزق قلبه حسرة ولوعة من جديد ، وعانى عذاباً أليماً خلال دقيقة ، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافية لقتله ، لرغب تلك الرغبة على الفور •

وقال لنفسه وهو يعود الى غرفة ليزياتنيكوف كاسف البال مكثب النفس حزينا : « من أخطائي أيضاً أنني لم أعطيهم مالا ! شيطان يأخذني !

ما بالى تصرفت تصرف يهودى ؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح ،
وانما أنا أردت أن أبقّهم فى حالة الحاجة والعوز ، حتى أجعلهم يعدوننى
منقذا ومخلصاً ... آه ... لو أننى أعطيتهم خلال هذه المدة ... ألفاً
 وخمسمائة روبل مثلاً ، لأعداد جهاز العرس ... لو أننى قدمت هدايا
 صغيرة ، لو أننى قدمت أنواعاً من تلك اللعب الصغيرة واللوازم الضرورية
 والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التى يجدها المرء
 فى متجر كنوب أو فى المتجر الانجليزى * بأثمان بخسة ، لو أننى فعلت
 ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح ، ولقامت المسألة على أسس أقوى
 وأوطد . ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف .
 ذلك شأن هذا النوع من الناس : يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ
 الخطوبة الى ردّ الهدايا والمال جميعاً . فلو كنت قد قدمت اليهم هدايا
 ومالاً لعزّ عليهم ولشّق عليهم أن يردّوها ... ثم ان ضميرها كان
 سيعذبها اذا هى فكرت فى فسخ الخطوبة : كانت ستقول لنفسها : كيف ؟
 أطرّد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً فى جميع الأوقات ؟ هم ...
 لقد ارتكبت خطأً فاحشاً . ، ثم أسرع بطرس بتروفتش ينعت
 نفسه بأنه غبى وهو يصرف بأسنانه من جديد - بينه وبين نفسه طبعاً .

فلما وصل الى هذه النتيجة عاد الى بيته وقد ازداد الشر والحق
 فى نفسه أضعاف ما كانا عليه عند خروجه منه . وقد لفت انتباهه
 الاستعدادات التى كانت قائمة فى غرفة كاترين ايفانوفنا للمأدبة الجنازة .
 كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ الأمس كلاماً غامضاً ، حتى لقد كان
 يخيّل اليه أنه يتذكر أنه دُعى الى هذه المأدبة ، ولكنه لاستغراقه فى
 همومه الخاصة لم يتبّه الى اى شىء عداها . وأسرع يستطلع مدام
 ليفكسل التى كانت أثناء غياب كاترين ايفانوفنا فى المقبرة منهمكةً حول
 المائدة ، وكانت تهمّ أن تنهض ، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع

المستأجرين مدعوون اليها ، حتى الذين لم يعرفوا منهم المتوفى ، بل وحتى آندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف ، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترين ايفانوفنا ، وأنه هو نفسه ، بطرس بتروفتش ، ليس مدعواً فحسب ، بل هو الى ذلك يُنتظر حضوره بفارغ صبر ، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأنًا وأعظمهم قدراً . وقد دُعيت أيضاً آماليا ايفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال ، رغم ما وقع بينها وبين كاترين ايفانوفنا في الماضي من حوادث طارئة مؤسفة ، وهي الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت ، ولا يخلو ذلك من أن يحدث لها لذة ومسرة . وهي فوق هذا كله ، رغم ارتدائها ثياب الحداد ، تتبخر بثوب من حرير ، جديد أنيق رشيق ، مزدان بزخارف كثيرة ، تبدو فخورة به متباهية معترزة .

هذه الوقائع كلها وهذه المعلومات كلها أُوحت الى بطرس بتروفتش بفكرة ما ، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة ، ذاهلاً بها عما عداها . ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعويين .

لسبب من الأسباب قضى آندره سيميونوفتش ذلك الصباح كله في غرفته . وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بطرس بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال : كان بطرس بتروفتش يحتقر ليزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره ، تقريباً منذ اليوم الذي أقام فيه عنده ؛ ومع ذلك كان يبدو عليه في الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية . لقد نزل عند آندره سيميونوفتش منذ وصوله الى بطرسبرج ، لا بسبب البخل الشديد فحسب - رغم أن هذا هو الدافع الرئيسى في حقيقة الأمر - بل لسبب آخر أيضاً . انه ، وهو في الريف ، قد سمع عن ربيه اليقيم آندره سيميونوفتش ، أنه شاب تقدمى متطور ، بل وأنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التي أصبحت أشبه بالأساطير . فتأثر بطرس بتروفتش

بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه * أن هذه القئات القوية ،
العالمة بكل شيء ، التي تحتقر جميع الناس ، وتفضح جميع الناس ، كانت
توحى اليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال .
لا شك أنه لاقامته بالأقاليم لم يستطع أن يكون لنفسه فكرة دقيقة (حتى
ولا تقريبية) عن شيء « من هذا النوع » . كل ما هنالك أنه سمع ،
كسائر الناس ، أنه يوجد ، في بطرسبرج خاصة ، أناس يسمون تقديمين
أو عديمين أو مصلحين * ، الخ ، ولكنه كان ، ككثير من الناس ، يضخم
دلالة هذه الألفاظ ومعناها ، حتى ليشوَّهها تشويهاً عجيباً . وهو منذ بضع
سنين انما يخشى « التشهيرات » العامة أكثر مما يخشى أى شيء آخر .
نعم ، ذلك هو الأساس الرئيسى الذى تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة ،
ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله إلى بطرسبرج . بهذا
المعنى نستطيع أن نقول انه كان « مروَّعاً » حقاً كما يُروَّع الأطفال
الصغار فى بعض الأحيان . انه قبل هذه الآونة ببضع سنين ، قد شهد
فى الريف ، وكان ما يزال فى بداية مزاولته مهنته ، حالة رجلين من
أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك التشهيرات العامة فنالت منهما بقسوة
شديدة . وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكأنما يحميانه ويرعبانه بعد
ذلك . فأما احببى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذى ناله التشهير الى
الفضيحة والجُرسة ، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من
المتاعب والنكد . ذلكم هو السبب الذى جعل بطرس بتروفتش يحرص
منذ وصوله الى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء ، وأن يفهم
الأحوال ، وأن لا تفوته المبادرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، فى سبيل أن ينال
الخطوة لدى « أجيالنا الشابة » . وكان يعوِّل فى هذا على آندره
سيميونوفتش . وعلى هذا النحو انما استطاع ، مثلاً ، حين التقى
براسكولنيكوف ، أن يقول بضع عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره .

وهو لم يلبث ، بطبيعة الحال ، أن اكتشف في آندره سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غراً الى أبعد الحدود . ولكن ذلك لم يغيّر رأيه ، ولبث قلقاً غير مطمئن . انه على وجه الاجمال لا شأن له بهذه الأفكار كلها (التى كان آندره سيميونوفتش يقرع بها أذنيه ، ويصدّع بها رأسه) ، وانما كانت له غاية معينة وهدف محدّد : كان يريد أن يعرف ، بأقصى سرعة ، « ماذا » حدث هنا و « كيف » حدث ؟ هل هؤلاء الناس أقوياء لهم حول وطول ، وسلطان ونفوذ ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما ؟ أتراه يوشى به اذا هو شرع فى هذا الأمر أو ذاك ؟ واذا وُشى به ، فما هى النقاط التى ستكون محل الوشاية وموضع التنديد والتشهير ؟ بل أكثر من ذلك : ألا يستطيع المرء ، اذا هم كانوا أقوياء ذوى سلطان ، أى يتسلل اليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضلّهم ؟ أهذا ضرورى حقاً أم لا ؟ أليس فى وسع المرء ، بواسطتهم ، أن يهيب لنفسه نجاحاً فى عمله وتقدماً فى مهنته مثلاً ؟ بايجاز : كانت مئات من الأسئلة تلقى نفسها عليه .

وكان آندره سيميونوفتش هذا ، وهو مستخدمٌ فى مكان ما بمثابة موظف ، كان رجلاً هزياً بائساً عليلًا ؛ وهو قصير القامة ، أشقر شقرة غريبة ، له على جانبيه خديه لحيّتان يبدو مزهواً بهما زهواً شديداً . وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع فى عينيه دائماً على وجه التقريب . واذا كان طبعه رخواً فان أحاديثه تدل على غرور يبلغ فى بعض الأحيان حد الغطرسة الوقحة ، وذلك يتنافى مع شكله وقامته تنافياً مضحكاً .

على أنه كان عند آماليا ايفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين ، لأنه كان لا يشرب ، ولأنه كان يدفع أجر غرفته فى موعده على نظام مطرد لا يتخلف . غير أن آندره سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا



ليزيا تنيكوف
بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورسماكوف

رجلاً غيباً في حقيقة الأمر • ان العاطفة الهوجاء هي التي ربطته بالآراء التقدمية و « أجيالنا الصاعدة » • انه واحد من تلك الفئة الكبيرة من الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي يعرفون أنها رائجة رواج « الموضة » ، والذين يفسدون ويشوهون كل ما يستعملونه ، ولو كان تعلقهم به صادقاً مخلصاً •

ثم ان ليزياتيكوف ، رغم أنه مسالم الى أبعد حدود المسالمة ، قد أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحبه بطرس بتروفتش الذي كان في الماضي ولياً أمره والوصي عليه ، حتى أصبح لا يطيق احتمال مساكنته في غرفته . ونشأ بين الرجلين كليهما نفور متبادل من تلقاء نفسه • لقد أخذ آندره سيميونوفتش يلاحظ ، رغم غيائه ، أن بطرس بتروفتش يسخر منه ويضحك عليه ويحتقره ، وأنه ليس في حقيقته ما يحب أن يبدو • وكان آندره سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه ودارون ، ولكن بطرس بتروفتش أصبح يحلو له ، ولا سيما في الأيام الأخيرة ، أن يصغى الى كلامه ساخراً مستهزئاً ، حتى لقد أصبح ينمى في ذلك الى حد اهائته • وانما نشأ ذلك عن أن بطرس بتروفتش قد اكتشف بغريزته أن ليزياتيكوف ليس رجلاً غيباً فحسب ، بل أنه أيضاً رجل متبجح ليس له أية علاقات هامة في بيئته ، وأنه لم يسمع ببعض الأفكار الا على نحو غير مباشر ، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء من القدرة في مجال « الدعاية » ، لأنه يضطرب في الكلام ويرتبك في الحديث ، فلا يستطيع كثيراً أن يشهر بأحد أو شيء • وفي هذه المناسبة يجب أن نشير عابرين الى أن بطرس بتروفتش كان خلال تلك الأيام العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل ، برضى وارتياح ، الأماديج التي كان يكيلها له آندره سيميونوفتش ، حتى ولو كانت غريبة جداً ، أو قل على الأقل انه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها • كان يصمت مثلاً حين

ينسب اليه آندره سيميونوفتش أنه يتوى أن يعاون قريباً ، بل قريباً جداً ، فى انشاء « كومون » جديدة فى مكان ما بشارع ميشتيانسكايا (شارع البورجوازيين) أو حين ينسب اليه أنه ينوى أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هواها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج ؛ أو حين ينسب اليه أنه لن يعمد الأولاد الذين سيولدون له ، الخ . كان بطرس بتروفتش ، على عادته ، لا ينكر المزايا التى تنسب اليه ، حتى لقد كان يسمح بأن تكال له أماديح من ذلك النوع ، قالى هذا الحذ كان يحب أن يمدح .

ان بطرس بتروفتش الذى بدّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب ، جالس الآن الى المنضدة يراجع عدّ حزم الأوراق المالية . وهذا آندره سيميونوفتش الذى لم يكد يملك مالاً فى يوم من الأيام يتجول فى الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر الى حزم الأوراق المالية بغير اكتراث ، بل وباحتقار . ولكن بطرس بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدّق أن آندره سيميونوفتش ينظر الى هذه الحزم بغير اكتراث حقاً . وكان آندره سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المראה أن بطرس بتروفتش ربما كانت تدور فى رأسه تلك الفكرة ، وربما كان يجد فيها لذة ، وربما كان يريد أيضاً ، بعرض هذه الأوراق المالية ، أن يسخر من صديقه الشاب ، وأن يذكره على هذا النحو بكل تفاهته ، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التى تفصلهما .

وقد وجده فى ذلك اليوم أكثر حدة ، وأقل اقتباً منه فى أى وقت مضى ، رغم أنه هو آندره سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضلة فى ضرورة اقامة « كومون » جديدة من نوع خاص . ان الملاحظات القصيرة التى كان يرسلها بطرس بتروفتش مع انشغاله بتنقيل الكرات على أسلاكها فى جهاز العدّ ، كانت تتسم بسخرية واضحة

وتتصف بقلة الكياسة + ولكن آندره سيميونوفتش ، هذا الداعية من دعاة « الأفكار الانسانية » ، كان ينسب اعتكار مزاج بطرس بتروفتش الى الأثر الذى أحدثه فى نفسه فسخ الخطبة ؛ وكان يحترق شوقاً الى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة ، لأنه يريد أن يدلى فى هذا الصدد ببعض الآراء التقدمية التى قد تواسى صديقه المحترم ، والتى « لا بد » أن تكون نافعة فى تطوره المقبل .

قاطع بطرس بتروفتش صاحبه فى أهم موضع من حديثه سائلاً على حين فجأة :

— ما مآدبة الجنازة هذه التى تهيأ عند تلك ... الأرملة ؟
فأجابه آندره سيميونوفتش باستغراب قائلاً :

— كأنك لا تعلم ! لقد حدثتك عن أمر هذه المآدبة-أمس ، حتى لقد شرحت لك آرائى فى هذا النوع من الاحتفالات + ثم اتنى قد سمعت أنها دعيت أنت أيضاً + وقد كلمتها أنت نفسك بالأمس +

— ما كنت أتوقع أن تبدد هذه الغنية التى صارت شحاذة ، ما كنت أتوقع أن تبدد فى سبيل حفلة عشاء كل المال الذى أخذته من ذلك القبي الآخر ... أقصد راسكولينيكوف ! لقد دُهِشت منذ قليل حين مررت بمسكنها + استعدادات عظيمة ! حتى الحمر لا ينقص هذه المآدبة !

وتابع بطرس بتروفتش كلامه يريد أن يجبر الحديث الى غاية لا يعرف المرء ما هى :

— دُعى أشخاص كثيرون ... الشيطان وحده يعلم ...

ثم أضاف يسأل فجأة وهو يرفع رأسه :

— ماذا ؟ تقول اتنى مدعو أيضاً ؟ متى دعيت ؟ لا أذكر اتنى دُعيت !

على أنتى لن أحضر • ما عسانى فاعلاً هناك ؟ كل ما فى الأمر أنتى قلت لها بالأمس ، عابراً ، ان فى وسعها أن تحصل ، لأنها أرملة موظف معوزة ، على معونة يساوى مقدارها مرتبات سنة • أتراها دعتنى لهذا السبب وحده ؟ هى • هى ! • • •

قال ليزياتنيكوف :

— أنا أيضاً لا أنوى أن أحضر •

— آمل ذلك • فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك ، فمن الطبيعى جداً أن يعذبك ضميرك اذا أنت فكرت فى الذهاب الى عندها •

سأله ليزياتنيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه :

— من ذا ضربت ضرباً مبرحاً ؟ عنم تتكلم ؟

— عن كاترين ايفانوفنا طبعاً • لقد ضربت كاترين ايفانوفنا مند شهر ؟ أو هذا ما سمعته أمس على الأقل • انظروا الى رجال المبادئ والعقائد هؤلاء ! هذه طريقتهم فى حل قضية المرأة ! هى • هى • هى !

وكانما خففت هذه الكلمات عن بطرس بتروفش ، فعاد ينهمك فى حساباته •

وصاح ليزياتنيكوف يقول بلهجة حائقة مغتظة ، وكان لا يطيق أن يذكره أحد بتلك القصة :

— ما هذه الاحماقات ونمائم • ما هكذا جرت الأمور ، وانما جرت الأمور على نحو آخر تماماً ! لم يطلعوك على الواقع كما حدث • هذه أقاويل ، هذه أقاويل لا أكثر ! أنا انما دافعت عن نفسى فحسب ! فهى التى هجمت على مكشّرة عن أنيابها منشبةً مخالِبها ، فما زالت بي حتى

— أنت تسعى الى مشاجرتى ، لأنك معتكر المزاج • وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة اطلاقاً ، اطلاقاً • لقد فهمت الأمر مقلوباً • انتى لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساوية للرجال فى كل شىء ، حتى فى باب القوة (كما يؤكد هذا منذ الآن) ، فقد وجب الإبقاء على المساواة فى هذه الحالة أيضاً • طبعاً • • • أنا قلت لنفسى بعد ذلك ان أمثال هذه المسائل ينبغى أن لا تُطرح أصلاً ، لأن المنازعات ما ينبغى أن توجد ، حتى انها ستكون فى مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها ، وانه لشىء غريب ، تبعاً لذلك ، أن ننشد المساواة فى مشاجرة • أنا لست غيباً الى الحد الذى • • • رغم أن المشاجرات ما تزال قائمة طبعاً بانتظار ذلك • • • أعنى أن المشاجرات ستزول فى المستقبل ، لكنها ما تزال الى اليوم موجودة • • • هو ! ان المرء ليرتبك حين يكلمك ، وتختلط عليه الأمور • • • مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب فى انتى لن أحضر العشاء • وانما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبدأ ، حتى لا أشارك فى هذه العادة السخيفة من العادات الاجتماعية ، أعنى مأدبة الجنائزة • نعم ، ذلك هو السبب • على انتى قد أحضر المأدبة ، ولو لأضحك منها ، واستهزى بها • • • من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس ، والا لما فوّت على نفسى فرصة الحضور •

— أى أنك كنت ستجلس الى مائدة الناس لتبصق بعد ذلك فى الأطباق ، ولتبصق أيضاً على أولئك الذين دعوك ؟ أليس كذلك ؟

— ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج • أنا ان فعلت ذلك فانما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة • ففى وسعى بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعا غير مباشر • ان على كل انسان أن يساهم فى تنمية الدعاية ، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى • ان فى امكانى أن أبذر الفكرة ، أن ألقى البذرة • ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة • فبم أسى اليهم اذا أنا فعلت ذلك ؟ قد يشعرون فى أول الأمر طبعاً بأن اساءة لحقتهم ، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أننى كنت نافعا لهم • انظر الى قضية المرأة تيربييفا عندنا (المرأة التى تنتمى الآن الى الكومون) • • • لقد تركت أهلها واستسلمت لرجل ، فأخذوا عليها أنها كتبت الى أبويها قائلة أنها أصبحت لا تريد أن تعيش فى الأوهام الاجتماعية ، وانها تؤثر الزواج الحر • لقد قال الناس عندئذ ان تصرفها ازاء أبويها كان فيه كثير من الغلظة ، وانها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما ، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل فى رسالتها أسلوباً أرق • أما أنا فأرى أن هذا الكلام كله سخف ، وان على المرء أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً • بالعكس : لا بد من الاحتجاج • • • وانظر الى المرأة فارتس : لقد عاشت مع زوجها سبع سنين ، ثم تركته وتركت ولديها ؛ وفى الرسالة التى بعثت بها اليه لم تتخرج من شرح رأيها بوضوح تام ، فقالت : « أدركت أننى لن أستطيع أن أكون سعيدة معك فى يوم من الأيام • ولن أغفر لك ، ما حييت ، أنك أخفيت عنى أن هناك تنظيماً آخر للمجتمع على أساس الكومون • لقد عرفت ذلك حديثاً من رجل عظيم استسلمت له وسأنتهى معه كوموناً • أقول لك هذا بصراحة ، لأننى أعتقد أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف فى شيء أن أكذب عليك وأن أخدعك • دبّر

أمورك على النحو الذى يرضيك ، ولا تأمل أن ترانى عائدة اليك ...
 انك متخلف مسرف فى التخلف • أتمنى لك أن تكون سعيداً • ، • ،
 هكذا انما ينبغي أن تكتب أمثال هذه الرسائل •

— أليست تريبينا هذه هى تلك التى قلت لى انها الآن فى زواجها
 الحر الثالث ؟

— لا بل هى فى زواجها الحر الثانى اذا نحن أحسننا النظر فى
 الأمور • وهبها فى زواجها الحر الرابع أو الخامس ، فأى خير فى هذا ؟
 لئن أسفت يوماً على موت أبوى فأنما أسفت على ذلك فى هذا اليوم •
 حتى لقد اتفق لى مراراً أن قلت لنفسى : لو كان أبواى حين لعرفت كيف
 أحتج عليهما ! نعم ، لو كانا حين لفعلت ذلك عامداً ، فأظهرتهما على
 أرائى ، وأدهشتهما أيما ادهاش ! حقاً اننى أتمنى لو أراهما حين ...
 حقاً انه ليؤسفنى أنهما ماتا !

قاطعته بطرس بتروفتش قائلاً :

— لتستطيع أن تدهشهما ؟ هى • هى • ! • • • طيب • • • افعل مايجلبو
 لك • • • ولكن قل لى : أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً ، تلك الفتاة الصغيرة
 النحيلة ، فهل صحيح ما يقال عنها ؟

— ما قيمة هذا ؟ فى رأى ، أعنى فى قناعتى الشخصية أن وضعها
 هو الوضع الطبيعى للمرأة • لم لا ؟ أقصد • • • « يجب أن نميز » • •
 لا شك أن وضعها هذا ليس فى المجتمع الحالى وضعاً طبيعياً ، لأنه ناشئ
 عن اضطرار واکراه ، أما فى المجتمع المقبل ، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً ،
 لأنه سينشأ عن اختيار حر • ثم ان هذه الفتاة من حقها ، الآن أيضاً ،
 أن تعيش كما تعيش • انها تتألم ، وألمها هو رأس مالها ان صحَّ التعبير ،
 ففى وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذى تشاء • صحيح أن روس

الأموال هذه لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود ، ولكن دور البغي سيتخذ دلالة أخرى ، وسيتم تنظيمه تنظيمًا عقلياً • ولنرجع الآن الى شخص صوفيا سيميونوفنا : اننى أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمنة احتجاج قوى مجسّد على نظام المجتمع ؛ وأنا لهذا السبب احترمها احتراماً عميقاً ، بل أكثر من ذلك اننى أغتبط لرؤيتها على هذه الحال •

— لكننى سمعت ' أنك قد طردتها من هذا البيت •

اعترت ليزياتيكوف حالة غضب شديد عنيف ، وزأر يقول :

— هذه أيضاً نمائم ! ان الأمور لم تجر على هذا النحو ، لم تجر على هذا النحو قط ! حقاً انها لم تجر على هذا النحو ! ان كاترين ايفانوفنا هى التى اخترعت كل شيء ، لأنها لم تفهم شيئاً • أنا لم أحاول فى يوم من الأيام أن أحظى بصوفيا سيميونوفنا : كنت أكتفى بتقيفها بعيداً عن كل مصلحة بريئاً من كل غاية ؛ كنت أحاول أن أنمى فيها روح الاحتجاج • لم أكن فى حاجة الا الى احتجاجها وحده • ثم ان صوفيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الادراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا فى مسكن مفروش •

— هل كنت تدعوها الى الاشتراك فى الكومون ؟

— أنت لا تجيد الا السخرية ، ولكنك تخطئ هنا خطأ فادحاً • • • اسمح لى أن أقول لك ذلك ! • • • انك لا تفهم من أمر الكومون شيئاً • فى الكومون ، لا وجود لهذا الدور • وانما نُظِمَّت الكومون من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود • فى الكومون سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً ، فما هو غبى هنا سيصبح ذكياً هنالك ، وما يبدو هنا فى الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً • كل شيء مرهون بالبيئة

التي يعيش فيها الانسان . كل شيء تحددته البيئة ، والانسان في ذاته لا شأن له . أما صوفيا سيميونوفنا فان علاقاتي بها ما تزال طيبة ، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً . نعم ، انني أحاول الآن أن أجتذبها الى الكومون ، ولكن لأسباب أخرى تماماً . لماذا تضحك ؟ اننا نريد أن ننشئ كوموناً خاصة بنا ، ولكتنا نريد أن ننشئ هذه الكومون على أسس أوسع من الأسس السابقة . لقد مضينا في اعتقاداتنا الى مدى أبعد ، وأنكرنا أشياء أكثر ، فلو خرج دوبروليوبوف من قبره لتشاجرت معه حتماً ، ثق بذلك ! أما بيلنسكى فلو خرج من قبره لأبدته إبادة ! * وأنا الآن مستمر في تنشئة صوفيا سيميونوفنا . ان لها طبيعة طيبة حسنة ، حسنة جداً !

- هيا ! انك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة ! هيء هيء ..

- أنا ؟ لا ، لا ! بالعكس ...

- بالعكس ؟ أنت تقول هذا الكلام ؟

- في وسعك مع ذلك أن تصدقني . ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني الى اخفاء الحقيقة عنك ؟ هلاً أجبتي من فضلك ؟ نعم ، هناك ظاهرة غريبة : لكانها معي متحرجة ، وجلة ، بل وخجلة !

- وأنت أثناء ذلك مستمر في تنشئتها ! هيء !... تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذه كلها ما هي الا غباوات وبلاغات !...

- لا ، لا !... آه ... ما أغلظ وما أغبى تأويلك هذا لكلمة « التنشئة » ، اعذرني ! ألا انك اذن لا تفهم شيئاً على الإطلاق ! آه ... يا رب !... ما أشد تخلفك حتى الآن !... نحن ننشد حرية المرأة ، وأنت ليس في رأسك الا ... اذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام ، وهي شيء لا جدوى منه في ذاته ، بل هي شيء سخيف أيضاً ، فانتى

أقبل تحفظها معى كل القبول : فما دامت هذه ارادتها فمن حقها أن ••
 طبعاً ، اذا قالت لى فى ذات يوم : « أنا أريدك » ، فسأعد ذلك حظاً
 سعيداً ، لأن هذه الفتاة تعجبني كثيراً • أما الآن ، الآن على الأقل ، فربما
 كان لا يوجد أحيد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومداراة
 ومراعاة • اننى انتظر وآمل ، هذا كل شىء •

— الأفضل أن تقدم اليها هدية صغيرة • أراهن أن هذه الفكرة لم
 تخطر ببالك ، أليس كذلك ؟

— أنت لا تفهم شيئاً ، سبق أن قلت لك ذلك ! صحيح أنها مومس ،
 ولكن المسألة ليست هنا ، ليست هنا البتة ! أنت تحتقرها ، لا أكثر
 ولا أقل • انك بالاستناد الى واقعة مخلة بالشرف فى رأيك ، تابى على
 كائن انسانى أن ينظر اليها نظرة فيها روح انسانية • ألا انك تجهل حتى
 طبيعتها ! ان هناك شيئاً واحداً آسف له ، هى أنها منذ زمن قد انقطعت
 عن القراءة انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستعير منى أى كتاب •
 كانت قبل ذلك تستعير منى كتباً • ومما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم
 كل ما تملكه من طاقة كبيرة ، ورغم كل ما تتصف به من عزم على
 الاحتجاج — لقد سبق أن برهنت على ذلك مرة — لا يبدو فيها قدر
 كاف من الاستقلال ، قدر كافٍ من ••• من السلبية ، قدر كاف من
 التأهب للتحرر نهائياً من أوهامها الاجتماعية ••• وسخافاتهما • ومع ذلك
 فهى تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً • لقد أدركت أكمل الادراك مسألة
 تقيل اليد ، مثلاً • لقد أدركت أحسن الادراك أن الرجل حين يقبل يد
 المرأة انما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً • لقد ناقشنا هذه المسألة
 عندنا ، فسرعان ما ناقشتها معها • وقد أصغت الى باتبهاء شديد أيضاً
 حين كلمتها عن النقابات العمالية فى فرنسا • وأنا الآن بسبيل أن أشرح

لها مسألة حرية دخول الغرف على نحو ما ستطرح هذه المسألة في المستقبل •

- ما هذه المسألة أيضاً ؟

- لقد أثبتت في الآونة الأخيرة هذه المسألة : هل من حق عضو في الكومون ، رجلاً كان أو امرأة ، أن يدخل غرفة عضو آخر ، رجلاً كان أو امرأة ، في أية ساعة من الساعات ؟؟؟ وقد تقرر أن له هذا الحق •

- غريب ! ماذا لو كان العضو ، الرجل أو المرأة ، مشغولاً في تلك الساعة بتلبية حاجة طبيعية ؟ هيء هيء !!!!!

غضب آندره سيميونوفتش ، وصاح يقول مبغضاً :

- آه هأنت ذا تعود الى هذه المسألة ! ان الأمر الهام في نظرك انما هو هذه « الحاجات » اللعينة ! ألا انتى لأحقد على نفسى لأنتى تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة ! شيطان يأخذك ! هذه عشرتك وعشرة جميع أشباهك • وأنكى ما فى الأمر أنهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هى المسألة • كأن ذلك من حقهم ! وكأن فى ذلك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز ! آ لقد سبق أن قلت غير مرة ان هذه المسألة ما ينبغى أن تُعرض أمام أغرار مبتدئين الا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم الى المذهب • بتعبير آخر : ما ينبغى أن يعالج هذه المسألة الا انسان تطور تطوراً كافياً وتحققت له تشبئة مناسبة • ثم قل لى : ما الذى تراه فى المراهيض من شىء مخجل الى هذا الحد محتقر الى هذه الدرجة ؟ انتى مستعد لأن أنظف ما تشاء من مراحيض • وصدّقنى اذا قلت لك ان هذا لا ينطوى على أى تضحية من جهتى • ذلك عمل كغيره من الأعمال ، بل انه لأكبر كثيراً من عمل رجلٍ مثل رافائيل أو بوشكين ، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً * •

- وأكثر نبلاً ، أكثر نبلاً ، هي ، هي ! ...

- ما معنى كلمة « النبل » هذه ؟ اننى لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط انسانى • « أكثر نبلاً ! » • هذه ترهة ، هذه سخافة ، هذا وهم اجتماعى بالِ أرفضه وأحتقره • الشيء النبيل هو الشيء « النافع » للانسانية • ذلك هو الشيء النبيل حقاً • أنا لا أفهم الا كلمة واحدة ، وهذه الكلمة هي : « النافع » • اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك ، فذلك هو اعتقادى !

كان بطرس بتروفتش يتمطى • لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتب ماله • ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة ، لا يدري أحد لماذا •

ان مسألة المراهيض هذه كانت ، رغم تفاهما ، سبباً لمشاجرات عدة بين بطرس بتروفتش وصديقه الشاب • والغباء فى الأمر أن أندره سيميونوفتش كان يغضب فعلاً ، أما لوجين فما كان يرى فى هذا الا فرصة للتسلية والاسترخاء • وكان فى تلك اللحظة خاصة يشتهي أن يُغَيِّظ ليزياتيكوف •

- بسبب اخفاك مساءً أمس انما أنت معتكر المزاج الى هذا الحد اليوم •

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليزياتيكوف الذى كان رغم كل « استقلاله » ورغم كل روح « الاحتجاج » لديه ، لا يجرؤ فى العادة أن يعارض بطرس بتروفتش معارضة صريحة ، وكان على وجه العموم يلتزم فى معاملته ما ألف أن يلتزمه فى معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام •

وقد قاطعه بطرس بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتناع :

- قل لي : هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي الى هنا حالاً ؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة • لقد سمعت وقع أقدام ، و ... أودُّ لو أرى هذه الفتاة •

سأله لينزياتيكوف مدهوشاً :

- ولكن لماذا ؟

فأجابه :

- هكذا ... يجب أن أكلمها • انتى مسافر بين يوم ويوم ، وأحب أن أنقل اليها ... فى وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال ، بل ذلك أفضل ، والا فقد تتخيل ما لا يعلمه الا الله ! ...

- لن أتخيل شيئاً البتة • وانما أنا ألقيت سؤالى هكذا ... فإذا كنت فى حاجة الى أن تراها فلا أسهل من احضارها • أنا ذاهب لأجيبك بها • وثق انتى لن أزعجك •

وعاد لينزياتيكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق • دخلت صونيا مدهوشة أشدَّ الدهشة ، خجلة وخجلة الى أقصى حد ، على عادتها • انها خجلة وخجلة دائماً فى مثل هذه الأحوال • كانت منذ طفولتها تخشى التعرف الى أناس جدد ، وتخاف من الوجوه الجديدة ، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن •

استقبلها بطرس بتروفتش استقبالاً « لطيفاً مهذباً » ، ولكنه أضاف الى هذا الاستقبال ، والحق يقال ، نوعاً من المرح والألفة يليقان ، فى رأيه ، برجل يبلغ ما يبلغه هو من جد ووقار واحترام ، حين يعامل مخلوقة شابة الى هذا الحد ، « شائقة » الى هذه الدرجة ، بمعنى من المعانى •

وأُسرع بطرس بتروفتش «يطبئن» صونيا سيميونوفنا ، ويجلسها أمام المائدة قبالة. جلست صونيا وألقت نظرةً حولها - على ليزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة ، ثم على بطرس بتروفتش فجأةً من جديد . ومنذ تلك اللحظة لم تحوّل بصرها عنه ، كأن شيئاً ما كان يشدها إليه .

اتجه ليزياتنيكوف نحو الباب ، فنهض بطرس بتروفتش ، وأمسك ليزياتنيكوف وهو يدعو صونيا بإشارة من يده الى أن تبقى جالسة . وقال يسأل صاحبه همساً :

- هل راسكولنيكوف ذاك هناك ؟ هل جاء ؟

فأجابه ليزياتنيكوف :

- راسكولنيكوف ؟ نعم ، هو هناك . فماذا ؟ نعم ، هو هناك . وصل منذ قليل ، رأيته . فماذا ؟

- أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا ، أن لا تتركنى فى خلوة مع هذه . . . الفتاة . هذه قضية لا قيمة لها ، ولا يعلم الا الله ما عسى يستتج منها اذا . . . لا أريد أن يمضى راسكولنيكوف يقول « هناك » . . . هل تفهم الى ماذا أشير ؟

أجاب ليزياتنيكوف وقد أدرك الأمر :

- أفهم ، أفهم . نعم ، أنت على حق . فى قناعتى الشخصية أنك تضخم الأخطار تضخيماً كبيراً . . . ولكنك مع ذلك على حق . طيب . سابقى . سأملك هنا ، قرب النافذة ، حتى لا أضايقك . . . فى رأى أنك على حق . . .

عاد بطرس بتروفتش نحو الأريكة ، وجلس قبالة صونيا ، ونظر

اليها بانتباه ، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية ، وهو يقول لها بينه وبين نفسه « لا تخطرن ببالك إلخاطر يا جميلة ! »

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها ، وبدأ بطرس كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد ، ولكنها لهجة متوددة في الوقت نفسه :

- أرجوك أولاً أن تتكلمي يا صونيا سيميونوفنا ، فتعذري عني لأملك المحترمة ... أليست كاترين ايفانوفنا بمثابة الأم لك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كان يبدو على بطرس بتروفتش أنه يضرر أحسن نيات الصداقة . فأسرعت صونيا تجيبه مروعة مذعورة :

- نعم ، حقاً ، هي لي بمثابة الأم .

- فاعتذري لها عن أنني لا أستطيع ، بسبب ظروف مستقلة عن ارادتي ، أن أجيء إلى عندكم فأكل المعجنات ... أقصد أن أشارك في مأدبة الجنائز ، رغم الدعوة اللطيفة التي وجهتها إلي .

- سأقول لها هذا ، فوراً ...

قالت صونيا ذلك ونهضت بسرعة .

فقال بطرس بتروفتش وهو يمنعها من القيام ، ويشتم لسذاجة الفتاة ولجهلها بالمواضعات الاجتماعية :

- ليس هذا كل شيء « بعد » . انك لتجهلينني اذن ، يا صونيا سيميونوفنا اللطيفة جداً ، اذا كنت تتصورين أنني لسبب يبلغ هذا المبلغ

من التفاهة ولا يتعلق الا بى أنا ، يمكن أن أسمح لنفسى بأن أزعج شخصاً مثلك • ان لى هدفاً آخر تماماً •

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة • وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تتراقص أمام عينيها من جديد ، فسرعان ما أشاحت وجهها عنها بقوة ، ونظرت الى بطرس بتروفتش • لقد لاح لها فجأة أنه عار رهيب عليها أن تنظر الى مال ليس مالها ، لا سيما « وهى ما هى » • تلبث بصرها فى أول الأمر على النظارة ذات الاطار الذهبى ، التى كان بطرس بتروفتش يمسكها بيده اليسرى ، وتلبث فى الوقت نفسه على الخاتم الجميل جداً ، الضخم جداً ، المزدان بحجر أصفر ، الساطع فى الأصبع الوسطى من تلك اليد نفسها • ولكنها حوّلت بصرها فجأة ، واذ لم تعترف الى أين توجه عينيها ، حدّقت بهما الى عيني بطرس بتروفتش لا تحركهما يمنة ولا يسرة ••

وبعد فترة من صمت تابع بطرس بتروفتش كلامه بلمهجة فيها مزيد من الجدل أيضاً :

- أتيتحت لى أمس فرصة تبادل بضع كلمات مع المسكينة كاترين ايفانوفنا ؟ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدها أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى حالة منافية للطبيعة ، ان صح التعبير •

فقلت صونيا مؤيدة :

- نعم ••• فى حالة منافية للطبيعة •

- أو فى حالة مرضية اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح •

- ، نعم ، اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح ••• نعم ••• هى مريضة ••

- هذه هي المسألة ... وقد هزنتى مشاعر انسانية ومشاعر عطف
ان صح التعبير ، فوددت لو أنفعتها فى شىء ما ، لأنتى أتنبأ بالمصير الشقى
البائس الذى ستؤول اليه لا محالة . يُخيّل الىّ أن الأسرة التعيسة كلها
قد أصبحت تعتمد عليك وحدك .

سألته صونيا فجأة :-

- اسمح لى أن أسألك ... هل صحيح أنك كلمتها أمس عن
امكان الحصول على معاش تقاعد ؟ لقد قالت لى أمس أنك مستعد
لأن تتولى القيام بالمساعي اللازمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش .
فهل هذا صحيح ؟

- غير صحيح البتة ، بل هو أيضاً سخف . كل ما فعلته هو اننى
أشرت الى جواز الحصول على نجدة موقّعة يمكن أن تُدفع لأرملة موظف
مات أثناء الخدمة - وهذا لا يتحقق طبعاً الا اذا كان هذالك أناس يرعون
هذه الأرملة ويحمونها - ولكننى أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين
المطلوبة فى الوظيفة ، حتى انه فى الآونة الأخيرة فقد صفة الموظف .
ومعنى ذلك ، باختصار ، أن الأمل الصغير الذى كان يمكن أن يراودنا
يضعف فى هذه الأحوال مزيداً من الضعف ، لأن حق أبيك فى التعويض
لا وجود له ... بالعكس ... فما أغرب أن تفكر أمك منذ الآن فى
معاش ! ... هىء هىء هىء ! يا للسيدة المتعجلة ! ..

- نعم ... هىء هىء معاش .. لأنها سريعة التصديق .. وطيبة ..
وهى لأنها طيبة ، تظن أن ... وتصدق ... ثم ان فكرها قد خلق
هكذا . نعم .. معذرة ..

كذلك قالت صونيا مشوشة وهى تنهض من جديد لتصرف .

قال بطرس بشروفتش :

- اسمحي لي ! ... انك لم تسمعي بعد كل شيء .

فجمجمت صونيا تقول :

- نعم ، لم أسمع بعد كل شيء .

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب .

وتابع بطرس بتروفتش كلامه فقال :

- انني ، وقد رأيت الحالة التي هي فيها مع ولدين بائسين ، رغبت ، كما سبق أن قلت لك ذلك ، في أن أكون نافعا لها بمقدار ما تتيحه لي وسائلتي ، نعم بمقدار ما تتيحه لي وسائلتي لا أكثر من ذلك . فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتاب تبرعات ، أو حتى أن ننظم سحب يانصيب ، أو أي شيء آخر من هذا القليل ... كما يحدث هذا في حالة كهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجناب يريدون أن يهبوا إلى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر . فعن هذا المشروع انما أردت أن أحدثك . انه مشروع ممكن التحقيق .

ثأثأت صونيا تقول مجددة إلى بطرس بتروفتش في عناد واصرار:

- نعم ، ذلك شيء حسن جداً ... جزاك الله خيراً ...

- الأمر ممكن ، ولكن ... سنتكلم عن هذا فيما بعد ... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم . على كل حال سنتقى في هذا المساء ، وستتفق . سنرسي الأسس ، كما يقال . تعالى إلى هنا في نحو الساعة السابعة ... وسيحضر آندره حديثنا فيما آمل ... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه إبرازاً خاصاً منذ الآن . ومن أجل هذا الأمر يا صونيا شيميونوفنا انما أبحث لنفسي أن أزعجك باستدعائك إلى هنا . في رأيي أن المال الذي سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترين ايفانوفنا نفسها ، حتى ان في ذلك

خطراً • ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك : ان كاترين ايفانوفنا وهي لا تملك لقمة تضعها تحت خرسها غداً ، ولا تملك خذائين تتعلهما فتقى نفسها السير حافية ، لا تحجم اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكى بل والنبيذ الماديرى والقهوة ، اذا لم يخطئ ظنى • لقد رأيت هذا كله عابراً • وغداً يقع كل شئ على عاتقك أنت ، ويكون عليك أن تقدمي لهم حتى خبزهم اليومى ، وذلك أمر لا يُعقل ! لهذا أرى أن ينظم اكتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال ان صح التعبير ، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت • ألسنت على حق ؟

- لا أدري ! ... فى هذا اليوم وحده انما هى •• ذلك لا يحدث الا مرة واحدة فى الحياة •• انها شديدة الرغبة فى أن تكرم ذكرى الراحل •• وهى ذكية جداً • على كل حال ، افعل ما تراه مناسباً •• وسأكون •• وسينكونون جميعاً •• وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء •• واليتامى ••

لم تكمل صونيا جملتها ، وأجهشت باكية •

قال بطرس بتروفتش :

- فكّرتى جيداً فيما قلته لك • والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلى عن أمك هذا المبلغ مشاركة منى فى اكتاب التبرعات • وانى لأمل خاصة أن لا يُذكر اسمى فى هذه المناسبة • يؤسفنى أن أعبأى الكثير لا تسمح لى بالتبرع بأكثر من هذا المبلغ •••

قال بطرس بتروفتش ذلك ومدّ الى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عنى بطيهاً طياً دقيقاً • فتاولت صونيا الورقة المالية محمّرة الوجه خجلاً ، ثم نهضت بوثة واحدة ، ودمدمت ببضع كلمات ،

واستأذنت بالانصراف بسرعة اسراعاً شديداً • فشيّعها بطرس بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال • وخرجت آخر الأمر من الغرفة متعجلة عصبية مرهقة ، وعادت الى كاترين ايفانوفنا وهى على حال من الاضطراب الشديد •

طوال المدة التى استغرقها هذا المشهد كان آندره سيميونوفتش ، الذى لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث ، كان يقى ساكناً قرب النافذة تارة ، أو يسير فى الغرفة تارة أخرى • فلما خرجت صونيا اقتراب من بطرس بتروفتش فجأة ، ومدّ اليه يده يصفحه برصانة ووقار ، قائلاً له :

— لقد سمعت كل شيء و « رأيت » كل شيء (ألحّ آندره سيميونوفتش على كلمة « رأيت » هذه إلحاحاً خاصاً) • هذا عمل نبيل ، أقصد هذا عمل انساني ! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان ، لاحظتُ أنا ذلك • صحيح أنتى من ناحية المبدأ أعارض كل احسان أو بر ، لأن الاحسان أو البر لا يستأصل الشر بل يبقيه ويغذيه ، ولكنتى لا أملك مع ذلك الا أن اعترف بأننى تأملت عملك بشيء من الرضى والمسرّة واللذة • نعم نعم ، أعجبنى عملك •

جمعهم بطرس بتروفتش يقول متأثراً بعض التأثير ، متأملاً ليزياتيكوف فى شيء من الحذر والريب :

— هذه كلها أمور تافهة !

— لا ، ليست أموراً تافهة ! ان رجلاً جرح جرحاً حاداً كما جرحت أنت باسائة الأمس ، ثم هو قادر فى الوقت نفسه على أن يفكر فى شقاء الآخرين وبؤسهم ، ان رجلاً كهذا الرجل — رغم أنه بتصرفه على هذا النحو يرتكب خطأ من الناحية الاجتماعية — جدير بالتقدير

خليق بالاحترام • الحق أننى لم أكن أتوقع هذا منك يا بطرس بتروفتش ، لا سيما وأن آراءك ... آه ... ما أشد الحرج الذى ماتزال تسببه لك هذه الآراء ! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك ! (بهذا هتف آندره سيمونوفتش الطيب ، وقد شعر نحو بطرس بتروفتش بمودة ومجبة على حين فجأة) ولكن لماذا ، لماذا حرصت هذا الحرص كله على ذلك الزواج « الشرعى » ، يا بطرس بتروفتش ، النيل جداً ، اللطيف جداً ، ما حاجتك الى هذه « الشرعية » فى الزواج ؟ اضربنى ان شئت ، ولكنى أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم ، وأنت حر ، وأنت لم تمت بعد موتاً تاماً بالنسبة الى الانسانية • نعم ، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك • هأنت ذا ترى أننى أصارحك بما فى قلبنى •

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما :

— اذا كنت أحرص على الزواج ، فلأنتى لا أريد أن ينبت لى قرنان ، وأن أربى أولاد الآخرين ، كما يحدث فى الزواج الحر الذى تدعون اليه •

ضرب آندره سيمونوفتش الأرض بقدمه كحصان المعركة سمع صوت البوق ، وسأل صاحبه متحمساً :

— الأولاد ؟ قلت الأولاد ؟ اننى أسلم بأن الأولاد يثرون مشكلة اجتماعية هامة جداً ، ولكن مسألة الأولاد ستحل بطريقة أخرى تماماً . ان بعضهم يمضى الى حد انكار الأولاد انكاراً تاماً ، كما ينكر كل إشارة الى الأسرة على كل حال • وستحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد • أما الآن فلنتقف على مسألة القرنين هذه ، لأننى أحبها حباً خاصاً • ألا فاعلم ان هذا التعبير السيء المستمد من لغة الفرسان ، المستعار من كلام رجال مثل بوشكين ، سوف يُنبذ من مجامع المستقبل نبذاً تاماً • ما هذه القرون

التي تتحدثون عنها ؟ هه ! لماذا تتحدثون عن قرون ؟ نعم ، هناك قرون • ولكن الزواج الحر هو الذي لن يكون فيه قرون ! ليست القرون الا نتيجة طبيعية للزواج الشرعى • انها الاقتصاص منه ان صح التعبير • انها الاحتجاج عليه • وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى شيء من مذلة • فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً - وهذا افتراض مستحيل - لكان يسرنى ويسعدنى أن ينبت لى قرنان من تلك القرون التي تتحدثون عنها • سوف أقول عندئذ لزوجتى : « يا صديقتى ، أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحبك ، أما الآن فأنى أضيف الى الحب احتراماً ، لأنك عرفت كيف ترفعين احتياجاً » • أتضحك ؟ أنت تضحك لأنك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الأوهام الاجتماعية • أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيانة زوجته فى الزواج الشرعى ، ولكن هذا بعينه إنما هو النتيجة البائسة لواقعة هى أيضاً بائسة ، بالنسبة الى الطرفين كليهما • أما حين يحمل الرجل قرنين صراحة ، كما هى الحال فى الزواج الحر ، فإن القرنين ينعدم عندئذ وجودهما إن صح التعبير ، ويصبح من غير الممكن تصورهما ، ويفقدان حتى اسم القرنين ؟ بل ان فى وسعى أن أقول ان امرأتك تبرهن لك بذلك على مدى احترامها لك ، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها وبين سعادتها ، وبأنك متطور متقدم الى الحد الذى يمنعك من الانتقام منها بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً • يميناً انه ليخطر ببالي أحياناً اننى اذا تزوجت - زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً ، سيان - فلربما أجيء لامرأتى بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها • ولأقولن لها عندئذ : « يا صديقتى ، أنا أحبك ، ولكننى أريد بالاضافة الى ذلك أن تحترمينى • اننى أحرص على هذا • اليك عشيقاً ! ، • ألسنت على حق ؟ ألسنت على حق ؟

كان بطرس بتروفتش يصغى اليه ضاحكاً ، ولكن دون أن يبدى كثيراً من الاهتمام ، حتى انه لم ينتبه الى الكلام الا قليلاً ، لأنه كان يفكر فى شيء آخر تماماً ، وقد لاحظ ليزياتيكوف ذلك آخر الأمر •

لقد كان بطرس بتروفتش يعانى اضطراباً شديداً ، فكان يفرك يديه ويمعن فى التفكير •

ذلك كله تذكره آندره سيميونوفتش فيما بعد ، وفهمه •

الفصل الثاني



علينا أن نحدد ، على وجه الدقة ، الأسباب التي
أثبتت في دماغ كاترين ايفانوفنا المختل فكرة
مأدبة الجنائز هذه . لا بد أنها أنفقت على هذه
المأدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلاً
التي أخذتها من راسكولنيكوف لانفاقها على احتفالات الدفن . لعل
كاترين ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرة الى تكريم ذكري الراحل
تكريماً «لائقاً» ، حتى يعلم جميع المستأجرين ، ولا سيما آماليا ايفانوفنا ،
أن «الراحل لم يكن أدنى قيمة» منهم ، بل ربما كان أعلى كثيراً ، وأنه
ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن «يُذلَّ بنفسه» حين يفكر فيه .
ولعلها كانت تنقاد خاصة «لزهو الفقراء» ذاك الذي يدفع كثيراً من
البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب
عاداتنا المتأصلة ، الى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون
من مال ، حتى لا يكونوا «دون الآخرين» وحتى لا «يحكم عليهم»
الآخرون . ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترين ايفانوفنا في ذلك
الظرف بعينه ، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها ، قد
أرادت أن تبرهن لجميع أولئك «المعوزين» الذين هم المستأجرون ، أنها
امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل ، وأنها نشأت لتحي طرازاً من
الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف ، وأنها تربت في «منزل
نبيل» ، منزل ارسقراطي ، منزل كولونيل ، ، وأنها اذن لم تُخلق لتتولى

بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد فى الليل • ان اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقراً ، وتستبد بأناس مهجورين ليس لهم أحد ، ولا يندر أن نرى هذه الاندفاعات تستحيل فى بعض اللحظات الى حاجات حقيقية ، حاجات ماسة قوية • ثم ان كاترين ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتى يُجندلن بسهولة : فمهما تكن الظروف رهيبة ، فلا شئ يمكن أن « يجهز » على عزيزتها وأن يهدم ارادتها • ثم ان صونيا كانت على حق حين قالت ان دماغ أمها قد أخذ يختل قليلاً قليلاً • الواقع أن الأمر لم يتضح بعد ، ولكن لا شك أن كاترين ايفانوفنا قد تحملت من المحن منذ بعض الوقت ، ولا سيما فى السنة الأخيرة ، ما لا بد أن يكون له أثر فى عقلها • ثم ان مرض السل يهيب المصاب به لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلة معينة •

لم تكن « الخمور » كثيرة جداً ولا متنوعة جداً ، ولم يكن هناك خمرة مادية ، فذلك مبالغة • ومع ذلك كان ثمة خمرة : نبيذ وفودكا وروم وبورتو • وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً ، ولكن مقاديره كانت كافية • وقد هياؤا ، بالإضافة الى حلوى الأرز التقليدية ، صنفين أو ثلاثة أصناف من الطعام (منها فطائر) أعدت فى مطبخ آماليا ايفانوفنا • وحضر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاي أو يحتسوا « البيش » بعد الوجبة • ان كاترين ايفانوفنا هى التى تولت بنفسها شراء الأشياء ، يساعدنا فى ذلك أحد المستأجرين وهو بولندى رث مسكين لا يعلم الا الله لماذا يسكن عند السيدة ليفكسل • ان هذا البولندى لا يكف عن السعى هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصة الى هذا الأمر) ؛ وهو فى كل لحظة ، بأى مناسبة ويغير مناسبة ، يخف الى كاترين ايفانوفنا ، ويلحقها الى السوق ، ويغدق

عليها لقب « السيدة الليوتنانتة » بغير حساب ، الى أن ضاقت به ونفذ صبرها عليه ، مع أنها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنها لولا هذا الرجل لضاعت . لقد كان من طبع كاترين ايفانوفنا أن تضيء أجمل الألوان على على أول شخص تلتقاه ، وأن تغرقه بالمدح الى أن يشعر بحرج وخجل ، وأن تنسب اليه مزايا لا وجود لها في الواقع - ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مرئية - ثم اذا « بأوهامها تتبدد » ، واذا هي تخاشنه وتغلظ له القول ، واذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة . ان لها طبعاً مرحاً ميالاً الى التسامح ، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الاخفاق التي تلاحقت عليها أخذت « تطالب » في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح ، وأن لا يجروا أحد أن يعيش على غير هذا النحو ؛ فاذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها . فهي بعد أن تكون قد هدهدت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأمنى وأسطع الأخيلة وأبهى الأوهام تأخذ ، في لحظة واحدة ، تلعن الأقدار وتشتت الدهر ، وترغى وتزبد ، وتعصف وترعد ، وتخرب كل ما يقع تحت يدها ، وتضرب برأسها الجدران .

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا ، هي أيضاً ، على حين فجأة ، قيمة عظيمة وشأنًا كبيراً في نظر كاترين ايفانوفنا ، لا يدري أحد لماذا . . . فأصبحت كاترين تقدر آماليا قدراً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً . . . ولكن لعل مرد ذلك الى المأدبة التي تريد كاترين أن تقيمها ، والى أن آماليا قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك في اعداد هذه المأدبة : لقد تعهدت آماليا بنصب المائدة ، وتقديم المفرش ، وتأمين الصحون ، البخ ، وتعهدت باعداد الطعام في مطبخها . حتى ان كاترين ايفانوفنا نفسها ،

حين ذهبت الى المقبرة ، قد خولتها كل السلطات ، وفوضتها في كل أمر ؛ والحق أن كل شيء قد أُعدَّ على أحسن وجه ، وهيئت المائدة تهيئة لا مأخذ عليها . صحيح أن الصحنون والشوكات والسكاكين والكنوس الكبيرة والصغيرة ، والفناجين ، كانت مختلفة غير متجانسة ، من مصادر شتى وأنواع متباينة ، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين ، ولكن كل شيء كان في الساعة المحددة قد وُضع في مكانه ، حتى ان آماليا ايفانوفنا التي كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه ، والتي كانت تتحلى بثوبها الأسود وتضع على رأسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة ، قد أخذت تستقبل المدعوين ، عند عودتهم من المقبرة ، بشيء من الافتخار والاعتزاز . وهذا الاعتزاز ، رغم أنه مشروع ، قد ساء كاترين ايفانوفنا، لا يدري المرء لماذا ! فكانت كاترين تقول لنفسها : « لكأننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا ! » . وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة . فكانت تقول لنفسها : « ترى ألن تتباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت ، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والاحسان ؟ ان المائدة ، في منزل والد كاترين ايفانوفنا الذي كان كولونيلاً وكان شبه حاكم ، كانت تُعدُّ أحياناً لأربعين ضيفاً ، وما كان لامرأة مثل آماليا ايفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفنا أن تقبل هنالك في المطبخ ! » . واشتد أزر كاترين ايفانوفنا بهذه الحاطرة ، فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شيئاً من الفطور والبرود . وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المساهمة في احناق كاترين ايفانوفنا : وهو أن المستأجرين الذين دُعوا الى الجنازة لم يكد يشترك أحد منهم في الموكب ، عدا البولندي الذي شيع جثمان المتوفى الى المقبرة . أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فان الفقراء والتافهين

وجدهم هم الذين حضروها ، حتى ان بعضهم قد جاء اليها بثياب هي خرق رثة وأسمال بالية : أى أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الاجمال شئ من أبهة . لكن المتقدمين فى السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور . من ذلك مثلاً أن بطرس بتروفتش لوجين ، وهو الذى يمكن أن يقال انه أعلاهم قدراً وأرفعهم شأنًا ، لم يحضر المأدبة ، مع أن كاترين ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجميع (لآماليا ايفانوفنا وبوليتشكا وصونيا والبولندى) أن بطرس بتروفتش رجل من أنبل الناس وأكرمهم ، وأنه ذو صلات عالية ، وأنه غنى جداً ، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول ، وأنه قد سبق أن استقبل فى منزل أبيها ، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعى من أجل أن تحصل على معاش تقاعدى كبير .

يجب أن نذكر هنا أن كاترين ايفانوفنا اذا اتفق لها أن أطرت شيئاً من الأشياء ، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة ، فانها تفعل ذلك دائماً مبرأة من المصلحة منزهة عن المنفعة ، لا يدفعها اليه أى حساب شخصى ، وانما هي تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة ، لا ترجو الا لذة مدح أحد الناس واضفاء قيمة كبيرة عليه .

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة ، امتنع كذلك عن حضورها - زبنا من باب « الاقتداء به » - ذلك الوغد المششوم ليزياتيكوف . « ماذا يظن نفسه ؟ نحن ما دعونا الا شفقة عليه وبراً به ، نحن مادعونا الا لأنه يسكن فى نفس الغرفة التى يسكن فيها بطرس بتروفتش الذى هو من معارفنا وأصحابنا ، فكان من المخرج لنا أن لا ندعوه . . . » . وهناك سيدة وابنتها (والابنة متقدمة قليلاً فى السن) لم تليسا الدعوة أيضاً . ان هاتين المرأتين ، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا الا منذ أسبوعين ، قد شكتا عدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من

غرفة أسرة مارمیلادوف ، ولا سيما حين كان المتوفى يعود الى البيت سكران ، وهذا أمر قد وصل الى مسامع كاترين ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا ، وذلك حين هددتها هذه ، أثناء تشاجرها معها ، بأنها ستطردها من البيت هي وأسررتها ، صارخة بأعلى صوتها أنهم « يزعمون جيراناً نبلاء لا يرقون هم الى مستوى نعالهم » • ولقد قررت كاترين ايفانوفنا ، عامدةً ، أن تدعو هاتين المرأتين اللتين « لا ترقى هي الى مستوى نعليهما ! » ، وكانت تحرص على دعوتهما حرصاً خاصاً لأنها كانت اذا اتفق أن التقت باحدى هاتين المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار • قالت كاترين ايفانوفنا لنفسها : « بهذا تعرفان أننا نمضى بالنبل الى حدّ نسيان الاساءات والاهانات ، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترين ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف • • • وكانت تنوى أن تشرح لهما هذه الحقيقة على المائدة ، وأن تحدثهما كذلك عن منصب « الحاكم » الذي كان يختله المرحوم أبوها ، وربما استطاعت كذلك أن تسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعى لأن تشيحا بوجهيهما حين تلقيانها ، وأن هذه الحركة حركة غبية •

وقد غاب عن المائدة أيضاً رجلٌ ضخم الجسم يقولون انه ليوتنان كولونيل (وهو في حقيقته كابتن محال على التقاعد) ؛ ولكن علم أنه « طريح الفراش » من فرط السكر منذ الليلة البارحة •

الخلاصة أنه لم يحضر المائدة الا هؤلاء : البولندى ؛ وموظف هزيل قمى يرتدى فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة ؛ ورجل آخر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى ، كان في الماضى يشغل وظيفة في ادارة البريد لا يدرى أحد ما هي ، وهناك مجهول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدرى أحد لماذا ؛ وقد جاء الى المائدة

ليوتنان متقاعد سكران لم يكن فى حقيقة أمره الا موظفاً فى ادارة التموين ، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً فى كل لحظة ، ولا يرتدى صديرة فتصوروها قلة الحياء وفرط الوقاحة ، يا للعار ! وقد جاء رجل آخر فجلس الى المائدة رأساً حتى دون أن يحيى كاترين ايفانوفنا ، وجاءت فى النهاية « شخصية » أخرى تلبس ثوب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً . ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن اخراج الرجل بجهود متضافرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندى . ثم ان البولندى قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهما سكنا عند آماليا ايفانوفنا فى يوم من الأيام ، ولا لقيهما أحد فى هذا المنزل يوماً على الأقل .

ذلك كله أزعج كاترين ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول :
« أمن أجل « هؤلاء » اذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها ؟ » .

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا الى العدول عن اجلاس الأولاد الى المائدة ، فلقد كان الأولاد يكادون يشغلون وحدهم كل الغرفة . لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة فى ركن باخر الغرفة على صندوق ، وأُجلس الولدان الأصغر ان على دكة ، وعُهد الى بوليتشكا ، بصفتها الكبرى ، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما ، « كما يفعل بأولاد أسر راقية » .

الخلاصة أن كاترين ايفانوفنا قد اضطرت ، راضية أو كارهة ، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس ، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة ، بل وبشيء من التعالى والعجرفة ، حتى لقد ألقت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة ، ثم دعتهم أن ينتقلوا الى المائدة وقد ظهرت فى هيئتها معانى الاحتقار والازدراء . وقد اعتقدت ، لسبب أو لآخر ، أن آماليا ايفانوفنا

هى المسئولة عن غياب المدعويين المرموقين ، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك ، فاستاءت أشد الاستياء ، وأضمرت أكبر الضغن . ان بداية كهذه البداية لا تبشر بخير .

• وجلس الجميع أخيراً الى المائدة •

كان راسكولنيكوف قد وصل فى لحظة العودة من المقبرة تقريباً • فسعدت كاترين ايفانوفنا أقصى السعادة ، أولاً لأنه بين سائر المدعويين « الرجل المثقف الوحيد » الذى سيحتل بعد سنتين ، كما يعرف الجميع ، كرسى استاذ جامعتنا ؛ وثانياً لأنه ما ان وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك فى الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير •

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترين ايفانوفنا ؛ فقد أجلسته الى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست الى اليمين) ، ورغم مشاغلها المتصلة من حيث هى ربة البيت ، ورغم السعال الرهيب الذى كان يقطع كلامها ويخنقها فى كل لحظة ، والذى كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين ، فانها لم تنقطع عن التحدث الى راسكولنيكوف ، وعن أن تفضى اليه همساً بكل ما كان يعتلج فى قلبها ، ولا سيما باستيائها الشديد من اخفاق المأدبة • على أن ضحكاً مجلجلاً كان يعقب ذلك الاستياء فى كثير من الأحيان ، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه ، وهو ضحك على المدعويين وعلى صاحبة البيت خاصة •

— ذلك كله انما سببه هذه المرأة الشريرة ! (كانت كاترين ايفانوفنا تقول ذلك وتومىء لراسكولنيكوف بحركة من رأسها الى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا) • انظر اليها ! انها تحمق بعينها ؛ هى تعلم أننا نتكلم عنها ، ولكنها لا تستطيع أن تفهم ، ان عينيها تخرجان من رأسها !

هو ... هو ! ... بومة حقاً ! ها ها ها ! هيء هيء هيء ! وما الذي تريد أن تبرهن لنا عليه بقبعتها هذه ؟ هيء هيء هيء ! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرني أمام الملاء جميعاً بمظهر محميتها ، وأن تبين أنها انما تشرفني اذ تحضر هذا العشاء ؟ لقد طلبت منها ، لاعتقادي بأنها انسانية لائقة ، أن تدعو أناساً محترمين ، وأن تدعو خاصة أولئك الذين عرفوا زوجي الراحل . فانظر بمن جاءتني : لقد جاءتني بمهرجين وصعاليك قذرين ! انظر الى ذاك الرجل الذي لم يغسل وجهه ! حقاً انهم لقطع حيوانات تمشي على قدمين ! وما قولك بهؤلاء البولنديين الصغار ؟ ها ها ها ! هيء هيء هيء ! ما من أحد سبق أن رأهم هنا ، لا ولا رأيتهم أنا هنا ، في يوم من الأيام ! فلماذا اذن جاءوا ؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا جاءوا ؟ ما أعظم هدوءهم في جلوسهم واحداً الى جانب واحد ! ما أظرفهم ! هيه ، يا « سيد » ! (كذلك نادت أحدهم فجأة فاطمة كلمة « سيد » باللغة البولندية) هل أخذت فطائر ؟ خذ مزيداً ، واشرب بيرة ، اشرب بيرة ! واشرب فودكا ! ألا تريد أن تشرب فودكا ؟ - انظر اليه ، لقد نهض بوثة واحدة ، وها هو ذا يحيى منحنيًا إنحناءً شديداً ... انظر ... انظر ! مساكين ... لا بد أنهم جائعون جداً ! لا بأس ! فليأكلوا ! هم لا يتحدثون ضجة على الأقل .. ولكن .. ولكن ... لا أكتمك أنني أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضة وهي لصاحبة البيت . يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادت صاحبة البيت فجأة بصوت عالٍ تقريباً) ... انني أنبهك منذ الآن الى أنني غير مسئولة اذا هم سرقوا ملاعقك !

وسُرت كاترين ايفانوفنا من قولتها هذه ، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً ، ثم عادت توميء برأسها الى صاحبة البيت قائلة لراسكولنيكوف : - انها لم تفهم ! في هذه المرة أيضاً لم تفهم ! ما تزال فاعرة الفم ، محملقة العينين ، جواراة الطرف ! انظر اليها ، انظر ! هي بومة حقاً ،

يومة ... قلت لك انها يومة ... ولكن بأشرطة جديدة ! ها ها ها ! ...
 وهنا استحال ضحكها الى سعال لا يطاق ، استغر خمس دقائق •
 تلتخ منديلها بالدم ، وظهر العرق على جبينها كجبات اللؤلؤ ؛ أرت
 راسكولنيكوف بقعة الدم فى صمت ، وما ان استردت أنفاسها حتى
 دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة قائية وبلغت أقصى
 الاضطراب :

- انظر مثلاً : لقد عهدت اليها بمهمة دقيقة جداً هى أن تدعو تلك
 السيدة وابنتها • هل تعرف من أعنى ؟ فكان عليها فى مثل هذه الحالة أن
 تتصرف بكثير من الكياسة والفن والحذق ، ولكنها لم تحسن التصرف ،
 فاذا بتلك الحمقاء الأخرى ، اذا بتلك المخلوقة القروية ... ذلك أنها
 ليست فى الواقع الا أرملة ميجر جاءت الى هنا تسعى الى الحصول على
 معاش تقاعدى ، فهى تنتظر فى حجرات الدخول متقلة متسكة هنا
 وهناك ، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ رغم أنها فى الخمسين
 من عمرها (هذا معروف) ... اذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجيء ،
 بل ولا ترسل كلمة اعتذار ، كما يليق بالمرء أن يفعل فى مثل هذه
 الأحوال اذا كان على شئ من الأدب والتهذيب ! وبطرس بتروفتش ،
 اننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجيء هو أيضاً ! ولكن أين صونيا ؟
 أين ذهبت ؟ آ ... ها هى ذى أخيراً ! أين كنت يا صونيا ؟ غريب منك
 أن تكونى قليلة التقيد بالمواعيد حتى فى يوم جنازة أبك • افسح لها
 مكاناً الى جانبك يا روديون رومانوفتش • هذا مكانك يا صونيتشكا !
 اغرفى لك طعاماً ! خذى سمكاً بالبالوظة ، فهذا أحسن الطعام • سنجيئك
 بفطائر فوراً • والأولاد ، هل غُرف لهم طعام ؟ هل أصبتم من كل شئ
 يا بوليتشكا ؟ هى • هى • طيب ، عظيم ! كونى هادئة عاقلة يا لينا !

وأنت يا كوليا لا تهزز ساقيك هكذا ! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة • ماذا تقولين يا صونيتشكا ؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بطرس بتروفتش ، محاولة أن تتكلم بصوت قوى حتى يسمع جميع الضيوف كلامها ، ومستعملة أرقى التعابير ، حتى تلك التى كان يصطنع استعمالها بطرس بتروفتش ، بعد أن تجمّلها مزيداً من التجميل أيضاً • وأضافت الى ذلك قولها ان بطرس بتروفتش قد رجّاهَا أن تبلغ أمها أنه سيّجىء متى أتيحت له الفرصة ليتحدث فى الأعمال على انفراد ، وليتفق على الاجراءات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، الخ ، الخ ، الخ •••

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدّىء كاترين ايفانوفنا ، ويدغدغ غورها ، ويرضى كبرياءها خاصة •

وجلست الى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيّته بسرعة ، ونظرت اليه نظرة مستطلعة • على أنها طوال ما بقى من وقت كان يلوح عليها أنها تتحاشى أن تنظر اليه وأن تكلمه • كانت تبدو ذاهلة ، رغم أنها لم تحوّل عينيها عن كاترين ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتبأ برغباتها • ولم تكن صونيا ولا كاترين ايفانوفنا تلبسان ثياب الحداد ، لأنهما لا تملكان ثياب حداد : كانت صونيا ترتدى ثوباً كستنائياً قاتماً ، وكانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوباً من قماش هندي ذى خطوط داكنة ، وهو الثوب الوحيد الذى تملكه •

وقد أحدثت اعتذارات بطرس بتروفتش أحسن الأثر • فبعد أن أصغت كاترين ايفانوفنا الى كلام صونيا برصانة ووقار ، سألت عن صحة بطرس بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه • ثم لم تبطئ ، فأسرعت « توشوش » راسكولنيكوف قائلة بصوت قوى ان

رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بطرس بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطيع كهذا « القطيع العجيب من الناس » ، مهما يكن اخلاصه للأسرة ، ومهما تكن روابط الصداقة التي كانت تربطه بالمرحوم أبيها .
ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً :

— من أجل ذلك ترانى ، يا روديون رومانوفتش ، أشكر لك شكراً خاصاً أنك لم تحتقر دعوتى ولم ترفض حضور مآدبتى رغم هذه البيئة وهذا الجوّ . وانى لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجى هى التى حملتك وحدها على أن تبنى بالوعد .

وهنا شملت المدعوين مرةً أخرى بنظرة فيها كبرياء ووقار ، ثم وفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس الى الطرف الآخر من المائدة « هل يريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمر البورتو » . فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين . كان فاغر الفم ينظر حواله فى كل جهة ، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح .

— يا للغبى الأبله ! انظر ! ولماذا جئى به الى هنا ؟

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف :

— أما بطرس بتروفتش فقد كنت دائماً أمحضه ثقة كاملة .
والتفتت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروّعة ، وأردفت تقول صارخة :

— هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتى ما كنّ ليُقبلن عند أبى حتى خادمت فى المطبخ ، واللواتى اذا ارتضى زوجى الراحل أن يشرّفهن باستقبالهن فانه ما كان ليفعل ذلك الا من فرط طيبة قلبه .

صاح موظف التموين قائلاً وهو يفرغ في جوفه كأس الفودكا
الثاني عشر :

- نعم ، كان يجب أن يشرب ... هذا صحيح ... كان يجب
مجالسة الزجاجة حباً كثيراً ! ...

أجابت كاترين ايفانوفنا باندفاع شديد :

- نعم ، كان لزوجي هذا الضعف ، ولكنه كان رجلاً طيباً نبلاً ،
يجب أسرته ويحترمها . ان عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت
تدفعه الى أن يثق بأناس فاسدين وأن يركن اليهم ... الله يعلم مع من
كان يعاقر الحمرة ... مع رجال لا يساوون نعلي حذاءيه ! تصور
يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا في جيبه ديكاً صغيراً من حلوى ! كان
لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كل مأخذ !

صرخ موظف التموين السابق يسأل :

- ديكاً صغيراً ؟ هل قلت ديكاً صغيراً ؟

أبت كاترين ايفانوفنا أن تتنازل فتجيبه ، وها هي ذى تفرق في
نوع من أحلام اليقظة ، وتتهمد . ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف :

- لعلك تظن ، كما يظن جميع الناس ، أنني أسرفت في القسوة
عليه . ولكن هذا غير صحيح . لقد كان يعتبرني ، كان يعتبرني كثيراً ،
كثيراً . ما كان أنبل روحه وأطيب نفسه ! ولكم كنت أشفق عليه ، في
بعض الأحيان ! كان يتفق له أن يجلس في ركن من الأركان ، ويأخذ
ينظر الى من ركنه ذاك ، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أنني أود
لو ألاعبه ، ولكني كنت أقول لنفسي : « لو دلتته فسوف يسكر من

جديد ، • لم يكن يمكن صدّه عن الشراب وردعه عنه الا باظهار شىء
من القسوة •

زأر موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديداً
من الفودكا :

نعم ، كان يُشدُّ له شعره ! حدث هذا مراراً !

أجابت كاترين ايفانوفنا تقول بלהجة قاطعة ، وهى تتجه الى موظف
التموين :

— ان أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم
فحسب ، بل يستحقون أيضاً أن يُستقبلوا بضربات مقشّة ! ولست أتكلم
الآن عن الراحل ...

والتهبت البقع الحمر فى وجنتيها مزيداً من الالتهاب ، وارتفع
صدرها ، ولم يبق الا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترين ايفانوفنا
شجاراً فاضحاً • وكان كثيرون يضحكون مقهقهين ، كان كثيرون يجدون
فى ذلك لذة ومنتعة • أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه ، هامسين له
بأشياء فى أذنه • كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً •
بدأ الموظف كلامه فسألها :

— اسمح لى أن أسألك عمّن كنت تتكلمين اذن ... على كل
حال ، لا بأس • • • فما هذه كلها الا ترهات ! أرملة ، أرملة مسكينة !
أنا أغفر وأعفو وأصفح ! دعونا ...

قال ذلك وجرع كأساً أخرى من الفودكا •

ظل داسكولنيكوف جالساً يصفى بصمت واشمئزاز • لم يكد

يلمس الطعام الذى كانت كاترين ايفانوفنا لا تنقطع عن ملء صحنه به ، بل انه لم يتظاهر بأنه يأكل الا من أجل أن لا يزعجها • وكان يحدّق الى صونيا ولا يحوّل عنها بصره • ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهماً . انها توجس ، هى أيضاً ، أن المأدبة لن تنتهى بسلام ، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترين ايفانوفنا ، خائفةً وجلة • وكانت تعلم ، فيما تعلم ، أنها ، هى صونيا ، السبب الرئيسى للاحتقار الذى حمل المرأتين الجديدتين على أن ترفضاً دعوة كاترين ايفانوفنا • لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت الى حد الاستياء من توجيه الدعوة إليهما ، وتساءلت : « كيف يمكننى أن أجلس ابنتى الى جانب تلك «الآنسة» ؟ وكانت صونيا تقدّر أن كاترين ايفانوفنا قد وصل الى مسامعها شىء من هذا الكلام ؟ وان اهانة يلحقها أحد بصونيا لهى أشد وقعاً فى نفس كاترين ايفانوفنا من اهانة تلحق بها هى أو بأولادها أو بأبيها ، فهذه اهانة قاتلة ، وصونيا تعلم أن كاترين ايفانوفنا لن يهدأ لها بال قبل أن « تبرهن لهاتين المرأتين التافهتين على أنهما كليهما » ، النخ النخ ! وشاءت المصادفات ، بما يشبه العمد ، أن ينقل أحدهم الى صونيا صحناً فيه قلبان من لبّ خبز أسود يخترقهما سهم • فاحمرت كاترين ايفانوفنا غضباً ، وأسرعت تقول بصوت عال ان المسئول عن ارسال هذا الصحن ليس الا « حماراً سكران » ، لا أكثر ولا أقل •

وكانت آماليا ايفانوفنا ، من جهتها ، توجس أن فائزة ستقع ، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترين ايفانوفنا يهينها الى أعماق قلبها ، فمن أجل أن تغير الجوّ السيء الذى يسود الحفل ، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها فى نظر الناس فى الوقت ذاته ، أخذت على حين فجأة تروى أن شخصاً من معارفها اسمه « كارل » وهو مساعد صيدلانى ، قد استأجر عربة فى الليل ، فأراد الحوذى أن « يقتله » فأخذ كارل يتوسل اليه أن

لا يفعل ، وضمَّ يديه باكياً ، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يشب من مكانه ، . وكان فى نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة ، فقالت لها كاترين : ايفانوفنا ، وهى تبسم ، ان عليها أن لا تروى نوادر روسية . فازداد استياء آماليا ايفانوفنا ، فردَّت عليها تقول بلغة تخالطها ألفاظ ألمانية ، وتسودها لكنة ألمانية ، ان أباه البرلينى كان « رجلاً خطير الشأن جداً » ، وانه كان يتجول واضعاً يديه فى جيبه دائماً . . . ولم تطق كاترين ايفانوفنا الساخرة صبراً ، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً ، فكان على آماليا التى نفذ صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تتفجر . وعادت كاترين ايفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة :

— يا للعجوز الأنيقة ! أرادت أن تقول ان أباه كان يتجول واضعاً يديه فى جيبه ، فاذا سمع المرء كلامها أمكن أن يظن أنها تريد أن تقول ان أباه كان ينبش جيوبه دائماً ! هـى هـى هـى ! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب فى بطرسبرج ، ولا سيما الألمان ، الذين يتقاطرون علينا من كل حدب وصوب ، هم جميعاً أغبي منا . انظر بنفسك : هل يمكن أن يروى أحد أن « كارل » مساعد الصيدلانى ، كاد يشب قلبه من مكانه ، ، وأن هذا الأبله قد « ضمَّ يديه باكياً » ، بدلاً من أن يوثق الحوذى ؟ آه ! يا للغية الحمقاء ! هى تتخيل أن قصتها مؤثرة جداً . انها لا تدرك مدى ما فى هذه القصة من سخافة وبلاهة ! فى رأى أن هذا الموظف السكّير أذكى منها كثيراً ! ان المرء يرى على الأقل أنه ترك كل عقله فى قاع كأسه ، أما الآخرون فهم جادّون جداً ؟ يبلغ غاية الإضحاك ! . . . انظر كيف تُجيل عينيها وتديرهما ! انها غاضبة ، انها غاضبة ! ها ها ها ! هـى هـى هـى !

واذا انشرفت كاترين ايفانوفنا هذا الاشرار ، أسرع تدفع

في سرد طائفة من التفاصيل ، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذي ستحصل عليه ، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النيلات في مدينة « ت . . . » التي ولدت فيها . ولم تكن كاترين ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا . لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً ، وأخذت تصف الحياة الرائعة التي ستعيشها وصفاً مسهباً . ولا يدرى أحد كيف وجدت بين يديها ، على حين فجأة ، « شهادة المديح » تلك التي سبق أن تحدث عنها المرحوم مارمیلادوف الى راسكولنيكوف حين ذكر له في أول لقاء بالحمامرة أن زوجته كاترين ايفانوفنا قد رقصت ، في يوم تخرجها من المدرسة الداخلية ، رقصة الشال ، « أمام الحاكم وشخصيات أخرى » . كان واضحاً أن الغرض من ابراز هذه الشهادة هو أن تثبت أن كاترين ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية ؛ ولكن كان الغرض من ابرازها أيضاً وخاصة هو أن تُخرس تينك المراتين الفاسدين اذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترين ايفانوفنا تنتمي الى أسرة نبيلة ، بل يمكن القول انها تنتمي الى أسرة ارسقراطية ، فهي ابنة كولونيل ، وهي أفضل كثيراً من « أولئك النسوة المغامرات اللواتي ازداد عددهن ازدياداً كبيراً في الآونة الأخيرة » . وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدي المدعويين السكارى ، وذلك أمر حازرت كاترين ايفانوفنا أن تعترض عليه أي اعتراض ، لأن الشهادة كانت « تنص نصاً صريحاً » على أن كاترين ايفانوفنا هي فعلاً بنت مستشار قضائي ، أي بنت كولونيل تقريباً . وقد تحمست كاترين ايفانوفنا فأفاضت في الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التي تنتظرها في مدينة « ت . . . » ، وتكلمت عن الأساتذة الذين سيتدعوهم الى التدريس في مدرستها ، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذي علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة في المدرسة الداخلية ، والذي ينهي الآن أيامه في مدينة

« ت . . . » ، ولا شك أنه سيقبل أن يدرّس في مدرستها بأجور معقولة . وجاءت أخيراً على ذكر صونيا ، فقالت ان « صونيا ستذهب هي أيضاً الى مدينة ت . . . » ، وانها ستفعلها هنالك في أمور كثيرة » . ولكن حين قالت كاترين ايفانوفنا هذا الكلام ، خنق أحدهم ضحكة عند الطرف الآخر من المائدة . فظهرت كاترين بأنها لم تسمع الضحكة ، ورفعت صوتها لتعدد المزاي الأكيّدة التي تتحلّى بها صوفيا سيميونوفنا ، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا « جديرة بأن تساعدنا ، لما تمتاز به من رقة وعدوبة ، وصبر ودأب ، وتضحية وبذل ، وبذل نفس وحسن تربية » . ثم ربت على خدي صونيا ، ونهضت قبلها بحرارة مرة أولى فمرة ثانية .

واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً . ثم ما لبثت كاترين ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهي تقول « انها ليست مخلوقة بلهاء بأسنة محطمة الأعصاب ، وانها قد نفذ صبرها وبارحتها قواها . . . وان المأدبة قد انتهت فليسكب الشاي ! » .

وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك في الحديث ، حتى ان احداً لم يستمع لها ولم يصنع الى كلامها ، فقامت في تلك اللحظة بمحاولة أخيرة . استجمعت شجاعتها ووجهت الى كاترين ايفانوفنا ، رغم ما توجسه في قرارة نفسها من قلق وخشية ، ملاحظة هي من أعمق الملاحظات وأشدّها جرأة ، اذ قالت لها انه سيكون عليها في المدرسة الداخلية أن تعنى عناية خاصة بغسيل البنات (قالت كلمة الغسيل بالألمانية) ، و « أن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة » ، وان عليها كذلك أن لا « تدع لأية فتاة أن تقرأ روايات في الليل سراً » . وكانت كاترين ايفانوفنا نائرة الأعصاب مهدودة القوى ، ناهيك عن ازعاجات المأدبة ، فسرعان ما انفجرت تهجم على آماليا ايفانوفنا قائلة لها انها تقول « سخافات وحماقات » ، وانها لا تفهم شيئاً من شيء : فالاهتمام

بالغسيل هو فى مدرسة من المدارس الداخلية النيلة لا يقع على عاتق المدير بل هو من اختصاص المحاسبة • أما قراءة الروايات فان الإشارة اليها هى فى حد ذاتها أمر غير لائق ، لذلك يحسن بآماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً •

اصطبغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستياء ، فقالت غاضبة ان « نياتها حسنة » وانها لا تريد لها الا « خيراً كثيراً » رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أى مال (قالتها بالألمانية) من اجرة المسكن • فسرعان ما ردتها كاترين ايفانوفنا الى مكانها ، اذ قالت لها انها تكذب فى ادعائها أنها « تريد لها الخير » ، لأنها فى الليلة البارحة نفسها ، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة ، جاءت تعذبها بمسألة أجرة المسكن هذه • وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا فى الرد فقالت لها أنها « دعت السيدات » ولكن تلك السيدات لم يجئن ، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلين دعوة سيدة غير محترمة • فأسرعت كاترين ايفانوفنا تلح فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم ، لأنها هى نفسها غير محترمة • ولم تحتل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة ، فسرعان ما أعلنت أن « أباه البرلينى » (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً ، نجداً ، وانه كان يمشى واضعاً يديه فى جيبيه ، وانه كان دائماً يزفر هكذا : بوف ••• بوف !••• ومن أجل أن تعطى عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك ، نهضت عن مكانها ودست يديها فى جيبيها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمه لكنها تشبه « بوف ، بوف » ، فكان جميع المستأجرين يضحجون بضحك صاخب ، وكان يحلو لهم ، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين ، أن يحرضوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحريض •

طفح الكيل بالنسبة الى كاترين ايفانوفنا ، فسرعان ما أعلنت بصوت قوى يسمعه الجميع « أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها « أب » أصلاً ، وأنها ليست الا سكيرة فنلندية من بطرسبرج ، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طبخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً •

احمرت آماليا ايفانوفنا احمراراً شديداً وصاتت تقول : « ان كاترين ايفانوفنا هي التي قد لا يكون لها أب ، أما أبوها هي فقد كان يعيش ببرلين ، وكان يرتدى رديجوتاً طويلاً ، وكان ينفخ دائماً : « بوف ، بوف » •

قالت كاترين ايفانوفنا باحتقار « ان أصلها هي يعرفه الجميع ، وأن الشهادة التي قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هي نفسها بكلام مطبوع ان أبها كان كولونيلاً • أما أبو آماليا ايفانوفنا (اذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندي من بطرسبرج كان بائع حليب ، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً ، والدليل على ذلك أننا لا ندرى حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها الى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا •

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته ، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعلنت تقول : « ان اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا ، وان أبها كان اسمه يوحنا ، وانه كان عمدة مدينة ، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترين ايفانوفنا في يوم من الأيام » •

اصفر وجه كاترين ايفانوفنا اصفراراً شديداً ، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً ، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاسٍ ظاهره الهدوء : اذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرة واحدة أخرى « فقارنت بين أبيها التافه الذي لا قيمة له ، وبين أبيها هي ، فلتزعن عنها قبعتها ولتدوسنها بقدميها » • فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض في



آماليا ايفانوفنا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

الغرفة طويلاً وعرضاً ، وهى تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت ، وأن على كاترين ايفانوفنا أن « تخلي المسكن فوراً » + ثم أسرعَت تَجْمَع ملاعقها الفضية من على المائدة • وأعقبت ذلك جلبة لا توصف ، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك ، والأولاد أخذوا يبكون ؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترين ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا أشارت الى البطاقة الصفراء ، فما كان من كاترين ايفانوفنا الا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لانفاذ التهديد الذى أعلنته بصدد القبعة •

وفى تلك اللحظة فُتح الباب ، وظهر فى العتبة بطرس بتروفتش لوجين فجأة •

توقف لوجين لحظة ، وألقى على الحضور جميعهم نظرة قاسية فاحصة ، فنهزت كاترين ايفانوفنا نحوه •

الفصل الثالث



كاترين ايفانوفنا تقول :

— بطرس بتروفتش ! أنت على الأقل ، أنجدني ،
أغثني ! أفهم هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق
لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيّدة من أسرة
كريمة أختي عليها الدهر ، وأن هناك محاكم لهذا الأمر ... سوف
أشتكى الى الحاكم العام بشخصه ... يجب أن تُسأل هذه المخلوقة عما
فعلت ! .. تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به أبي ... كن
حامياً لليتامى ...

قال بطرس بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترين ايفانوفنا
بحركة من يده :

— اسمحي لي يا سيدتي ، اسمحي لي ، اسمحي لي يا سيدتي .
أنا لم أشرف بمعرفة أهلك في يوم من الأيام ، وأنت تعلمين هذا حق العلم
... اسمحي لي يا سيدتي ! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً) .
ولست أنوي أن أشارك في مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا ... أنا
أنا جئت لأمر ... شخصي ، أنا أنا جئت أطلب على الفور ايضاحاً من
ابنة زوجك صوفيا ايفانوفنا ... هذا هو اسمها ، أليس كذلك ؟ فاسمحي
لي أن أمر ...

قال بطرس بتروفتش ذلك وترك كاترين ايفانوفنا واتجه الى
الركن المقابل من الغرفة ، حيث كانت صونيا •

تجمدت كاترين ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة • لم تستطع
أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بطرس بتروفتش أن أباهما قيد أكرم
ضيافته • انها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدقها وتؤمن بها هي
نفسها • وهذه اللهجة التى تكلم بها بطرس بتروفتش ، هذه اللهجة
الجسنة ، الرسمية ، التى فيها احتقار وتهديد ، قد أدهشتها أيضاً • على
أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بطرس بتروفتش • ان « رجل الأعمال
الجاد » هذا يفوق سائر الحضور شأنًا ، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه
انما جاء لأمر خطير ، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه الى أن يغشى
هذه البيئة ، ولا بد اذن أن يقع حادث ما بعد قليل • وكان راسكولنيكوف
الى جانب صونيا فتحنى حتى يدع له أن يمر • وبدأ على بطرس بتروفتش
أنه لم يلاحظه • وبعد دقيقة ظهر ليزياتنيكوف فى عتبة الباب هو أيضاً •
لم يدخل الغرفة ، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك ، حتى ليكاد يكون
مدهوشاً • وقد أصاح بسمعه مصغياً ، لكنه ظل مدةً طويلة يبدو عليه
أنه لا يفهم الأمر الذى يدور عليه الكلام •

قال بطرس بتروفتش يخاطب الجمع :

— اغفروا لى ازعاجكم ، غير أن القضية هامة خطيرة ؛ بل اننى يهمنى
أن تنجلي الأمور على رؤوس الأشهاد • يا آماليا ايفانوفنا ، أرجوك وألح
فى الرجاء أن تستمعى الى الحديث الذى سأجريه مع صوفيا ايفانوفنا ،
بصفتك صاحبة البيت •

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التى كانت مدهولة وكانت مروعة
مذعورة سلفاً :

- يا صوفيا ايفانوفنا ، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة عند صديقي آندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف . فاذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن ، فقلت لنا أين توجد ، فإن لك على عهد الشرف - وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول - أن تقف القضية عند هذا الحد ؛ والا كنت مضطراً أن أُلجأ الى اجراءات أخطر ... وليس لك عندئذ أن تلومى الا نفسك ! ...

خيم على الغرفة صمت مطلق . حتى الأطفال الذين كانوا يكون سكتوا . وكانت صونيا واقفة ، شاحبة كأنها ميتة ، تنظر الى لوجين ولا تجد كلاماً تجيبه به . كان يبدو عليها أنها لا تفهم . وانقضت بضع ثوان .

سألها لوجين وهو يحدق اليها :

- هيه ؟ ما قولك ؟

ف قالت صونيا أخيراً بصوت واهن :

- لا أعلم ...

- حقاً ؟ لا تعلمين ؟ لا تعلمين شيئاً ؟

كذلك سألها لوجين مكرراً ، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى ، ثم استأنف كلامه فقال بجفاء وخشونة :

- فكرى يا آنسة ، فكّرى فى الأمر . أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكرى . اسمعى : لولا اننى واثق بما أقول ، موقن منه ، فاننى بحكم تجربتى ما كنت لأجازف فأوجه اليه اتهاماً مباشراً الى هذا الحد ، لأننى سأحاسب أنا نفسى عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رءوس

الأشهاد اذا ظهر أنه خطأ فحسب • ذلك أمر أعرفه • اننى فى هذا الصباح قد بعث ، لقضاء حاجات شخصية ، بضعة سندات ذات ريع ، قيمتها الاسمية ثلاثة آلاف روبل • ذلك هو الرقم المسجل فى دفترى • فلما عدت الى مسكنى - وان آندره سيميونوفتش شاهد على ذلك - أخذت أعدّ المال من باب التثبت والتحقق ، حتى اذا عددت ألفين وثلاثمائة روبل ، رتبته فى محفظتى ووضعت المحفظة فى الجيب الداخلى من ريدينجوتى • وبقي على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقدية ، منها ثلاث قيمة الواحدة مائة روبل • وفى تلك اللحظة دخلت أنت (تلية لدعوتى) ، وطوال المدة التى قضيتها عندى ، كان يبدو عليك اضطراب شديد ، حتى انك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات • كنت تريد أن تخرجى - لا أدري لماذا ! - رغم أن محادثتى معك لم تكن قد انتهت • ان آندره سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كله • وأغلب الظن أنك لن ترفضى أنت نفسك ، يا آنسة ، أن تعترفى بأننى أرسلت آندره سيميونوفتش فى طلبك لهدف واحد هو أن أتكلم معك فى الوضع المحزن الذى آلت اليه قريبتك كاترين ايفانوفنا (التى لم أستطع أن أشارك فى مأدبتها) ، وفى وسائل مساعدتها بتنظيم اكتاب تبرعات أو اقامة يانصيب أو شىء من هذا القبيل • وقد شكرتنى ، حتى ان الدموع تفرقت من عينيك (اننى أروى الأشياء كما وقعت ، أولاً لأذكرك بها ، وثانياً لأبين لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد امحى من ذاكرتى) • ثم تناولت من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك اياها ، دليلاً على اهتمامى بقريبتك ، ومشاركة أولى منى فى مساعدتها • وهذا أيضاً قد رآه سيميونوفتش • وخلوت بعد ذلك الى آندره سيميونوفتش • وتحدث معه قرابة عشر دقائق • حتى اذا خرج عدت الى المائدة أنوى أن أرتب ،

على حدة ، المال الذى كان موضوعاً عليها ، وذلك بعد أن أعدّه مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل) • فما كان أشد دهشتى حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فقدت • افصلى فى الأمر بنفسك : لا يمكننى بأية حال من الأحوال أن أشك فى آندره سيميونوفتش ، حتى ان هذه الفكرة وحدها تُشعرنى بالحجل والعار • لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت فى حساباتى ، لأننى قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد ثبتت من صحة المجموع • لذلك ، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة ، ونظراً لاستعجالك الخروج ، ونظراً لكونك قد ظلمت واضعةً يديك على المائدة بضع لحظات ، ونظراً لوضعك الاجتماعى وما يخلقه من عادات ، فقد « أكرهت » ان صح التعبير ، أكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها قاسية لكنها فى محلّها ولها ما يسوّغها • أضيف وأكرر أننى رغم يقينى « البديهى » الكامل أدرك أن القاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها • ولكننى لم أتردد دقيقة واحدة ، كما ترين ، بل تارت تأثرتى واستعرت حلقى ، وسأقول لك الآن لماذا تارت تأثرتى واستعرت حلقى : ان سبب ذلك هو عقوبتك الأسود يا آنسة ؟ كيف ؟ أأدعوك الى مسكنى ، وأهتم بقريبتك المسكينة ، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً منى فى مساعدتها ، فتكافئنى هذه المكافأة فى تلك الدقيقة نفسها ؟ لا ، حقاً ليس هذا حسناً ! ولا بد من أن تُلَقِّنى درساً ! فكّر فى الأمر ! ثم انتى أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك فى هذه اللحظة صديق خير منى) : تذكرى هذا ، والا أصبحتُ بغير رحمة أو شفقة • هل تعترفين بأنك •••

دمدمت صونيا تقول مذعورة :

— أنا لم أسلبك شيئاً • أنت أعطيتنى عشرة روبلات • ها هى ذى •
انتى أردتها اليك •

واستلت صونيا من جيبها منديلاً ، واهتدت الى العقدة التى عقدتها فيه ففضتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدتها الى لوجين •
قال لوجين ملحاً ، بلهجة اللوم والتقريع ، دون أن يتناول الورقة المالية :

— ألا تعترفين اذن بالمائة روبل ؟

أجالت صونيا بصرها فيما حولها • كان الجميع ينظرون اليها بعيون قاسية ، ساخرة ، مبغضة !... وألقت نظرة على راسكولنيكوف •
كان راسكولنيكوف واقفاً ، مسنداً ظهره الى الجدار ، عاقداً ذراعيه على صدره ، يحدّق اليها بعينين ملتصقتين •
وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة :

— يا رب !

قال لوجين فى رفق ، بل بصوت عذب :

— يا آماليا ايفانوفنا ، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة ، فأرجوك بانتظار ذلك أن ترسلى أحداً ينادى البواب ...

قالت آماليا ايفانوفنا وهى تضرب كفاً بكف :

— يا اله الرحمة * ! كنت أعرف أنها لصة !

قال لوجين :

— ها ... كنت تعترفين ذلك ؟ لا بد أن يكون هنالك اذن سبب دعاك الى استخلاص هذه النتيجة ، واستخراج هذا الرأى فى الماضى !
فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا ، المحترمة جداً ، أن تتذكرى هذه الكلمات التى قلتها الآن ، وقد قلتها أمام شهود على كل حال •

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية فى كل جهة من الجهات ،
وشمل الحفل كله اضطرابٌ كبير .

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول فجأةً وقد ثابت الى رشدها :

- كيف ؟

واندفعت مسرعةً نحو لوجين مرددة :

- كيف ؟ أتهمها بالسرقة ؟ أتهمها هى ؟ هى ، صونيا ؟ آه ...
يا للحقيرين ! يا للحقيرين !

وارتمت على صونيا ، فاحتضتها بذراعيها المعنوقتين الهزيلتين
ككَلَابَةٍ • وتابعت كلامها تقول :

- صونيا ! كيف تجرأت أن تقبلى عشرة روبلات من هذا الرجل؟
يا لك من حمقاء ! يا لك من حمقاء ! رديها اليه حالا ، رديها اليه حالا ،
روبلاته العشرة ! خذ ...

انتزعت كاترين ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا ، فدعكتها
بيديها ، ورمتها فى وجه لوجين ، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على
أرض الغرفة • فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها ، وغضب بطرس
بتروفتش ، وصرخ قائلاً :

- أمسكوا هذه المجنونة !

وفى تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم،
عدا لينزياتنيكوف ، السيدتين القادمتين من الأقاليم ، اللتين تسكنان هنا منذ
مدة قصيرة •

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

- كيف؟ المجنونة؟ أنا المجنونة؟ يا للأبله! يا للوغد الشقى!
يا للرجل الدنىء! صونيا، صونيا، تسرق منه مالاً؟ صونيا، سارقة؟
ولكنها قادرة على أن تعطيك مالاً يا أبله!

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هسترية،
وهتفت تقول وهى تركض الى اليمين والى اليسار مشيرة لجميع الناس
الى لوجين:

- أرايتم الى هذا الأبله؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت:

- كيف؟ أفأنت أيضاً تدعين أنها سارقة؟ يا للدجاجة الألمانية!
انظروا أيها الناس، انظروا!

وعادت تخاطب بطرس بتروفتش فقالت:

- آه... أنت... أنت... أجهلت أنها لم تترك هذه الغرفة
لحظة واحدة أيها النذل، فما ان خرجت من عندك حتى جاءت تجلس
الى جانبي؟ لقد رآها الجميع • جلست هنا، الى جانب روديون
رومانوفتش! فتشها اذن! فما دامت لم تذهب الى أى مكان، فلا بد أن
يكون المال معها • ابحث اذن! ابحث اذن! ابحث! ولكن اذا
لم تجد شيئاً يا عزيزى فلتحاسبين على افترائك! الى الامبراطور
سأشكوك، الى الامبراطور، الى القيصر الرحيم! لأرتمين على قدميه
حالاً، فى هذا اليوم نفسه! أنا يتيمة! سيسمحون لى بالدخول! ماذا؟
أتظن أنهم لن يسمحوا لى بالدخول؟ أنت اذن مخطيء! لسوف أصل
اليه، لسوف أصل اليه! آ... كنت تعوّل على خجلها وحيائها، على

رقتها وخفرتها ، أليس كذلك ؟ على هذا انما كنت تبني أملك ! ولكننى ،
أنا ، لا أستحي يا عزيزى ! أنا عيناى ماء ! هيّا فتش ! فتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك خارجةً عن طورها وقد أخذت تهز
لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا .

قال لوجين :

- أنا مستعد .. أنا مستعد لأن أحاسب ... ولكن هدئى روعك
يا سيدتى ، هدئى روعك ! انى لألاحظ حقاً أنك لا تستحين ... (هنا
أصبح كلام لوجين دمدمة) ... أمام الشرطة انما يحسن فى الواقع أن
... رغم أن وهنا شهوداً يكفى عددهم ويزيد ... أنا مستعد .. ولكن
هذه مهمة مخرجة بالنسبة الى رجل ... وذلك بسبب ... بسبب الجنس
طبعاً ... ليتنى أستطيع أن أطلب الى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى ...
رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة ... ليست هذه الطريقة ...
ما العمل ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

- اختر من تشاء ! فليفتشها من يريد أن يفتشها ! صونيا !
اقلبى جيوبك أمامهم ! انظر ، انظر أيها الشيطان ! هأنت ذا ترى أن
جيبيها خال . أرايت ؟ واقلبى الجيب الآخر الآن ! انظر ! انظر !
أرايت ؟ أرايت ؟

ولم تكتف كاترين ايفانوفنا بقلب جيبي صونيا ، بل شدتهما شداً
عنيفاً لتظهرهما اظهارةً أوضح . فاذا بورقة صغيرة تثب عندئذ من الجيب
الثانى ، وهو الجيب الأيمن ، فترسم فى الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند
قدمى لوجين .

جميع الحضور رأوا الورقة ، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات •
ومال بطرس بتروفتش على الأرض ، فتناول الورقة باصبعين ، وفضَّها
على مرأى من الشهود كافة • انها ورقة مائة روبل قد طُويت ثماني
طيَّات • أجال بطرس بتروفتش يده في جميع الاتجاهات حتى يتمكن
الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة •

أعولت آماليا ايفانوفنا تقول :

— سارقة ! لصة ! اخرجى من هنا ! نادوا الشرطة ، نادوا الشرطة !
ينجب ارسالهم الى سبيريا ! اخرجوا من هنا !

وارتفعت صيحات من كل صوب • وكان راسكولنيكوف صامتاً
لا يحوّل بصره عن صونيا ، مع القائه نظرة سريعة على لوجين من حين
الى حين • وما تزال صونيا واقفةً فى مكانها كأنها أصيبت بخبال ، حتى
انها لا تبدو عليها دهشة • وفجأة احمر خذاها احمراراً شديداً ، وأطلقت
صرخة خفيفة ، وأخفت وجهها فى يديها • ثم صرخت بصوت ممزق
يقطعه نسيج البكاء ، وهى تهرع نحو كاترين ايفانوفنا ، صرخت تقول :
— لا ، لست أنا !... أنا لم آخذها ! لا أعلم !

واحتضنتها كاترين ايفانوفنا بذراعيها ، وضمتها اليها بقوة كأنها تريد
أن تجعل من صدرها متراساً يحميها •

وصرخت كاترين ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع ، وهى
تهدهدها فى ذراعيها كما يُهدّد طفل صغير ، وتقبّلها طائشة العقل ،
وتمسك يديها فتغرقهما لثماً :

— صونيا ! صونيا ! لست أصدق ! هانت ذى ترين أننى لا أصدق !
أأنت تسرقين ؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين ؟ يا رب !... •

ثم صرخت تخاطبهم جميعاً :

- أتم بلهاء ! أتم بلهاء ! أتم اذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبل النفس ! أتم اذن لا تعرفون أية فتاة هى ! أهى تسرق ؟ هى ؟ ألا انها مستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه ، ألا أنها مستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه ، ألا انها مستعدة أن تهب لكم أتم آخر قميص تملكه اذا كنتم فى حاجة اليه ! نعم ، هذه هى طبيعتها ! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة ، فلأن أولادى كانوا يتضورون جوعاً ! لقد باعت نفسها فى سبيلنا ! أه ... يا زوجى الراحل ... يا زوجى المسكين الراحل ، هل ترى هذا ؟ هل ترى ؟ انظر الى مأدبة الجنائز هذه التى تقام لك ! رباه ! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أتم ؟ ما بالكم تبقون جامدين كاللومياوات ؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون رومانوفتش ؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً ... ؟ انكم جميعاً لا تساوون خنصرها ، جميعاً ، جميعاً ، جميعاً ! هلاً دافعتم عنها أخيراً ؟ رباه ! ...

كان لشهقات كاترين ايفانوفنا المسكينة ، المصدورة ، التى هجرها جميع الناس أثر قوى فى الحضور . ان هذا الوجه الحزين المخرب الضاوى من وجوه المصابين بداء السل ؟ وان هاتين الشفتين اليابستين المدماتين ؟ وأن هذا الصوت الأجش الصافر ؟ وان هذا النسيج المتشيج الذى يشبه نسيج الأطفال ؟ وان هذه الضراعة التى فيها ثقة كثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس ؟ ان ذلك كله كان يبلغ من اثارة الشفقة وايلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثى لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه . وسرعان ما « رثى لحالها » بطرس بتروفتش على كل حال . قال يهتف بصوت يعبر عن الحماية والرعاية :

- سيدتى ، سيدتى ! ان هذا الحادث لا يتناولك فى شيء البتة ؟ مامن

أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ ، لا سيما وأنك توليت بنفسك قلباً جيوبها ، فهذا دليل على أنك لم تراودك أية شبهة • انتى مستعد أتم الاستعداد ، نعم ، أتم الاستعداد ، لأن أسمح إذا كان البؤس هو الذى دفع صونيا سيميونوفنا ان صح التعبير • ولكن لماذا لم تشائى أن تعترفى يا آنسة ؟ لعلك كنت تخشين العار ؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى فى هذا الطريق ؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك ؟ ذلك أمر يفهم تماماً • ولكن لماذا ، لماذا وضعت نفسك فى موقف كهذا الموقف ؟

وأردف بطرس بتروفتش يشهد الحضور قائلاً :

— أيها السيدات والسادة ، انتى ، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة ، ما أزال مستعداً لأن أغفر وأصفح ، رغم الشتائم الشخصية التى وُجِّهت الىّ !

والتفت الى صونيا ، فقال لها :

— نعم يا آنسة ، ليكن الحزى الذى أصابك الآن درساً يفيدك فى المستقبل • لن أتابع هذه القضية • أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد • يكفى هذا •

وبطرف العين أراد بطرس بتروفتش أن يلاحظ راسكولنيكوف ، فالتقت نظرتهما • كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملهبة تهم أن تسحق لوجين سحقاً •

ولم يبد على كاترين ايغانوفنا أنها سمعت شيئاً • كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجنونة • وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة ؛ وقد أجهشت بوليتشكا باكية ، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذى يدور عليه

المشهد فهماً واضحاً) ، وألقت وجهها الجميل المتفتح على كتف صونيا ،
مهتزة الجسم من التشيج •
- ما أنذل هذا !

كذلك قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب •
التفت بطرس بتروفتش • فكرر ليزياتنيكوف قوله محدقاً إليه
متفرساً فيه :
- يا للندالة !

أصاب بطرس بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة • لقد لاحظ
الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد) • تقدم ليزياتنيكوف بضع
خطوات • وقال مخاطباً بطرس بتروفتش وهو يقترب منه :
- وتجروؤ أن تشهدنى أيضاً ؟

- ما معنى هذا ••• يا آندره سيميونوفتش ؟ عم ••• تتكلم ؟

كذلك دمدم لوجين متعثر اللسان •
أجابه ليزياتنيكوف بعنف ، وهو ما يزال يحدق إليه تحديقاً
قاسياً بعينين تشبهان أن تكونا عياوين :

- معناه أنك كاذب مفتر ••• نعم ••• هذا ما يعنيه كلامي !

كان ليزياتنيكوف في حالة غضب رهيب • ونظر إليه راسكولنيكوف
هو أيضاً ، كأنما ليتلقف كلماته ويزنها وهي طائرة • وساد صمت
جديد • كان بطرس بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريباً ،
ولا سيما في الوهلة الأولى •

وبدأ يتكلم فقال متلعثماً :

— اذا كنت تخاطبني أنا ... ولكن ماذا دهالك ؟ أنت في تمام عقلك ؟

— نعم .. أنا في تمام عقلي ... ولكنك أنت ... نذل ! آه ... ما أنذل هذا ! لقد سمعت كل شيء ، وتعمدت أن أنتظر لأفهم كل شيء ، ذلك أنتى حتى هذه الساعة ... كانت تبدو لى الأمور منطقية جداً ، اعترف بذلك ! ... نعم ، لماذا فعلت هذا ؟ ... انتى لا أفهم !

— ولكن ما الذى فعلته ؟ هلا كفت عن الكلام بالغاز غيبة ؟ لعلك سكران ؟ لعلك شربت ؟

— بل لعلك أنت الذى شربت ، لا أنا ، أيها الرجل الدنيء ! ثم انتى لا . أشرب فودكا أيضاً ، لأن هذا يخالف مبادئى . هل تتصورون أنه هو نفسه ، هو الذى أعطى صوفيا سيميونوفنا ، بيديه ، ورقة المائة روبل هذه ؟ لقد رأيته بعينى رأسى ، أنا شاهد ، وفى وسعنى أن أحلف على ذلك بأغلظ الأيمان !

وردّد ليزياتنيكوف يقول متجهاً الى الجميع والى كل واحد :

— هو ! هو ! هو !

أعول لوجين يقول :

— أنت مجنون أيها الغر ؟ لقد أقرت هى نفسها ، هى الواقفة هناك ، بقربك ، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ منى الا عشرة روبلات . وكيف كان يمكنى أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك ؟

ردّد ليزياتنيكوف يقول صارخاً :

— رأيته ! رأيته ! رأيته ! وأنا مستعد ، رغم أن ذلك يخالف مبادئى ، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم ... لأننى

رأيتك تدس لها هذه الورقة خلسة • ولكنني ، لغبائي ، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والاحسان • قرب الباب ، لحظة كانت تودعك ، حين التفت ومددت لها يدك اليمنى ، دسست ورقة المائة روبل باليد اليسرى في جيبيها خلسة • رأيت ذلك ! رأيت ذلك !

شحب لون لوجين • وصرخ يقول بوقاحة :

— ما هذه السخافات التي تقولها ؟ كيف كنت تستطيع ، وأنت واقف قرب النافذة ، أن تتعرف هذه الورقة ؟ ما هذا الا وهم ! • ما هذا الا وهم خلقتهم عيناك الضيقتان الحسيرتان ! أنت تهذى !

— لا ، ليس هذا وهماً ! ورغم أنني وقفت بعيداً ، والحق يقال ، فقد رأيت كل شيء ، رأيت كل شيء ! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة • ولكنني بفضل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة انما كانت ورقة مالية بمائة روبل ، اذ في اللحظة التي أعطيت فيها صوفيا سيميونوفنا عشرة روبلات ، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأنني كنت عندئذ بالقرب منك) ؛ ولأن فكرة ما قد ومضت في ذهني حينذاك ، فأنني لم أنس أن هذه الورقة كانت بيدك • لقد طويتها واحتفظت بها في يدك طول الوقت • ثم لم أفكر أنا بعد ذلك في هذا الأمر التفصيلي ، ولكنك حين نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى الى يدك اليسرى ؛ وحين فعلت ذلك كدت تسقطها على الأرض • فتذكرت ذلك الأمر التفصيلي من جديد ، لأن تلك الفكرة نفسها قد ومضت في ذهني مرة أخرى : وهي أنك تريد أن تمن علي صوفيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك • لهذا أخذت أراقبك وأرصد حركاتك ، فرأيت أنك أفلحت في أن تدس تلك الورقة في جيبيها ! رأيت ذلك ! رأيت ذلك ! واني مستعد لأن أحلف يمينا !

كان ليزياتنيكوف كمن يختنق + وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب ، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب + غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً + واقترب الجميع من بطرس بتروفتش ، واندفعت كاترين ايفانوفنا نحو ليزياتنيكوف +

- آندره سيميونوفتش ! لقد أخطأت الظن فيك ! دافع عنها ! أنت الوحيد الذى يدافع عنها ! هذه يتيمة ! ان الله هو الذى أرسلك لتساعدنا ! آندره سيميونوفتش ، يا عزيزى الطيب الشهم آندره سيميونوفتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك ، وارتمت تركع أمامه ، وهى لا تكاد تدرك ماذا تصنع !

زار لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب :

- سخافات ! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام : « نسيت » تذكرت ، تذكرت ، نسيت ! « ما معنى هذا ؟ فى زعمك اذن اننى دست لها الورقة عمداً ... ولكن لماذا ؟ ما عسى يكون هدفى من ذلك ؟ أى شى يجمع بينى وبين هذه ال ...

- لماذا ؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسى ، ولكن هذا لا ينفى أننى أقول الحقيقة ! اننى لم أخطئ فى شىء أيها الحقير النذل ؛ اننى أتذكر أن فكرة قد راودتنى فى تلك المناسبة ، حين كنت أشكرك مصافحاً + لقد قلت لنفسى عندئذ : « لماذا دس لها هذه الورقة خلسة ؟ » يمكن أن لا يكون غرضه من ذلك الا أن يخفى عنى عمله ، لعلمه بأن مبادئى تتعارض مع فكرة الاحسان الفردى ، الاحسان الذى لن يخفف عن أحد تخفيفاً جذرياً فى يوم من الأيام ؟ « ثم خطر ببالى أنك ربما كنت تشعر بحرج من اهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضورى ؟ ثم اعتقدت

أنك إنما أردت أن تحدث لها دهشةً حين ستعثر في جيبها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو) • ولكنى قلت لنفسى بعد ذلك أيضاً أنك تريد أن تختبرها وأن تمتحنها ، أى أن تعلم هل تجيء إليك شاكرة بعد أن تجد الورقة • وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك إنما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان ، عملاً بالمبدأ القائل ان اليد اليمنى يجب أن تجهل •• الخ •• آه ••• ما أكثر الأفكار التى راودت ذهنى حينذاك ! ••• وقد قررت أن أفكر فى هذه المسألة على مهل ، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين اننى عارف بسرّك • وقد راودتنى عندئذ فكرة أخرى • تساءلت : « ماذا لو أضاعت صوفيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده ؟ » وذلك هو السبب الذى دفعنى أن أجيء الى هنا فأذكرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل فى جيبها • ولكنى ، أثناء الطريق ، دخلت على السيدتين كوبلياتنيكوف ، لأعطيتهما كتاب « العرض العام للمنهج الوضعى » * ، ولأوصيهما خاصة بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً) ؛ ثم جئت الى هنا ، فانظر فى وسط أية قصة وقعت ! هل كان يمكن أن تخطر ببالي تلك الأفكار كلها ، وهل كان يمكن أن أجرى تلك الاستدلالات جميعها ، لولا أننى رأيتك تدرس المائة روبل فى جيب صوفيا سيميونوفنا فعلاً ؟

حين أنهى آندره سيميونوفتش أقواله المفحمة وختمها بهذه النتيجة المنطقية شعر بتعب رهيب ، فكان العرق يقطر من جبينه • انه لا يجيد التعبير باللغة الروسية واأسفاه (وان كان لا يعرف أية لغة أخرى) ، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية ارهاق شديد ، حتى لكأنه أصيب بنحول وهزال • لكن حديثه أثّر تأثيراً خارقاً • لقد تكلم بدون تصنع

أو افتعال ، وكان كلامه مقنعاً مفحماً ، فصدقه الجميع • وشعر بطرس بتروفتش أن الأمور لا تجري على ما يجب • فهتف يقول :

— أنا لا تهمنى المسائل السخيفة التى خطرت ببالك فى قليل ولا كثير ! ليس هذا ببرهان • من الجائز جداً أن تكون قد رأيت ذلك كله فى حلم • وأنا أقول لك انك تكذب يا سيد ! أنت تكذب ، وأنت تفتري على ، يدفعك الى ذلك حقد شخصى ، فأنت تضمر لى الضغينة لأننى لا أشاركك آراءك الاشتراكية الملحدة • ذلك كل شيء !

ولكن هذه الحركة الدائرة لم تعد على بطرس بتروفتش بأى نفع • بالعكس : ارتفعت الدمدمات من كل جهة •

وصاح ليزياتيكوف يقول :

— آ • • هذا ما تريد أن تصل اليه ! أنت تكذب ! استدع الشرطة ، وسأحلف اليمين • ليس هناك الا شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه : ما الذى دفعه الى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء ؟ يا للحقير ! يا للنذل ! قال راسكولنيكوف بصوت قاس وهو يتقدم الى أمها :

— أنا أستطيع أن أشرح السبب الذى دفعه الى التورط فى مثل هذا الفعل • وانى لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً اذا لزم ذلك •

كان راسكولنيكوف يبدو حازماً • وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقوها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً ، وأن الحاتمة قد اقتربت •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال متجهاً بالكلام الى ليزياتيكوف رأساً :

— الآن فهمت كل شيء ! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية ان فى الأمر مكيدة قذرة ما ، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها

أحد غيرى وسأكشف عنها لكم الآن ، لأنها أصل كل شيء . وأنت الذى أضأت لى الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا آندره سيميونوفتش . أرجوكم جميعاً ، جميعاً ، أن تصغوا الى . ان هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً الى لوجين) قد خطب فى الآونة الأخيرة فتاة . . . فتاة . . . هى أختى آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوف . لكنه منذ وصوله الى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بينى وبينه شجار أثناء أول لقاء بيننا فطرده من مسكنى ، وذلك بحضور شاهدين اثنين . ان هذا الرجل شرير جداً . . . لم أكن أعرف أمس الأول أنه يسكن فى غرفة مفروشة عندك يا آندره سيميونوفتش ، ولم أكن أعرف اذن أنه فى يوم تشاجرنا نفسه ، أى أمس الأول بعينه ، قد رأى أتنى بصفتى صديقاً للمرحوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترين ايفانوفنا مالا تنفقه على الاحتفال بالجنائز . ولكنه قد رأى ذلك فسرعان ما كتب الى أمى رسالة يبلغها فيها أتنى قد وهبت كل ما أملك من مال ، لا لكاترين ايفانوفنا بل لصوفيا سيميونوفنا ، واصفاً هذه الفتاة بأحط النعوت . . . أقصد . . . واصفاً طبيعة علاقاتى بها بأحط النعوت . وهو يهدف من ذلك طبعاً الى أن يحدث شقاً بينى وبين أمى وأختى ، عن طريق اقناعهما بأننى أتلف فى وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان نفسيهما منه فى سبيل سد حاجاتى . وفى مساء أمس ، أثناء مقابلة تمت بينى وبين أمى وأختى ، وقد حضر هذه المقابلة ، أظهرت الحقيقة مبرهنات على أتنى انما أعطيت المال لكاترين ايفانوفنا ، لانفاقه على الاحتفال بالجنائز ، ولم أعطه لصوفيا سيميونوفنا ، التى كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كل حال . . . ولكنى أضفت الى ذلك أنه ، هو بطرس بتروفتش ، بكل مزاياه ، لا يساوى خنصر صوفيا سيميونوفنا التى يقول فى حقها ذلك الكلام الدنىء ! ثم سألتى هل أنا مستعد لأن أجلس صوفيا سيميونوفنا الى جانب أختى ،

فأجبت به بأنى قد فعلت هذا فى ذلك اليوم نفسه • وأغضبه أشد الغضب أن يلاحظ أن أمى وأختى لا تريدان أن تتشاجرا معى تصديقاً لنمائمه وافتراءاته ، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقاحات لا تُغتفر • ونشأت عن ذلك قطعة حاسمة بينه وبين اختى ، وطُرد شرّاً طردة • ذلك كله حدث أمس • والآن انتبهوا : لو قد أفلح فى أن يبرهن اليوم على أن صوفيا سيميونوفنا سارقة ، لاستطاع أن يظهر لأمى وأختى أولاً أنه كان على حق حين اشتبه فى أمرها ، وثانياً أنه كان على حق حين غضب اذ علم أنى ساويت بينها وبين أختى ، خطيته • جملة القول أنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل فى أن يحدث شقاقاً بينى وبين أسرتى وفى أن يسترد حظوته لديها • ناهيك عن أنه بذلك ينتقم منى شخصياً ، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صوفيا سيميونوفنا يهمانى كثيراً • ذلكم هو حسابه كله ! هكذا أفهم أنا القضية ! هذا هو دافعه ولا دافع سواه !

بهذه الكلمات ، أو بهذه الكلمات تقريباً ، ختم راسكولنيكوف كلامه الذى كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين ، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه • ولكن راسكولنيكوف ، رغم المقاطعات ، تكلم بلهجة جازمة هادئة ثابتة ، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شيء • وكان لصوته المختلج ونبرته المقنعة وهيئته القاسية أثر شديد فى جميع الناس •

قال ليزياتنيكوف مؤيداً بحماسة :

— هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر يقيناً ، لأنه سألتنى ، منذ دخلت صوفيا سيميونوفنا الغرفة ، هل « أنت موجود ، وهل رأيْتُك فى عداد الذين دعتهم كاترين ايفانوفنا » • لقد جذبنى الى شق

النافذة ليلقى على هذا السؤال همساً • معنى ذلك أنه كان يحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً ! هذا هو الأمر تماماً !

كان لوجين صامتاً يتسم باحتقار • لكنه كان شديد الشحوب • كأنه يفكر في الوسيلة التي يخرج بها من المأزق • لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء ويخرج ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن كثيراً في تلك اللحظة : فلو خرج لكان معنى خروجه صراحةً أنه يعترف بصحة الاتهامات الموجهة إليه ، وأنه قد افترى على صوفيا سيميونوفنا فعلاً • ثم ان الحضور ، وقد سكرُوا ، أخذوا يتحمسون • وهذا موظف التموين يصرخ صراحاً أعلى من صراخ سائر الناس ، رغم أنه لم يفهم كل شيء ، مقترحاً اتخاذ اجراءات تسيء الى لوجين كثيراً • هذا الى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى : لقد هرع أناس من جميع الغرف • البولنديون الثلاثة الصغار احتاجوا احتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية : « سيد حقير » ، ويجمعون مرددين تهديدات بلفتهم أيضاً •

كانت صونيا تصغى في جهد ، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم شيئاً هي الأخرى • لكنها خارجة من غيبوبة • كانت لا تحول عينيها عن راسكولنيكوف ، شاعرةً أنه سندها الوحيد • وكانت كاترين ايفانوفنا تتنفس في مشقة ، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشء ، وكانت تبدو مرهقة الى أبعد حدود الارهاق • الا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبى الأوضاع ، فهي فاعرة الفهم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البتة • كل ما هنالك أنها كانت تحس أن بطرس بتروفتش في مأزق • وأراد راسكولنيكوف مرةً أخرى أن يتكلم ، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل ، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحد ويحتشدون حول لوجين بالشتائم والتهديدات • ومع ذلك لم يفت هذا في عضد لوجين • واذ

رأى أن حملته على صوفيا سيميونوفنا خاسرة ، لجأ الى الوقاحة عامداً •
قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور :

— اسمحوا لي أيها السادة ، اسمحوا لي ! أرجوكم أن لا تهددوني !
أؤكد لكم أن هذا لا يجدى ، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً !
لست بالصبي الغر ... بالعكس : أتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن
أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم • لقد انفضحت السارقة ، وسأشكوها
الى القضاء • والقضاة ليسوا عمياً ، ولا هم سكارى ! ... القضاة لن يثقوا
بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين ، ويتهمانى
حقداً وانتقاماً ، وذلك ما اعترفا به بلسانها لغباثتها ! نعم ، اسمحوا لي !
قال آندره سيميونوفتش :

— ألا فليخف كل أثر لوجودك عندي على الفور ! هيّا غادر غرفتي
حالا ، وليته كل شيء بيننا ... آه ... حين أتذكر كم أرهقت نفسي
طوال خمسة عشر يوماً في أن أشرح له ...

— ولكنني قلت لك أنا نفسي منذ قليل ، بينما كنت تلح أنت على
بقائى عندك ، اننى مبارح غرفتك حتماً • هناك شيء واحد أضيفه الآن :
هو أنك غيى أبله ! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك
الحسير • اسمحوا لي يا سادة !

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً • لكن موظف التموين لم يكن
يسمعه بهذه الأذن ، ولم يشأ أن يخلى سبيله بهذه السهولة ، فتناول كأساً
عن المائدة فلوح بها ثم قذفها الى جهة بطرس بتروفتش بكل ما أوتى من
قوة • غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً ، فأطلقت هذه
صرخات حادة ، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج تحت المائدة بعد أن
أفقدته هذه الحركة توازنه •

انسحب بطرس بتروفتش الى غرفته ، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل .

كانت صونيا ، الوجلة بطبيعتها ، لا تجهل أن من السهل على أى انسان أن يسبب ضياعها وهلاكها . وكانت تعرف كذلك أن أى انسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية اساءة تقريباً . ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن فى وسعها ، بطريقة أو بأخرى ، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة اذا هى عاملت جميع الناس وكل انسان بالتأنى والحذر ، والتواضع والمذلة ، والرقه واللفظ . فخاب الآن ظنها ، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الوقع فى نفسها . صحيح أنها كانت تستطيع ، مذعنة مستسلمة ، ودون دمعة تقريباً ، أن تحتمل كل شيء ، وأن تحتمل حتى هذا . غير أن « هذا » قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها ، فى الوهلة الأولى ، درجة لا تطاق . فهى ، رغم انتصارها وتبرئتها ، ما ان زال رعبها الأول وما ان أفاقت من ذ هولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور ادراكاً صحيحاً ، حتى كان شعورها بأنها مهجورة واحساسها بالاهانة التى ألحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً ، فاذا هى تصاب بنوبة عصبية . ثم اذا هى تفقد صبرها فتوَلَّى هاربة من الغرفة راکضة الى مسكنها . حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً . وآمالها ايفانوفنا التى أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور ، فاستعر غضبها ، وأخذت تطلق صرخات مجنونة ، ثم اتجهت نحو كاترين ايفانوفنا تحمّلها تبعه كل شيء ، وتقول لها :

— ارحلى من بيتى ! اخرجى حالا ! الى الأمام ، سر !

كانت آماليا ايفانوفنا تقول ذلك وهى تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترين ايفانوفنا فتلقيه على الأرض •

وكانت كاترين ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهدودة القوى مهدمة ، محطمة ، ، فلما رأت صاحبة البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبتت عن السرير وهجمت عليها • ولكن الصراع لم يكن فيه أى تكافؤ ، فكانت الألمانية تهز كاترين وترجحها كأنها ريشة طائر •

— ماذا ؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صونيا اقتراءات شيطانية ، فهى تهجم على أنا أيضاً ؟ كيف ؟ هل أرمى الى الشارع فى يوم وفاة زوجى ؟ أبعد أن تقبل ضيافتى ألقى الى الشارع مع اليتامى ؟ فالى أين يمكننى أن أذهب ؟

بهذا كانت تقول كاترين ايفانوفنا مختقة من خلال النسيج • وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناها :

— هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا اله السماء ؟ عمّن عساك تدافع ومن عساك تحمى اذا لم تدافع عنا نحن اليتامى ، واذا لم تحمنا نحن اليتامى ؟ طيب ... لسوف نرى ! ان على الأرض قضاء ومحاكم ! نعم ، هناك قضاء ومحاكم ! سأنتجه الى المحاكم ، سأجد المحاكم ! حالاً ! فوراً ! انتظرى قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئة ! يا بوليتشكا ، ابقى مع الأولاد ! سأعود ! انتظرى فى الشارع اذا لزم الأمر ! سوف نرى هل فى هذا العالم حقيقة !

وألقيت كاترين ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من جوخ السيدات ، الذى تحدث عنه المرحوم مارميلادوف ، وشقت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى المبشرين فوضى ، الذين كانوا لا يزالون

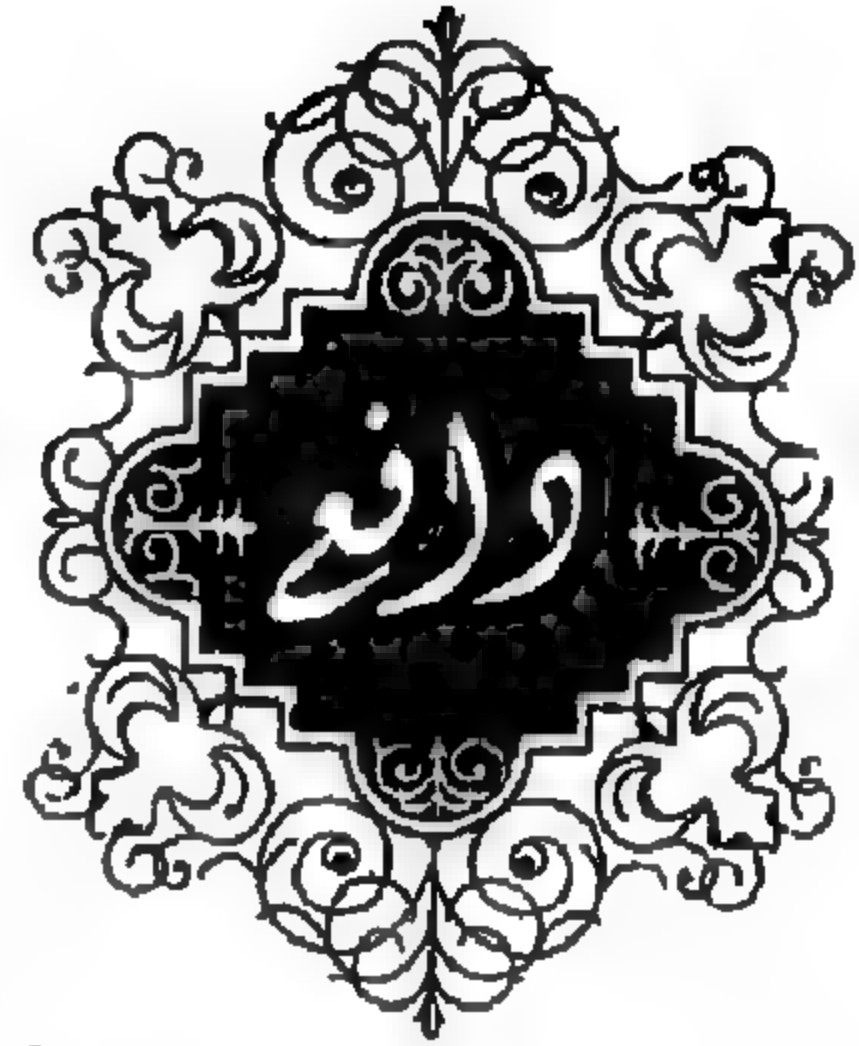
محتشدين في الغرفة . واندفعت في الشارع باكية ناشجة ، وهي تنوى على نحو غامض أن تمضي باحثةً عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر . واستولى الرعب على بوليا ، فلطت في ركن من الأركان قرب الصندوق ، مع الصغار المرتجفين المرتعدين ، وقد أحاطتهم بذراعيها منتظرةً عودة أمها .

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب في الغرفة ، وتطلق الصراخ بعد الصراخ ، وترعد ، وتلقى على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه . وكان المستأجرون يصرخون كلٌّ من جهته . فبعضهم يعلقون على الأحداث بطريقتهم ، وبعضهم يتشاجرون ويتشائمون ، وبعضهم يغنون .

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « والآن حان حيني أنا أيضاً . سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن ! »

واتجه نحو مسكن صونيا .

الفصل الرابع



راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمساً قوياً
ضدّ لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً
شديداً وعذاباً أليماً + ولكنه شعر بعد تباريح
الصباح برضى صادق وارتياح حقيقى لتغير
مشاعره التى كان قد أصبح لا يطيق احتمالها ، بصرف النظر عن العاطفة
التي دفعتها الى التدخل مدافعاً عن صونيا + ثم انه لم ينس أنه على موعد
وشيك مع الفتاة ، وهو موعد كانت فكرته تحدث له فى بعض الأحيان
أشد أنواع القلق + كان «عليه» أن يبلغها أنه قتل اليزابت ، وكان يحس
منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم ممض + وبحركة من يده ،
أبعد هذه الفكرة عن ذهنه + لذلك فانه حين هتف يقول لحظة خروجه
من عند كاترين ايفانوفنا : « سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه
الآن » كان ما يزال خاضعاً للأثر الذى أحدثته فيه انتصاره منذ هنيهة على
لوجين + غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك : فانه حين وصل الى مسكن
كابرنائوف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة ، وشعر بخوف يستولى
عليه ، فاحتار واضطرب ، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال
العجيب : « هل يجب أن يقول لها من الذى قتل اليزابت ؟ » + وانما كان
هذا السؤال عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر فى الوقت نفسه أنه

عاجز عن كتمان هذا الأمر بل يشعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن يؤخر اعترافه هذا أى تأخير • كان لا يعرف ، بعد ، لماذا يستحيل عليه ذلك • وانما هو « يحس » تلك الاستحالة احساساً فحسب ، وكان هذا الاحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً • ومن أجل أن يضع حداً لحواطره وتأملاته ، وهمته وقلقه ، فتح الباب بغتةً ولاحظ صونيا من مكانه فى العتبة •

كانت صونيا جالسةً ، وازدانةً كوعياها على مائدتها الصغيرة ، دافئةً وجهها فى يديها • فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبت الى لقائه كأنها كانت تنتظره •

اقترب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذى تركته صونيا • كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه ، كالبارحة تماماً •

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأةً بأن صوته يرتجف :

— هيه صونيا ! أرايت ؟ ان أساس الأمر كله انما « وضعك الاجتماعى والعادات التى يخلقها » • هل فهمت ؟

ارتسم الألم على وجه صونيا • وقاطعته تقول :

— لا تكلمنى خاصةً كما كلمتنى أمس • أرجوك ، لا تفعل ما فعلته أمس • كفى تعذيباً !

وأسرعت تبسم ، مخافة أن يسوء هذا اللوم •

وأردفت تقول :

— كانت حماقةً منى أن انصرفت • فما الذى يجرى الآن هناك ؟ لقد أردت أن أعود ، لكننى كنت أقدر طوال الوقت أنك • • قد تجبى • •

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت وأن كاترين ايفانوفنا مضت « تبحث عن الحقيقة » في مكان ما •

هتفت صونيا تقول :

- آه ! رباه ! هيّا بنا حالا ، فوراً !

وتناولت خمارها •

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حانقة :

- ما زلت كما كنت ! لا تفكرين الا فيهم ! هلاً بقيت معي قليلاً !

- لكن ... وكاترين ايفانوفنا ؟

- كاترين ايفانوفنا ستعرف كيف تهتدي اليك •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أضاف يقول بحزن :

- ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت • فان لم تجدك هنا كنت

أنت المذنبه •

جلست صونيا وهي فريسة تردد أليم • وصمت راسكولنيكوف

مطرقاً الى الأرض يجتر فكرة ثابتة •

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر الى صونيا :

- لنسلم بأن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر ... ولكن لو شاء

ذلك ، لو كان ذلك داخلاً في حساباته ، لاستطاع أن يرسلك الى السجن

لولا وجودي ووجود ليزياتنيكوف ، أليس كذلك ؟

أجابت صونيا تقول بصوت ضعيف :

- نعم !

ثم كررت تقول قلقة وكأنها غائبة عن نفسها :

- نعم !

قال راسكولنيكوف :

- ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك .
أما لينزباتيكوف فانه لم يكن قد رجع الا مصادفة .

صمت صونيا ولم تجب بشيء .

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

- فماذا لو- أودعت في السجن ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ هل
تذكرين ما قلته لك أمس ؟

ظلت صونيا صامتة . وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو
يحمل نفسه على الابتسام :

- كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلة مرة أخرى : « آه ... »
لا تقل هذا الكلام ! اسكت ! »

ولم تجب صونيا أيضاً ، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة :

- هيه ! أعودين الى الصمت ؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما
على كل حال ! اننى ليهمنى كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلى
« مسألة » من المسائل ... على حد تعبير لينزباتيكوف (لكأن
راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك ، وتابع كلامه ...) لا ، لا ، أنا
لا أتكلم جاداً . تخيلى يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً جميع نيات
لوجين ، وأنت كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترين ايفانوفنا
سوف تضع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً ، هى والأولاد أيضاً ، وأنت

ستعرضين أنت نفسك للانحدار (رغم أن هذا الأمر لا يهملك) ،
وكذلك بوليا من جهة أخرى . . . لأن هذا الطريق هو الطريق
الذى يفتح أمامها فعلاً . تخيلى هذا كله ثم تخيلى أنه يتوقف عليك
أنت أن يبقى على قيد الحياة اما هذا واما أولئك ، أى اما لوجين مع كل
الدناءات التى يرتكبها واما كاترين ايفانوفنا ، فماذا تقررين ؟ أتختارين
موته أم تختارين موتها ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال .

نظرت اليه صونيا فى قلق . انها تحزر وراء هذه الكلمات الملتبسة
فكرة مخبأة تذكرها بشيء ما .

قالت وهى تثبت عليه نظرة فاحصة :

- كنت أوجس أنك ستلقى على سؤالاً من هذا النوع .

قال راسكولنيكوف :

- ليكن ذلك . فماذا تختارين ؟

سأله صونيا بنفور :

- لماذا تسألنى عن شيء لا يمكن أن يحدث ؟

- الأفضل اذن أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر فى

ارتكاب حقاراته . هذا مع ذلك رأى لا تجسرين أيضاً أن ترتبته .

- ليس يخصنى أنا أن أنفذ الى أغراض « العناية الالهية » . . .

ولماذا تسأل عمّا لا نملك حق السؤال عنه ؟ ما جدوى هذه الأسئلة

الباطلة ؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قرارى أنا ؟ من

الذى نصبنى قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن ذا يجب أن لا يحيا ؟

جمعهم راسكولنيكوف يقول بلمهجة كئيبة :

— متى تدخلت « العناية الالهية » فى الأمر ، لم يبق ما نقوله !

فهتفت صونيا تقول فى ألم :

— الأولى أن تقول لى ما تريد أن تقوله ، بغير لف ولا دوران !
انك ما تزال تجتر شيئاً ما • هل من الممكن أن لا تكون قد جئت الا
لتعذبنى ؟

ولم تطق صونيا صبراً ، فأخذت تبكى بكاءً مرّاً • فكان ينظر اليها
مكفهر الوجه حزيناً • وانقضت على ذلك خمس دقائق •

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب :

— نعم ، أنت على حق •

لقد تبدل راسكولنيكوف فجأة • ان لهجته التى كان فيها وقاحه
مقصودة وتحد متعمد قد اختفت • حتى لقد ضعف صوته • وتابع
كلامه فقال :

— لقد قلت لك أمس اننى لن أجيئك اليوم مستغفراً ، ومع ذلك
فاننى بدأت كلامى بالاستغفار تقريباً • فحين تكلمت عن لوجين وعن
العناية الالهية كنت لا أتكلم الا عن نفسى ، وكنت استغفر يا صونيا •

وأراد راسكولنيكوف أن يبتسم ، لكن تعبيراً عن العجز والتعب
تجلى فى تلك الابتسامة الصفراء • وخفض رأسه وغطى وجهه يديه •

وفجأة ، اجتاح قلبه احساسٌ غريب غير متوقع ، احساس بكره
عنيف نحو صونيا • فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روعه
هذا الاكتشاف ، فرفع رأسه بغتةً ونظر اليها محدّقاً • ولكن نظرتة لم
تلتق الا بنظرة الفتاة التى كانت نظرة قلقة زاخرة بضراعة أليمة • لقد

كان فى تلك النظرة حب • وتبدد من نفس راسكولنيكوف كل احساس بالكره ، كما يتبدد حلم • لا ، لم يكن الأمر كما تصور ، لقد أخطأ فى فهم طبيعة العاطفة التى شعر بها • ذلك يعنى أن اللحظة الحاسمة قد وافت •

ومرة أخرى دفن وجهه فى يديه ، وخفض رأسه • واصفر وجهه على حين بغتة ، ونهض عن كرسيه ونظر الى صونيا ؛ ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية ، دون أن يقول كلمة واحدة •

كانت هذه الدقيقة تشبه كثيراً ، من ناحية الاحساس الذى شعر به ، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التى كان فيها واقفاً وراء العجوز ، بعد أن أخرج الساطور من الابرزيم ، وأحس أنه « لم يبق ثمة لحظة يضعها » • سأله صونيا مروعة :

— ماذا بك ؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة • انه لم يكن يقدر أنه على هذا النحو « سينبئها » بالأمر • ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث فى نفسه فى تلك اللحظة •

اقتربت صونيا منه برفق ، وجلست على السرير بقربه ، وانتظرت دون أن تحوّل عينيها عنه • وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر •

أصبح الموقف لا 'يحتمل • أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفرة كصفرة الموت • وتقبضت شفتاه فلم يستطع أن ينطق آية كلمة • استولى الرعب على صونيا • فقالت مرددة وهى تتباعد عنه قليلاً :
— ماذا بك ؟

فدمدم يقول كائنسان استولى عليه الهذيان وأصبح لا يدري ماذا يقول :

— لا شيء يا صونيا • لا تخافى • حقاً ، متى فكّر المرء فى هذه الأمور أدرك أنها سفساف وترهات وحماقات !

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر اليها :

— لماذا جئت أعذبك أنت ؟ حقاً ، لماذا ؟ انتى لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال يا صونيا •

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة ، ولكنه يعبر عنه الآن وهو فى حالة ضعف كامل ، فما يكاد يشعر بنفسه ، وما برح جسمه يرتجف بارتعاش متصل •

قالت صونيا متألةً وهى تتفحصه بنظرها :

— آه ••• لشد ما تعذب نفسك !

— ما هذه كلها الا سخافات ! اسمعى يا صونيا : (ان فكرة من الأفكار قد جعلت شفقيه تلم بهما ابتساماً صفراء) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس ؟

انتظرت صونيا قلقة •

— لقد قلت لك عند انصرافى انتى ربما كنت أودّعك الى الأبد ، ولكننى ان جئت ••• فسأقول لك من الذى قتل اليزابت •

أخذت صونيا ترتعش من الرأس الى القدمين •

— فهأنذا أجيء لأقول لك من الذى قتل اليزابت •

تمتت تقول فى جهد ومشقة :

- كنت تتكلم جاداً اذن حين قلت لى أمس ...
- لكنها أسرعَت تسأله كأنها ثابت الى رشدها فجأة :
- فكيف عرفت من الذى قتلها ؟
- كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً • وكان وجهها يزداد شحوباً •
- قال راسكولنيكوف :
- أنا أعرف من هو القاتل •
- فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة • ثم سأله خائفة :
- وهل وجدوه ؟
- لا ، لم يجدوه •
- اذن كيف عرفت من هو ؟
- قالت ذلك بصوت مختنق ، بعد صمت جديد •
- التفت راسكولنيكوف اليها ، وأمعن فى النظر اليها • ثم قال لها وهو يرسم على شفقيه تلك الابتسامة المصنوعة نفسها :
- احزرى !
- وكان تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كله •
- قالت صونيا وهى تبسم كطفلة :
- ولكنك •• ولكنك تخب ••• تخيفنى بهذا الكلام !
- تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر اليها ويتفرس فيها كأن عينيه مشدودتان اليها شداً لا فكاك منه ، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل بصره عنها :

— هذا يبرهن على أن بينى وبينه « هو » صداقة حميمة • ولقد كان لا يريد قتل اليزابت تلك ، وانما هو قتلها ••• مصادفة ••• لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة فى البيت ••• وجاء ••• وعندئذ ••• قتلها هى أيضاً •

وانقضت دقيقة أخرى مروّعة • كان كل منهما ينظر فى الآخر •

سألها بغتة وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس :

— ألم تحزرى اذن ؟

همست صونيا تقول بصوت لا يكاد يُدرك :

— لا ••• لا •••

— فكّرى !

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غراه احساس مألوف جمّد قلبه • نظر اليها فكأنما هو يرى فى وجهها ملامح وجه اليزابت • وتذكر تذكراً واضحاً متميزاً تعبير وجه اليزابت فى اللحظة التى اقرب فيها منها مشهراً ساطوره ، فتراجعت نحو الحائط واضعة يديها أمامها ، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا • كذلك كان شأن صونيا فى تلك اللحظة • لقد تأملت بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها ، وبذلك الاضطراب نفسه ، وبذلك الارتياح ذاته ، ثم رفعت يدها اليسرى فجأة فلمست صدره بأطراف أصابعها فى رفق ، ونهضت عن السرير ببطء ، وابتعدت عنه رويداً رويداً ، وهى تحدّق اليه مزيداً من التحديق • وارتمى هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف ، ارتسم هو نفسه تماماً • ونهض راسكولنيكوف مثلاً

نهضت ، وأخذ ينظر إليها وهو يتسهم ابتسامة « الاطفال » تلك نفسها تقريباً .

وهمس يسألها أخيراً :

- هل حزرت ؟

قال صونيا مرتاعةً وهى تشهق شهقة رهيبة :

- يا رب !

وخارت قواها ، فسقطت على السرير دافئةً وجهها فى الوسادة . ولكنها عادت تنهض بعد لحظة ، واقتربت منه ، وتناولت يديه ، وضغطتهما بأصابعها النحيلة ضغطاً كلابيةً . ثم استأنفت التحديق اليه . كانت تريد بهذه النظرة المكروبة أن تلتقط شيئاً من أمل . ولكن توقعها كان باطلاً . لم يبق أى شك . نعم ، ذلك هو الأمر ! وحتى فى المستقبل ، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة ، سيندو لها غريباً عجيباً أنها رأت على هذا النحو ، دفعةً واحدة ، أنه لم يبق مجال لأى شك . ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل ، ومع ذلك فانها ما ان قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست « هذا الأمر نفسه » حقاً .

قال لها راسكولنيكوف متوسلاً فى ألم :

- كفى يا صونيا ، كفى !

لم يكن قد قدّر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها ، ولكن « على هذا النحو » انما تم الاعتراف .

خرجت صونيا عن طورها ، ووثبت ، ولوت يديها ، ومضت الى وسط الغرفة . ولكنها سرعان ما عادت الى قربه ، فجلست بجانبه حتى

ليكاد كتفها يلتصق بكتفه • وكأن فكرة مباغتة قد ومضت في ذهنها ، فاذا هي ترتعش فجأة ، وتطلق صرخة ، وترتمى راكعةً أمام راسكولنيكوف ، لا تدري هي نفسها لماذا !

قالت :

— ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟

وارتمت على عنقه وضمته اليها ضمّاً قوياً •

بدرت من راسكولنيكوف حركة تقهقر ، ونظر اليها وهو يتسهم ابتسامة حزينة •

— ما أغربك يا صونيا ! أتعانقتينى بعد أن قلت لك « ذلك » الأمر ؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين !

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته :

— لا ، لا ، ليس فى العالم كله الآن رجل أشقى منك •

وأجهشت تبكى فجأة ، كأنما ألت بها نوبة عصبية •

ان عاطفة تجهلها صونيا منذ مدة طويلة تفرقها الآن كموجة غامرة ، وتملاً قلبها رقة وحناناً . لم تحاول صونيا أن تقاوم هذه العاطفة • وانبجست من عينيها دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابها •

سألها وهو ينظر اليها فى أمل تقريباً :

— ألن تتركينى اذن يا صونيا ؟

فصاحت صونيا تجيبه :

— لا ، لن ، لن أتركك أينما تذهب ! سأتبعك ، سأتبعك الى أى

مكان ! آه ... يا رب ! ... آه ... ما أشقاني ! ... لماذا ، لماذا لم أعرفك من قبل ؟ لماذا لم تأت قبل هذا الأوان ؟ آه ... يا رب ! ...

- لكنني أتيت مع ذلك •

- الآن أتيت ! ولكن ما العمل الآن ؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهي تعانقه من جديد :

- معاً ، معاً ! سوف أذهب معك الى المعتقل !

أصابته هذه الكلمات قلبه ، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التي تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعالٍ وكبرياء •

- ربما كنت يا صونيا لا أحب أن أذهب الى المعتقل •

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة • وبعد العاطفة الأولى التي غزت نفسها وهي عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الانسان الشقي المذبذب ، عادت تستولى عليها فكرة القاتل الرهيبة المروعة • ان لهجة كلماته الأخيرة ، وهي لهجة تبدلت على حين فجأة ، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح • ونظرت اليه مشدوهة • كانت لا تعرف ، بعد ، شيئاً • كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث • والآن تبجس هذه الأسئلة جميعها في شعورها دفعة واحدة • ومرة أخرى عادت تشك : « أيكون هو قاتلاً ؟ مستحيل ... مستحيل ! » • ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول :

- ولكن ما هذا ؟ أين أنا ؟ كيف ، كيف أمكنك و « أنت ما أنت »

أن تعزم أمرك على تلك الفعلة ؟ لماذا ؟

أجاب بلهجة مرهقة ، وكأنها ملتاعة :

- لأسرق • كفى يا صونيا !

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة ، ولكنها هتفت تقول فجأة :

— كنت جائعاً ! فعلت ذلك لتساعد أمك ، أليس كذلك ؟

تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه :

— لا يا صونيا ، لا ... لم أكن جائعاً الى ذلك الحد • الواقع أتى
كنت أريد أن أساعد أمى ... ولكن هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة
... لا تعذبينى يا صونيا •

ضمت صونيا يديها احدهما الى الأخرى • وقالت :

— ولكن هل يمكن ، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً ؟ رباه !
أهذه هى الحقيقة ؟ من ذا الذى يمكن أن يصدّقها ؟ وكيف ، كيف
يُعقل أن تقتل لتسرق ، أنت الذى تعطى آخر ما تملك ؟

ثم صاحت تقول فجأة :

— وذلك المال الذى قدمته الى كاترين ايفانوفنا • • وذلك المال • •
يا رب ! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً ...

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً :

— لا يا صونيا ... ذلك المال ليس مصدره هذا • • اطمئنى ! ذلك
المال انما أرسلته الى أمى بواسطة تاجر ، وقد تلقّيته أثناء مرضى ، فى
ذلك اليوم نفسه الذى أعطيته أمك ... رازوميخين يعرف هذا ...
هو الذى قبضه نيابةً عنى ... كان ذلك المال مالى أنا ، مالى أنا حقاً • •

كانت صونيا تصغى اليه جامدةً ، جاهدةً بكل قواها أن تفهم •
وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حاملة :

— أما المال الآخر ... فأتنى لا أعلم هل له وجود • لقد انتزعت

من عنقها *** محفظة نقود من جلد *** محفظة نقود مملأى ، محشوة ،
 لكننى لم أفتحها *** لعل وقتى لم يتسع لفتحها *** أما الأشياء الأخرى
 *** أزرار الأكمام وسلاسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود فى
 آن واحد ، ومضيت أدفن ذلك كله فى فناء منزل بشارع ف *** ومايزال
 كل شئ هناك ***

كانت صونيا تصغى بانتباه •

- ولكن كيف تقول انك قتلت « لتسرق » ، فى حين أنك لم تستول
 على شئ ؟

كذلك سألته صونيا بسرعة شديدة ، محاولة أن تثبت بهذه
 القشة •

قال راسكولنيكوف شارد الذهن :

- لا أدري *** اننى لم أقرر بعد أأستولى على ذلك المال أم لا ••
 ثم أضاف فجأة وقد عاد الى وعيه :

- يا له من سخف ، هذا الكلام الذى قلته الآن ، هه ؟

وومضت فى ذهن صونيا فكرة : « ألا يمكن أن يكون مجنوناً ، »
 ولكنها أسرعت تنبذ تلك الفكرة • لا ، ان فى الأمر شيئاً آخر ، ولكنها
 لا تفهمه ، لا تفهمه البتة •

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الالهام :

- هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن ؟

وأردف يقول مشدداً على كل كلمة من كلماته ، ملقياً نظرات
 ملغزة. رغم أنها صادقة :

— لو أُننى لم أقتلها الا بدافع الجوع ، فلربما كنت الآن «سعيداً» !
اعلمى هذا !

وهتف يقول بعد لحظة :

— ولكن فيم يعنيتك أن أعترف بأننى أخطأت؟ فيم يفيدك أن تتصرى
على هذا الانتصار الأبله؟ آه يا صونيا ... أمن أجل هذا سعت إليك؟
أرادت صونيا مرة أخرى أن تقول شيئاً ، ولكنها لزمّت الصمت .
قال راسكولنيكوف :

— اذا كنت قد ناديتك أمس ، فلأُننى كنت لا أستطيع أن أنادى
أحداً غيرك .

سأله صونيا :

— ناديتنى الى أين ؟

— ما ناديتك لتقتلى أو لتسرقى . اطمئنى . ما ناديتك من أجل
هذا (كذلك ردّد وهو يبتسم ابتسامة مرة) ، فنحن مختلفان أحداً عن
الآخر اختلافاً كبيراً . هل تعلمين يا صونيا أننى لم أدرك الا الآن الى
أين ناديتك أمس . حين ناديتك أمس ، لم أكن أعرف الى أين أناديك .
والحقيقة أننى ناديتك لتحقيق هدف واحد ، الحقيقة أننى سعت إليك
لغرض واحد : هو أن لا تتركينى . قولى : أترضين أن لا تتركينى
يا صونيا ؟

شدت صونيا على يديه .

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية الكمد والحزن:

— لماذا ، لماذا ذكرت لها الأمر ؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة ؟

قال ذلك ونظر إليها شاعراً بعذاب لا نهاية له • وتابع كلامه فقال:
 - هانت ذى تنتظرين منى شروحاً وتفسيرات يا صونيا • أنت هنا
 تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات • اننى أرى ذلك • ولكن ما عسانى
 قائلاً لك ؟ انك لن تفهمى من الأمر شيئاً • ولن تزيدى على أن تتألى
 بسببى ! وأنت الآن تبكين ، وتقبليننى من جديد • لماذا تقبليننى ؟ ألانى
 لم أستطع أن أحتمل العبء ، فجئت أتخفف منه بالقاءه على غيرى ؟
 « تألى ، تألى أنت أيضاً ، فذلك يخفف عنى أنا » • ذلك هو لسان
 حالى • أفستطيعين أن تحبى جياناً كهذا الجبان ؟

هتفت صونيا تسأله :

- ولكن ألسنتك تألم أنت أيضاً ؟

ومرة أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرق قلبه لحظة • قال :

- صونيا ، ان لى قلباً شريراً ، انتهى الى هذا ، فيضىء لك أموراً
 كثيرة • ولأننى شريراً انما جئت أيضاً • هناك أشخاص كان يمكن أن
 لا ينجيئوا • أما أنا فجيان • • • جيان ! • • • ولكن • • • لا ضير ! • •
 ليس هذا هو الأمر الهام • وانما على الآن أن أتكلم ، ولست أدري بم
 أبداً •

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً • ثم هتف يقول من

جديد :

- هيه ! نحن مختلفان أحداً عن الآخر اختلافاً كبيراً ! مستحيل
 أن تفاهم ! لماذا ، لماذا جئت ؟ لن أغفر هذا لنفسى فى يوم من الأيام !

صاحت صونيا تقول :

— بل انك قد أحسنت اذ جئت ! الأفضل أن أعرف ! ذلك أفضل كثيراً •

نظر اليها راسكولنيكوف بآلم • ثم قال كمن يتابع فكرة :
— نعم ، هكذا جرت الأمور ، هكذا جرت حقاً • اسمعى كيف جرت : لقد أردت أن أصبح نابوليون ، ومن أجل ذلك انما قتلت • فهل فهمت الآن ؟ ...

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة :
— لا ... لا ... ولكن تكلم ، تكلم ، فسوف أفهم ، سوف أفهم كل شيء « فى أعماق نفسى » ...
بذلك طالبت صونيا ضارعة متوسلة •

قال راسكولنيكوف :
— سوف تفهمين ؟ طيب ... سئى •
وصمت ، وفكر ملياً • ثم قال :
— اليك الأمر ! لقد ألقيت على نفسى فى ذات يوم هذا السؤال :
ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وُجد فى مكائى ، ولم يكن أمامه فى بداية حياة المجد الذى حققه لا تولون ولا مصر ولا ممر مونبلان ، وانما كان أمامه ، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة الضخمة عجوزٌ حقيرة شريرة تافهة مراوية يجب أن يقتلها ليستولى على المال الذى تخبئه فى صندوقها (فى سبيل تحقيق رسالته طبعاً ، هل تفهمين ؟) ؟ نعم ، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك اذا لم يعرض له أى مخرج آخر ؟ أما كان سيشعر بشيء من الحياء والحجل لأن فعلاً كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضحامة ... ناهيك عن الخطيئة ؟

أؤكد لك أن هذا « السؤال » قد أقض مضجعى مدة طويلة ، الى أن أدركت أخيراً على حين فجأة (وقد أشعرنى هذا الادراك بالحزى) أن نابوليون ما كان له أن يحس بأيسر خجلٍ من هذا الفعل ، بل وما كان ليخطر بباله فى أية لحظة من اللحظات أن هذا الفعل قد تعوزه العظمة والرفعة ، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذى يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل ... ولا شك فى أنه ، اذا لم يعرض له أى حلٍ آخر ، كان سيقتل العجوز دون تردد ودون تفكير . هكذا خرجتُ أنا من التردد بين الاقدام والاحجام ، فقتلت ... مقتدياً بذلك الرجل الذى هو «حجة» . نعم ، على ذلك النحو انما جرت الأمور . أبدو لك هذا سخيفاً مضحكاً ؟ نعم يا صونيا ، لعل أسخف ما فى القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً !

ولكن صونيا لم تر فى هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً . وها هى ذى تسأله بصوت فيه مزيد من الحجل والوجل ، بصوت لا يكاد يُسمع :

— بل حدثنى ... رأساً ... مباشرة ... دون أن تضرب أمثلة !

فالتفت راسكولنيكوف نحوها ، ونظر اليها بحزن ، وتناول يديها ، ثم قال لها :

— أنت على حق يا صونيا . ما ذلك كله الا غباء ! ما ذلك كله الا ثرثرة ! فاسمعى : أنت تعرفين أن أمى كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً . وأختى التى نالت قسطاً خشناً من التعليم بالمصادفة اضطرت أن تعيش حياة خاملة كمرية . وكنت أنا أتمم دراستى ، لكننى وقد أصبحت لا أستطيع سدَّ حاجاتى اضطرت ان أترك الجامعة . وهينى كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنتى عشرة سنة (فى أحسن الظنون) فكل ما كان يجوز لى أن آمله هو أن أصبح أستاذاً أو موظفاً من الموظفين

يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقى درساً محفوظاً) • وفى أثناء ذلك تكون أمى قد أذابتها الهموم والأحزان ، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها • أما أختى فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً • ولماذا أخفق فى حياتى هذا الاخفاق ، وأمرٌ بكل شىء مروراً عابراً ، وأنسى أمى ، واحتمل الاهانات التى تنزل بأختى ؟ لماذا ؟ فى سبيل ماذا ؟ فى سبيل أن أبني أسرة جديدة بعد أن أدفن أمى وأختى ، فتكون لى زوجة ويكون لى أولاد ، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال ، بلا لقمة خبز ؟ لذلك قررت أن أقف المال الذى ساستولى عليه من العجوز ، قررت أن أقفه على دراستى ، وعلى خطواتى الأولى فى الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعذب أمى) • وكنت أريد أن أفعل كل شىء بمقياس ضخم ، أن أفعل كل شىء بطريقة جذرية ، فأدخل حياة جديدة ، وأضمن لنفسى وضعاً مستقلاً كل الاستقلال ••• هذا كل شىء !••• ولقد أسأت صنعاً اذ قتلت العجوز طبعاً • ولكن هياً ، كفى هذا !

أثمَّ راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد • كان يبدو مرهقاً ، وكان خافضاً رأسه •

صاحت صونيا تقول حزينة :

— لا ، ليس هذا هو الأمر ، ليس هذا هو الأمر ، لا ، ليس هذا ، ليس هذا •••

— أرايت ؟ تقولين بنفسك ان الأمر ليس هو هذا • ومع ذلك فقد قتلت لك كل شىء ، وحدثتك صادقاً مخلصاً • تلك هى الحقيقة !

— ولكن أية حقيقة هنا ؟

- اننى لم أقتل الا قملة يا صونيا ، قملة قدرة ، لا فائدة منها ،
ضارّة ، مسيئة !

- أتقول قملة وهى مخلوقة انسانية ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على صونيا نظرة غريبة :

- ولكننى أعرف أنها ليست قملة !

ثم أضاف :

- ثم اننى أكذب يا صونيا ، اننى أكذب منذ زمن طويل • أيضاً
ليس هذا هو الأمر ! أنت على حق ! لقد كان لفعلى بواعث غير هذه
البواعث ، غيرها تماماً • اننى لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا •••
أنا أشعر الآن بصداع شديد فى رأسى •

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارة محمومة • كان كمن
يهذى • وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة • ومن خلال اهتياجه ، كان
يلوح اعياء رهيب • أدركت صونيا مدى ما كان يقاسى من عذاب • وأخذ
الدوار يستولى عليها هى أيضاً • ثم انه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً •
صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء ، ولكن :
« كيف ؟ كيف ؟ يا رب ! » ولوت صونيا يديها حزناً ويأساً •

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره
قد جرت فى مجرى آخر على حين بغتة فصدته وأيقظت نشاطه • فقال :

- لا يا صونيا ، ليس هذا هو الأمر • ليس هو هذا •• وانما عليك
أن تفترضى (نعم افترضى هذا ، فهو أصح) اننى انسان شديد التأذى ،
حسود ، منحط ، شرير ، حقود ، يحب الانتقام ، مهياً •• للجنون (أقول

كل شيء دفعةً واحدة ما دمت قد بدأت ؛ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن لاحظت ...) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردى كانت لا تتسع لى البقاء بالجامعة . ولكن هل تعلمين أنتى ربما كان يمكننى مع ذلك أن أتابع دراستى ؟ كان يمكن أن ترسل الى أمى ما أنا فى حاجة اليه ، وكان يمكننى أيضاً أن أجنى بالعمل ما يكفينى طعاماً وكساءً وحذاءً . لا شك فى أنتى كنت أستطيع ذلك . كان يمكننى أن أعطى دروساً ، فأتقاضى خمسين كوبكاً أجراً عن كل درس . وهذا رازوميخين ! لقد كان يحبنى من العمل رزقاً طيباً ! ولكننى شعرت بسخط ورفضت أن اعمل . نعم شعرت بسخط (هذه هى الكلمة الصحيحة) . فلبدت فى ركنى كما يلبد عنكبوت . لقد جئت الى مسكنى الحقيقى فرأيت به . ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخلق النفس والفكر ؟ آه ... لشدً ما كنت أكره ذلك المسكن الحقيقى ! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه . عن عمد انما كنت لا أريد أن أتركه . كنت أقضى فيه أياماً بكاملها ، لا أريد أن أعمل ، بل ولا أريد أن أكل . كنت أظل راقداً طوال الوقت . فان جاءتنى ناستاسيا بطعام أكلته ، وان لم تجئتنى بشيء بقيت صائماً لا أطلب بطعام ، غضباً وحنقاً ! حتى اذا هبط الليل بقيت فى ظلام دامس لأننى لا أملك ما استضىء به . كنت أوتر أن أبقى فى ذلك الظلام الحالك على أن أعمل فى سبيل أن أتمكن من شراء شموع . وبعث كتبى بدلاً من أن أدرس . ودفاترى على المائدة غطتها طبقة من الغبار سُمكها سُمك اصبع . وما يزال هذا الغبار موجوداً الى الآن . كنت أوتر أن أبقى راقداً أفكر وأتأمل . كنت لا أريد على أن أفكر وأن استرسل فى الأحلام . لا داعى الى القول ان تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة ، وكانت متغيرةً متقلبةً متحولة ! ولكن بدأ يبدو لى عندئذ أن ... لا ، لا ، ليس هذا هو الأمر ! انتى لا أحكى الأشياء كما

حدثت • الواقع أنني كنت لا أنفك أتساءل حينذاك ، لعلنى بأن الناس أغبياء ، لماذا أنا غبي مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم ؟ وادركت بعد ذلك ، يا صونيا ، أنه إذا وجب انتظار اللحظة التي يصبح فيها الناس أذكى ، فلا بد من اضاءة وقت طويل • ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً ، فالتاس لن يتغيروا في يوم من الأيام ، وما من أحد يملك أن يغيرهم ، فلا داعي الى اضاءة الوقت في محاولة ذلك • نعم ، تلك هي حالهم ، وذلك هو قانونهم ••• نعم ••• القانون يا صونيا ، القانون ••• واني لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوى النفس والعقل ، فذلك هو سيدهم ، ذلك هو مولاهم ! من كان يملك جرأة كبيرة ، فذلك هو الذى له الغلبة عليهم ! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره ، فذلك هو عندهم المشرع ! من كان يتمتع بأكبر جسارة ، فذلك هو الذى يهبون له جميع الحقوق ! هذا ما كان من قديم الزمان ، وهذا ما سيقى الى آخر الدهر ! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة !

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا ، رغم أنه كان لا ينفك ينظر اليها أثناء كلامه • لقد استولت عليه الحمى • وكان يجتاحه نوع من احتياج مظلم قائم (حقاً ، انه لم يتحدث الى اى انسان منذ مدة طويلة) • وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة كانت ايمانه وكانت قانونه •

وتابع راسكولنيكوف يقول بحماسة :

— لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب الا لمن يجرؤ أن يطايطها • تكفى الجرأة : الجرأة كل شئ ! ووافتنى عندئذ ، لأول مرة في حياتى ، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن في يوم من الأيام ! لقد بدا لى واضحاً وضوح النهار ، على حين فجأة ، أنه ما من أحد قد تجرأ ، حين رأى بطلان العالم ، أن يمسك الشيطان

من ذيله ببساطة ، فيرسله الى جهنم ! أما أنا ، أما أنا فقد أردت أن أجرو ، فقتلت ! أنتى حين قتلت لم أرد يا صونيا الا أن أجرو ! ذلك هو السبب الذى جعلنى أقتل !

صاحت صونيا تقول له متوسلةً وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

- اسكت ، اسكت ! لقد ابتعدت عن الله ، فضربك الله ، وأسلمك. لا بليس

- قولى لى يا صونيا : حين كنت أبقى راقداً فى ظلام غرفتى اجتر. أنواع الخواطر والأفكار ، فهل كان ابليس هو الذى يغوينى حينذاك ! قولى !

- اسكت ! لا تضحك أيها المجدف ! انك لا تفهم شيئاً ، لا تفهم شيئاً ! رباه ! انه لا يفهم شيئاً !

- اسكتى يا صونيا ، أنا لا أضحك البتة . أنا نفسى اعلم ان ابليس هو الذى كان يجترنى

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردد بالحاح حزين :

- اسكتى يا صونيا ، اسكتى ! أنا أعلم كل شيء ! لقد همست لنفسى بهذا كله أثناء اضطجاعى فى الظلام لقد ناقشت هذا كله فى قرارة نفسى قبل الآن بأدق التفاصيل ! أنا أعلم كل شيء ، كل شيء ! وهذه الثروة قد بلغت من اتراعى نفسى بالسأم والضجر أنتى أردت أن أنسى ، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا ، وأن أكف عن الثروة . هل تظنين حقاً أنتى قد اندفعت الى ذلك الأمر منكس الرأس كإنسان أبله ؟ ان العقل هو الذى كان يقودنى ، وذلك بعينه هو ما ضيغنى ! هل يمكن حقاً أن تظنى أنتى كنت أجهل مثلاً أن مجرد القائي هذا

السؤال : « هل لى حق فى السلطة أم لا ؟ » كان يبرهن على أننى لا أملك ذلك الحق ؟ أو هل تظنين أننى كنت أجهل أن القائي هذا السؤال : « هل الانسان قملة ؟ » انما يعنى فى الواقع أن الانسان ليس قملة فى نظرى ، وأنه ليس قملة الا فى نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقى على نفسه ذلك السؤال ، وانما هو يمضى الى هدفه قدماً لا يلوى على شيء ؟ لئن ظلمت أعذب نفسى طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون أكان يقتل العجوز أم لا ، فان معنى ذلك اننى كنت أشعر شعوراً واضحاً بأننى لست نابوليون • ذلك هو العذاب الذى عانيته يا صونيا ، والذى أردت أن أتخلص منه دفعةً واحدة • لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية ، أردت أن أقتل لنفسى ، لنفسى أنا وحدى ! اننى حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسى : اننى لم أقتله فى سبيل أن أساعد أمى ! لا ! لا ولا فى سبيل أن أصبح محسنه الى الانسانية بعد أن أملك وسائل الاحسان اليها • لا ، وانما أنا قتلت لنفسى ، لنفسى وحدى ! وفى تلك اللحظة لم يكن يعينى كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين الى الانسانية ، أم اننى سوف أقضى حياتى كالعنكبوت أصداد غبرى فى نسيج خيوطى وامتنص قواه الحية ! لا ولا كان المال هو ما أحتاج اليه ذلك الاحتياج كله ••• وانما كان احتياجى الى شيء آخر ••• أنا أعرف هذا الآن ! افهمى عنى يا صونيا : لو كان على أن أعيد السير فى هذا الطريق نفسه ، فقد لا أقتل • غير أن هناك شيئاً كان يغرينى بمعرفته • كان هناك شيء يرفع ذراعى • كان على أن أعرف عندئذ ، بأقصى سرعة ممكنة ، أأنا قملة كسائر الناس ، أم أنا رجل ؟ أأنا أستطيع أتخطى الحاجز ، أم أنا لن أستطيع ذلك ؟ أأنا أجرو أن أطاطىء فأتناول هذه القدرة ، أم أنا لن أجرو ؟ أأنا مخلوق مزعش أم أنا أملك « الحق » •••

— الحق فى القتل ؟ تملك الحق فى القتل ؟

كذلك قالت صونيا وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى •

صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يجيب :

— هيه ! صونيا •••

ولكنه عدل عن ذلك ، ولزم صمتاً فيه احتقار • ثم أردف يقول :

— لا تقاطعيني يا صونيا ! لقد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد : هو أن ابليس قد جرّنى فى أول الأمر ، ثم لم يفهمنى الا بعد ذلك أنتى لم يكن من حقى أن اقترف الفعل الذى اقترفته ، لأننى أنا نفسى قملة كسائر الناس • لقد سخر منى واستهزأ بى ، ولهذا السبب انما جئت اليك الآن ، فأحسنى وفادة ضيفك يا صونيا ! أكنت أجيء اليك لولا أنتى قملة ؟ اسمعى : اننى حين ذهبت الى العجوز لم أكن أريد الا أن « أحاول تجربة » ••• فاعلمى هذا !

— وقتلت !

— لكن كيف قتلت ؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل ؟ سأروى لك فى ذات يوم كيف ذهبت الى هناك • هل العجوز قتلت ؟ لا بل أنا قتلت نفسى ! لقد أجهزت على نفسى ، دفعةً واحدة ، والى الأبد ! أما العجوز فان ابليس هو الذى قتلها لا أنا !

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأةً وقد أصبح فريسة قلق

لا يغالب :

— كفى كفى يا صونيا ، دعينى ! دعينى !

ووضع كوعيه على ركبتيه ، وشدّ رأسه بين يديه ككماشة •

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم ، فأفلت من لسانها قولها :

- ما أشدَّ ألمك وعذابك !

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس :

- وما العمل الآن ؟ قولى ...

صاحت وهي تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأة بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممتلئتين بالدموع :

- ما العمل ؟

ثم أضافت وهي تمسكة من كفها ، فينهض هو من مكانه وينظر اليها بما يشبه الدهول دهشة :

- اذهب فوراً ، فى هذه اللحظة نفسها ، اذهب الى مفرق طرق ، فاسجد على الأرض من جديد ، واتجه الى جهات العالم الأربع جهةً بعد جهة ، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك : « لقد قتلت ! » • عندئذ سيردُّ اليك الاله الحياة • اذهب ؟ اذهب ؟

كذلك سأله مرتعشةً من رأسها الى قدميها ، كأن نوبةً عصية قد ألّمت بها • وأمسكت يديه ، فضغطتهما بيديها ضغطاً قوياً ، وتأملته بنظرة حارة •

ذهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة • وسألها مكفهر الوجه :

- أتريدى اذن أن أذهب الى المعتقل يا صونيا ؟ يجب أن أشتى بنفسى ، أليس كذلك ؟

— الشيء الذى يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتكفر عن خطيئتك
وتفدى نفسك • ذلك هو ما يجب !

— لا ، لن اذهب اليهم يا صونيا !

صاحت صونيا تسأله :

— فكيف يكون فى وسعك أن تحيا اذن ؟ كيف يكون فى وسعك
أن تحيا ؟ أما يزال هذا ممكناً ؟ عجيب ! كيف يكون فى امكانك أن تظل
تكلم أمك ؟ آه ••• ما عسى تصيران اليه ؟ ما عسى تصيران اليه كلاًهما ؟
ولكن ماذا أقول ؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر ! لقد تركتهما ،
تركتهما ! آه ••• يا رب ! اذن أنت تدرك هذا كله بنفسك ! كيف ،
نعم ، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر ؟ ما عسى تصير اليه الآن ؟

قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق :

— لا تكونى طفلةً يا صونيا ! ما ذنبى فى حقهم ؟ لماذا أشتى بنفسى
إليهم ؟ ما عسانى قائلًا لهم ؟ ليس هذا كله الا سراباً ••• هم أنفسهم
يقتلون ملايين البشر ، ثم يستمدون من ذلك مجداً ! هم أوغاد وجبناء
يا صونيا ! لا ، لن اذهب ! ثم ماذا أقول لهم ؟ أقول لهم اننى قتلت
لكنى لم أجرؤ أن آخذ المال وانما خبأته تحت صخرة ؟ (كذلك أضاف
يقول وهو يتسم ابتسامة ساخرة) • ولكنهم سيضحكون عندئذ على ،
وسيعدوننى رجلاً أبله ، لأننى لم أجن من فعلتى نفعا ••• سيعدوننى
أبلاً وجباناً ! لن يفهموا شيئاً يا صونيا ، لن يفهموا شيئاً ، انهم غير
جديرين بأن يفهموا شيئاً ••• فلماذا اذهب اليهم فأسلمهم نفسى ؟ لا ،
لن اذهب ! لا تكونى طفلةً يا صونيا !

قالت صونيا مرددةً متوسلةً مادةً نحوه يديها :



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية ألكسندرا كورساكوف

- لن تكون حياتك بعد الآن الا عذاباً متصلاً طويلاً ، عذاباً متصلاً طويلاً !

قال راسكولنيكوف قاتم الوجه شارد الذهن :

- لعننى اتهمت نفسى بما ليس فيها • لعننى ما زلت رجلاً لا قملة •
لعننى تسرعت فى اتهام نفسى •• سوف أكافح « مزيداً » من الكفاح •••
وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء •

قالت صونيا :

- أتحمل ثقلًا كهذا الثقل ؟ طوال حياتك ، طوال حياتك ؟

فاجابها راسكولنيكوف كالح الهيئة شارد اللب :

- سوف أعتاد ذلك !

ثم أضاف يقول بعد دقيقة :

- اسمعى ! كفى بكاءً ! آن لى أن أصل من هذا كله الى أن أذكر
لك الواقع • لقد جئت أقول لك الواقع • لقد جئت لأقول لك اننى
ملاحق ، اننى مطارّد !

صرخت صونيا مروعة :

- آه •••

فقال لها راسكولنيكوف :

- لماذا تصرخين ؟ ألم تريدى أنت نفسك أن أذهب الى المعتقل ؟
فما بالك تخافين الآن ؟ على أننى لن استسلم لهم ، لن أدع لهم أن يقبضوا
على ! سأظل أقارعهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بى شيئاً ! انهم

لا يملكون قرائن واقعية • لقد تعرضت أمس لخطر كبير ، فحسبت أنني هلكت • ولكن يبدو أن الأمور قد سُوِّيت اليوم • ان كل دليل من أدلتهم ذو حدّين • أعنى أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فأجعله لى لا علىّ ، هل تفهمين ؟ وسأفعل ذلك • • • لأننى أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم ! لكنهم سيسجنوننى حتماً ! ولولا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعوني في السجن منذ اليوم ؟ وما يزال من الجائز جداً أن أسجن بسرعة • ولكن لا خير يا صونيا ! سأقضى في السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحي • • • لأنهم لا يملكون ولن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً ، أوّكد لك ذلك ! ان الأدلة التى يملكونها لا تكفى لأن « تلتخ » انساناً ! ولكن كفى كلاماً الآن ! انا انما قلت لك هذا كله لا لشيء الا أن تعلمي • • • أما أمي وأختي فسأحاول بطريقة أو بأخرى أن أهدى روعيهما وأن أطمئنهما • ان اختي تبدو الآن في منجى من الفاقة والعوز ، وكذلك أمي اذن • • • هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك • ثم عليك بالحدّر ! هل تزوريننى حين أودع في السجن ؟

— سوف أزورك ، سوف أزورك !

كانا جالسين احدهما الى جانب الآخر، حزينين مهدّمين ، كغريقين. وجد كل منهما صاحبه على شاطئ مقفر بعد عاصفة • كان راسكولنيكوف ينظر الى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحُب الذى تغمره به • ومن الغريب أنه شقّ على نفسه بل آلم نفسه فجأةً أن يحس بأنه محبوب الى هذا الحد •

حين ذهب الى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد ، وبأنها ملاذه الوحيد • وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل • ولكن ها هو ذا الآن يحس أنه أشقى مما كان من قبل • قال :

— صونيا ، الأفضل أن لا تجيئي الىّ في السجن •

لم تجب صونيا ، وكانت تبكي • وانقضت بضع دقائق • فاذا هي تسأله على غير توقع ، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بغتة :

— هل معك صليب ؟

فلم يفهم السؤال في أول الأمر •

قالت :

— لا ، ليس معك صليب ، أليس كذلك ؟ خذ ، اليك هذا الصليب ،

انه من خشب السرو • معي صليب آخر ، صليب من نحاس ، بقي لي من اليزابت • لقد قمنا بمبادلة ، أنا واليزابت : أعطتني صليبها ، وأعطيته أنا مداليتي الصغيرة • سأحمل الآن صليب اليزابت ، وستحمل أنت هذا الصليب • خذه • • انه صليبي أنا ! صليبي أنا ! سنتألم معاً ، فلنحمل اذن صلينا معاً !

قال راسكولنيكوف :

— هاتي !

ولكنه لم يلبث أن سحب يده •

ثم أضاف يقول ليهدئها :

— لا الآن يا صونيا ! فيما بعد ! ذلك أفضل !

فقالت صونيا تردد بحماسة :

— نعم ، نعم ، ذلك أفضل ، ذلك أفضل ! سوف تحمل الصليب

حين تسافر للتكفير • تجيء الىّ ، فأضع الصليب في عنقك ، ونصلي معاً ،

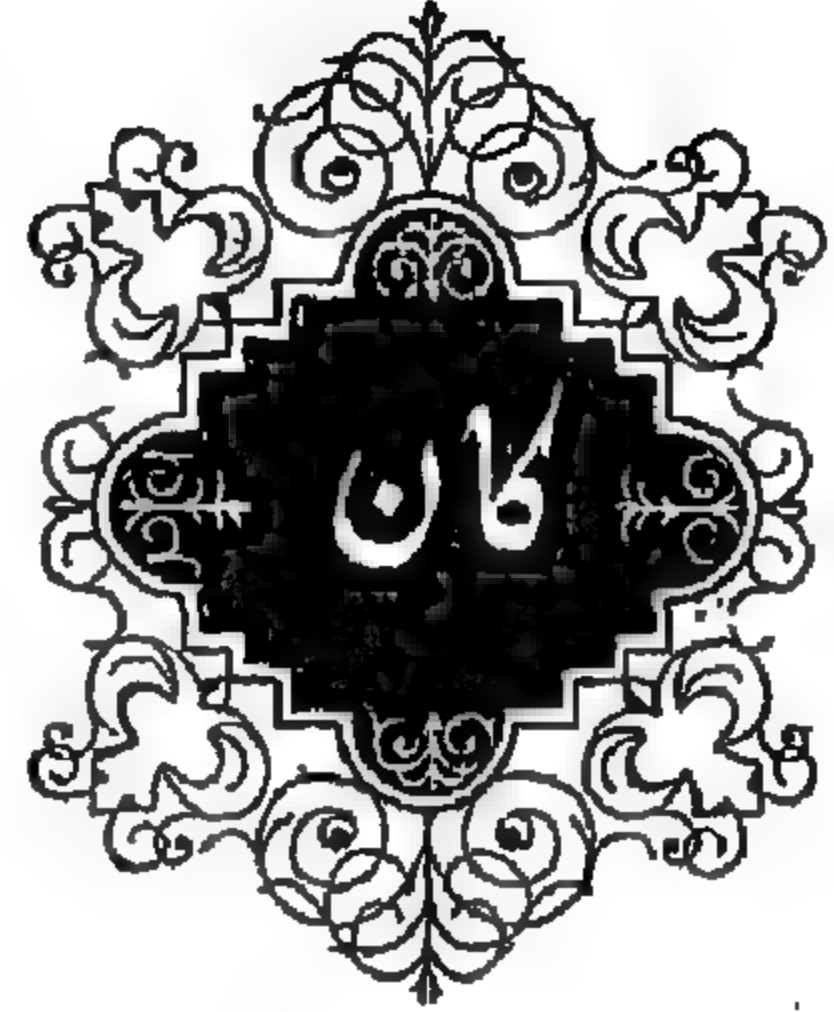
ونسافر معاً •••

فى تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات • ونادى صوت مهذب
مألوف يسأل :

— هل أستطيع أن أدخل يا صوفيا سيميونوفنا ؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة • وظهر فى فرجة الباب وجه
ليزياتيكوف المضحك •

الفصل الخامس



• ليزياتيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة •

قال يكلم صونيا :

• - جئت لأراك يا صوفيا سيميونوفنا •

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة :

• - معذرة • كنت 'أتوقع أن أجذك هنا • أقصد لم يخطر ببالي شيء •

••• مما قد تظن ، وإنما أنا قد دّرت أن •••

وعاد يكلم صونيا فقال دفعة واحدة :

• - جئت كاترين ايفانوفنا !

اطلقت صونيا صرخة • وتابع ليزياتيكوف كلامه :

• - أو على الأقل ذلك ما يبدو • أصبحنا هناك لا ندري ماذا يجب

أن نعمل • أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذي ذهبت إليه ، ولعلهم

ضربوها أيضاً ••• أو على الأقل ذلك ما يبدو ••• لقد ركضت تسعى

الى رئيس سيميون زاخارتش * ، فلم تجده في بيته : كان يتغدى عند

جنرال آخر ما • فذهبت الى هناك ، الى حيث كان يتغدى ••• تصوروا •••

ذهبت الى بيت ذلك الجنرال الآخر ••• هل تصدقون هذا ؟ واستطاعت

أن تستدعي رئيس سيميون زاخارتش • نعم ، اضطرته أن ينهض عن

المائدة ، أو على الأقل ذلك ما يبدو • وفى وسعكم أن تتخيلوا التهمة !
لقد طُردت طبعاً ، لكنها تروى أنها شتمته وأنها رشقته بشيء على
رأسه • ذلك جائز جداً • حتى اننى استغرب أنهم لم يقتلوا • وهى
الآن تروى هذه القصة لكل من يريدون أن يسمعوها ، ومنهم أماليب
ايفانوفنا • غير أن من الصعب أن يفهم المرء عنها ، من فرط صراخها
وتخبطها ! • • • آه • • • نعم • • • هى تقول • • • هى تصيح قائلةً انها ما دامت
قد هجرها جميع الناس ، فستأخذ أولادها ، وستمضى فى الشارع تعزف
على أرغن بارباريا ، وان أولادها سيغنون ويرقصون ، وانها ستغنى
وترقص هى أيضاً ، وانهم سيستعطون الصدقات من المارة ، وانها ستقود
الأولاد كل يوم الى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته ، وهكذا
« سيعرف الجنرال ، على حد تعبيرها ، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف
محترم يستجدون أكف الناس فى الشوارع » • وهى تضرب جميع
أولادها ، والأولاد يكون • انها تعلم لينا أغنية « القرية الصغيرة » ،
وتعلم الصبى الصغير الرقص ، وكذلك تعلم الرقص باولين ميخائيلوفنا* •
ولقد مزقت جميع ملابسهم ، وأخذت تخطط لهم طاقات من طاقات
المهرجين • انها تريد أن تحمل طشتاً تنقر عليه كما تنقر على آلة
موسيقية • وهى ترفض أن تسمع شيئاً • • • تصوروا ! هل يمكن أن
تركها تفعل هذا !

كان يمكن أن يستمر ليزياتيكوف فى الكلام ، ولكن صونيا التى
أصغت اليه وهى تتنفس بمشقة كبيرة قد تناولت خمارها وقبعتها فجأة •
واندفعت الى خارج الغرفة تنهى ارتداء ثيابها فى الطريق • وخرج
راسكولنيكوف ورائها ، وخرج ليزياتيكوف وراء راسكولنيكوف •
قال ليزياتيكوف لراسكولنيكوف منذ أصبحنا فى الشارع :

- لا شك في أنها فقدت عقلها • لم أشأ أن أروّع صوفيا سيميونوفنا ، لذلك قلت : « ذلك ما يبدو » ، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أى شك في أنها فقدت عقلها • يقال ان هناك درنات تنشأ في أدمغة المصابين بمرض السل ، فتورثهم هذا الجنون ! خسارة أنني لا أعرف الطب • على أنني حاولت اقناعها ، لكنها لا تريد أن تسمع شيئاً !

- كلمتها عن الدرنات ؟

- لا عن الدرنات تماماً ، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها • لكنني أقول اننا اذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعي الى البكاء ، فان هذا الشخص سيكون عن البكاء فوراً • هذا واضح • ماذا ؟ أليس من رأيك أنه سيكون عن البكاء ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- ما أسهل الحياة اذا صدق قولك !

- اسمح لي ، اسمح لي ! صحيح أن كاترين ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا • ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت في باريس عن امكان شفاء المجانين بواسطة الاقناع المنطقي وحده ؟ ان أستاذاً من الأساتذة هناك ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، وهو عالم من اكبر العلماء * ، قد رأى ان في الامكان شفاء المجانين بهذه الطريقة • والفكرة الأساسية التي جاء بها هي أن المجانين ليس فيهم أية آفة عضوية ، فانما الجنون ضلال منطقي ان صح التعبير ، أى خطأ في الحكم أو فساد في الرأي • لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج ، فاذا هو ينجح في شفائه شيئاً بعد شيء • ولكن لا بد لنا أن نعرف بأن نتائج المعالجة

يمكن أن تكون موضع أخذ ورد ، ما دام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات « دوش » ، أو ذلك ما يبدو على الأقل ...

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الاصغاء منذ مدة . فلما وصل أمام المنزل الذى فيه بيته ، حيّا لينزياتيكوف بإشارة من رأسه ، وانعطف يدخل بوابة المنزل . فتحيّر لينزياتيكوف ، ونظر حواليه ، ثم تابع طريقه .

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقيقى ، وهناك وقف يتساءل : « لماذا جئت ؟ » وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذى يغطى الجدران ، وعلى الغبار الذى يغطى كل مكان ، وعلى سريره . وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل ، كأن أحداً كان يغرس مسامير .

مضى راسكولنيكوف الى النافذة ، وارتفع على رؤوس أصابع قدميه ، وظل يفتش فناء المنزل باتباه شديد مدة طويلة . ولكن الفناء كان خالياً مقفراً ، وليس يرى المرء أحداً يغرس مسامير . وعلى اليسار ، فى جناح آخر ، كان ثمة نوافذ مفتوحة ، ترى على أفريزها أصص أزهار ، ويرى من خلالها غسيل منشور فى الداخل على حبال ... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب . فأشاح عنه ، وعاد يجلس على سريره .

انه لم يشعر فى يوم من الأيام ، فى يوم من الأيام ، بأنه وحيد الى هذا الحد من الوحدة . نعم ، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا ، لا لشيء الا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء . تساءل : « لماذا ذهبت أستجديها صدقة من دموعها ؟ ما كانت حاجتى الى تسميم حياتها ؟ يا للجبين ! يا للحقارة ! »

وقال فجأة بلهجة جازمة : « سأتبقى وحيداً . ولن تأتى لترانى فى السجن ! »

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه ، وابتسم ابتسامة غريبة • لقد وافته فكرة لم تكن في الحسبان • قال يسأل نفسه : « أليس من الجائز أن تكون حالي في المعتقل أفضل حقاً ؟ » •

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدة التي قضّاها في مسكنه يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والحواطر الغامضة • ولكنه يعرف أن الباب فُتح فجأة ، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا •

توقفت آفدوتيا رومانوفنا في أول الأمر وتأملتته واقفة في العتبة ، كما تأمل هو صونيا منذ قليل • ثم تقدمت وجلست على كرسي أمامه في مكان الأمس نفسه ؟ وأخذ يتأملها صامتاً بنظرة شرهة تلتهمها التهاماً • قالت دونيا :

— لا تزعل يا أخى ، أنا ما جئت الا لدقيقة !

كان في وجهها وقار ورصانة ، ولكن بغير تجهم أو قسوة • وكانت نظرتها رائقة صافية ، وادعة هادئة • فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت إليه هي أيضاً بحب •

وتابعت الأخت كلامها فقالت :

— روديا ، أنا أعلم الآن كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ! لقد روى لي دمترى بروكوفتش كل شيء ، وشرح لي كل شيء ! انهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غيبة كريهة • لقد قال لي دمترى بروكوفتش انك غير معرض لأى خطر ، وقال انك تخطيء - اذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة • ولست أشاطره رأيه ، فأنا أفهم حق الفهم أن يثير هذا تمردك ، وأن يخلّف هذا التمرد آثاراً في حياتك

كلها • وذلك ما أخشاه حقاً • ولست أحكم على أنك تركتنا ، ولا أجرؤ
أن أحكم ، فأرجوك أن تغفر لي ما وجهته اليك من لوم • أنا أشعر بأنني
لو أصابني حزن كحزنك لابتعدت عن جميع الناس كما تبتعد عنهم
أنت • لن أقصّ « هذا الأمر » على أمانا ، لكنني لن أنفك أحدثها عنك ،
وسأقول لها على لسانك أنك لن تتأخر عن العودة إلينا • لا تقلق عليها ،
سوف أتولى أنا تهذيبها وطمأننتها • ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها :
زرها ولو مرة واحدة ، تذكر أنها أمك • ولقد جئت الآن لأقول لك
(هنا نهضت دونيا) : اذا احتجت الىّ في أي أمر من الأمور ، فتصرف
في حياتي ••• نادني فأجىء ! استودعك الله !

قالت دونيا ذلك ، ثم استدارت واتجهت نحو الباب •

قال راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها :

— دونيا ! ان رازومياخين هذا ، ان دمتری بروكوفتش رازومياخين

شباب ممتاز ! —

احمر وجه دونيا قليلاً • وسألته بعد دقيقة :

— وبعد ؟

— وبعد ، هو فتى شيط مجتهد شريف ، قادر على أن يحب حباً

يقوياً ، حباً صادقاً ••• استودعك الله يا دونيا !

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً ، ثم قالت وقد تنبّهت الى

الخطر فجأة :

— ولكن لماذا توصي به هذه التوصيات كلها ؟ أترانا نفرق الى

الأبد ؟

— لا قيمة لهذا ••• استودعك الله !•••

قال ذلك ، وابتعد عنها ، ومضى الى النافذة ، فانتظرت لحظة ، ونظرت اليه قلقة ، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌ وخوفٌ .

لا ، انه لم يشعر نحوها ببرودة في العاطفة ، حتى انه في لحظة من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها « كل شيء » ، مودعاً اياها ، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمدّ اليها يده ، وأضاف يحدث نفسه قائلاً : « في المستقبل ، قد ترتعش حين تتذكر اننى احتضنتها بذراعى ، وقد تقول لنفسها اننى سرقت منها قبلتها » وأضاف يتساءل بعد بضع لحظات : « ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف ؟ لا ، لن تستطيع أن تحتمله . هي من أولئك اللواتى لا يمكنهن أن يحتملن مثل هذه الأشياء » .

وفكّر في صونيا .

وكان هواء طري يهب من النافذة ، وفي الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه . فتناول راسكولنيكوف قبعة فجأة وخرج .

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية ، لا ولا يريد أن يعبأ بها . ولكن جميع تلك الانذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية ، كان لا بد أن يكون لها آثار . ولئن لم تصرعه الحمى حتى الآن ، فلعل مردّ ذلك أن القلق المستمر كان يجعله في حالة تنبه وتيقظ ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً .

لبث يضرب في الأرض على غير هدى . أخذت الشمس تغرب . انه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً . لم يكن في ذلك الحزن شيء من حدة ، وانما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدي ، نوع من تنبؤ بجميع السنين التى سوف يقضيها في غمٍ بارد كالصقيع ، غمٍ قاتل هو

شئ كالأبدية على مساحة من الأرض ليست اكبر من « موطىء قدم » •
كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الاحساس أقوى ما يكون عند هبوط
الليل خاصة •

دمدم يقول متذمراً : « هيّا امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات
ان استطعت وأنت تعاني من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفة لدى
غروب شمس ! ان فى الامكان أن تقودك هذه الحالة لا الى الاعتراف
لصونيا فقط ، بل الاعتراف لدونيا أيضاً ! » •

وسنمى أحداً يناديه ، فالتفت ، فاذا ليزياتنيكوف يهرع اليه •
قال ليزياتنيكوف :

— اتنى آت من عندك ! لقد كنت أبحث عنك ! تخيل أنها وضعت
مشروعها موضع التنفيذ مقتادةً أولادها ! وقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا
كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم ! انها تنقر على مقلاة ، وتجبر
الأولاد أن يغنوا ويرقصوا • والأولاد يبكون • انهم يتوقفون عند مفارق
الطرق وأمام الدكاكين ، ووراءهم يجرى جمهور كبير غبى • تعال !

سأله راسكولنيكوف قلقاً وهو يجرى وراءه :

— وصونيا ؟

— فقدت عقلها • لا أقصد أن صوفيا سيميونوفنا هي التى فقدت
عقلها بل كاترين ايفانوفنا • وصوفيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال •
ولكن كاترين ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً • نعم ، لقد جنّت جنوناً
كاملاً نهائياً • ستُقاد مع الأولاد الى الشرطة • هانت ذا ترى الأثر
الذى سوف يحدثه هذا • هم الآن على رصيف النهر ، قرب جسر
س ••• ، غير بعيد عن مسكن صوفيا سيميونوفنا ، على مسافة خطوتين
من هنا •

على الرصيف ، غير بعيد عن الجسر ، قبل منزل صونيا بعمارتين ، كانت تحتشد جمهرة من الناس فعلاً ، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبنات يقفزون ويثبون .

ان صوت كاترين ايفانوفنا الأبحح يُسمع نحتي من الجسر . مشهد غريب فعلاً ، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذين يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء !

كانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوبها العتيق وشالها المصنوع من الجوخ ، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحت وتشوهت . وكانت في حالة جنون مطلق حقاً ، وكانت تلهث منهوكة مهسودة القسوى . وكان وجهها ، الشاحب الهزيل من مرض السل ، يعبر عن ألم أقوى من الألم الذي يعبر عنه هذا الوجه عادة (ان المصدورين يبدون في ضوء الشارع أشد مرضاً مما يبدون مرضى في منازلهم) . وكان احتياجها لا يهدأ ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة . فهي تندفع نحو أولادها ، فتصفعهم وتقّرعهم وتعلمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغي لهم أن يرقصوا وأن يغنوا. وتشرح لهم ضرورة ذلك ، حتى اذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضربهم ؛ ثم هي تهرع الى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه . فاذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدى ثياباً لائقة بعض الشيء ، أسرعت تشرح له الحالة التي آل اليها « أولاد أسرة نبيلة ، بل أسرة ارمستقراطية » . واذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوقحين فوراً وأخذت تشاجرهم . وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رؤوسهم ، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من الاستطلاع والفضول الى المرأة المجنونة وأولادها المروعين . والمقلاة التي تكلم عنها ليزياتنيكوف لم تكن موجودة ، أو ان راسكولنيكوف لم يرها على الأقل ،

لكن كاترين ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً يديها اليابستين ، مجبرةً كوليا ولينيا على الرقص بينما تغنى باولين • وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغنى هى أيضاً ، ولكن نوبة رهبة من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها ، فتحزن عندئذ حزناً شديداً ، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه ، حتى لتبكي حسرة ولوعة • والشئ الذى كان يشرحنها خاصةً انما هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما • وكانت كاترين ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغنى الشوارع • فأما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطةً مع قطعة من قماش أحمر فكانها طربوش وعمامة مما يضعه على رؤوسهم الأتراك • وأما لينيا فان كاترين ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغنى الشوارع ، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوةً منسوجةً بالابرة من صوف أحمر (بل قل طاقة المرحوم سيميون زاخارتش نفسها) ، وغرست فى القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكها فى الماضى جدة كاترين ايفانوفنا ، وكانت كاترين ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين فى صندوقٍ أثراً من تراث الأسرة • وأما بوليا فهى ترتدى ثوبها الذى كانت ترتديه كل يوم ، وتذكر أن أمها قد جنت فتتظر اليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن ، ولا تبعد عنها شبراً واحداً ، مخفيةً دموعها ، ملقيةً على ما حولها نظرات قلقة • كان الشارع والجمهور يبتان فى نفسها رعباً هائلاً •

كانت صونيا تسير وراء كاترين ايفانوفنا باكية ، وما تنفك تضرع اليها فى كل دقيقة أن ترجع الى البيت • ولكن كاترين ايفانوفنا لا تشئ من عزمها ، ولا تلين قناتها ، فهى تقول لصونيا صارخةً بصوت متعجل وهى تسعل وتلهث :

— اتركىنى يا صونيا ، اتركىنى ! أنت نفسك لا تدريين ماذا تطليين

منى ! أنت طفلة ، أنت طفلة ! قلت لك اننى لن أرجع الى تلك الألمانية
 السكّيرة ! ألا فليعلم جميع الناس ببطرسبرج كيف صار الى استجداء
 الأكف أولادُ أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف ،
 حتى يمكن أن يقال انه مات أثناء أداء واجب وظيفته (لقد أفلحت
 كاترين ايفانوفنا فى أن تخلق لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به ايماناً
 أعمى) ! ألا فليرَ ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا ، ألا فليرَ ! أنت حمقاء
 يا صونيا ! ما عسانا نفعل الآن من أجل أن نأكل ؟ لقد استغللناك
 واستثمرناك بما فيه الكفاية ! لا أريد هذا بعد الآن !... روديون
 رومانوفتش ؟ أهذا أنت ؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف ،
 فهرعت اليه) أرجوك أن تفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن
 نفعل شيئاً غير هذا ! ان العازفين على أرغن بارباريا يتوصلون الى جنى
 رزقهم ، ونحن سوف نعرفنا جميع الناس ، وسوف يرى جميع الناس
 أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة ، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه ،
 لترينَ هذا ! سَنذهب كل يوم الى تحت نوافذه ، حتى اذا مرَّ
 الامبراطور جثوث عند قدميه ، ودفعت هؤلاء الى أمام ليراهم ، وهتفت
 أقول له : « احميهم يا أبانا ! » • انه أبو اليتامى ، انه رحيم ... سوف
 يحميهم ، لترينَ أنه سوف يحميهم ! أما ذلك الجنرال التافه فسوف ...
 « لينيا ، انصبى قانتك » * ! وأنت يا كوليا ! ارقص من جديد ! ما لك
 تبكى ! انه ما يزال يبكى ! عجيب ! ممَّ أنت خائف أيها الأحق الصغير ؟
 ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش ؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم
 وبلاحتهم ! ما عسانى صانعةً بأولاد كهؤلاء الأولاد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكى
 هى نفسها (دون أن يوقف هذا سيلَ كلامها المتدفق الذى لا ينضب)
 وهى تريه الأولاد الذين كانوا يكونون •

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع الى البيت ، وقدّر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال لها انها لا يليق بها أن تتجول في الشوارع تجول العازفين على أرغن بارباريا على حين أنها تتوق الى انشاء مدرسة داخلية للفتيات النيلات !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقهة :

- مدرسة داخلية ! ها ها ها ! .. اسمعوا هذا الكلام ! ..

وأعقبت ضحكاتها نوبة 'سعال' ثم تابعت كلامها فقالت :

- لا يا روديون رومانوفتش ! هذا الحلم قد تبدد ! لقد هجرنا جميع الناس ! وهذا الجنرال التافه ... هل تعلم يا روديون رومانوفتش أنني رميته بمحبرة على وجهه ، هي المحبرة التي كانت توجد في حجرة المدخل على المنضدة قرب الورقة التي يسجل فيها الزوار أسماءهم ؟ لقد سجلت اسمي انا أيضاً ، ثم رميته بالمحبرة ووليت هاربة ! آه ! يا للجناء ! يا للحقراء ! ولكنني أصبحت الآن لا أهتم ... فسوف أجنى لهم رزقهم بنفسى ، سوف أجنى للأولاد رزقهم بنفسى * لن أطايط رأسي لأحد ! لقد عذبتها بما فيه الكفاية (كانت كاترين ايفانوفنا تقصد صونيا) * يا بوليتشكا ، كم جمعنا الى الآن ؟ أريني ! كيف ؟ ألم نجمع الا كوبكين فقط ؟ آه ... يا للأوغاد ! انهم لا يعطوننا شيئاً ! انهم لا يزيدون على أن يركضوا وراءنا مادّين لنا ألسنتهم استهزاءً ! انظر الى هذا المعتوه مثلاً : ممّ تراه يضحك ؟ (وأومأت الى واحد في الجمهور) ذلك كله سببه كوليا ! فلأن كوليا غبي هذا الغباء كله انما يسخر منا الناس جميعاً ! مالك يا بوليتشكا ؟ كلميني بالفرنسية ! « كلميني بالفرنسية ! » * ! عجيب ! ألم أعلمك الفرنسية ؟ ... انك تعرفين بضع جمل ... أنني لهم أن يعرفوا أنكم تنتمون الى أسرة نبيلة وأنكم قد نشستم تنشئة طيبة فلا شأن

لكم بغيركم من الغازفين على أرغن بارباريا ، أنى لهم أن يعرفوا ذلك اذا لم تكلمينى باللغة الفرنسية يا بوليتشكا ؟ نحن لا نشد فى الشوارع أغاني مبتذلة ، وانما نحن نغنى أغنيات راقية ! ها ... نعم ... ما الذى سوف نغنيه الآن ؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا ، ونحن ... اسمع يا روديون رومانوفتش ، لقد توقعنا هنا قليلاً لنقرر ما الذى سنغنيه : يجب أن نغنى شيئاً يكون فى وسع كوليا أن يرافقه برقصة ، ذلك أننا ، كما نستطيع أن تقدّر ، قد أخذنا على غير تهيؤ أو استعداد • ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور • وبعد ذلك سوف نذهب الى شارع نفسكى ، حيث يكثر الناس الذين ينتمون الى المجتمع الراقى فسرعان ما يلاحظوننا . ان لينيا لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » ، لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » وحدها ! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشمار ! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى • فماذا يا بوليا ؟ هل عندك فكرة ؟ ليتك تستطيعين ، أنت على الأقل ، أن تساعدى أمك ! آه من الذاكرة ! ان الذاكرة هى التى تعوزنى ، ولولا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها ، لولا ذلك لتذكرت ! لن نغنى مع ذلك أغنية « الفارس المتكىء على سيفه » ! * الأولى أن نغنى بالفرنسية أغنية « خمسة قروش » • لقد علمتكم اياها ، تلك الأغنية ! ثم ان الناس سرعان ما يدركون ، لأننا سوف نغنى بالفرنسية ، أنكم أولاد أسرة كريمة الأصل ، فيؤثر ذلك فى نفوسهم تأثيراً أكبر ! حتى ان فى وسعنا أن نغنى أغنية « مالبرو مسافر الى الحرب » ، لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم ، نعم للأطفال وحدهم ، تُستعمل فى جميع البيوت الارستقراطية لنوم الأطفال •

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وأخذت تغنى :

مائبرو مسافر للحرب

لا يدري متى يعود ...

ثم استدركت تقول : بل الأفضل أن نغنى « خمسة قروش »
يا كوليا ، ضع يدك على خصرىك ! أسرع ! وأنت يا لينيا ، استديرى
فى اتجاه معاكس ! وسوف أرافقكما أنا وبوليا يصفق الأيدى :

خمسة قروش ، خمسة قروش

لأنشاء أسرتنا ...

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً : كح كح كح !
وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال :

— اعدلى ثوبك يا بوليتشكا ! انه ينزلق عن كتفك ! علينا الآن أن
نحافظ على أحسن مظهر ، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة
نبيلة ! آه ... ما أكثر ما قلت ان صدر هذا الفستان ينبغي أن يكون
أطول ... ولكن نصائحك أنت يا صونيا هى التى أفسدت كل شئ :
« قصّروا ! قصّروا ! » فانظرى الآن ماذا كانت النتيجة : لقد تشوهت
هذه الطفلة ! ماذا ؟ هأتم أولاء تستأنفون البكاء ؟ ما بالكم تعودون الى
البكاء أيها الأغبياء ؟ هيّا يا كوليا ! غنّ ! بسرعة أكبر ! أكبر ! أكبر !
أوه ! يا لك من ولد لا يطاق !

خمسة قروش ، خمسة قروش

— ماذا ؟ أجندى ؟ أيضاً ؟ ماذا تريد أيها الجندى ؟

كان شرطى من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور
بالفعل ! ولكن سيداً يرتدى بزة رسمية ومعطف ضابط ، سيداً هو موظف
كبير فى نحو الخمسين من عمره ، وقور المظهر مهيب الطلعة ، يحمل

عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الامر التفصيلي الاخير قد أبهج كاترين ايفانوفنا كثيراً وأحدث في شرطى المدينة تأثيراً كبيراً) ، قد ظهر في تلك اللحظة. نفسها فاقترب من كاترين ايفانوفنا ماذا اليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات + وكان وجهه يعبر عن شفقة صادقة + فتناولت كاترين ايفانوفنا الورقة ، وانحنى أمام الرجل بشيء من الأدب ، بل وبشيء من الاحتفال + وبدأت تتكلم فقالت متعالية :

— أشكرك يا سيدى • ان الأسباب التى أهابت بنا الى ... خذى المال يا بوليتشكا • هانت ذى ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسة أناخ عليها الدهر ... ان أملك يا سيدى يتامى نبلاء ، بل يتامى يمكن أن تقول ان لهم قربي بأعلى الأسر الارستقراطية • ولكن ذلك الجنرال التافه الذى كان بسبيل التهام دراريج ... آه ... لقد ضرب الأرض بقدمه لأننى أزعجته ! قلت له : « يا صاحب السعادة ، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش ، أنت يا من عرفته حق معرفته ، فان انساناً حقيراً بين الحقراء قد افترى على بنته فى يوم موته نفسه • » • أما يزال هذا الجندى هنا ؟ كن حامياً لنا يا سيدى (كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا مخاطبةً الموظف الذى اعطاها الروبلات الثلاثة) • لماذا يلاحقنى هذا الجندى ؟ ما باله يطاردنى دائماً ؟ لقد سبق أن هربنا من جندى غيره فى شارع مشيانسكايا ... ماذا تريد أيها الغبى ؟

— لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا فى الشوارع ! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة !

— أنت الذى لا تلتزم حدود اللياقة ! أنا أفعل ما يفعله العازفون على أرغن بارباريا ! فما شأنك أنت ؟

— من أجل العزف على الأرغن ، لا بد من ترخيص ... أما أنت

فقد قررت أن تفعل ما تفعلينه دون الحصول على ترخيص ... فأنت
تزعجين الناس وتعكرين صفوهم ! أين تسكنين ؟
أعولت كاترين ايفانوفنا تقول :

- ماذا ؟ ترخيص ؟ لقد دفنت زوجى فى هذا اليوم نفسه ! أى
ترخيص تريد ؟
تدخل الموظف فقال :

- سيدتى ، سيدتى ، هدئى نفسك ، تعالى ، سأوصلك الى بيتك !
ليس هذا لائقاً هنا ، أمام الناس ! أنت مريضة !
فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

- يا سيد ، يا سيد ، أنت لا تعرف شيئاً ! سوف نذهب الى شارع
نفسكى ! يا صونيا ، يا صونيا ! ولكن أين ذهبت صونيا ؟ انها تبكى هى
أيضاً ! ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟
وصرخت فجأة تسأل :

- كوليا ، لينيا ، الى أين تذهبان ؟ الى أين أنتما ذاهبان ؟

كان كوليا ولينيا ، وقد رأيا الجندى الذى يريد أن يقبض عليهما
وأن يقتادهما الى مكان ما ، وروعتهما هذه الجمهرة المحتشدة من الناس
وهذه الحالات الجنونية فى أمهما ، كانا قد تماسكت يداها وأخذتا
يركضان كأنما على سابق اتفاق وتواطؤ . فلما رأتهما المسكينة كاترين
ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تن وتتشج ، واندفعت تطاردهما . انه
منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها
منقطعة أنفاسها . وأسرعت صونيا وبوليا تركضان وراءهما .

- أرجعيهما يا صونيا ، أرجعيهما ! آه ! ... يا للأولاد الأغنياء !

يا للأولاد العاقين !... يا بوليا ! أدركيهما ! اقبضى عليهما ! من أجلك
 أنا... ..

وترنحت كاترين ايفانوفنا فى ركضها وسقطت •
 صاحت صونيا قائلةً وهى تميل عليها :
 - انها مغطاة بالدم ! رباه !... ..

هُرِعَ الجميع ، وتحلقوا حول كاترين ايفانوفنا • وكان
 راسكولنيكوف وليزياتيكوف أول المسرعين • وقد أسرع الموظف
 أيضاً • ووراءه وصل شرطى المدينة فائلاً فى تدمر : « أقصة جديدة ؟ » ،
 ثم حرك يده بإشارة انزعاج ، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من
 المتاعب •

قال الشرطى وهو يصرف المستطلعين الذين تجمعوا ينظرون :
 - انصرفوا ! انصرفوا !

قال أحدهم :

- انها تموت •

وقال آخر :

- لقد فقدت عقلها •

وقالت امرأة وهى ترسم على نفسها اشارة الصليب :

- رَأْفَ الله بها • هل أُعيد الأولاد على الأقل ؟ ها هم أولاء

يرجعون ! ان الكبرى هى التى أدركتهم • يا للعفارىت !... ..

ولكن حين أُنعم النظر فى كاترين ايفانوفنا عُرِفَ أنها لم تُجرح
 تلاصطدامها بحجر كما قدَّرت صونيا ، فان الدم الذى صبغ بالحمرة أرض
 « الشارع إنما تدفق من حلقها •

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليزياتنيكوف :

— أنا أعرف ، أنا أعرف ، هذا مرض السل ! هكذا ينجس الدم من فم المريض ثم يخنقه • شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة : احدى قريباتى سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً من دم على حين فجأة • ما العمل ؟ سوف تموت ...

تضرعت صونيا قائلة :

— هنا ! هنا ! الى بيتى ! أنا أسكن هنا ، هنا ، فى هذا المنزل ، العمارة الثانية ... فلتنقل الى بيتى ، بسرعة ، بسرعة ! ... استقدموا طيباً ... آه ... يا رب ! ...

كذلك كانت تقول صونيا متجهة بكلامها الى الحضور واحداً بعد

واحد •

ودُبِّرَت الأمور بفضل جهود الموظف • حتى لقد ساعد الشرطى نفسه فى نقل كاترين ايفانوفنا • صعدوا بها الى مسكن صونيا وهى شبه ميتة ، واضجعوها على السرير • كان الدم ما يزال ينزف ، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب الى شعورها شيئاً بعد شيء • ولقد دخل الى الغرفة ، عدا راسكولنيكوف وليزياتنيكوف ، دخل الموظف والشرطى • وكان الشرطى قد صرف الجمهور فلم يفلت منه الا بضعة فضولين • صاحبوا كاترين ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً • ووصلت بوليا ممسكة كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويكيان • وهُرع من بيت كابرنائوف أيضاً عدة أشخاص : كابرنائوف نفسه ، وهو رجل أعرج أعور يضيف عليه شعر رأسه ولحيته المجعد تجعد شعر الخنزير مظهرأ غريباً جداً ؛ وامراته التى يعبر وجهها عن ذعر مستمر متصل ؛ وعدد من أولادهما فغرت أقواهم وجمدتهم الدهشة ؛ وظهر

بين المشاهدين أخيراً سفدريجايلوف • فنظر إليه راسكولنيكوف فى أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع ، فهو لا يتذكر أنه رآه بين الجمهور المحتشد فى الشارع •

وتكلم الحضور عن استقدام طبيب وكاهن • وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب ، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف ان مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية • وتعهّد كابرناؤموف أن يسعى الى الطبيب لاجضاره •

وتحسنّت حالة كاترين ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك ، فالنزيف قد انقطع مؤقتاً • وألقت كاترين ايفانوفنا نظرة موجعة ، وان تكن ثابتة نافذة ، على صونيا التى كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين • وطلبت كاترين أخيراً انهاضها ، فأجلست على السرير مسنودةً من الجهتين •

دمدمت تقول بصوت ضعيف :

— أين الأولاد ؟ هل أرجعتهم يا صونيا ؟ آه ••• يا لهم من بلهاء ! لماذا هربتم ؟ آه •••

وغطى الدم شفيتها المصوّحتين من جديد • فأجالت عينيها على ما حولها • وقالت :

— آه ••• أهكذا تعشين اذن يا صونيا ! لم يتح لى أن آتى اليك قبل الآن مرةً واحدة !

ونظرت اليها بألم •

— ماذا ؟ كاهن ؟ لا أريد !••• هل معكم روبل تضيعونه ؟ أنا لا ذنوب لى ! لا بد أن يغفر الله لى • ان الله يعلم كم تأملت ! فاذا لم يغفر لى ، فلا يغفر !

واستولى على كاترين ايفانوفنا هذيان ما فتىء يزداد اضطراباً •
 كانت فى بعض اللحظات ترتعش ، وتتنظر حوالىها ، فتعرف جميع
 الأشخاص الذين يحيطون بها ، تتعرفهم خلال دقيقة واحدة ، ثم
 ما تلبث أن تفقد صحوها وترتد الى هذيانها من جديد • وكان تنفسها
 أبهى أجش ، وكان شاقاً أليماً ، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج
 من حلقها •

وهتفت تقول وهى تختق لدى كل كلمة تنطق بها :
 _ قلت له : « يا صاحب السعادة ... » آه ... سحقاً لآمالها
 لودفيجوفنا هذه ! ... لينيا ، كوليا ، ضعا يديكما على الخصرين ، واجعلا
 رقصكما أسرع ، أسرع ... انزلقا ... انزلقا ! ... عليكما بخطوة
 « البسك » ... اقرع كعبيك ! كن ولداً رشيقاً !

• لك ماس ولآلى •

_ ماذا بعد ؟ ها ... نعم ... يجب الغناء كما يلى :

لك أجمل عينين

فماذا تريدن أكثر من ذلك يا فتاة !

_ نعم ، ماذا تريدن أكثر من ذلك ؟ يا للغبى ما أسخف قوله !
 ها ... نعم ... وهذا شعر آخر :

تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان

_ آه ... لشد ما أحيت هذه الأغنية ! أحبيتها حتى العبادة ، هذه
 الأغنية ! هل تعلمين يا بوليتشكا ؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطيبين ! ...
 ذلك ما يجب أن نغنيه اذا أردنا الغناء ! ولكن ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟
 لقد نسيت ! هلاً ذكرتمونى ! ذكرونى !



كاترين ايفانوفنا
بريشة الفنانة السموفياتية الكسندرا كورسماكوفا

كانت كاترين ايفانوفنا فى حالة اضطراب شديد ، وكانت تحاول أن تنهض • وأخذت أخيراً تغنى بصوت رهيب أبهى مكسّر ، صارخةً مختنقةً عند كل كلمة تنطق بها • وكان وجهها يعبر عن رعب ما ينفك يزداد :

تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان •••

وفى صدرى رصاصة

وأعولت تقول فجأة بصياح مزرق وهى تجهش باكية :

- يا صاحب السعادة ، كن حامياً لليتامى ••• تكريماً لذكرى الاستقبال الذى استقبلك به سيميون زاخارتش ••• والذى يمكن أن يوصف بأنه ارستقراطى •••

وانتفضت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد ثاب إليها شعورها وأخذت تتفرس فى الحضور مذعورة • لكنها لم تلبث أن تعرفت صونيا ، فنطقت تقول فى رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها :

- صونيا ! صونيا ! أنت أيضاً هنا ؟

أنهضت كاترين ايفانوفنا من جديد •

صرخت تقول فى يأس وكره :

- كفى ! آن الأوان ! وداعاً ! لقد أجهزوا على الحصان القديم ! انه يفتس !

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة •

وعاد إليها شعورها مرةً ثانية ، لكن ذلك لم يدم إلا مدة قصيرة • انقلب وجهها المصفرُّ الى وراء ، وانفتح فمها ، وامتدت ساقاها فى تشنج، وزفرت زفرة عميقة وماتت •

أسرعت صونيا الى جثمانها ، فطوقتها بذراعيها متألّة ، وشدّت رأسها الى صدرها الناحل • وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبّلتها باكية ناشجة • ولم يدرك كوليا ولينيا ادراكاً واضحاً ما الذى حدث ، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع ، فارتضى كل منهما بين ذراعى الآخر، وفغر فمهما وأخذا يصرخان • كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرّجين ، فأحدهما على رأسه عمامة ، والأخرى على رأسها طاقية تزينا ريشة نعام •

لا ندرى كيف وُجد « الدبلوم » موضوعاً على الوسادة قرب كاترين أيفانوفنا ، غير أن راسكولنيكوف قد رآه على كل حال •
ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة ، وأسرع ليزياتيكوف يلحق به •
قال :

— ماتت !

قال سفدريجاييلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف :
— روديون رومانوفتش ، عندى كلمة أريد أن أقولها لك • أمر مستعجل !

فسرعان ما تنحى له ليزياتيكوف عن مكانه وامحى مستخفياً ، غير أن سفدريجاييلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو اليه وأن يكلمه على انفراد • كان راسكولنيكوف متحيراً • قال سفدريجاييلوف :

— سوف أتولى جميع هذه الأمور ، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه • هذا يقتضى مالاً مهماً • • • هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام ، فتكون العناية بهم أحسن

ما تكون العناية ، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل ، الى أن يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى يطمئن بال صوفيا سيميونوفنا كل الاطمئنان . وسوف أخرجها هي أيضاً من الحماة التي تعيش فيها ، لأنها فتاة طيبة ، أليس كذلك ؟ فتستطيع أن تقول لأدفوتيا رومانوفنا فى أى وجه من الوجوه استعملت العشرة آلاف روبل .

سأله راسكولنيكوف :

- لأى هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله ؟

فأجابه سفدريجاييلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة :

- هيه ! هيه ! يا لك من رجل قليل الثقة سىء النطن ! لقد قلت لك اننى فى غير حاجة الى هذا المال ! لماذا ترفض أن تصدق أننى لا أتصرف الا بدافع الأنانية ؟ وكيف دار الأمر فان هذه (قال ذلك وهو يشير باصبعه الى الركن الذى ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملة ، لم تكن عجوزاً مرابيةً ما . . . هياً قل لى : « هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته ، أم الأفضل أن تموت هى ؟ » . . . وبدون مساعدتى ، فان بوليتشكا مثلاً « ستكون مضطرة أن تسير فى هذه الطريق نفسها » . .

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شيء من « المكر » ، دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف .

اصفرَّ راسكولنيكوف وتجمّد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التى قالها هو نفسه فى حديثه مع صونيا . وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجاييلوف نظرة ضارية .

ودمدم يسأل بصوت مختنق :

- كيف ... عرفت ... هذا ؟

- أنا أقطن هنا ، فى الجهة الأخرى من هذا الحاجز ، عند السيدة ريسليش + هنا شقة كابرناؤموف ، وهناك شقة السيدة ريسليش ، وهى صديقة لى منذ عهد طويل ، صديقة من أخلص الصديقات + أنا جار من الجيران + هذا هو الأمر !

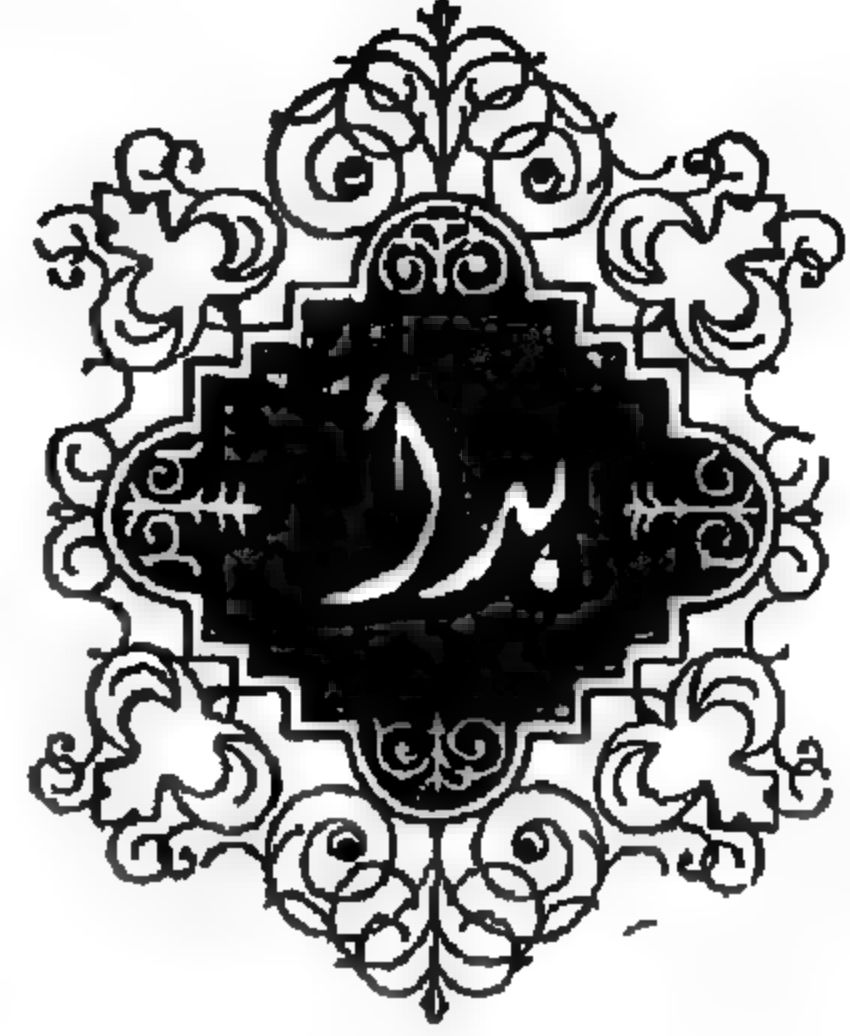
- أنت ؟

فضحك سفدرىجايلوف وتابع كلامه فقال :

- أنا ، وأستطيع أن أؤكد لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمرك قد شاقنى كثيراً + ألم أقل لك اننا سنكون متفاهمين ! لقد تنبأت لك بذلك ! نعم ، لقد تفاهمنا ! لسوف ترى أتنى رجل موادع مجارٍ مريح ! لسوف ترى أتنى أمرؤ ما تزال الحياة معى ممكنة .

الجزء
الست

الفصل الأول



عندئذ عهدٌ جديدٌ غريبٌ في حياة راسكولنيكوف .
لأن ضباباً قد سقط أمامه فجأةً ، فحبسه في عزلة
ثقيلة كسيفة . حين تذكر راسكولنيكوف هذه
الفترة ، بعد زمن ، بعد زمن طويل ، قدّر أن

أنصحو ذهنه كان يغور في الظلام أحياناً ، وأنه استمر على هذه الحال الى
أن نزلت النازلة النهائية ، الا في لحظات قليلة . وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه
قد ضلّ حينذاك في أمور كثيرة ، ولا سيما في مواقيت بعض الأحداث
وفي مدتها . على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها
وأن يوضحها ، استعان بشهادة أشخاص آخرين ، فعلم بذلك أموراً كثيرة
عن نفسه . علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر ، أو كان يظن
هذا الحادث نتيجةً لحادث ثالث لا وجود له في الواقع ، وانما أنشأه له
خياله . وكان يتتابه في بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل
الى رعب هائل . ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق
بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة ،
فهو غارق في خدر يشبه عدم الاكتراث الذي يعانيه بعض المحتضرين .
ويمكن أن نقول على وجه العموم انه يكون في مثل تلك الأيام كمن
يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعي حالته .
وهناك وقائع أساسية معينة كانت تثقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب

توضيحاً مباشراً • ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف ، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حالته الى نازلة رهيبه لم يمكن تجنبها •

وكان يقلقه سفدرىجايلوف خاصة ، حتى ليكن القول ان اتباهه كله قد تركز على سفدرىجايلوف • فمنذ اليوم الذى نطق فيه سفدرىجايلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهيبه التى لا بد أن ترعب راسكولنيكوف ، وذلك فى غرفة صونيا ، لحظة وفاة كاترين ايفانوفنا ، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعى لأفكار راسكولنيكوف • ولكن راسكولنيكوف لم يسارع الى توضيح الأمور لنفسه ، رغم القلق الشديد الذى أخذ يعاينه • كان يتفق له فى بعض الأحيان ، اذ يجد نفسه فجأة فى حى ناءٍ مقفرٍ من أحياء المدينة ، جالساً وحده الى مائدة منعزلة فى أعماق حانةٍ حقيرة ، غارقاً فى أفكاره ، لا يكاد يتذكر ما الذى قاد خطاه الى هذا المكان ، كان يتفق له على حين بقتة أن يخطر بباله سفدرىجايلوف ، فاذا هو تتجلى له حقيقة واضحة صارخة ، هى أن عليه أن يجرى حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة ، وأن يفرغ من هذا الأمر مرة واحدة • حتى لقد خيل اليه ذات يوم ، فى مكان وراء الأسوار ، أنه ينتظر سفدرىجايلوف ، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء فى هذا المكان • وفى يوم آخر ، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدري أين ، فلم يفهم ما الذى جاء به الى هنا ، ولا عرف كيف وصل الى هذا الموضع • ثم انه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التى أعقبت وفاة كاترين ايفانوفنا قد أتيح له أن يلقي سفدرىجايلوف مرتين ، وذلك فى غرفة صونيا التى ذهب اليها لا لهدفٍ الا أن يراها لحظة • وقد تبادل الرجلان بضع كلمات مقتضبة جداً ، ولكن تجنباً أن يمساً النقطة الأساسية ، فكأن بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت

فى هذا الموضوع الى حين • كان تابوت كاترين ايفانوفنا عندئذ ما يزال فى غرفة صونيا • وكان سفدرىجايلوف ينشط فى سبيل اتمام الدفن • وفى اللقاء الأخير الذى تمّ بين الرجلين شرح سفدرىجايلوف لراسكولنيكوف أن المساعى التى شرع فى القيام بها من أجل أولاد المتوفاة قد أثمرت ، فبفضل بعض العلاقات التى له ، استطاع أن يدخل الأيتام الثلاثة فى مؤسسات مناسبة ، وكان للمال الذى أودعه لهم فضل كبير فى ذلك ، لأن الأولاد الذين يملكون مالاّ يسهل قبولهم فى هذه المؤسسات أكثر مما يسهل قبول الأولاد الذين لا يملكون شيئاً • وتكلم سفدرىجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك ، ووعده بأن يزور راسكولنيكوف فى بيته قريباً ، وأسمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصيح « فهو فى حاجة ملحة الى أن يكلمه فى بعض الأمور ... » ؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين فى حجرة المدخل ، فكان سفدرىجايلوف يحدّق الى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته بعد فترة من صمت يسأله : - ولكن مالك يا روديون رومانوفتش ؟ يبدو لى أنك لست فى حالة طبيعية • صحيح أنك تصغى وتتنظر ، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم ! هياً ، ينبغى أن نتحدث معاً بعض الشيء ! يؤسفنى أننى مشغول بشئون غيرى وشئونى أنا الى هذا الحد !

ثم أضاف يقول فجأة :

- هيه ! جميع البشر محتاجون الى هواء ، الى هواء ، الى هواء قبل كل شيء !

وتنحى بغتة حتى يفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السلم • انهما آتيان لاقامة صلاة الميت • لقد اتخذ سفدرىجايلوف الاستعدادات اللازمة لاقامة صلاة الميت هذه مرتين فى اليوم بغير انقطاع •

تردد راسكولنيكوف لحظةً ثم تبع الكاهن الى عند صونيا • وكان
سفدريجاييلوف قد غاب •

وقف راسكولنيكوف على العتبة • وابتدأ القداس هادئاً مهيباً
حزيناً • كان الفتى يشعر بالموت منذ نعومة أظفاره • وكان احساسه
بحضور الموت يصطبغ عنده دائماً بنوع من رعب صوفى • وهو منذ مدة
طويلة لم يشهد قداس جنازة • والى هذا كله يُضاف الآن احساس
بالاضطراب والرعب أشد ايلاماً •

نظر الى الأولاد • كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت • وكانت
بوليتشكا تبكى • ووراءهم كانت صونيا تصلى وتبكى برفق • قال
راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انها لم تنظر الى مرة واحدة فى هذه
الأيام الأخيرة • انها لم تخاطبنى بكلمة واحدة » • كانت الشمس تغمر
الغرفة بضياء قوى ، ودخان البخور يتصاعد الى السقف ، والكاهن يرتل
أدعيته • بقى راسكولنيكوف الى آخر الاحتفال فلما بارك الكاهن وودّع
منصرفاً ، ألقى على ما حوله نظرة غريبة • واقترب راسكولنيكوف من
صونيا بعد انتهاء القداس • فاذا هى تتناول يديه فجأة وتميل برأسها على
كتفه • دُهِش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه • بدت له
هذه البادرة غريبة • تساءل : كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور ، كيف
لا تشمئز منه أى شئزاز ؟ وكانت يدها لا ترتعش فى يده ! يا للتضحية !
هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل • لم تقل صونيا كلمة
واحدة • صافحها راسكولنيكوف وخرج • كان يشعر بارهاق فظيع
يجتاحه • فلو كان يستطيع فى تلك اللحظة أن يذهب الى مكان ما ، الى
أى مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة ، بغزلة مطلقة ، ولو دامت مدى الحياة ،
اذن لعدّ نفسه سعيداً • ولكن راسكولنيكوف كان فى هذه الآونة الأخيرة ،
رغم بقاءه وحيداً فى جميع الأحيان تقريباً ، لا يفلح فى الوصول الى

انشعور بالوحدة • كان يتفق له أن يخرج من المدينة ، وأن يسير في الطريق الكبير • حتى لقد توغل ذات مرة في غابة • ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مستتر مقلق يربعه ، ويضايقه خاصة • فكان يسرع عندئذ عائداً الى المدينة ، فيختلط بالجمهور ، ويذهب الى « سوق العلف » ، فيشعر هنالك بشيء من الارتياح •

وكان ذات مساء في مطعم حقير فيه غناء ، فبقى يصغي الى الغناء ساعة كاملة ، وقال لنفسه انه مبتهج به ، ولكن قلقه عاد يجتاحه آخر الأمر ، فان شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهش قلبه ، وقال لنفسه فجأة : « هأنا ذا جالس أستمع لغناء ، فهل هذا هو ما يليق بي أن أفعله ؟ » • على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا ، وأن هناك مسألة يجب حلها بغير ابطاء ، لكنه لا يستطيع أن يعبر عن هذه المسألة بكلام ، أو أن يترجمها بأقوال • كان كل شيء تشابك خيوطه كبة غزل : « لا • • الصراع أولى ! بورفير • • • أو سفدرىجايلوف • • • لأن أقوم بتجدد آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا • • • نعم ، نعم ! » • قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً • وخطرت بباله دونيا وأمه ، فاذا هو يشعر برعب هائل ، لا تدري لماذا ! وفي تلك الليلة استيقظ قبل الفجر في غابة بجزيرة كرسنوفسكى* مرتعداً من الحمى • فعاد الى بيته قبل طلوع الشمس • وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات ، ولكنه استيقظ متأخراً • كانت الساعة حين استيقظ هي الثانية والنصف بعد الظهر •

فتذكر عندئذ أن دفن كاترين ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم ، فسرّه أنه لم يشهد الدفن • وجاءته ناستاسيا بغدائه ، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة • وكان ذهنه أنضر ، وكان يحس

أنه أهدأ مما كان فى الأيام السابقة ، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر •

وفُتح الباب فى تلك اللحظة ، ودخل رازوميشين •
قال رازوميشين وهو يتناول كرسيًا ويجلس عليه فبالة راسكولنيكوف :

— هه ! انه يأكل • ما هو اذن بالمريض !

كان رازوميشين فى حالة احتياج شديد لا يحاول أن يخفيه • كان يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح ، ولكنه لا يتعجل ولا يرفع صوته • لكنّه يبيّن نية لها صفة استثنائية جداً • وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال :

— اسمع ! لقد أسأمتونى فاذهبوا جميعاً الى جهنم ! ذلك اننى أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أننى لا أفهم من الأمر شيئاً البتة ! ولا يذهبن بك الخيال الى أننى سأحاصرك بالأسئلة • فلقد أصبحت لا أعبأ بهذه الأمور كلها ! • • • ولست أريد قط أن • • • قد تكشف لى بنفسك عن جميع أسرارك ، فاذا أنا لا أصغى اليها • نعم ، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضى لشأنى ! وانما جئت الآن لهدف واحد هو أن أعرف أولاً بنفسى ، معرفة حاسمة ، أأنت مجنون أم لا • ذلك أن هناك أناساً — ليس أمراً هاماً أن نسميهم — مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهب لأن تصبح مجنوناً • وانى لأعترف لك بأننى كنت أنا نفسى مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأى ، أولاً بسبب أفعالك السخيفة بل الحسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل لها) ، وثانياً بسبب سلوكك الأخير • مع أمك وأختك ، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه الا انسان شاذ أو دنيء أو مجنون • فأنت اذن مجنون •

— هل رأيتهما منذ مدة طويلة ؟

— منذ لحظة • وأنت ؟ أنت لم ترهما مرةً أخرى منذ ذلك اليوم ،
 أليس كذلك ؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت ؟ هلاً قلت لي ،
 أرجوك ! لقد جئت الى بيتك ثلاث مرات • وأمك مريضة منذ الأمس
 مرضاً شديداً • قررت أن تجيء اليك ، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن
 تمنعها من ذلك ، لكنها لم تفلح • قالت : « اذا كان مريضاً ، اذا كان قد
 أصاب عقله اختلال ، فمن ذا ينجده اذا لم تنجده أمه ؟ » • عندئذ جئنا
 معاً ، لأننا لم نشأ أن نتركها وحدها • وفى الطريق ، فعلنا كل شيء فى
 سبيل أن نهدئها • ولكننا دخلنا فلم نجدك ! جلست هناك ، ولبثت
 جالسة عشر دقائق ، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف الى جانبها
 لا نتلق بكلمة واحدة • بعدئذ نهضت وقالت : « ما دام يخرج فعنى
 ذلك أن صحته حسنة ، وأنه نسي أمه • يترتب على هذا أنه لا يليق بأمه
 بل عارٌ عليها أن تقف فى عتبة بابه تستجدى ملاطفاته استجداء
 الصدفات • وعادت الى بيتها ، ثم لم تلبث أن اضطرت الى ملازمة
 الفراش • وهى الآن تعاني من الحمى ، وتقول : « فهمت ! ان وقته
 لا يتسع لغير حبيبته • • • » • انها تعتقد أن صوفيا سيميونوفنا حبيبته أو
 خطيبته أو خليلته ، لا أدري ! فسرعان ما ذهبت الى بيت صوفيا
 سيميونوفنا ، لأننى كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقى •
 دخلت على صوفيا سيميونوفنا ، فماذا رأيت ؟ تابوتاً وأولاداً يكون ،
 وصوفيا تجرّب على الأولاد ملابس الحداد • أما روديا فلا وجود له !
 عندئذ نظرت ، واعتذرت ، وخرجت ، ومضيت الى آفدوتيا رومانوفنا
 أروى لها ما شاهدت ! القصة اذن باطلة : لا حبيبة هنالك ولا شيء من
 ذلك ، ولعل كل ما فى الأمر أنك مجنون ! ولكن هاتنا ذا أراك تلتهم لحم
 بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين ! صحيح أن المجانين يأكلون
 هم أيضاً • • • ولكن لا • • • ما أنت بمجنون • • • رغم أنك لم تقل لي

كلمة واحدة ! ما أنت بمجنون قط ! اذن ... شيطان يأخذكم جميعاً •
فلا بد أن فى الأمر سرّاً ، لا بد أن فى الأمر سرّاً ... وأنا لا أريد أن
اصدّع رأسى بأسراركم ! انتنى لم أجىء الا لأزعجك تخفيفاً عن نفسى •
وأنا أعلم ماذا بقى على أن أفعل !

بهذا ختم رازومبخين كلامه وهو ينهض •

سأله راسكولنيكوف :

— ماذا تتوى أن تفعل ؟

— أأصبح يهملك الآن أن تعرف ما الذى سأفعله ؟

— حذار ! انك تريد أن تقبل على شرب الخمر !

— كيف ... كيف حذرت هذا ؟

— لا يحتاج الأمر الى كبير ذكاء !

بقى رازومبخين صامتاً بعض الوقت ، ثم قال فجأة بحماسة :

— لقد كنت فتي ذكياً حصيف العقل على الدوام • لم تكن مجنوناً

فى يوم من الأيام ! نعم ، كلامك صحيح • سأقبل على شرب الخمر !
استودعك الله !

قال رازومبخين ذلك واتجه نحو الباب • فقال له راسكولنيكوف :

— كلمت اختى عنك يا رازومبخين ، أمس الأول ، فيما أذكر •

فتوقف رازومبخين فجأة ، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو

يسأله :

— عنى أنا ؟ ... ولكن أين عساك رأيته ، أمس الأول ؟

يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً •

قال راسكولنيكوف :

- جاءت الى هنا ! وجلست° في هذا المكان ! وتكلمنا !

- هي ؟

- نعم ، هي !

- ماذا قلت لها ؟ أقصد ماذا قلت لها عني ؟

- قلت لها انك شاب ممتاز ، شريف ، مجتهد • لم أذكر لها انك تحبها ، فذلك أمر تعرفه هي •

- تعرفه ••• هي ؟

- طبعاً ••• وعليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً ، أينما حطت رحالي وكيفما كان حالي ! أقول لك هذا لأنني أعرف مدى ما تحمله لها من حب ، ولأنني مقتنع بطهارة عواطفك ونقاء مشاعرك • واني لأعلم أيضاً أنها ، من جهتها ، يمكن أن تحبك ، هذا اذا لم تكن قد أحبتك وانتهى الأمر ! والآن قرّر : هل عليك أن تقبل على شرب الخمر !

- روديا ••• اسمع ••• طيب ••• آه ••• وأنت ، الى أين تريد أن تذهب ؟ اذا كان ذلك سراً ، فاكمه ان شئت • ولكنني سأطلع على السر آخر الأمر ! آ ••• اني لعلّي يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون سخافةً من السخافات لا تُصدّق ! وأنت قد اخترعت هذا كله ! مهما يكن من أمر ، فأنت فتى رائع ، أنت أروع الفتيان !

قال راسكولنيكوف :

- ولقد أردت أن أقول لك أيضاً - لولا أنك قاطعتني - انك كنت على حق تماماً حين ذهبت الى أنه لا داعي الى محاولة اكتشاف تلك الأسرار • دع هذا الأمر الآن • بالأمس قال لي أحدهم : ان المرء في

حاجة الى هواء ، الى هواء ! وأريد الآن أن أذهب الى ذلك الرجل لأعرف ما الذى كان يعنيه بذلك الكلام !

كان رازوميشين واقفاً يفكر ، وقد عاد يستولى عليه القلق • ثم قال يحدث نفسه فجأة : « هو متأمر سياسى • لا شك فى ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم • نعم ، هذا هو الأمر • لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا • ودونيا تعلم ذلك • • »

وقال وهو يقطع كلماته :

— اذن تجيء اليك آفدوتيا رومانوفنا ، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذى قال لك ان المرء فى حاجة الى هواء ، الى مزيد من الهواء دائماً • • • معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر • • •

بهذه الحملة الأخيرة ختم رازوميشين كلامه على حدة •

سأله راسكولنيكوف :

— أية رسالة ؟

— لقد تلقت اليوم رسالةً أفلققتها كثيراً ، كثيراً جداً • أخذت أتكلم عنك ، فرجيتى أن أسكت • ثم • • • ثم قالت ان من الجائز أن نفترق قريباً جداً • • • ثم شكرتني بكثير من الحرارة على أنني • • • لا أدري ماذا ، وأخيراً مضت الى غرفتها فحبست نفسها فيها •

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن :

— تلقت رسالة ؟

— نعم ، رسالة • ألم تكن تعرف ذلك ؟

وصمت الشابان كلاهما •

— أسستودعك الله يا روديون • أنا يا صاحبي • • • فى وقت من

الأوقات ... ثم ... استودعك الله ! نعم ، في وقت من الأوقات ...
دعنا من هذا ... استودعك الله ! آ ن لى أنا أيضاً أن ... لن أشرب .
ما الداعى الآن ؟

كان متعجبلاً ، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى
فتحه فجأة من جديد ، وقال وهو يلقي نظرة متهرّبةً الى جانب :

- بالمناسبة ... فيما يتعلق بتلك الجريمة ... أنت تعلم حكاية
بورفير ... ومقتل المرأة العجوز ... ألا تتذكر ؟ ... لقد اكتشفوا
القاتل ... اعترف القاتل وقدّم جميع الأدلة • تصور أنه واحد من
أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسى أدافع عنهم ... هل
تتذكر ؟ وهناك شيء تفصيلي آخر : ان مشاهد المشاجرة مع الرفيق ،
والقهقهات على السلم بينما كان الآخرون يصعدون ، ان ذلك كله انما
ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة ! يا للمكر ! يا للبديهة الحاضرة
والحيلة البارة ! لا يكاد المرء يصدّق ، ولكن الرجل أوضح هو نفسه
كل شيء ! لقد خدعنى فى أول الأمر عن نفسى ! انه يملك عبقرية المكر
والحيلة • على كل حال ، هذه أشياء موجودة ، فلا داعى الى الاسراف
فى الدهشة ! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع ؟ وأما أنه لم
يطق صبراً فاعترف أخيراً ، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق • لقد
خدعنى على كل حال ! تصور كم تحمست لهم ودافعت عنهم !

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح :

- كيف علمت بذلك ؟ ولماذا يهملك هذا الأمر الى هذا الحد ؟

- لماذا يهمنى هذا الأمر ؟ يا له من سؤال ! ... ان بورفير هو
الذى أمدنى بهذه المعلومات ! ثم انه هو الذى أطلعنى على كل شيء
تقريباً •

— بورفير ؟

— نعم ، بورفير •

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً :

— ماذا ••• ماذا قال لك ؟

— شرح لى الأمر شرحاً رائعاً ، شرحاً « سيكولوجياً » ، على نهجه

فى الشرح •

— هو نفسه ••• شرح لك ؟

— نعم ••• هو نفسه • استودعك الله ! سأقصُ عليك شيئاً فيما

بعد ، أما الآن فثمة عمل يجب أن أقوم به ، هناك • جاء وقت تصورت

فيه أن ••• ولكن ما الداعى الى هذا الكلام ؟ سأقول لك فيما بعد !•••

ما حاجتى الى السكر الآن ؟ لقد أسكرتتى أنت بغير خمر ! نعم ، أنا

سكران يا روديا ، سكران من غير أن أشرب خمرأ ••• هيّا ، استودعك

الله • سأعود اليك بعد مدة قصيرة •

قال رازومихين ذلك وخرج • وفيما كان يهبط السلم بخطى بطيئة

كان يحدث نفسه بقوله : « هو متأمر سياسى ، حتماً ، حتماً • ولقد أقحم

أخته فى الأمر • ذلك جائز ، بل جائز جداً ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار

الى طبع آفدوتيا رومانوفنا • هما الآن يلتقيان فى مواعيد يضربانها ! ألم

تُفهمنى هى نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الصغيرة

والاشارات والملاحظات • نعم هذا كله يدل على أن تقديرى صحيح •

والا فكيف تعلّل هذا التعقيد كله ؟ هه ••• وأنا ظننت أن ••• آه •••

يا رب ! ما أكثر ما تخيلت أيضاً ! نعم ، كان ذلك ضلالاً ، ولقد أثمت

فى حقه ! غير أن ذلك خطؤه هو أيضاً • لماذا شوش فكرى ، ذلك

المساء ، فى الدهليز ، تحت المصباح ؟ ها ••• يا لها من فكرة دنيئة ،

خسيسة ، تلك الفكرة التي راودتني ! وما أعظم شهامة ذلك الفتى يقول
حين اعترف بكل شيء ! هكذا يتضح الماضي كله دفعة واحدة : مرض
روديا ، وأطواره الغريبة ، وحتى ما سبق هذه الفترة ، حين كان روديا
ما يزال في الجامعة فكان مظلم النفس ، مكسب المزاج • ولكن ماذا تعني
الآن هذه الرسالة ؟ لا بد أن وراءها شيئاً ! من هو مرسلها ؟ أظن أنها
... هم ... سأخرج هذا كله الى النور ! » •

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا ، فأصبح قلبه كالجليد حين تذكر
ذلك • وتخلص من جموده ، وأخذ يمشى مشياً سريعاً يوشك أن يكون
ركضاً •

ما ان خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف ، فاقرب من
النافذة ، ومشى في الغرفة منتقلاً من ركن الى ركن ، كأنما هو قد نسي
أبعادها ... ثم عاد يجلس على السرير • وكأنه قد تبدل تبديلاً تاماً :
عاد الصراع ... ما يزال هناك اذن مخرج • « نعم ، هذا مخرج يظهر
أخيراً ! » • حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً ،
منخوقاً ، كأن قدراً قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع يقولوا عند بورفير ،
حتى ان مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه ، وقع عند
صونيا ولم ينته ، لم ينته البتة ، كما لعله تخيل • ولقد ظهر ضعف
راسكولنيكوف فانهيار انهياراً تاماً ، دفعة واحدة • ألم يعترف عندئذ ،
مع صونيا ، من أعماق قلبه ، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده
عبئاً كهذا العبء ؟ ... وسفدريجاييلوف ؟ ان سفدريجاييلوف لغز • ان
سفدريجاييلوف يقلقه أيضاً ، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى
تماماً • لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجاييلوف يمكن أن
يكون مخرجاً كذلك ؟ ولكن بورفير ؟ ذلك شيء آخر ! ...

« ها ... هكذا اذن ... بورفير نفسه هو الذي شرح لرازوميخين

اذن كل شىء ! شرح له كل شىء شرحاً « سيكولوجيا » • انه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التى يتسلح بها ! • • ولكن كيف أمكنه ، هو بورفير ، أن يصدق ، ولو دقيقة واحدة ، أن يقولوا هو الجانى ، بعد المشهد الذى قام بيننا قبل وصول يقولوا هذا نفسه ، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له الا تفسير واحد ؟ •

كانت ذكرى هذا المشهد الذى وقع بينه وبين بورفير قد عاودته مراراً كثيرة فى هذه الأيام الأخيرة ، ولكنها كانت تعاودته تنفاً صغيرة ، فلو رآها كاملة فى جملتها لما استطاع أن يحتملها •

« ان ما قام بيننا من أحاديث ، وما جرى من حركات وإشارات ، وما تبادلناه من نظرات ، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة ، ان ذلك كله قد تم على نحو لا يمكن معه أن يكون يقولوا (الذى كشف بورفير عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذى استطاع أن يردّه عن اقتناعه • أضف الى ذلك أن رازومبخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات • • • معنى ذلك أن مشهد الدهليز تحت المصباح لم يفته تماماً ! وها هو ذا يهرع عندئذ الى منزل بورفير ! ولكن لماذا ضلّله بورفير على ذلك النحو ؟ ماذا كانت غايته من ذلك ؟ ماذا كان هدفه ؟ لا شك فى أنه كان له هدف ، ولكن ماذا كان ذلك الهدف ؟ أية مصلحة له فى أن يحوّل شبهات رازومبخين نحو يقولوا ؟ لا شك فى أنه كانت له مصلحة ، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة ؟ ان زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح ، زماناً طويلاً مسرقاً فى الطول ، لم تعرف خلاله أى أنباء عن بورفير • ان ذلك لا ينبىء بخير • • • » •

تناول راسكولنيكوف قبعته ، وخرج من غرفته غارقاً فى أفكاره • هذه أول مرة يشعر فيها بأنه فى حالة طبيعية ، طوال ذلك الزمان •

وقال يحدث نفسه : « يجب الانتهاء من سفدريجايلوف ، مهما كلف الأمر ، وبأقصى سرعة ممكنة . أظن أنه ، هو أيضاً ، يتوقع أن أذهب اليه بنفسى » . وفى تلك اللحظة ، انبجس فى قلبه المذب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن فى تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين : سفدريجايلوف أو بورفير . ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك ، ان لم يكن فوراً فبعد حين . فكان يردد قائلاً لنفسه : « سوف نرى ، سوف نرى » .

ولكن ما ان اجتاز الباب المفضى الى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفير نفسه . كان بورفير يهيم أن يدخل عليه . دُهش دُهشة شديدة ، ولكن دهشته لم تدم الا لحظة قصيرة . أمر غريب : انه سرعان ما رأى أن مجيء بورفير اليه أمر طبيعى لا غرابة فيه ، فلم تثر فيه رؤيته أى خوف تقريباً . ارتعش فى البداية رعشة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه . « لعل هذه هى الحاتمة ؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرة ، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه ؟ هل يمكن أن يكون قد تنصت على الباب ؟

صاح بورفير يقول له ضاحكاً :

— لم تكن تتوقع زيارتى يا روديون رومانوفتش ! لقد كنت أنوى أن أجيء اليك منذ مدة طويلة . فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسى : « لماذا لا أصعد اليه ، فأزوره زيارة قصيرة ، مدة خمس دقائق ؟ هل كنت خارجاً ، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج . هل لك بسيجارة ؟

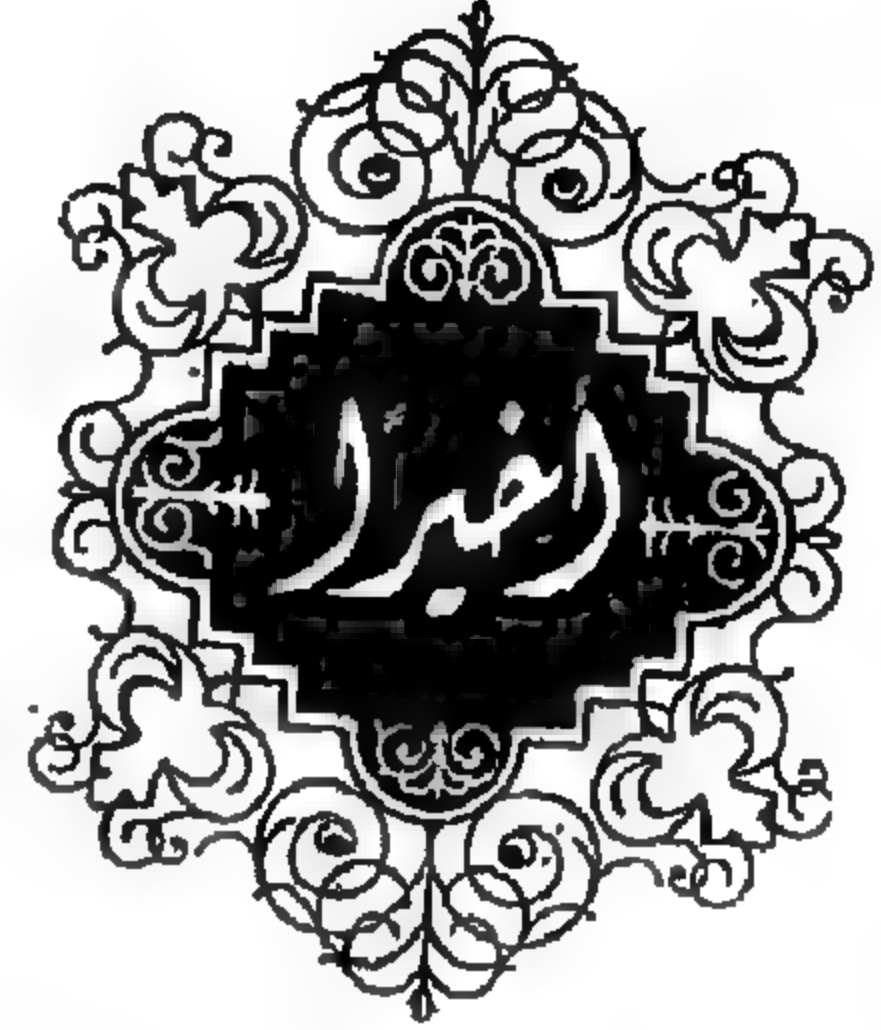
قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسيّاً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقاً :

— اجلس يا بورفير بتروفتش !

امسحت مشاعره السابقة دون أن تخلّف وراءها أى ظل • انه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق ، خلال نصف ساعة ، حتى اذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة •

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفير تماماً ، ونظر اليه محدقاً •
فطرفت عين بورفير ، وأشعل سيجارة •
ودّ راسكولنيكوف من أعماق قلبه لو يصرخ قائلاً : « هيا ،
تكلم ، تكلم ! ما بالك لا تتكلم ؟ » •

الفصل الثاني



بدأ بورفير كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ
من دخانها نفساً ، فقال :

— تباً للسجائر ، انها سم ، سم حقيقي ،
ولكنني لا أستطيع تركها • انني أسعل ،
وأشعر بحكاك في حلقى ، وألهث ، واختنق • واذا أنني جبان فقد ذهبت
منذ أيام واستشير الدكتور ب • • * الذي يظل يفحص المريض مدة نصف
ساعة على الأقل • فماذا قال الطبيب ؟ سخر مني في أول الأمر ثم أخذ
يمعن فيّ جساً وتسمعاً وتنصتاً ، ثم قال : « أنت يؤذيك التدخين • رثنان
متوسعتان » • كلام جميل ! ولكن كيف يمكنني أن أستغني عن التدخين؟
وبماذا استعويض عنه ؟ انني لا أشرب خمرأ ، وذلك مصدر البلاء كله •
ان مصدر البلاء كله هو أنني لا أشرب خمرأ • كل شيء نسبي كما ترى
يا روديون رومانوفتش •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزاً : « أترأه يريد أن
يستأنف شطارته ؟ » • وعادت الى خياله ذكرى لقاتنهما الأخير فجأة ،
فازدحمت في قلبه العواطف التي كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء •

وتابع بورفير بتروفتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

— ثم انني قد سبق أن جئت اليك مساء أمس الأول • كيف ؟ أكنت
لا تعرف ذلك ؟ نعم ، جئت الى غرفتك ، الى هنا • فكما حدث لي اليوم ،

كنت ماراً أمام المنزل ، فقلت لنفسي : « ماذا لو زرتة زيارة قصيرة ؟ »
ثم صعدت ، فرأيت الباب مفتوحاً على سعة كلها • ونظرت ، وانتظرت
برهةً ، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمى • ألسنت تغلق بابك
بالمفتاح أبداً ؟

اكفهر وجهه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهار • وبدأ على
بورفير أنه حزر ما يجول في فكره • وتابع كلامه فقال :

- أنا انما جئت لأبرر لك سلوكى يا عزيزى روديون رومانوفتش ،
لأبرر لك سلوكى ! نعم ، ينبغي لى أن أبرر لك سلوكى وأن أعذر عنه!
وتابع يقول وهو يتسم ابتسامة خفيفة :

- ذلك واجب يقع على عاتقى ، ولا بد لى من الوفاء به •

قال ذلك وهو يضرب ركة راسكولنيكوف بيده ضربة تعبر عن
الألفة والمودة • ولكنه اتخذ هيئة الجد والهم فى تلك اللحظة نفسها
تقريباً ، وخالط نظرتة شئ من الحزن ، وذلك أمر استغربه
راسكولنيكوف كثيراً ، فانه لم يسبق له فى يوم من الأيام أن لاحظ أو
تصور أن يكون لبورفير بتروفتش وجه كهذا الوجه •

وتابع بورفير كلامه :

- لقد وقع بيننا فى المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون
رومانوفتش ! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا فى المرة الأولى أيضاً ،
ولكن فى ذلك الوقت ... على كل حال ، لا ضير ! المهم أنك تعدنى
فى أغلب الظن آثماً جانباً فى حقك • هل تتذكر كيف افترقنا ؟ كانت
أعصابك نائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان ... وأنا أيضاً كانت أعصابى
نائرة جداً وكانت ساقاى تصطكان • الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على
نحو يكاد يوصف بقلّة الأدب ، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل •

ونحن مع ذلك من الناس المهذبين (الجنتلمان) ، حتى ليتمكن أن أقول
اننا من هؤلاء الناس قبل كل شيء ، وذلك أمر ما ينبغي أن ننساه !
نذكر المدى الذى بلغته الأمور لقد كان ذلك أمراً غير لائق البتة . .
يجب أن نعترف بهذه الحقيقة .

تساءل راسكولنيكوف مدهوشاً وهو يرفع رأسه وينظر الى بورفير
محملاً : « ماذا يريد منى ؟ ماذا يظنى ؟ » .

وتابع بورفير كلامه فقال وهو يحوّل رأسه ويغض بصره ، كأنه
لا يريد أن يدخل الاضطراب الى نفس ضحيته القديمة ، وكأنه يكره أن
يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألوفة :

— أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعود الى الصراحة . نعم ، ان
امثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر . لقد جاء نيقولا
منذ أيام فوقّ بيننا ، ولولا ذلك لمضت الأمور الى حدود لا أدرى مداها !
وما قولك فى ذلك البائع الصغير اللعين الذى قبع وراء الحاجز يتنصت ؟
هل تتصور ذلك ؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي ، فأنا أعلم أن
الرجل قد جاء بعدئذ اليك أيضاً . غير أن الشبهات والشكوك التى قامت
فى نفسك كانت خطأ فى الواقع . فأنا لم استدع أحداً ، ولا اتخذت أى
اجراء . تسألنى لماذا لم أتخذ أى اجراء ؟ فماذا أقول لك ؟ ان الأمر كله
كان قد قلب عقلى رأساً على عقب . كل مافعلته هو أنني استدعيت البوابين
(لا شك أنك رأيتهم عابراً) . ان فكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت
فى ذهنى . ذلك أن اقتناعى يا روديون رومانوفتش كان قد تمّ . وكنت
أقول لنفسي : « اذا فاتنى أمر فمن الممكن فى مقابل ذلك أن أقبض على
أمر آخر قبضاً كاملاً » . أنت يا روديون رومانوفتش شديد الاحتياج ،
بل أنت مفرط فى شدة الاحتياج . تلك سمة من سمات خلقك وقلبك
أعتر بأننى أعرفها بعض المعرفة على الأقل . ولقد كنت أدرك طبعاً أن

المرء لا يرى فى كل يوم شخصاً يأتى فيفيض اليه بما نفسه دفعة واحدة .
 صحيح أن هذا يحدث ، ولا سيما حين يكون ذلك الشخص مرهقاً مهدود
 القوى ، ولكن هذه الحالة نادرة . لا ، لم تفتنى هذه الحقيقة . لكننى
 كنت أقول لنفسي : « لسوف يكفينى مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة ،
 صغيرة الى أبعد حدود الصغر ، صغيرة كل الصغر ، على شرط أن تكون
 واقعة محسوسة ملموسة تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكلوجية !
 ذلك أنه اذا كان هذا الرجل جانباً فلا شك أن فى امكاننا أن نتظر منه
 شيئاً محسوساً ملموساً . فمن حقنا اذن أن نأمل فى الحصول على نتائج
 هى أبعد ما تكون عن التنبؤ ! » . كنت أعوّل على طبعك يا روديون
 رومانوفتش ، على طبعك خاصة . وكنت أعقد عليك آمالاً كباراً !
 تتمم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنه يلقي
 سؤالاً :

— فلماذا تقول لى هذا الكلام كله الآن ؟

ثم تساءل تائهاً فى ظنون وتخمينات : « عمّ يتكلم ؟ هل يمكن أن
 يقع فى اعتقاده حقاً أننى برىء ؟ » .

قال بورفير يجيبه عن سؤاله :

— لماذا أقول لك هذا الكلام ؟ انا انما جئت لأبرر لك سلوكى ،
 لأقوم بواجب مقدس . سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث ، أى
 كل قصة الخلاف بيننا جملة . انك قد قاسيت بسببى أشياء كثيرة
 يا روديون رومانوفتش . ولكنى لست شيطاناً رجيماً ، وانى لأدرك حق
 الادراك مدى الألم الذى لا بد أن يكون قد أحدثه هذا كله فى نفس
 انسان مثلك ، انسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء ، محب للسيطرة ،
 نافذ الصبر نعم . . . لا سيما نافذ الصبر ! مهما يكن من أمر ، فلما

أعدك أعظم انسان ، رغم أنني لا أشاطرك جميع آرائك ، وهذا ما أحرص على أن أقوله لك بصراحة تامة ، دون لف أو دوران ، لأننى يهمنى كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشك . اننى ما ان عرفتك حتى شُغفت بك . لعلك ستضحك مما أقوله لك ، ومن حقك أن تضحك . أنا أعلم أنك كرهتني منذ أول نظرة ألقيتها على ، بدون حق فى الواقع . مهما يكن من أمر ، فأننى أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذى تركته فى نفسك ، وأن أبرهن لك على أنني ، أنا أيضاً ، انسان يفيض وجداناً وعاطفة . أقول لك هذا بصراحة تامة .

توقف بورفير عن الكلام برهة فى وقار . وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه . فهو حين يتصور أن بورفير يظنه الآن بريئاً ، يحس فجأة برعب .

وتابع بورفير كلامه فقال :

- ربما لم يكن ثمة داعٍ الى أن أحكى لك كل ما جرى ، بالترتيب ؛ حتى اننى أعتقد أن هذا غير مفيد ، وأنا أعتقد على الأقل أنني لن أفلح فى ذلك . فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرز ظروف المسألة ؟ فى الأصل سرت شائعات . من أين جاءت تلك الشائعات ؟ ماذا كانت تلك الشائعات ؟ من أى ناحية كانت تعنيك ؟ اننى أعتقد أنه لا داعى أيضاً الى أن أذكر لك ذلك . أما أنا شخصياً فان صدفة هى التى نبهتني ، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث . ما هى تلك الصدفة ؟ أظن أن الأفضل ، هنا أيضاً ، أن ألزم الصمت . ان ذلك كله (أعنى تلك الشائعات ، وتلك المصادفات) قد ساهمت فى تكوين فكرة فى رأسى . أعترف لك صراحة - وعلى الانسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف ، أليس كذلك ؟ - أعترف لك صراحة بأننى كنت أنا أول

من وضعك موضع الاتهام • ان كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التى من هذا النوع ، لا قيمة لها البتة وليست تدل على شيء !

وقد أتيح لى أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذى وقع فى قسم الشرطة ، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات • والشخص الذى روى لى ذلك المشهد لم يكن أى شخص ، وانما كان شاهداً رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً ، من جهة أخرى • وكان ذلك كله يشبه بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً يا عزيزى روديون رومانوفتش • فكيف لا تقوم فى ذهنى فكرة ما ، وكيف لا أسير فى اتجاه ما ؟ يقول مثل انجليزى :
مائة أرنب لا تصنع حصاناً ، ومائة شبيهة لا تصنع برهاناً • هذه هى الحكمة بعينها طبعاً ! ولكن أنى للمرء أن يقاوم الأهواء ! ذلك أن قاضى التحقيق ليس الا انساناً !... وقد تذكرت أيضاً مقالاتك الصغيرة تلك التى كنت قد نشرتها فى مجلة ، والتى حدثتني عنها تفصيلاً حين زرتنى أول مرة • لقد سخرت منك عندئذ ، لكننى فعلت ذلك لأحثك على الادلاء بمزيد من الاعترافات • أعود فأقول انك قليل الصبر شديد الاحتياج يا روديون رومانوفتش • وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جامع الاندفاع كثير الجد • لقد شعرت أنت بأشياء كثيرة ، نعم شعرت بأشياء كثيرة ... وكنت أنا أقدر ذلك منذ مدة طويلة • اننى أعرف جيداً أمثال هذه الاحساسات ، فحين قرأت مقالاتك خيّل الى أننى سبق لى أن قرأتها • لا شك عندى فى أنك فى ليالى أرق وحمى ، فى ليالى كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عنيفاً ويزخر بحماسة كان ينبغى لك مع ذلك أن تلجمها ، انما تصورت تلك المقالة ، أليس كذلك ؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب فى نفسه ... ولئن سخرت من مقالاتك عندئذ ، فأننى أستطيع أن أقول لك الآن اننى أحبت كثيراً ، (حبّ هواية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النضرة المتأججة التى جرى بها قلمك •

صحيح أنها كانت ملاءى بدخان ، بضباب ، غير ان وترا كان يهتز في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان . وصحيح أنها كانت ملاى بنزوات خيال وتناقضات منطق ، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق ! صحيح ان فيها نوعا من صلف لا مسوغ له ، ومن تهور يأس مستميت ، وصحيح انها قائمة ، قائمة جداً ، ولكن ذلك كله حسن كنت قد قرأت اذن مقالاتك ، ثم وضعتها جانبا ؛ لكننى حين وضعتها جانبا قلت لنفسى : « ان رجلاً كهذا الرجل لن يكتفى بهذا » . فقل لى من فضلك : كيف كان يمكننى بعد تلك المقدمات أن لا أندفع الى تلك النتائج ؟ أترانى فى هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن . . . ؟ أترانى أوكد شيئاً ؟ اننى لم أزد حينذاك على أن سجلت ملاحظات . ما الذى كان يضمه ذلك كله ؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، ربما لا شيء قطعاً ! معنى هذا أننى لا أستطيع أن أتباهى باندفاعاتى وحماساتى تلك ! وهذا يقولوا على ذراعى ، وهذه وقائع ملموسة تتناوله انها وقائع رغم كل شيء ، هى وقائع شئت أم أبيت ! وعندئذ كان لا بد لى من العودة الى السيكلوجيا . ذلك اننى لا بد لى من الاهتمام به . ان القضية بالنسبة اليه قضية حياة أو موت ، أليس كذلك ؟ ربما سألتنى لماذا أشرح لك هذا كله ؟ فاعلم اذن اننى انما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر ، ومن أجل أن تبرئنى فى قرارة نفسك وضميرك فما تحكم على أو تديننى اذ تتذكر ما بدر منى فى ذلك اليوم من خبث وشر . هذا عدا أن ما بدر منى لم يكن خبثاً أو شراً ، أوكد لك ذلك . هـى هـى هـى ! وأنت تقول لنفسك : « لماذا لم يجرى الى مسكنى يفتشه حينذاك ؟ » ، فاعلم أننى جئت ! هـى هـى ! جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً . ولم أجد بصفة رسمية ، ولكنى جئت . وفتش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنج منه أخفى زواياه وأركاناه . حدث هذا منذ أولى الشبهات ولكن « دون

جدوى « * عندئذ قلت لنفسي : « الآن ، سيجيء هذا الرجل ، سيجيء من تلقاء نفسه ، وسيجيء في وقت قريب جداً . اذا كان هو الجاني فلا يمكن أن يجيء . لو كان الجاني شخصاً آخر غيره ، فإن ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء ، أما هو فلا بد أن يجيء اذا كان جانياً . » هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر ؟ نحن الذين دبّرنا هذا لنبت في نفسك الاضطراب ، ونحن الذين ربّنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه . ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يكتموا غيظهم . أما زامبوتوف فإن الشيء الذي فجأة خاصة انما هو غضبك وتهورك . عجيب أمرك : كيف يستطيع انسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجأة : « لقد قتلت ! » ؟ حقاً ان في ذلك لاسرافاً . هذا تهور غريب !... وعندئذ قلت لنفسي : « اذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال . نعم ، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك . وانتظرت . انتظرتك بكل ما أملك من قوى ، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زامبوتوف ... والمصيبة كلها انما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين . كنت اذن أنتظرك ، فأرسلك الله الى ذات يوم ! لقد جئت ! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم ؟ ما كانت حاجتك الى المجيء ؟ وذلك الضحك المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت ، هل تتذكره ؟

ذلك كله كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر . لقد حزرت كل شيء ! ولكن لولا أنني انتظرتك وأنا في حالة نفسية خاصة ، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أى دلالة . فانظر الى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً ! والسيد رازوميخين ، في ذلك اليوم ... آ ... والصخرة التي خُبِئت تحتها الأشياء ! يخيل الى أنني أرى تلك الصخرة ، أراها في مكان ما ، في بستان من البساتين ... أليس عن

بستان انما تحدثت الى زامبوتوف أولاً ، وعندى بعد ذلك ؟ وحين اخذنا
نحلل مقالتك ، حين قمت أنت بعرض ما تضمنته تلك المقالة من اراء ،
فان كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج : فوراء كل قول من تلك
الأقوال كان يختبئ في نظري معنى مضمرة . نعم ، ياروديون رومانوفتش ،
بهذه الطريقة انما وصلت الى تلك النقطة القصوى ، ولكننى حين وصلت
الى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسى ، كان لا بد أن أثوب الى
رشدى . قلت لنفسى : « الى أين أنا ذاهب ؟ » . ذلك أننا نستطيع ، اذا
نحن شئنا ، أن نفسر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير كل
المخالفة ، بل مناقضاً له تمام المناقضة ، ولعل التفسير الجديد أن يكون
أقرب الى الاحتمال . نعم ، قد يكون أقرب الى الاحتمال ، اننى أعترف
بذلك . لشد ما تعذبت ! قلت لنفسى : « لا ، لا ، ان أية واقعة تفصيلية
صغيرة تنفعنى أكثر مما تنفعنى هذه الاستنتاجات كلها ! » . لذلك حين
سمعت عن تلك القصة ، قصة جرس الباب ، رأيتنى أوشك أن أسقط ،
وسرت فى جسمى رعشة . آ . . . هأنذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية
المنشودة ! لم يبق الآن شك فى أنه هو الجانى . ولم أحاول عندئذ أن
أعمل عقلى وأن أفكر . كنت لا أرغب فى ذلك أية رغبة . وكنت
مستعداً لأن أدفع فى تلك اللحظة ألف روبل فى سبيل أن أراك « بعينى »
تسير مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، مع ذلك البائع الصغير الذى قذف
وجهك بذلك اللقب ، لقب القاتل ، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة
أن تسأله عن أى شيء ! وتلك الرعدات التى كانت تسرى فى ظهرك ،
وذلك الجرس الذى كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك ؟ فلماذا تستغرب منى
بعد هذا ، يا روديون رومانوفتش ، أننى لجأت الى تلك الطريقة التى
تعرفها ؟ ثم لماذا جئت الى ذلك الأوان نفسه ؟ يميناً ان هناك شيئاً
كان يدفعك المجرى الى دفعاً . . . ولولا أن نيقولا قد قطع حديثنا . . .

هل تتذكر وصول نيقولا ؟ آه ... كان ذلك أشبه برعد مفاجئ ! نعم ،
 كأن الصاعقة قد نزلت عند قدمي . ولكن كيف استقبلت أنا ذلك ؟ لم
 يهزني الرعد ... لم تهزني الصاعقة ... لا بد أنك لاحظت ذلك .
 وبعد انصرافك ، حين أخذ يجيب عن أسئلتى حول عدد من النقاط
 اجابات محكمة متوافقة تبلغ من الاحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً ،
 لم أشأ أن أصدق أقواله حينذاك . انظر الى مدى تأثير الفكرة التي تقوم
 في الذهن وتستقر فيه راسخة ! قلت لنفسى : « لا ، لا ، الى صباح غد ! *
 ان نيقولا لا شأن له في هذا الأمر كله ! »

قال راسكولنيكوف :

« قال لي رازومихين منذ قليل ان اتهاكم ينصب الآن على نيقولا ،
 وانك اقنعت رازومихين بأن ... »

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه ، فان انفاسه قد
 اختنقت . كان يشعر بانفعال شديد واضطرابات لا يغالب ، أثناء اصغائه
 الى حديث هذا الرجل الذي ينفذ الى سريره . وكان يخاف أن يصدق
 ما كان يقوله له هذا الرجل ، بل كان يرفض أن يصدقه ، ويحاول
 بشراهة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معاني محدّدة دقيقة .

وكانما أفرح بورفير بتروفتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه
 سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت ، فصاح يقول :

« السيد رازومихين ! هـى هـى ! .. ذلك أن المسألة كانت هـى
 التخلص من رازومихين : حيثما يتسع المكان لاثنين ، يكن الثالث زائداً !
 رازومихين شئ آخر ، هو غريب عن هذا كله ! ثم انه قد جاء الى
 صاحب الوجه شحوباً ... ولكن دع السيد رازومихين جانباً الآن ، كان
 الله معه ! أما عن نيقولا فهل يهملك أن تعرف أى نوع من الناس هو ،

أو كيف أتصوره أنا على الأقل ؟ هو قبل كل شيء طفل • انه لما يبلغ سن الرشد • ولست أدعى أنه خوَّاف جبان على وجه الدقة ، ولكن في وسعي أن أشبهه ••• بفنان ! هو ساذج • أى شيء يؤثر فيه • له قلب رقيق ، وله خيال أيضاً • ولقد تعلم في المدرسة • وهو يحسن الغناء والرقص • ويظهر أنه يجيد رواية قصص يسعى الناس اليه من بعيد ليسمعوها • وهو يضحك في كل مناسبة ، ويظل يشرب حتى يسقط كاليت من فرط السكر • ولكنه لا يشرب لأنه ميال الى السكر ، وانما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغرون به كما يغرون بطفل ، فهم لا يبرحون يصبون له خمراً ! لقد سرق منذ مدة ، ولكنه لم يدرك أنه سرق • قال في تفسير فعله : « تناولت ما كان ملقى على الأرض ، فأنا اذن لم أسرق » • هل تعرف معنى « راسكولنيك » ؟ ان يقولوا فتى من هذا القبيل • على كل حال ، كان عدد من أفراد أسرته قد انضموا الى ملة « الجوّالين » ؟ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النساك في الأقاليم مدة سنتين • ذلك كله قد عرفته من يقولوا نفسه ومن أهل بلدته زاراييسك • أكثر من ذلك أنه كان يريد أن يفرّ الى الصحراء مصرّاً اصراراً شديداً • لقد كان متحمساً للتقى حماسة لا تصدّق ، فكان يقضى ليلته مصلياً متهجداً ، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءتها ••• الكتب القديمة ••• الكتب الحقيقية ! ••• ثم أحدث فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً • أصبح يحب الجنس الضعيف ، بل وأصبح يحب الحمرة بعض الحب أيضاً • واذ أنه شديد التأثير بالبيئة التي تحيط به ، فسرعان ما نسي شيخه • وأنا أعلم أن فناناً رسّاماً قد أخذ يهتم به ، ويعطيه دروساً • ولكن في تلك الآونة ، وقع ذلك الحادث المؤسف • استولى الخوف على الفتى في أول الأمر ، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب • ما حيلتنا اذا كان الشعب قد كوّن لنفسه مثل هذه الأفكار عن

قضائنا ؟ ان كلمة « المحكمة » وحدها ترهب وتلقى الذعر فى النفوس •
 ذنب من هذا ؟ أمل أن تستطيع المحاكم الجديدة ردّ الأمور الى نصابها •
 نعم ، أسأل الله أن ... على كل حال ، فقد وضع نيقولا فى السجن •
 ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت الى خياله هناك ،
 ولا شك أن التوراة رجعت تفعل فعلها فى نفسه ! هل تعرف يا روديون
 رومانوفتش مدى ما لفكرة « الألم » من تأثير فى بعض الناس ؟ ان هناك
 أناساً يحبون أن يتألموا لا فى سبيل شخص من الأشخاص فحسب ، وانما
 هم يحبون أن يتألموا وكفى ، لأن على المرء أن يتألم ، وأن يقبل الألم
 ويرتضيه ، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات • لقد عرفت فى الماضى
 سجيناً موادعاً مسالماً الى أبعد الحدود ، لبث فى السجن سنةً بكاملها يتربع
 فوق المدفأة ليقراً التوراة فى كل ليلة من الليالى ، حتى بلغ من ذلك أنه
 فى ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير
 السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزّه أى استفزاز • ولكن
 كيف رمى السجين آجرته ؟ لقد رماها بحيث تسقط بعيدة عن هدفها
 مسافة متر على الأقل ، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذى كان يجب
 أن تتجه اليه • وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير
 السجن ! لقد ارتضى الرجل أن « يتحمل الألم » ! لذلك أرانى أميل الى
 الاعتقاد بأن نيقولا يستهدف شيئاً من هذا النوع ! بل اتنى من ذلك لعل
 يقين • يكفى أن ندقق فى الوقائع ! ولكن نيقولا لا يعرف أننى أعرف •
 ماذا ؟ أتراك لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد
 خارقون الى هذه الدرجة ؟ أوكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد
 كثيرون • ان تأثير الشيخ فى نيقولا قد عاد يظهر الآن من جديد ،
 لا سيما فى اللحظات التى يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه • على كل
 حال ، سيجيء فيقص على كل شيء هو نفسه ! هل تظن أنه سيصر على

أقواله ؟ لترين أنه متراجع عنها ! نعم ، اننى انتظر ، من لحظة الى أخرى ، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى • لقد أخذتني بنيقولا هذا عاطفة ، فعكفت على التعمق فى دراسته • لقد استطاع فى بعض النقاط أن يضيف على أقواله مظهر العقولية • واضح أنه كان قد فكر فى الأمر • ولكنه فى نقاط أخرى كان يتناقض • انه لا يعرف شيئاً البتة ، بل ولا يدرك أنه لا يعرف !... لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجانى ! نحن ازاء قضية غامضة عجيبة كالحيال • ان هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذى نعيش فيه ، انها تحمل طابع عصر اضطرب فيه القلب الانسانى ، عصر يقول فيه بعضهم ، مستشهداً بأقوال كتاب ومؤلفين ، ان الدم « يطهر » ، عصر لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعى الى الرخاء • نحن ازاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة ، وسمّته الآراء والنظريات ! ان الجانى قد استجمع للقيام بتجربته قدراً كبيراً من الجسارة ، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص ، حتى لكأنه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه • لقد نسى أن يغلق الباب وراءه ، ولكنه قتل ، قتل شخصين ، انقياداً لنظريته • وقد قتل ، لكنه لم يعرف كيف يستولى على المال ؛ وما استطاع أن يحمله معه ، انما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرة • ولم يكتف بأنواع القلق والخوف التى كان قد عاناها فى حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعاً قوياً على الباب ، وبينما كان الجرس يرن بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو فى حالة تشبه الهذيان ، فرجع الى البيت الحالى ليشعر مرة أخرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التى سرت بين كتفيه أول مرة • • • لنسلم بان ذلك نتيجة من نتائج المرض ، غير أن هناك شيئاً آخر : لقد قتل ، ولكنه يعتقد أنه انسان شريف ، وهو يحتقر الناس ، ويصطنع دور ملاك من الملائكة !

لا يا روديون رومانوفتش ، ليس- يقولوا هو الجانى ، لا يا عزيزى ، ليس هو يقولوا أبداً !

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفدت قدرته على الاحتمال :

— من ... الذى ... قتل ... اذن ؟ ...

فارتد بطرس بتروفتش الى وراء مستنداً على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله ، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه :

— من قتل ؟ سؤال عجيب ... الذى قتل هو « أنت » يا روديون رومانوفتش ...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس ، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع :

— أنت الذى قتلت !

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً ، ولبت واقفاً بضع ثوانٍ ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة • وطافت بوجهه حركات تشنجية •

دمدم بورفير بتروفتش يقول بنوع من العطف :

— ها هي ذى شفتك ترتجف كما ارتجفت فى المرة السابقة •

ثم أضاف بعد صمت قصير :

— أحسب أنك لم تفهمنى جيداً يا روديون رومانوفتش ، وذلك هو السبب فى أنك مدهوش الى هذه الدرجة من الدهشة • أنا انما جئت اليك لأقول لك كل شيء ، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً •

نأثأ راسكولنيكوف يقول كطفل ضُبط متلبساً بالجرم :

- ما أنا الذى قتل !

فأجابه بورفير بلهجة رصينة فيها اقتناع :

- بل أنت الذى قتلت !

وسكت الاثنان • وأعقب ذلك صمت ، صمت غريب طويل ، دام عشر دقائق على الأقل • كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة ، وأخذ يبعثر شعره بأصابعه • وقد ظل بورفير بتروفتش جالساً ، هادئاً ، ينتظر • وفجأة نظر اليه راسكولنيكوف باحتقار •

قال راسكولنيكوف :

- تستأنف أساليبك يا بورفير بتروفتش ؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه ؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر ؟

أجابه بورفير :

- أوه ! لست الآن فى حاجة كبيرة الى أساليب ! لو كان ههنا شهود ، ، لاختلف الأمر طبعاً ، ولكننا نتحدث على انفراد فى خلوة ! أنت نفسك ترى أننى لم أجيء اليك لأنصب لك شباكاً واصطادك كأرنب ! انه ليستوى عندى الآن أن تعترف وأن لا تعترف ! فاقناعى قائم على كل حال !

سأله راسكولنيكوف غاضباً :

- فلماذا جئت اذا كان الأمر كذلك ؟ اننى أطرح عليك هذا السؤال من جديد : اذا كنت ترى أننى أنا الجانى ، فلماذا لا تسجننى ؟

— هذا سؤال معقول فعلاً ، وسوف أجيبك عنه نقطة نقطة ، فأقول أولاً : انه ليس من مصلحتى أن أعتقلك منذ الآن

— كيف لا يكون هذا فى مصلحتك ؟ اذا كنت مقتنعاً فيجب عليك أن

— ما قيمة اقتناعى ؟ انه لا يقوم حتى الآن الا على افتراضاتى • ثم فيم أضحك هنالك « فترتاح » ؟ لو سجنك لأرحتك • انك تعرف الجواب ما دمت قد ألقيت السؤال • ولنفرض مثلاً أننى واجهتك بالبائع الصغير فقلت له : « أتراك ما تزال سكران ؟ من ذا الذى رآنى معك ؟ أنا لم أزد على أن عددتك سكريراً لأنك كنت سكران ! » ، فيماذا يمكننى عندئذ أن أعترض ؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب الى العقل من روايته هو ، لأن أقواله لن تكون قائمة الا على السيكولوجيا وستكون أنت قد ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكرير مدمن حقاً ، فما من أحد يجهل ذلك • ومن جهة أخرى ، ألم أعترف لك أنا نفسى ، مراراً ، بأن هذه السيكولوجيا ذات حدين ، وبأن الحد الثانى أهم من الحد الأول شأنًا وأبلغ خطراً • هذا عدا أننى لا أملك حتى الآن أى دليل وضعى عليك • طبعاً ، سأمر باعتقالك ؛ ورغم اننى ، على خلاف السنن والأصول ، أعلن لك ذلك ، فاننى على خلاف السنن والأصول أيضاً ، أصرّح لك بأن اعتقالك ليس فى مصلحتى • ذلك أولاً ، وأما ثانياً ، فاننى قد جئت من أجل أن

— من أجل ماذا ، ثانياً ؟

كان راسكولنيكوف يلهث • فأجابه بورفير :

— سبق أن قلت لك ! لقد جئت اليك من أجل أن أبرر سلوكى وأعتذر عنه ! ذلك حق لك على • لا أريد أن تعدنى شيطاناً رجيماً ،

لا سيما وأنتى أضمر لك عاطفة طيبة صادقة ، صدقت أم لم تصدق !
 ينتج عن ذلك - وهذه هي النقطة الثالثة - انتى جئت اليك لأقترح عليك
 اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة ميّسة : انتى أشجعك على أن تفقاً هذه
 الدمّل ، فتمضى تعترف بأنك أنت الجانى • ذلك أنفع لك ، وأجدى
 عليك ، وهو أنفع لى أنا أيضاً ، لأنه يخلصنى من هذا العبء ! ما قولك ؟
 أليس هذا الاقتراح صراحةً منى ؟

فكّر راسكولنيكوف دقيقة ، ثم قال :

- اسمع يا بورفير بتروفتش • لقد قلت أنت نفسك ان كل ما تملكه
 من قرائن ضدّى لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً ، وأنت مع ذلك
 تتوق الى دليل رياضى • فما الذى يضمن لك أنك لست على خطأ ؟

- لا يا روديون رومانوفتش ، لست على خطأ • أنا أملك الآن
 دليلاً ، دليلاً اهتديت اليه منذ مدة • ان الله هو الذى أرسل الى هذا
 الدليل •

- أى دليل ؟

- لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش • ثم انتى أصبحت لا أملك
 حق التأجيل ، فسوف أعتقلك ، ولكن احكم على الأمر بنفسك : أنا الآن
 لا يهمنى القرار الذى قد تتخذه ، ومعنى هذا انتى انما أكلمك فى سبيل
 مصلحتك وحدها • شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك الى
 السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك •

ضحك راسكولنيكوف ساخراً ، ثم قال :

- كلامك لبس مضحكاً فحسب ، بل هو أحمق أيضاً • هبنى أنا

الجانى (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيم أمضى أشئ بنفسى لكم وقد قلت لى أنت نفسك ان الإقامة هناك فى السجن هى « الراحة » ؟

- يا روديون رومانوفتش ، لا تسرف فى فهم ما أقوله لك فهماً حرفياً . من الجائز جداً أن لا تكون هى « الراحة » تماماً ! وما هذا الا نظرية خاصة بى ، وهل أنا فى نظرك حجة ؟... ولعلنى أنا نفسى أخفى عنك فى هذه اللحظة شيئاً ما . انك لا تستطيع أن تطمع فى أن تتلقى منى جميع مساراتى وأن تستعملها على هواك ! أما النقطة الثانية ، أعنى الفوائد التى ستجنيها من الاعتراف ، فهى واضحة وضوحاً تاماً فيما أظن . فكّر فى تخفيف العقوبة التى يمكن أن تناله ، فكّر فى هذا التخفيف وحده ! « مع أن شخصاً آخر قد نسب الى نفسه جريمة القتل ، وبلبل القضية كلها ... » . على كل حال ، فان لك على عهداً أمام الله أننى سوف أعرف كيف ألف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه ، حتى دون أن يخطر ببالك ذلك . سوف نخرب كل ذلك الصرح السيكولوجى ، سوف أبدد جميع الشبهات التى قامت ضدك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية ، وهى فى الحق كذلك . أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش ، وسأحقق وعدى وأفى بعهدى .

خفض راسكولنيكوف رأسه . وبعد صمت طويل ، ابتسم من جديد ، ولكن ابتسامته كانت فى هذه المرة رقيقة أسيانة .

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفى شيئاً أمام بورفير :

- لست فى حاجة الى تسامحكم !

فهتف بورفير يقول مندفعاً كأنما على غير علم منه :

- ذلك بعينه هو ما كنت أخشاه ! نعم ، أنا انما كنت أخشى أن

لا تكون فى حاجة الى تسامحنا !

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة ؛ وتابع بورفير كلامه فقال :

- لا تحتقر الحياة هذا الاحتقار ! ان الحياة ما تزال طويلة أمامك . كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ الا انك لصعب المراس حقاً !

- ما عسى يكون أمامي بعد الآن ؟

- أمامك الحياة ! أنت نبي ؟ ما أدراك ؟ ابحث تجد ! لعل الله ينتظرك هناك . ولن يكون السجن أبدياً !

قال راسكولنيكوف وهو يتسهم ابتسامة ساخرة :

- سوف يخففون عقوبتي !

- لعل خجلاً بورجوازيّاً هو الذى يمنعك ، على غير علم منك ، من أن تعترف بأنك أنت الفاعل ؛ ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا .

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار :

- لست أبالي بهذا كله !

ثم بدا عليه أنه يهمُّ أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس ، وهو ينوء تحت عبء ألم كبير لا يستطيع اخفائه ! قال بورفير :

- لست تبالي ؟ انك انسان كثير الشك والارتياب ، فأنت تظن أننى أحاول أن أتملكك تملقاً فظاً ؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة الواسعة العميقة كلها ؟ أثبت تفهم هذا القدر كله من شؤون الحياة ؟ لقد تخيّل نظرية وهو يستحى أن يراها تخفق وتسقط ، أو أن يلاحظ على الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جدة وأصالة ؟

ألا ان ما خرج من نظريتك لهو أقرب الى السوء فعلاً ! ولكنك لست امرءاً سافلاً ضاع الى الأبد ! أنت لست ذلك السافل ، لا ! ولكنك تطرفت فمضيت الى الحد الأقصى على كل حال ! هل تعرف ماذا أعدُّك ؟ أنا أعدُّك واحداً من أولئك الناس الذين يؤثرون أن تشخهم الجراح على أن يتحملوا الهوان ، والذين يمكن أن ينظروا الى جلاًديهم مبتسمين اذا كانوا قد اهتدوا الى ايمان أو اله ! فاهتد الى ايمان واله فتحميا ! أنت أولاً في حاجة الى تبديل الهواء منذ زمن طويل • ان الألم شيء حسن هو أيضاً • فعليك بالألم ! تألم ! من يدرينا أن نيقولا ليس على حق اذ هو ينشد الألم ويبحث عنه ويسعى اليه ؟ انك ريبي - أنا أعرف ذلك - ولكن لا تحاول أن تسرف في التحليل ، بل استسلم لتيار الحياة دون تفكير ، ودع عنك القلق ، فاذا بتيار الحياة يضعك على الشاطئ ، فتقف على قدميك • لا أدري ما هو الشاطئ الذي سيوصلك اليه التيار ، ولكنني مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستحيها • أنا أعرف أنك تعدُّ أقوالى هذه خطبةً محفوظة على ظهر القلب ، ولكن لعل هذه الأقوال ستنفك حين ستذكرها في المستقبل ، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التي تحضنى على مخاطبتك • من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل الا عجوزاً شمطاء شريرة • فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة • لذلك ربما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكره ! وربما كان الله ، على كل حال ، يدشرك لشيء ما ، من يدريك ! فارتفع بقلبك ، وارتق بعواطفك ، ولا تكن صغيراً جباناً ! هل العمل العظيم الذي يجب القيام به هو الذي يخيفك حقاً ! لا ، لا ! عارٌ أن تخاف من هذا ! لقد خطوت ، فحذار أن تتراجع ! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل • فافعل ما يوجبه العدل • أنا أعلم أنك لا تصدقنى ، ولكن شهد الله أن الحياة هى التى

ستتصر ، وأنت سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك • اما الآن فأنت لست فى حاجة الا الى هواء ، الا الى هواء !...•

سرت فى جسم راسكولنيكوف رعدة • وهتف يقول :

- ولكن من أنت ، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التى هى أوضاع نبى ! من علياء أية ذرى هادئة تلقى الى بهذه المواعظ والحكم والعبر المزعومة ؟

- من أنا ؟ أنا انسان محدود ، لا أكثر من ذلك • انسان لعله حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين ، ولعله يعرف بعض الأشياء ، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود • أما أنت فشأنك شأن آخر : ان الله قد هياك لحياة حقّة (ولكن من يدري ؟ لعل ذلك أن لا يكون الا ناراً كنار الهشيم ما تلبث أن تنطفىء !) فما خوفك من التغير الذى سيطراً على حياتك ؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء انسان له قلب كقلبك ؟ ماذا ؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك أحد ؟ ان الأمر ليس مرهوناً بالزمان ، بل هو مرهون بك • كن شمساً فيراك جميع الناس • ليس على الشمس الا أن توجد ، الا أن تكون عين ذاتها ! ما الذى يجعلك تبسم ؟ هل الذى يحملك على الابتسام أنك تجدنى شاعراً ؟ يميناً أنك لتظن أثنى أمكر وأراوغ وأثنى أريد استدراج ثقتك ! وربما كنت على حق ، هـى هـى ! أنا لا أسألك أن تصدق كلامى يا روديون رومانوفتش ! ولعلك تحسن صنعا اذا أنت لم تصدق كلامى تصديقاً كاملاً فى يوم من الأيام • ان من عادتي أن لا أكون صادقاً صدقاً تاماً ، أعترف بهذا ! ومع ذلك ، اليك ما أريد أن أضيفه : سوف تُريك الأحداث أنّا انسان شرير أم أنا انسان مستقيم شريف •

- فى نيتك أن تعتقلنى متى ؟

— أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين آخرين •
ففكّر يا صديقى ، وادع الله • هذا من مصلحتك • أقسم لك على أنه من
مصلحتك •••

سأله راسكولنيكوف وهو يتسم ابتسامة غريبة :

— فماذا لو هربت ؟

— ، لن تهرب ! قد يهرب فلاح ، وقد يهرب واحد من اشياح
النظريات الرائجة فى هذا الزمان ، لأنه امرؤ يمكن أن يغرسوا فيه
عقيدتهم الى الأبد ؛ أما أنت فلا ، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريتك •
فعلام عساك تهرب ؟ ما هى الفائدة التى يمكن أن تجنيها من الهرب ؟
ما أظع وما آلم الحياة التى يحياها هارب ! فلمرء اذا أراد أن يحيا ، لا بد
له من وضع مستقر ، ومركز محدد ، ولا بد له من هواء يستطيع أن
يستشقه ! لتعودنّ ثانية اذا أنت هربت ! « انك لا تستطيع أن تستغنى
عنا » • اذا أودعتك فى السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً ، فلسوف
تجىء فى ذات يوم فجأة فتعترف • لسوف تندفع الى هذا على غير علم منك
تقريباً • تذكر هذا الكلام الذى أقوله لك • بل اننى لعلّى يقين من أنك
سوف تعزم أمرك على التكفير • أنت لا تصدقنى الآن • ولكنك سوف
تجىء ، لأن الألم شئ عظيم يا روديون رومانوفتش • لا يُدهشُكَ
أن تسمعنى أتكلم هذه اللغة أنا الرجل الذى أسمته دعة العيش • اننى
أقول الحق فلا تسخر ! هذه فكرة عميقة أقولها الآن ! ان نيقولا على حق •
لا ، لن تهرب يا روديون رومانوفتش !

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته • ففعل بورفير بتروفتش مثل
ذلك •

— هل تريد أن تقوم بجولة ؟ ان المساء يبشر بليلة جميلة ، اذا لم

تهب عاصفة ... على كل حال ربما كان ذلك أفضل ، فإن الهواء سيزداد بهذا طراوة ...

قال راسكولنيكوف بلهجة جافة متعجلة :

- لا يذهبن بك الظن الى أننى أدليت لك اليوم باعترافات • أنت انسان غريب ، وأنا لم أصنع اليك الا من باب الفضول ، لكننى لم اعترف لك بشيء • تذكر هذا !

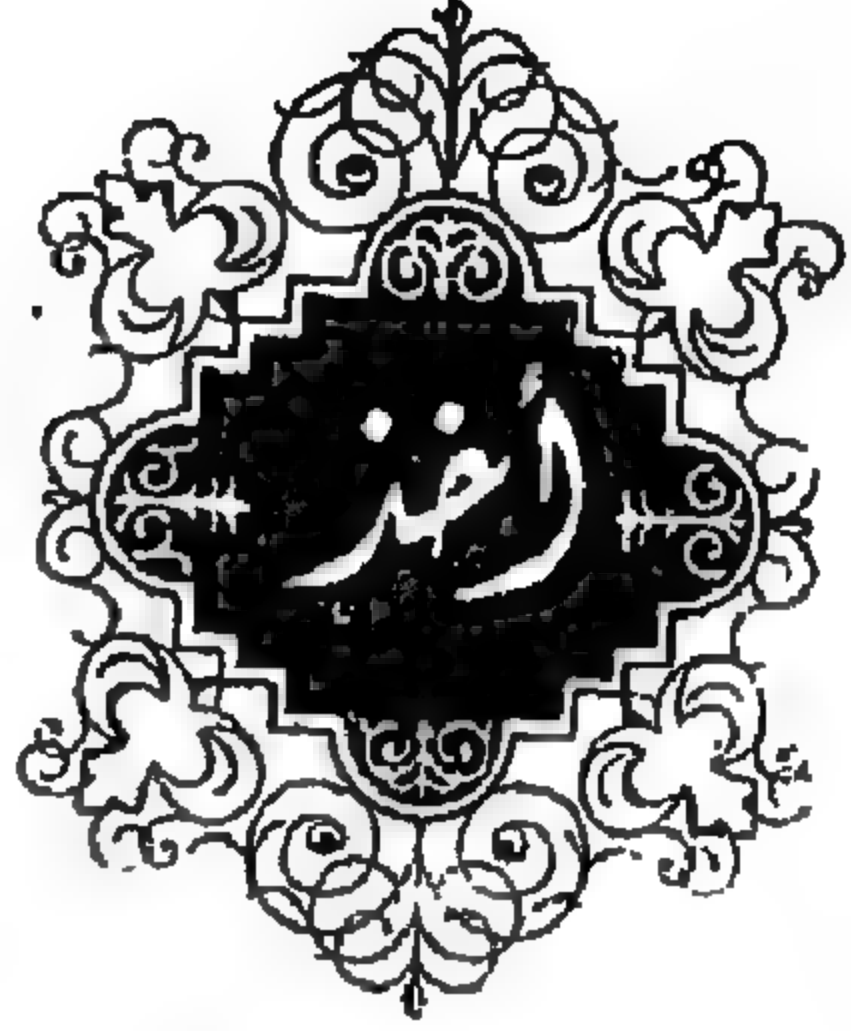
- طيب طيب ... دعك من هذا الكلام ... هذه أمور معروفة ... لا ، لن أنسى ! انظروا كم يرتعش ! لا تقلق يا عزيزى • سنلتزم رغبتك • تنزه قليلاً ، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود •

قال بورفير ذلك ثم أضاف خافضاً صوته :

- بالمناسبة : هناك رجاء أخير أود أن أتوجه به اليك • هو رجاء خرج بعض الشيء ، ولكن لا بأس : اذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف ، لأننى لا أصدق أنك قد تعتمد الى ذلك المخرج) ، أقول اذا اتفق فى غضون الساعات الثمانى والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو آخر ، أقصد على نحو خارق ، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذنى على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة ، لكنها واضحة : سطين ، لا أكثر من سطين ، لا أكثر من سطين ، تقول لنا فيهما أين توجد الصخرة • ذلك أنبل ... هيا ... الى اللقاء ... أسأل الله أن يلهمك الصواب !

قال بورفير ذلك وانسحب حائياً رأسه ، متحاشياً أن ينظر الى الفتى • فاقرب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر ، بصبر نافذ ، اللحظة التى يقدر أن قاضى التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً • ثم غادر الغرفة مسرعاً •

الفصل الثالث



يبحث عن سفدريجاييلوف متعجلاً • انه يجهل
هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرجل • غير
أن هذا الرجل كان له عليه نوع من سلطان •
ومنذ أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد

الى الهدوء سيلاً ، وقد آن له أن يخرج كل شيء الى الضوء !

وفيما كان يسير ، كان يعذبّه خاصة هذا السؤال : هل ذهب
سفدريجاييلوف الى بورفير ؟

ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله : اذا صدق
ظني ، فان سفدريجاييلوف لم يذهب الى بورفير بل انني لمستعد أن أقطع
يدي اذا كان سفدريجاييلوف قد ذهب الى بورفير • وفكر راسكولنيكوف
مزيداً من التفكير ، واستعرض بخياله زيارة بورفير من جديد ، فأنتهى
الى هذه النتيجة : لا ، لم يذهب اليه ، لم يذهب اليه قطعاً !

ولكن اذا كان سفدريجاييلوف لم يذهب الى بورفير حتى الآن ،
فهل سيذهب اليه ، أم هو لن يذهب ؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريجاييلوف لن يقوم بهذه الزيارة ،
في هذه الفترة على الأقل • لماذا ؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع
معرفة الأسباب التي تحمله على هذا الظن ، وهبه استطاع معرفتها ، هبه

قادراً على تفسير كل شيء ، فما كان له أن يصدّع رأسه متقباً عنها •
 صحيح أن ذلك كان يعذبه ، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه يسر
 همومه • شيء غريب ، لا يكاد يصدق : ان مصيره الراهن ، المباشر ،
 كان لايهمه الا قليلاً ، وكان هو لا يفكر فيه الا ذاهلاً • أمّا ما كان يعذّبه
 حقاً فهو شيء آخر ، شيء أخطر شأنًا ، شيء خارق ، يخصه هو ولا
 يخص أحداً سواه • وكان الى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له ،
 رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام
 السابقة •

ثم هل يستحق الأمر ، بعد كل ما حدث ، عناء السعى الى التغلب
 على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تلبث أن تظهر في
 طريقه من جديد ؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب
 سفدريجاييلوف الى بورفير ؟ هل من الضروري أخيراً أن يضع وقته في
 دراسة رجل اسمه سفدريجاييلوف والمداورة والمخاتلة معه ؟

آه ••• ما كان أشد سأمه وضجره وملله من هذا كله !•••

ومع ذلك كان يبحث الخطى سعياً الى سفدريجاييلوف • أليس معنى
 هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً ، أنه كان ينتظر منه توجيهات ، أنه
 كان ينتظر منه مخرجاً ؟ ان الغريق يتشبث أحياناً بقشة ! ألم يكن القدر
 هو الذي يجمع بينهما ؟ أم أن غريزة خفية هي التي تقرّب أحدهما من
 الآخر ؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اعياءً وسأماً ويأساً ؟ أم نعله
 كان في حاجة لا الى سفدريجاييلوف ، بل الى شخص آخر ؟ الى صونيا ؟
 ولكن لماذا عساه يذهب في هذه اللحظة الى صونيا ؟ ليستدر دموعها ؟ ثم
 ان صونيا ترعبه : ان صونيا تمثل الحكم المبرم الذي لا رادّ له ، والقرار
 الحاسم الذي لا رجعة عنه • لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار : فاما

أن يتبع طريقه هو واما أن يتبع الطريق الذى دلت عليه صونيا • لا ، لا ، لا ، انه فى هذه اللحظة خاصة لا يحس انه قادر على أن يرى صونيا • أفليس الأفضل أن يجرب حظّه مع سفدرىجايلوف ؟ ولم لا ؟ ثم انه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف ، فى قرارة نفسه ، أن سفدرىجايلوف قد أصبح ، منذ مدة طويلة ، ضرورة له ، بمعنى من المعانى •

ولكن الأمر غريب حقاً : ماذا يجمع بين الرجلين ؟ ماذا فيهما من شبه ؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة • ثم ان فى ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً الى أبعد الحدود : لا شك أبداً فى أنه فاجر عاهر فاسق ، ولا شك أبداً فى أنه مراوغ مخاتل مكر ، بل ربما كان كذلك شريراً الى أبعد حدود الشر !... صحيح أنه يعتنى الآن اعتناء شيطناً بأولاد كاترين ايفانوفنا ، ولكن من ذا الذى يعرف الأغراض التى يهدف اليها من وراء ذلك ؟ ان لهذا الرجل دائماً نيات خفية !

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام ، رغم أنه حاول أن يطردها من شدة ما كانت تؤلمه • كان يقول لنفسه : « ان سفدرىجايلوف لا يبرح يدور حولى ، وهو يدور حولى حتى فى هذه اللحظة • لقد اكتشف سفدرىجايلوف سرى • وانه يبيّت نيات لدونيا • ألا يزال يبيّت لها هذه النيات ؟ ان المرء ليكاد يجيب عن هذا السؤال بكلمة « نعم » على وجه اليقين • فماذا لو أراد سفدرىجايلوف ، بعد أن عرف سرّى وأصبح له سلطان على ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا ؟

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى فى نومه ، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ فى يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه الى

سفدريجاييلوف ، فتثير فيه غضباً شديداً قاتماً • هي أولاً تغيّر وضعه : ان عليه الآن أن يكشف عن سرّه لدونيا ؟ وربما كان عليه أن يبادر الى تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأى خطوة ليس فيها تعقل ! الرسالة ! ان دونيا قد تلقت رسالةً فى هذا الصباح نفسه • فمن ذا الذى يمكن أن يكتب اليها من بطرسبرج ؟ (أهو لوجين حقاً ؟) • صحيح أن رازوميخين يحرسها ، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً • فهل يجب عليه أن يفضي بالحقيقة الى رازوميخين أيضاً ؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل ! وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة • وقال يحدث نفسه جازماً : « على كل حال ، يجب أن أرى سفدريجاييلوف بأقصى سرعة ممكنة • الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأنًا وأهون خطراً من جوهر القضية • ولكن ماذا لو كان فى وسع سفدريجاييلوف أن يفعل شيئاً ، أن يتأمر على دونيا ؟ فى هذه الحالة ... » •

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب فى أعقاب ذلك الشهر الطويل من المعارك والانفعالات أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه المشكلات ، والاجابة عن مثل هذه الاسئلة ، اللهم الا بكلمات باردة يائسة كهذه : « فى هذه الحالة ، سأقتله ! » •

ان شعوراً ثقيلاً كان يجثم على صدره ويرهقه من أمره • وقف فى وسط الشارع ، وأجال بصره فيما حوله • أىّ طريق سلك ؟ أين هو الآن ؟ كان فى شارع س • • • على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من « سوق العلف » التى تجاوزها منذ قليل • ان الطابق الأول من مبنى يقع على يساره ، هو حانة كله • جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها • ومن كثرة الوجوه التى ترمى عند النوافذ ، يقدّر المرء أن الحانة ملأى بالناس • وهذه أصوات أغان تصل من القاعة ، وأصوات زمارة وكمان وطبل ، وصرخات حادة تنطلق من حناجر نساء •

هم راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما انذى جاء به الى هذا المكان ، ما الذى اوصله الى شارع س . . . ! ولكنه ما ان هم أن يقفل راجعا حتى لمح سفدريجايلوف عند احدى نوافذ الحانة ، جالسا الى مائدة صغيرة وجليونه بين اسنانه . ان الدهشة التى احسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب . كان سفدريجايلوف يراقبه ويتفحصه صامتا ، وكان يبدو عليه انه يريد أن ينهض ، كأنه يحاول أن يتوارى قبل أن يرى ، وذلك أمر فجأ راسكولنيكوف ايضا . وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه ، وأخذ ينظر الى الجهة الأخرى واجما مفكرا ، مع استمراره فى النظر اليه ، بطرف عينه طبعاً . كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً . الأمر كذلك حقاً : واضح أن سفدريجايلوف لا يريد أن يرى . لقد نزع غليونه من قمه ، وحاول أن يختبئ ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه ، وأنه يرقبه ويرصده . عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذى جرى بينهما عند أول لقاء لهما فى بيت راسكولنيكوف ، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم . هذه ابتسامة مكررة تظهر على شفتى سفدريجايلوف وما تنفك تتضح . ان كلا منهما يعرف أن الآخر يتجسس عليه . وانطلق سفدريجايلوف يضحك ضحكة صاخبة آخر الأمر ، ثم يقول له من على نافذته :

— هيا ادخل ، ادخل اذا شئت ! أنا هنا !

صعد راسكولنيكوف الى الحانة . فوجد سفدريجايلوف فى حجرة ضيقة جداً ، عند احدى النوافذ ، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول ما يقرب من عشرين مائدة ، باعة وموظفون وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدثه المغنون الزاعقون بصوت واحد . وعلى مائدة سفدريجايلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا وكأس نصف

ملأى • وكان فى هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن بارباريا ، وفتاة سمينة فى نحو الثانية عشرة من عمرها حمراء الخدين ربلة الوجنتين ترتدى تنورة مخططة مشمورة ، وتضع على رأسها قبة تيرولية (نسبة الى جبال التيرول) مزدانة بأشرطة ، ويصدر صوتها الأبح بأغنية عامية مبتذلة ، رغم صخب غناء الجوقة فى القاعة المجاورة • وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على أرغن بارباريا ••••

قال سفدرىجايلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

— هيا ••• كفى! •••

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً ، واتخذت وضع الاحترام ؛ وكان وجهها ، منذ قليل ، حين كانت تغنى سخافات المسجوعة ، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال •

نادى سفدرىجايلوف :

— هيه ! فيليب ! هات كأساً !

فقال راسكولنيكوف :

— لن أشرب خمرأ •

— كما تشاء • ولست أنادى فيليب من أجلك أنت • اشربى يا كاتيا • لم أعد فى حاجة اليك اليوم • تستطيعين أن تنصرفى •

قال لها ذلك وقد صب لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبيل • فأفرغت كاتيا الكأس بعشرين جرعة صغيرة متتالية دون أن تفصل شفيتها عن الكأس ، كما تشرب النساء • ثم تناولت الورقة النقدية ، وقبّلت يد سفدرىجايلوف الذى سمح لها أن تقبّل يده

وهو يُظهر أكبر الجِد ، وخرجت يتبعها الصبي جاراً أرغنه . كان الصبي والفتاة قد جىء بهما كليهما من الشارع . ان سفدرىجايلوف ما كاد يقضى فى بطرسبرج هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحبة والألفة والسيطرة . ان فيلب خادم القاعة هو أيضاً « صديق » حميم ، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة . وباب الحجرة يُقفل بالمفتاح ، فاذا كان سفدرىجايلوف فيها فكأنه فى بيته . ولعله كان يقضى فى هذه الحجرة أياماً بكاملها . أما الحانة القذرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية .

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— كنت ذاهباً اليك ، كنت أبحث عنك . ولكنى لا أدرى ما الذى جعلنى أدور فجأة الى شارع س . . . قادمًا من « سوق العلف » . اننى لا أمر أبداً من هنا . وانما أنا انعطفت دائماً الى يمين « السوق » . فما ان دوت الى هذه الجهة حتى لمحتك ! شئ غريب !

— لماذا لا تقول انها معجزة ؟

— لأن من الجائز أن لا تكون الا مصادفة !

قال سفدرىجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

— غريب تفكير هؤلاء الناس ! مهما يكونوا مقتنعين بوجود المعجزات فانهم لا يعترفون بذلك ! أنت نفسك تقول ان « من الجائز » أن لا تكون الا مصادفة ! آه . . . ما أجبنهم جميعاً اراء اعتقاداتهم نفسها ! لا تستطيع أن تتخيل يا روديون رومانوفتش . . . لست أقصدك أنت . . . فأنت لك آراؤك الشخصية ، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية . حتى انك بهذا نفسه انما أثرت اهتمامى وأيقظت فضولى .

- بهذا وحده ؟

- هو كافٍ جداً !

كان واضحاً ان سفدرىجايلوف مهتاج بعض الاهتياج ، ولكن
اهتياجه لم يكن شديداً جداً : انه لم يشرب الا نصف كأس من خمر .
قال راسكولنيكوف :

- يخيّل الى أنّك جئت تزورنى حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن
يكون لى ما تسميه رأياً شخصياً .

- آ ... نعم ... حينذاك كان الأمر غير هذا تماماً ! لكل امرئ
طريقته فى التصرف . أما عن المعجزة فأقول لك : لا بد أنّك كنت دائماً
فى هذين اليومين أو فى هذه الأيام الثلاثة ! لقد حدثت لك أنا نفسى
هذه الحادثة ، فاذا جئت اليها الآن رأساً فليس فى الأمر اذن أية معجزة .
لقد وصفت لك الطريق الذى يجب أن تسلكه ، وذكرت لك الساعات
التي تستطيع أن تجدنى فيها . ألا تتذكر ؟
أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً :

- نسيت !

- أصدّقك . ولكننى ذكرت لك ذلك مرتين . فلا بد أن العنوان
قد انطبع فى ذاكرتك على نحو آلى ، فاذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق
على نحو آلى أيضاً ، دون علم منك . مهما يكن من أمر ، فانتى حين
كنت أكلمك فى ذلك اليوم ، لم أعتقد أبداً أنّك كنت تفهم عنى . انك
لا تراقب نفسك مراقبة كافية يا روديون رومانوفتش . على انتى أعرف
أن كثيراً من الناس يكلمون أنفسهم بصوت عالٍ أثناء سيرهم . هذه
مدينة سكانها أنصاف مجانين . لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع

الأطباء ورجال القضاء والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات
 ثمينة ، كل فى ميدان اختصاصه • يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى
 تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثير النفس الانسانية بمؤثرات غامضة مظلمة
 حادة غريبة الى هذا الحد • أياكون مرد هذا الى مناخها ؟ ولكن لما كانت
 هى المركز الادارى فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد • على أن
 هذا ليس ما يهمنى الآن • وانما أردت أن أقول لك اننى قد سبق أن
 راقبتك أكثر من مرة • فأنت حين تخرج من بيتك تخرج على الرأس
 فما ان تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعتقد ذراعيك وراء
 ظهرك ؟ وأنت حينئذ تنظر ، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك ، ثم
 تأخذ تحرك شفتيك وتكلم نفسك ؟ بل يتفق لك أحياناً أن تحرك
 يديك بإشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك ؟ ثم اذا أنت تقف فجأة فى
 وسط الشارع ، وتلبث هنالك مدة طويلة • هذا غير مستحسن أبداً •
 فربما كان هنالك أناس غيرى يلاحظونك ويراقبونك ، وأنت بهذا تسيء
 الى نفسك وتعرض للخطر • أقول لك ذلك بصراحة • صحيح أن الأمر
 لا يهمنى ، واننى لست من سيشفيك ، ولكن لعلك تفهم عني ••

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر اليه مستطعماً :

- أتعرف أنهم يلاحقوننى ؟

قال راسكولنيكوف مدهوشاً :

- لا ، لم أكن أعرف ذلك !

دمدم راسكولنيكوف مقطباً حاجبيه :

- فلا نتحدثن° بعد الآن عني !

- طيب ! لا نتحدثن° بعد الآن عنك !

- قل لي : اذا كنت تتجىء الى هنا لتشرب ، واذا كنت قد حددت لي هذا المكان مرتين لأوافيك فيه ، فلماذا اختبأت عني منذ قليل حين نظرت اليك من الشارع حتى لقد أردت أن تنصرف ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح .

- هيء هي ! بل قل لي أنت : لماذا ، في ذلك اليوم ، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب ، ظلمت أنت راقداً على سريرك ، مغمضاً عينيك ، متظاهراً بالنوم ، مع أنك لم تكن نائماً البتة ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح !

- لعل هناك أسباباً ... تدعوني الى ذلك ، وأنت نفسك تعرف هذا .

- ولعل هناك أسباباً تدعوني أنا أيضاً ، رغم أنك لا تعرف ما هي تلك الأسباب .

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة ، وأسند ذقنه الى يده اليمنى ، وحدق الى سفدريجاييلوف ، وظل دقيقةً طويلة يتأمل هذا الوجه الذي ما انفك يحيره . انه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً : هو وجه أبيض ، أحمر ، له شفتان قرمزيان ولحية حمراء وشعر أشقر غزير ؛ والعينان زرقاوان جداً ، والنظرة ثقيلة مسرفة في الثقل ، ثابتة مسرفة في الثبات . ان في هذا الوجه الوسيم الذي ظل شاباً نضراً رغم السنين ، شيئاً منفراً الى أبعد الحدود . وكان سفدريجاييلوف يرتدى بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف ، ويتميز خاصةً بقميصه الناصع البياض . وكانت إحدى أصابعه يتلأأ فيها خاتم كبير مرصع بحجر ثمين .

قال راسكولنيكوف فجأة يمضي الى هدفه رأساً وقد نفذ صبره :

- هل عليّ حقاً أن أتحملك أنت أيضاً ؟ لعلك أنت أخطر البشر

حين تقرر أن تلحق بأحد ضرراً أو أذى ، ولكننى مع ذلك لا أريد أن أحاول الاحتماء منك • سوف أظهر لك على الفور أننى لا أقيم وزناً لشخصى الى الحد الذى تتصوره • اعلم أولاً اننى انما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة انك اذا كنت ما تزال تضممر لأختى تلك النيات نفسها ، وكنت تعوّل على استخدام السر الذى اكتشفته مؤخراً ، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعنى فى السجن • انى اذا قلت فعلت • هذا وإذا كان هنالك شىء تريد أن تفضى به الىّ - اننى لأحسن منذ مدة أنك تريد أن تقول لى شيئاً ما - فأسرع اذ قد يفوت الأوان بعد قليل !

سأله سفدرىجايلوف وهو يتفرس فيه مستطلعاً مستغرباً :

- ولكن ما الذى يحمك على هذا الاسراع كله ؟

فأجاب راسكولنيكوف نافذ الصبر مظلم الوجه :

- كل امرئ يعمل بطريقة الخاصة •

قال سفدرىجايلوف مبتسماً :

- أنت نفسك تدعونى الى الصراحة ، ثم اذا بك ترفض أن تجيبنى منذ أول سؤال ألقيه عليك • انك ما تزال تتصور أننى أبىّت مشاريع ، وأضمّر نيات ، وهذا هو السبب فى أنك تنظر الىّ نظرة ريبة واشتباه • على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تاماً فيمن كانت حالته كحالتك • ولكن مهما تكن رغبتى فى أن أحيا على تفاهم ووافق معك ، فاننى لن أكلف نفسى عناء ازالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك • ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء وأيم الحق • ثم اننى لا أأتوى البتة أن أتحدث معك فى أمور خاصة جداً •

- فلماذا تحتاج الى هذا الاحتياج كله اذا كان الأمر كما تقول ؟
ذلك أنك ما تنفك تحوم حولي ...

- لا شيء الا لأنك امرؤ تشوق ملاحظته ، وتحلو مراقبته + لقد
فتنتني بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب + هذا كل شيء !
ثم انك أخو انسانة شاقنتني كثيراً ؛ وطالما حدثتني عنك تلك الانسانية ،
فاستتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً ، فهل هذا
قليل ؟ هيء هيء هيء ! على أنني أعترف لك بأن سؤالك يبدو لي معقداً
تعقيداً شديداً ، فيصعب عليّ أن أجيب عنه . اليك هذا المثال : ألم تأت
أنت الى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم في أعمال ؟
أليس هذا صحيحاً ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كذلك ألحّ سفدريجايلوف وهو يتسم ابتسامة مأكرة خبيثة + ثم
تابع كلامه :

- ألا فاعلم اذن أنني ، أنا أيضاً ، منذ كنت في القطار الذي أقلني
الى بطرسبرج ، كنت أعوّل عليك أنت نفسك ، وآمل أن تقول لي شيئاً
« جديداً » ... الخلاصة : كنت آمل أن أقترض منك شيئاً + نعم !
انظر الى أي حد نحن أثرياء !

- أن تقترض مني ماذا ؟

- ماذا أقول لك ؟ أنا أعلم ؟ انك لترى في أية حانة حقيرة موبوءة
أقضي وقتي + انني أجد في هذا لذة + لذة ؟ لا ... هذه مبالغة + ولكن
لا بد للمرء من أن يقضي وقته في مكان ما ... حتى تلك المسكينة كاتيا
... هل رأيتها ؟ ويا ليتني كنت على الأقل رجلاً شديداً النهم والشراسة
أو رجلاً محباً لأطياب الطعام ! ولكن انظر قليلاً ... هذا كل ما أستطيع
أن ألتهمه ...

قال ذلك وهو يشير باصبعه الى ركن المائدة التى تستلقى عليها ، فى طبق من معدن ، بقايا شريحة كريهة من لحم البقر مع البطاطس • وتابع كلامه يسأل :

— بالنسبة ، هل تغديت ؟ أما أنا فانتى ما كدت أكل قطعة حتى اكتفيت • وأنا لا أشرب الحمر أيضاً • لست أشرب الا شمبانيا ، ولست أشرب من الشمبانيا الا كأساً واحداً تكفينى السهرة كلها ، عدا أن هذه الكأس الواحدة تصدّع رأسى • ولئن طلبت اليوم شمبانيا ، فلكنى أتعش قليلاً ، لأن علىّ أن أذهب الى مكان ما بعد برهة ؛ وهذا هو السبب فى أنك تجدننى على حالة نفسية خاصة جداً • منذ لحظة ، اختبأت كتلميذ صغير ، لأننى تخيلت أنك سوف تزعجنى ، ولكن أعتقد أن فى وسعنى (هنا أخرج ساعته) أن أبقي معك قرابة ساعة • الساعة الآن هى الرابعة والنصف • هل يمكنك أن تصدّق ؟ يا ليتنى كنت شيئاً ما على الأقل • • • ليتنى كنت مالك أرض مثلاً أو ربّ أسرة أو حتى جندياً ، أو مصوراً ، أو صحفياً ، ولكن لا • • • لست شيئاً • • • لست شيئاً البتة • • • ليس لى أى اختصاص ! حتى اننى أضجر بعض الأحيان • حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لى شيئاً جديداً •

— ولكن من أنت ، ولماذا جئت ؟

— من أنا ؟ انك تعلم من أنا : أنا رجل من وجوه القوم ، قضيت سنتين فى سلاح الفرسان ، ثم تسكنت هنا ببطرسبرج ، ثم تزوجت مارتا بتروفنا وعشت فى الريف • تلك سيرة حياتى !

— أنت ، فيما أظن ، مقامر • أليس كذلك ؟

— مقامر ؟ لا • • • أنا غشاش لا مقامر •

— كيف ؟ هل غششت ؟

- نعم ، فعلت هذا أيضاً •
- فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً ، أليس كذلك ؟
- حدث هذا • وبعد ؟
- كان فى إمكانك على الأقل أن تقتل فى مبارزة ... ذلك أمر يفور له الدم •
- لن أعارضك ، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلتى فيه • أعترف لك بأننى انما جئت الى هنا من أجل النساء خاصة •
- أبعد دفن مارتا بتروفنا فوراً ؟
- نعم • ثم ماذا ؟ أى خير تراه فى أن أتكلم عن النساء هكذا ؟
- بذلك أجاب سفدرىجايلوف وهو يتسم ابتسامة صراحة مفحمة •
- فقال راسكولنيكوف :
- تسأئنى أى خير أراه فى أن يعيش المرء حياة دعارة ؟
- حياة دعارة ! آ • • • ذلك هو ما يحققت • ولكن فلنمض فى مناقشة الأمر على منهج سليم : سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة • انى امرؤ أحب الثروة كما ترى • قل لى : لماذا يجب على أن أجم اندفاعاتى وأكبت رغباتى ؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن ؟ انهن شاغل على الأقل • • •
- فليست آمالك كلها اذن الا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق ؟
- لنسلم بأنها الدعارة أو الفسق ، بما دمت حريصاً على ذلك •
- اننى أحب الأسئلة المباشرة على كل حال • ان للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الانسانية ولا يخضع لنزوات الخيال ، شيئاً باقياً مستمراً فى الدم ، تجذوة متوهجة ، مستعدة فى كل لحظة لأن تلتهب ، لا تنطفىء فى وقت مبكر ، بل لا تقضى عليها السنون • ثم ان عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل • • •

— ليس فى هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنىء نفسك به • هذا مرض ، بل هو مرض خطر •

— آ • • • هذا ما تريد أن تنتهى اليه ! اننى أوافقك على أنه مرض ، كسائر الأشياء التى تتجاوز حدود الاعتدال • وحدود الاعتدال يتجاوزها الناس ، فبعضهم يتجاوزها بطريقة ، وبعضهم يتجاوزها بطريقة أخرى • وينبغى للمرء طبعاً أن يعتدل ، رغم أن هذا حساب دنىء • ولكن ما العمل؟ ما الحيلة ؟ ذلك أن الانسان اذا لم يتهياً له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن يتتحر • اننى أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً ، هذا عدا أن • • •

— هل أنت قادر على أن تتتحر ؟

أجاب سفدرىجايلوف متأففاً :

— يا له من سؤال !

ثم أضاف يقول متعجبلاً ، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذاك الذى كان قد اصطنعه الى ذلك الحين ، حتى أن وجهه قد تغير :

— أرجوك لا تكلمنى فى هذا الموضوع ! • • • اننى أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر ، ولكن ما حيلتى ؟ اننى أخاف من الموت ، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد • هل تعلم اننى أؤمن قليلاً بالغيبيات ؟

— آه • • • هو شبح مارتا بتروفنا ! أما يزال يظهر لك اذن ؟

قال سفدرىجايلوف :

— لنذع هذا الأمر ! فى بترسبرج ، لم يحدث هذا حتى الآن !

ثم هتف يقول حانقاً :

— على كل حال ، شيطان يأخذه • • • لا ، لا ، فلنذع هذا الأمر ،

ولنتكلم فى *** هم *** نعم *** لم يبق لى الا قليل من الوقت ***
لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً • خسارة ! ذلك أن
هناك أموراً كثيرة كان يمكننى أن أنقلها اليك •

— أهى أمور تتعلق بامرأة أيضاً ؟

— نعم ، بامرأة ! ••• حالة لا يتوقعها المرء أبداً ••• حالة ليست
ما تظن •••

— أأنت لا تشعر اذن بثقل هذا الجو الذى تعيش فيه ؟ أليس يؤثر
فيك ؟ هل فقدت القوة على ••• على أن تتوقف ؟

— ماذا ؟ أأنت تكلمنى عن القوة ؟ هه ••• انك تذهلنى دهشة
يا روديون روماتش ، رغم اننى كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون
هكذا ! أأنت من يكلمنى عن الفسق وعن جمال الفضيلة ؟ أأنت انسان
من نوع شيللر ، انسان مثالى ؟ صحيح أن هذا - كله طبعى ، حتى أن
نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدهشة ••• ولكنه مع ذلك يبعث على
الاستغراب •• آه •• خسارة أننى لا أملك الا وقتاً قصيراً ! ذلك أنك من
أكثر الناس ايقاظاً للاهتمام ، واثارة لحب الاطلاع • بالمناسبة : أنت تحب
شيللر ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً •

قال راسكولنيكوف بشيء من الاشمئزاز :

— يا لك من مدع متفاخر !

فأجاب سفدرىجايلوف وهو يضحك مقهقهاً :

— لا ، أقسم لك ! ••• على أننى لا أنفى أقوالك • صحيح •••
أنا مدع متفاخر ! ••• لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذى أحداً ؟
لقد قضيت سبع سنين فى الريف ، عند مارتا بتروفنا • لذلك فاتنى ما ان

التق برجل ذكى مثلك حتى أرتضى عليه • نعم •• برجل ذكى ، بل
برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك • نعم ، اننى أسعد أكبر السعادة
بالتحدث معك قليلاً ، زاهيك عن أن نصف الكأس الذى شربته من الخمرة
قد صعد الى رأسى ، غير أن هناك أمراً كان له كثير من ••• ولكننى أوتر
أن أسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه • الى أين أنت ذاهب ؟

كذلك قال سفدريجاييلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة

مرتاعاً •

كان راسكولنيكوف قد نهض • لقد أزعجه أنه جاء الى هذا المكان ،
وأحس باختناق فى صدره • انه مقتنع الآن أتم الاقتناع بأنه أمام أحقر
وأدناً وغد حملته الأرض على ظهرها فى يوم من الأيام •

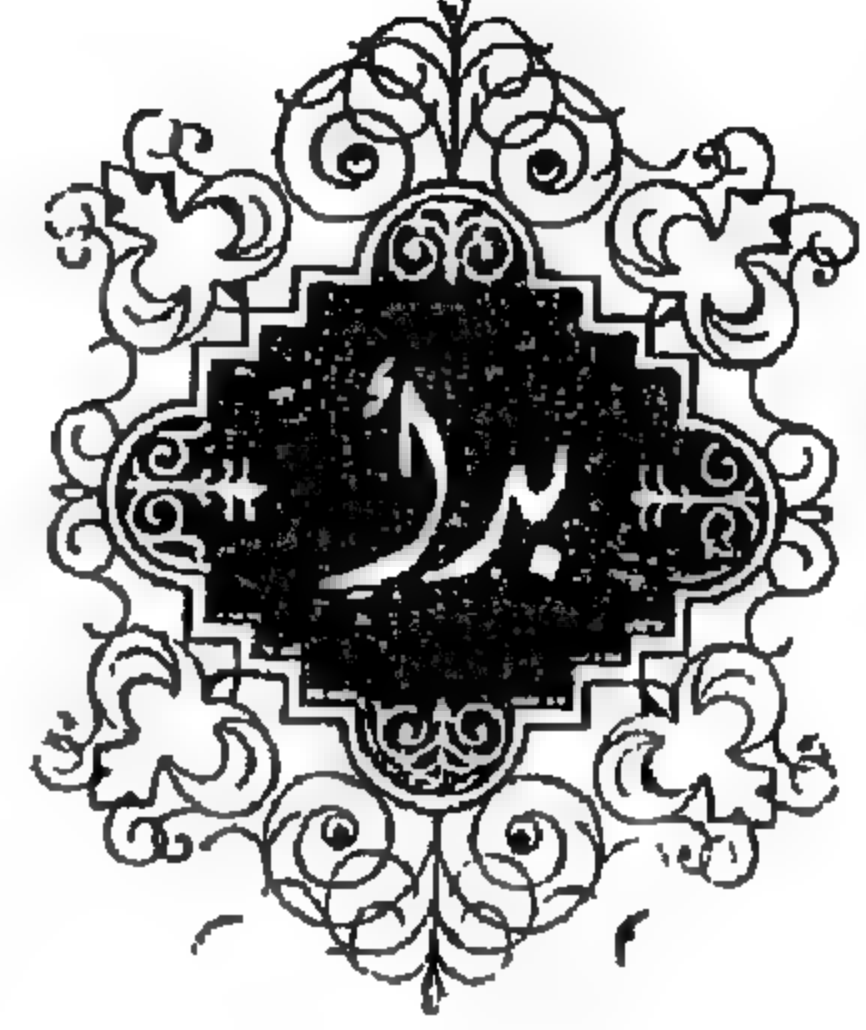
قال سفدريجاييلوف ملحاً :

— ابق قليلاً ! لا تتصرف هكذا ! انتظر ! اطلب لنفسك ولو فنجان
شاي ! هياً اجلس ! أعدك بأن لا أكلمك فى ترهات ، أقصد فى ترهات
عنى أنا ! اسمع ، هل تريد أن أروى لك كيف انقذتنى امرأة ، كما
تقولون أتم بلفتكم ؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول ، ذلك
لأن تلك المرأة هى أختك • هل أستطيع أن أروى لك ••• ثم ان هذا
سيتيح لنا أن نرجى الوقت •••

— قل ما تشاء ، ولكن أمل أن •••

— لا تقلق ••• اطمئن ••• ثم أن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن
توحى الا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة
والتفاهة !

الفصل الرابع



سفدر يجايلوف كلامه فقال :

- لعلك تعلم (ولقد ذكرت لك ذلك أنا نفسي
على كل حال) اننى قد أودعت فى السجن
لديون كانت علىّ . وكان المبلغ ضخماً لم يكن

فى وسعى أن أحاول سداه اطلاقاً . لا داعى الى الافاضة الآن فى الكلام
على الطريقة التى اشترت بها مارتا بتروفنا حريتى . هل تعرف مدى السحر
الذى يمكن أن تستسلم له امرأة تحب ؟ . . . لقد كانت مارتا بتروفنا
امرأة شريفة مستقيمة ، ولم تكن بالغية الحمقاء ، رغم أنها محرومة من
أية ثقافة . فتصور أن هذه المرأة ، الشريفة الغيور ، قد ارتضت أخيراً ،
بعد مشاجرات وملاحظات كثيرة كريهة ، أن تعقد معى نوعاً من ميثاق ظلت
متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة . يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر
سناً منى بكثير . وقد بلغت أنا من قلة الذوق ومن الصدق فى الوقت نفسه
اننى أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل علىّ أن أظل وفياً لها وفاءً
مطلقاً . فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها ، رغم أن صراحتى
قد أعجبتها بمعنى من المعانى فيما أعتقد . لقد قالت لنفسها : « معنى هذا
أنه لا ينوى أن يخوننى ما دام يندرنى سلفاً » ، وذلك هو الأمر الأساسى
فى نظر امرأة غيور . وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهى :
أولاً على أننى لن أترك مارتا بتروفنا قط ، بل أظل زوجها ؛ وثانياً على
اننى لن أتغيب أبداً الا باذنها ؛ وثالثاً على اننى لن أتخذ خلية ثابتة لها

صفة الخلية ؟ ورابعاً على أن تسمح مارتا بتروفنا ، مكافأةً لى على ذلك ، بأن أغازل الخادمت ، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة ، وخامساً أن اتحاشى ، بمعونة الله ، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا ، وسادساً أن أكشف مارتا بتروفنا بالحقيقة اذا حدث ، لا سمح الله ، أن استولى على حب قوى • على أن مارتا بتروفنا سرعان ما اطمأنت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة • انها امرأة ذكية ، فلم تستطع أن ترى فى الا رجلاً فاسقاً ماجناً ، عاجزاً عن أى حب صادق وهوى قوى • لكن الذكاء والغيرة شيان اثنان لا يتعارضان ، ومن هنا يأتى البلاء • ثم انك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حياًدياً ، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية ازاء البشر والأشياء التى تحيط بك • انى أعتمد على حسك السليم أكثر مما اعتمد على أية ملكة أخرى • لعلك سمعت عن مارتا بتروفنا سخافات كثيرة • والحق أنها كانت تتصف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً • ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك باننى أسف أسفاً صادقاً على الأحران الكثيرة التى سببتها لها • ولكن يكفى هذا ، فيما أعتقد ، « تأبيناً » للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طراً • لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت فى أغلب الأحيان وأكظم كل غضب ، وكان هذا الوضع المهدب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه فى جميع الأحيان تقريباً • كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارتا بتروفنا ، بل لقد كان يحظى برضاها واعمجابها ، حتى أنها شعرت أحياناً باعتزاز بى • لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتل تلك القصة التى جرت لى مع أختك • كيف رضيت أن تجازف فتدخل الى منزلها فتاة جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة ؟ انى لا أفسر هذا لنفسى الا بأن مارتا بتروفنا امرأة سريعة التأثير والانفعال ، وأنها افستت بأختك • نعم ، لقد افستت بها حقاً • ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجرى مجرى سيئاً بالنسبة

الى ، حتى اننى قررت - هل تصدّق ذلك ؟ - أن لا أرفع عبنى نحو أختك . ولكن أختك ، آفدوتيا رومانوفنا ، قامت هى نفسها بخطوة الأولى ، هل تصدّق هذا ؟ وهل تصدقنى أيضاً اذا قلت لك ان مارتا بتروفنا قد مضت الى حدّ الغضب حين لاحظت أننى لا أكلمها عن أختك أبداً ، وأننى استقبل بغير الكبرياء أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التى كانت تسوقها لى عنها بغير انقطاع . لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذى كانت تريد أن تصل اليه . وقد قصّت على أختك ، طبعاً ، كل ما أمكنها أن تعرفه عني . لقد كانت لها هذه العادة السيئة ، وهى أن تروى أسرارنا العائلية لجميع الناس وأن تشكونى للملأ كافة ، فكيف يمكن أن لا تفعل ذلك مع صديقة جديدة فتاة كأختك ؟ أغلب ظنى أنهما كانتا لا تتحدثان الا عني ؟ ولا شك فى أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات القذرة السرية التى كان الناس يتناقلونها عني بل اننى لأراهن على أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت !

- فعلاً ! حتى ان لوجين اتهمك بأنك كنت السبب فى موت طفل .
هل هذا صحيح ؟

أسرع سفدريجاييلوف يجيب ممتعضاً :

- لا تحرك هذا الوحل كله ، أرجوك ! . . . اذا كنت حريصاً حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقايات ، فسأقص عليك خبرها يوماً فى الوقت المناسب ، أما الآن . . .

- وقد حدثونى أيضاً عن خادم لا أدري ما هو ، كان عندك فى الريف ، وقالوا انك كنت أنت السبب أيضاً . . .

قاطعه سفدريجاييلوف وقد فقد صبره فقداً واضحاً :

- أرجوك !

وتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحق متزايد :

- أترأه هو بعينه ذلك الخادم الذى كان بعد موته يعود يمسلاً غليونك ؟ لقد قصصت على أنت نفسك ...

نظر اليه سفدرىجايلوف بانتباه ، وخيّل الى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بتلك النظرة سريعة كالبرق . ولكن سفدرىجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب :

- نعم ، هو بعينه . أرى أنت أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله ؛ فلك على ، عند أول فرصة ، أن أرضى فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك فى جميع النقاط . شيطان يأخذنى ! أرى أنتى سأنتهى الى أن يعدنى جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً . فاحكم ، بعد هذا ، مدى ما أدين به لمارتا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصّت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة ! لا أستطيع أن أثبأ قطعاً بالأثر الذى شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوى ، وكل ما أعلمه هو أنتى سأستفيد . . فرغم الكره الذى أحسّست آفدوتيا رومانوفنا ازائى ، وهو كره طبيعى جداً على كل حال ، ورغم هيئتي المظلمة المتجهمة الكالحة عامة ، فقد أشفقت على أخيراً كما تشفق المرأة على انسان ضائع ! وحين يمتلئ قلب فتاة « بالشفقة » ، انما تتعرض لأكبر خطر . فهى تريد حتماً أن « تنقذ » ، أن ترد الى الصواب ، أن تنجي ، أن تبعث . . . أن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعانى . وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير الى الشبكة من تلقاء نفسه ، وسرعان ما بادرت من جهتى الى اتخاذ احتياطاتى . يخيل اليك أنك تقطب حاجيك يا روديون رومانتش . أنت مخطئ : ان القصة كما تعلم ، قد اقتصرت على سيفاسف (أوه ! انتى أسرف فى شرب الخمرة !) هل تعلم ؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك فى القرن الثانى أو القرن الثالث ، بمكان من الأمكنة يمكن أن

تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو والٍ في آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك، اذن لكنت واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتى كن يتسمن حين كانت قضبان الحديد المحمى بالنار تمزق أئداءهن ، ولكانت مضت تواجه التعذيب مواجهة من تلقاء نفسها • ولو قد وُلدت في القرن الرابع أو فى القرن الخامس لا عترلت الناس ومضت الى صحارى مصر ثلاثين عاماً لا تغذى الا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجد • انها لا تنتظر الا اللحظة التى ستمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها فى سبيل شخص ما ؛ بل انها لقادرة على أن تلقى بنفسها من النافذة اذا منعت من تلك التضحية بنفسها • لقد سمعت عن شخص اسمه السيد رازوميخين • انه فيما يبدو ، وكما يدل على ذلك اسمه * ، فتى ذكى عاقل لعله ابن أسرة من رجال الدين • فليسهر على أختك ، ليحطها برعايته ! الخلاصة : أحسب أننى فهمت آفدوتيا رومانوفنا ، وانى بذلك لفخور • ولكن المرء ، عند تعرفه الى شخص من الأشخاص ، يكون طائشاً بعض الطيش ، غنياً بعض الغباوة ، كما تعلم ... فهو يرى الأشياء فى ضوء ... شخصى ، ولا يراها كما هى • ولكن لماذا هى جميلة ذلك الجمال كله ؟ ليس الذنب فى هذا ذنبى ! الخلاصة ... اننى سرعان ما افقتت بها افتتاناً شهوانياً لم يكن لى حيلة فى دفعه • ان آفدوتيا رومانوفنا ذات خفر رهيب ، خفر لا عهد للمرء بمثله ، خفر لا يكاد يصدق العقل وجوده (لئن كنت أقول لك هذا عن أختك فلائنه « واقع » • نعم ، انها رغم ذكائها ، ورغم فكرها المنفتح جداً ، فتاة ذات خفر شديد ... وهذا أمر قد يسيء اليها ويلحق بها أذى) • كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا * ، هى باراشا السمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التى جىء بها من قرية أخرى منذ برهة قصيرة ، والتى لم يسبق لى أن رأيتها فى يوم من الأيام قبل ذلك • كانت حلوة جذابة حقاً ، ولكنها كانت على جانب من الغباء

لا يصدق • فما أقبلتُ عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المنزل
بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة وجرسة • وفى ذات مساء ،
بعد العشاء ، دبّرت أفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدةً فى ممر
بين الأشجار بالحديقة فإذا هى « تطالبني جازمةً » بأن أدع الفتاة المسكينة
مرتاحة وأن لا أضايقها • ولعل ذلك كان أول حديث يجرى بيني وبينها
فى خلوة • وقد أسرعت أقطع على نفسى عهد الشرف بأن ألبى رغبتها
وأنفذ ارادتها ، ونحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحى الخجل ،
أى عرفت كيف أمثل الدور فأحسن التمثيل • ومنذ تلك اللحظة تمت
بيننا لقاءات كثيرة فى السر ، وحدثت مشاهد متكررة كانت فى أثنائها
تمطرني بالمواعظ والنصائح والملاحظات ، وتضرع الىّ أن أغّير حياتى ،
باكيةً ، نعم باكيةً ••• تصور ! هل تصدق هذا ؟ انظر الىّ أى مدى
يمكن أن يمضى حب الوعظ والنصح ! وطبيعى أننى حملت القدر تبعه
جميع أخطائى ، وصوّرت نفسى فى صورة رجل ظامئ الى الضياء ، ثم
لجأت أخيراً الى الوسيلة القصوى التى لا تخطئ هدفها من قلب المرأة
قط ، ولا تخيب الظن فيها أبداً ، بل تحقق غايتها وتؤثر فى جميع النساء ،
أعنى التملق بالمديح • لئن لم يكن فى العالم شيء أصعب من الصدق ،
فلا شيء فى العالم أسهل من التملق • فالصدق اذا اندس فيه عشر معشار
من كذب ، سرعان ما يخالطه نشار فتقع فضيحة • أما التملق فانه اذا كان
كذباً من أوله الى آخره ، يظل ساراً وممتعاً ، فالشخص يصغى اليه
شاعراً بلذة ان لم تكن لذة سامية فهى لذة على كل حال • ومهما يكن
التملق مفضوحاً فان نصف المديح على الأقل ينطلى على المدوح • يصدق
هذا على جميع طبقات الناس فى المجتمع • ان فى وسعك أن تغوى بالمديح
أظهر فتاة فما بالك بغيرها ! لا أستطيع أن أتذكر - الا ويغلبنى الضحك
- كيف أغويت فى ذات يوم من الأيام امرأة مخلصة كل الاخلاص

لزوجها وأولادها وفضائلها ... لكم كان ذلك مسلياً ، ولكم كان سهلاً ! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقتهما . وكان كل الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائماً انبهارى بفضائلها وعبادتي لعفتها ! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ ، وكنت اذا اتفق لي أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين ، ألوم نفسي أمامها على اننى انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة ، حتى لأتظاهر بأننى أعتقد أنها عارضت فى ذلك ، واننى ما كنت لأحصل منها على شيء اطلاقاً لولا أننى فاسد الأخلاق ، ولولا أنها فى براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقى فانقادت ببساطة وسذاجة دون أن تشبّه أو ترتاب ، النخ النخ . الخلاصة اننى وصلت الى تحقيق غاياتى وتنفيذ مآربى ، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفة طاهرة ، وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطئ الا عرضاً : لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك - وكنت على اقتناع تام بما أقول - أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء . ولقد كانت المسكينة مارتا بتروفا شديدة التأثير بالمديح ، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها ، ولو قد شئت لجعلتها تورثنى جميع أموالها وأملاكها ، حتى أثناء حياتها (اننى أشرب كما تشرب بالوعة وأتبعه فى ثمرات) . أمل أن لا تؤاخذنى أو أن تحقق علىّ اذا قلت لك الآن ان تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا . ولكننى أفسدت الأمر كله بحماقتى وقلة صبرى . لقد اتفق عدة مرات ، أثناء أحاديثى مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا فى إحدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عيى ، واشمأزت اشمئزاً شديداً . الخلاصة أن لهيب الشهوة الذى كان يتوقد فى عيى بمزيد من القوة يوماً بعد يوم ، مع مزيد من الوقاحة فى الوقت ذاته ، قد أصبح كريهاً فى نفسها آخر الأمر . لا داعى الى أن أقصّ عليك

الأمر تفصيلاً • فاللهم أنا كففنا عن اللقاء • وارتكبت عندئذ غلطة جديدة • فقد طفقت أسخر أغلظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها ، وعادت باراشا تنال الخطوة ، ولم تكن باراشا فى هذه المرة وحيدة • الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم • آ • • • لو أنك رأيت ، مرة واحدة ، يا روديون روماتش ، كيف كانت تسطع عينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب ! صحيح أننى الآن سكران ، وأننى قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر ، ولكن ما أقوله لك إنما هو الحقيقة • أؤكد لك أن تلك الانظرات كانت تلاخقنى فى نومى • وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيف ثوبها ، وصرت أتوقع حقاً أن توافينى نوبة صرع من لحظة الى أخرى • ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام ، نعم ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام قط أن من الممكن أن أصير الى مثل تلك الحالة من الخروج عن طوري • وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه • فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك ؟ هل تتخيل مدى السخف الذى يمكن أن يقود اليه الحق ! اياك أن تسرع فى عمل شيء حين تكون حانقاً يا روديون رومانوفتش ! اننى وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذنى اذا أنا استعملت هذا التعبير • • •) ، وأنها تعيش من عرق جبينها وكد يمينها ، وأنها تقوم بإعالة أمها وأعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجيك من جديد ؟) ، قررت أن أقدم اليها كل ما أملك من مال ، وكان فى وسعى عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، على شرط أن تقبل الهروب معى ، ولو الى هنا ، الى بطرسبرج • فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حيت ، متى وصلنا ، ولوعدها بالسعادة والهناء وهلم جرا أبد الدهر ، فلقد بلغت من التحمس - صدقنى ان شئت ! - اننى لو أمرتنى أن أذبح أو أن أسمم مارتا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هى ، لفعلت ذلك على الفور •

ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التي تعرف • ففى وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذى شعرت به حين علمت أن مارتا بتروفا قد جاءت بذلك الدعى الحقيقى لوجين تريد أن تزوجه أختك ، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعى أنا فى الواقع • أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أنت توافقنى على هذا رأى ؟ أليس كذلك ؟ انتى ألاحظ على كل حال أنك أصغيت الى باتباه شديد ••• أيها الشاب الشائق •••

قال سفدرىجايلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفذ صبره • فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التى شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً ، لذلك قرر أن يتنهر هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف • لقد كان شديد الريب فى سفدرىجايلوف كثير الحذر منه •

قال فجأة ليحنة مزيداً من الاحناق :

— فأستطيع أن استتج مما أفضيت به الى أنك بمجيئك الى بطرسبرج انما كنت تطمع فى أختى وتبيئت لها شيئاً •

أجابه سفدرىجايلوف قائلاً :

— دعنا من هذا ، أرجوك ••• قلت لك ••• ثم ان أختك لا تستطيع أن تطيقنى ، فهى تكرهنى كرهاً شديداً •

— أما أنها تكرهك فأنا واثق بهذا • ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هى المسألة •

— أنت واثق بهذا ؟

قال سفدرىجايلوف ذلك وهو يغمز بعينه ويتسم ابتسامة سخرية • ثم تابع كلامه :

- انك على حق • انها لا تهجنى ، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجرى بين رجل وامرأته ، أو بين خليل و خليلته • هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين • هل فى وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر الى باشمئزاز ؟
- استتج من بعض كلمات حديثك وتلميحاته أنك ما زلت تضرع ، ازاء دونيا ، أهدافاً لست أصفها الا بأنها دنيئة !

- كيف ؟ أنا أفلتت منى كلمات وتلميحات من هذا النوع ؟
كذلك سأله سفدريجاييلوف وقد ارتاع ارتياحاً ساذجاً جداً ، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنت الذى نعت به راسكولنيكوف أهدافه •
قال راسكولنيكوف :

- بل انها ماتزال تفلت منك ! فلماذا ارتعت هذا الارتياح كله مثلاً ؟
نعم ، ما الذى يخيفك الى هذا الحد ؟

- أنا مرتاع ؟ أنا خائف ؟ خائف منك أنت ؟ ألا ان الأولى أن تخاف أنت منى « أيها الصديق العزيز » ؟ ما هذا الكلام الصياني ؟ على اننى سكران ••• أنا أدرك ذلك • اننى أسرف فى الكلام ، أسرف فى الكلام كثيراً ••• لعن الله الحمرة ! هيه ! أنت ! اعطنى ماء !

قال سفدريجاييلوف هذا ، وتناول الزجاجاة فرماها من النافذة بغير تخرج • وجاءه فيليب بابريق ماء •

واستأنف سفدريجاييلوف كلامه فقال وهو يبل منشفة ويضعها على رأسه :

- وهذه سخافات على كل حال ••• اننى أستطيع أن أسقط شكوكك كلها بكلمة واحدة • هل تعلم مثلاً أننى سأتزوج ؟

— سبق أن قلت لى هذا ؟

— سبق أن قلت لك هذا ؟ حقاً ؟ لست أتذكر • على كل حال ، لا شك أنتى لم أقله جازماً ، لأننى لم أكن قد رأيت خطيبتى • وما كان الأمر حتى ذلك الحين الا فكرة أو مشروعاً • أما الآن فان لى خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً • ولولا شئون مستعجلة لدعوتك أن تصحبنى اليها ، لأننى أريد أن أطلب منك بعض النصائح • آ • • • لم يبق لى الا عشر دقائق ! خذ • • • انظر فى ساعتى • ولكن يجب أن أحكى لك • • ذلك أن زواجى حادثة شائقة فريدة فى نوعها • الى أين تمضى ؟ أما تزال تريد الانصراف ؟

— لا • • • الآن لن أنصرف •

— لن تنصرف ؟ سوف نرى ! نعم ، سأصطحبك الى هناك لأعرفك بخطيبتى ، ولكن لا الآن ، فالآن لا بد أن نفرق ، تمضى أنت يمنية وأمضى أنا يسرة • ان تلك المرأة التى تسمى ريسليش والتى أقيم عندها فى هذه الفترة ، لا شك أنك سمعت عنها ، أليس كذلك ؟ عجيب • • • ألم تسمع عنها ؟ تلك المرأة التى يقال انها هى السبب فى أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً فى وسط الشتاء • آ • • • ان تلك المرأة هى التى دبّرت الأمر كله • قالت لى : « لا شك أنك تضجر وتسام وأنت وحيد على هذه الحال ، فيجب أن تسرّى عن نفسك قليلاً » • والحق أنتى امرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس • هل تظننى مرحاً ؟ أبداً • • • أنا سوداوى • لست أؤذى أحداً ، وأظل قابلاً فى ركنى ، ولكن يتفق لى أن أبقى ثلاثة أشهر صامتاً لا أفتح فمى بكلمة • ولقد كانت تلك القوادة ريسليش تخفى خطة وتبيت فكرة : كانت تقول لنفسها ان امرأتى القادمة سوف تضجرنى آخر الأمر ، واننى سوف أهجرها ، فتقع عندئذ بين يديها هى ريسليش ، فتجول بها هنا وهناك فى بيئتنا أو فى بيئته أرفع • قالت لى

ان للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرّك ساقيه . وأضافت الى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة ، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف فى الاقاليم ولكنه لا يساعد ذويه ؛ وأن لها أختاً متزوجة لا توافيهم بشيء من أخبارها ، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كفى من الأقواء تطعمه ، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها ؛ وعلى أثر ذلك أخرجت الفتاة من الكوليج قبل أن تتمّ دراستها . وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر ، فيمكن عندئذ تزويجها ، أى يمكن أن أتزوجها أنا . وقد ذهبنا أنا وريسليش الى أهل الفتاة . مشهد مضحك . عرفتهم بنفسى : ملائكة ، أرمل ، أسرة نبيلة ، علاقات عالية ، ثروة طائلة . فما قيمة أن يكون عمرى خمسين عاماً ، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة ؟ من ذا الذى يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلى هو هذا الفرق فى السن ؟ أأست زوجاً مناسباً ؟ بل أأست زوجاً ممتازاً ؟ ها ها ها ! ... ليتك رأيتنى وأنا أتحدث مع أبيها وأمها ! ان المرء يدفع مالا كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد ! وظهرت الطفلة فجأة ، فانهخت تحيى الضيوف كما يفعل الأطفال ... تصور أنها ما تزال ترتدى الثوب القصير ! انها برعم ورد حقاً ، يصطبغ خداهما بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أطلعت على الأمر طبعاً) . لا أدرى ما رأيك فى الفتيات الصغيرات . أما أنا فرأيت أن هذه السنين الست عشرة ، وتلك العيون الصغيرة التى ما تزال عيون أطفال ، وذلك الحجل ، وهذه الدموع التى تنسكب حياء وخفراً ، أن هذا كله أجمل جمالاً من كل جمال . ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة . شعر أشقر خفيف متموج ، شفتان مكتنرتان قرمزيتان ، قدمان صغيرتان . عجيبة من العجائب ! ... ولقد تعارفنا . ثم أعلنت أننى فى عجلة من أمرى ، لأسباب عائلية . لذلك تمت الخطبة

فى غداة ذلك اليوم ، اى امس الاول . ومنذئذ أصبحت أجلسها على ركبتي متى وصلت اليهم ، ثم لا انركها . . . فيحمر خداهما من جديد حتى لتصبح بلون الشفق عند الفجر ، وأخذ ألتهمها بالقبل التهاما ! وأمها تقنعها طبعاً بان الامور يجب أن تجري على هذا النحو ، لاننى ساصبح زوجها . الخلاصة : لذة ما بعدها لذة ! ربما كانت حالة الخطيب هذه احلى وأمتع من الحالة التى ستتلوها ، أعنى حالة الزوج . فها هنا نجد « الطبيعة والحقيقة » * كما يقال ! ها ها ! . . . لقد تحدثت معها مرة أو مرتين . ان الصبية ليست بالغية البتة ، وانها فى بعض الأحيان لتنظر الى نظرة تشعل حريقاً فى كيانى كله . هل تعلم ؟ ان لها وجهاً من نوع وجه « المادونا » التى صورها رافائيل . ان « مادونا سكستين » لها وجه عجيب تماماً ، وجه يعبر عن حزن يلمُّ به جنون غيبي ، ألم يخطف هذا بصرك ؟ فاعلم اذن أن وجه خطيبتى فيه شىء من هذا النوع . وما ان تمت خطبتنا حتى حملت اليها هدايا بألف وخمسمائة روبل : حلية من الماس ، وحلية أخرى من لؤلؤ ، ومجموعة فضية من أدوات الزينة ، كبيرة بهذا الحجم ، مع جميع لوازمها . . . فاذا بوجه « المادونا » الصغير يشرق ويبردهر . ثم أجلستها على ركبتي ، ولعلنى بلغت فى ذلك من قلة التخرج أنها احمرت احمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها . ولكنها لم تشأ أن تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال . وخرج الجميع لحظة ، فاصبحنا وحيدين ، أنا وهى ، فاذا هى تبادر فجأة فتحيط عنقى بذراعيها الصغيرتين وتقبّلنى (من تلقاء نفسها هذه المرة) ، وتحلف لتكونن لى زوجة مطيعة طيبة وفية ، ولتسعدننى ، ولتقفن على هذا حياتها كلها ، كل لحظة من حياتها ؛ ولن تطأبنى فى مقابل ذلك الا بشىء واحد : « هو أن أحترمها ، أن أحترمها فقط ، فهى لا تريد الا هذا ، ولا تريد هدايا ! » . لا شك فى أنك توافقنى على أن سماع اعتراف كهذا

الاعتراف ، فى خلوة ، من ملاك صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ،
ترتدى ثوباً رقيقاً من قماش شفاف ، لها شعر مصفور متدل على جبينها ،
وقد اجهرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن ، وأخذت دموع الحماسة
تتألأ فى عينيها ، أقول لا شك فى أنك توافقنى على أن ذلك كله جذاب
مغر ! جذاب مغر ، هذا هو الوصف الصحيح ، أليس كذلك ؟ شئ
يستحق أن يدفع المرء ثمنه ، هه ؟ +++ اسمع +++ سنذهب الى خطيبتى ،
ولكن لا الآن !

- الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب فى السن وفى الثقافة يثير رغبتك
الشهوانية مزيداً من الاثارة ! هل من الممكن أن تفكر فعلاً فى الاقدام على
زواج كهذا الزواج ؟

- لم لا ؟ طبعاً أفكر فى ذلك ! لكل امرئ أن يفكر لنفسه ، وأقدر
الناس على خداع نفسه أنجحهم فى قضاء أيام سعيدة ! ها ها ! ولكن ما بالك
قد أصبحت رجلاً فاضلاً على حين فجأة ؟ رافة بى يا عزيزى ، لأننى
امرؤ خاطيء مذنب ! هى هى هى ! +++

- ولكنك غيت بأولاد كاترين ايفانوفنا على كل حال +++ كانت
هناك بواعث تدفعك الى ذلك +++ الآن فهمت كل شئ !

قال سفدرىجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً :

- أنا أحب الأطفال كثيراً ويمكننى بالمناسبة أن أروى لك حادثة
غريبة ما تزال تجرى حتى هذه الساعة . لقد طفت بمختلف الملاحى
المبوءة فى العاصمة منذ وصولى أول يوم +++ أسرع أطوف بها بعد
فراق سبع سنين ! لعلك لاحظت قلة حرصى على إعادة الصلة بينى وبين
أصحابى وأصدقائى القدماء . حتى يمكننى أن أقول اننى أفر منهم

فرارى من الطاعون • يجب أن أقول لك اننى حين كنت عيش فى الريف عند مارتا بتروفنا كان يتابنى ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التى يستطيع الانسان الحبير أن يجد فيها أشياء كثيرة ! تباً لى ! الشعب هنا يسترسل فى السكر ، والشيبية المثقفة تذوب وتضيع فى أحلام خيالية ونظريات عجيبة ، واليهود يهرعون من كل مكان ينهبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وسائر الناس يستسلمون فى أثناء ذلك للفسق والمجون • اذن لقد أرسلت الى هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً • وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة : هو ملهى موبوء فظيع ، ولكننى أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئزاز • كان الراقصون مندفعين فى رقص « الكانكان » اندفاعاً محمواً مسعوراً قلما يرى المرء مثله فى هذه الأيام ، ولم تكن نرى مثله فى أيامنا أبداً • لقد تحقق تقدم فى هذا المجال أيضاً • وفجأة لمحت صبية لعلها فى الثالثة عشرة من عمرها ، ترتدى ثياباً لطيفة وتراقص سيداً جميلاً ، وأمامهما شاب آخر • وكانت أمها جالسة قرب الجائط تنظر اليها • هل تتخيل كيف كان الرقص ؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد • وهامى ذى تحمر ، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكى • فيمسكها الراقص الجميل ، ويأخذ يدور بها ، ويقوم بألف حركة وحركة بذيئة ، والناس من حوله تضح بضحك صاخب • اننى فى مثل هذه اللحظات انما أحب جمهورنا خاصة ، حتى جمهور هذا النوع من ملاهى الليل • كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين : « مرحى ! مرحى ! لم يكن عليها الا أن ترفض المجيء الى هنا ! ليس هذا مكاناً للأطفال ! » • أما أنا فلم اكرث طبعاً • وسرعان ما حدثت المكان الذى يناسبنى ، ومضيت أجلس قرب الأم • وبدأت أكلمها فقلت لها اننى انا أيضاً مارٌ ببطرسبورج مروراً • وأضفت الى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم

فراصة تعرّفهم بمن يستحقون الرعاية والندارة • وبعد أن أسمعته أننى أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلهما هى وابنتها بعربة ، فقبلت وأوصلتهما ، فرأيت مسكنهما (انه غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتاها منذ وقت قصير حين وفدتا من الأقاليم) • وقالتا لى انهما تعدان زيارتى لهما شرفاً عظيماً • وعلمت بعد ذلك انهما لا تملكان قرشاً ، وانهما جاءتا الى بطرسبرج للقيام بمساعٍ لى ادارة من الادارات • فعرضت عليهما خدماتى ، وقدمت انيهما مالاً • وعلمت عدا ذلك انهما بالمصادفة انما وقعتا فى ذلك الملهى تلك الليلة ، فقد ظننا أنه مكان لتعليم الرقص • وعرضت أن أساهم فى اتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية ، وبتعليمها الرقص خاصة • فسرعان ما قبل هذا العرض بفرح شديد ، وسرعان ما قيل لى ان هذا شرف كبير ••• وما تزال علاقتنا قائمة ، وما تزال زياراتى متتالية ••• سنذهب اليها معاً لترأها ان شئت ••• ولكن لا الآن !

— كفاك ! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئزاز ، ايها الانسان الفاسق ، المنحل ، المنحط !

— يا لك من شاعر ! يا لك من شيللر ! انظروا أين تختبئ الفضيلة ! هل تعلم أن صرخاتك هذه تغرينى بأن أقصّ عليك المزيد من أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات ؟ هذه لذة حقيقية !

دمدم راسكولنيكوف يقول مبغضاً حاقداً :

— نعم ، لا شك أننى أبدو سخيلاً مضحكاً ، فأنا كذلك فى نظر

نفسى !

ضحك سفدرىجايلوف ملء حلقه ، ثم نادى فيليب ، فدفع الحساب ،
ونفض لينصرف وهو يقول :

- نعم ... أنا سكران ... كفى حديثاً ! ... انها لذة حقيقية ! ...

صاح راسكولنيكوف يقول وهو يهض أيضاً :

- كيف لا تشعر بلذة ... كيف لا تكون لذةً لرجل فاسق داعر
من طينتك أن يقصّ مغامرات كهذه المغامرات وهو يحلم بمشاريع
شيطانية أخرى من هذا النوع ، وأن يقصّ ذلك على انسان مثلى ؟ ...
هذا يؤجج رغبتك ، ويهيج نفسك ، أليس كذلك ؟

قال سفدرىجايلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس فى راسكولنيكوف :

- اذا كنت ترى هذا الرأى ، فانك اذن لمستهر عظيم ... أو أن
فيك لاستعداداً لهذا • انك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء ... وأن
تصنع بها. كذلك كثيراً من ... ولكن كفى ! يؤسفنى حقاً أن حديثنا كان
قصيراً هذا القصر كله ، ولكنك لن تغلب منى هكذا ... اصبر قليلاً ...

خرج سفدرىجايلوف من الحانة ، وتبعه راسكولنيكوف •

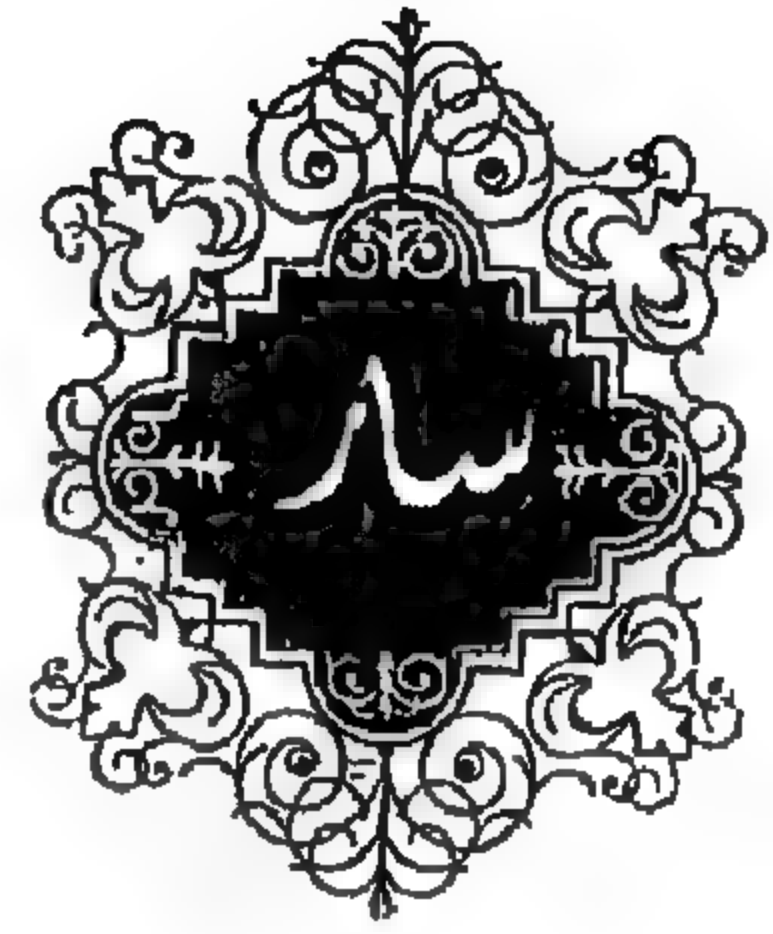
الحق أن سفدرىجايلوف لم ينل منه السكر كثيراً • ان الشراب لم
لم يصعد الى رأسه الا لحظة قصيرة ، وكان عمله يتبدد مزيداً من التبدد
شيئاً بعد شيء • كان هناك أمر هام جداً يشغل باله ، يشغل باله كثيراً ،
فكان يقطب حاجبيه ، وكان انتظار هذا الشيء يقلقه اقلاقاً واضحاً ، ويشير
أعصابه • ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدرىجايلوف قد غيّر

لهجته فى مخاطبته منذ لحظات ، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفظاظه
والسخرية •

واشتبه راسكولنيكوف فى أمر سفدريجاييلوف ، فقرر أن يتبعه •
وصلا الى الرصيف •

— أنت تذهب يمينه وأنا أذهب يسرة ، اللهم الا أن يكون العكس !
المهم أن نفترق • الى اللقاء ، الى اللقاء ، سيسرنى أن أراك مرة أخرى •
قال سفدريجاييلوف ذلك وسار يمينه فى اتجاه « سوق العلف » •

الفصل الخامس



راسكولنيكوف وراءه ، فصاح سفدريجاييلوف يقول
ملتفتاً اليه :

– ما معنى هذا ؟ أظن اننى قلت لك ...

– معنى هذا اننى لن أتركك قيد أنملة ...

– ماذا ؟ ماذا ؟

وتوقف الاثنان ، وأخذ كل منهما يروّز صاحبه بنظرة خلال

دقيقة .

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

– بعد جميع الحكايات التى رويتها لى وأنت فى شبه سكر ، يحق

لى أن أتصور أنك لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلق بأختى ، بل وأن

هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك فى أى وقت مضى .

أنا أعلم أن أختى تلقت فى هذا الصباح رسالة . ولقد كنت أنت قلقاً

لا تستقر على حال . ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة

جديدة ، ولكن هذا لا يبرهن على شيء ، فأنا أريد أن أتأكد من الأمر

بنفسى .

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذى يريد أن يتحقق

منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك .

قال سفدرىجايلوف :

— ها ... هكذا ؟ أتريد أن أنادى الشرطة ؟

— نادها !

وتوقفا من جديد ، ومن جديد أخذ كل منهما يتفرس فى الآخر .
وأخيراً تغير تعبير وجه سفدرىجايلوف ، فانه حين رأى أن راسكولنيكوف
لم يخفف تهديده ، أسرع يصطنع هيئة تنم عن مرح ومودة وصداقة ،
وقال :

— ما أغرب أمرك ! لقد تعمدت أن لا أكلمك فى قضيتك ، رغم أن
الفضول ينهش قلبى نهشاً ... انها لقضية هائلة ! لقد آثرت أن أرجىء
الكلام فيها الى مرة أخرى ... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه
يفقد صبره وتثور أعصابه . تعال معى ان شئت ، ولكننى أنبّهك : ان
على أن أرجع الى البيت لحظة لآخذ شيئاً من المال ، ثم أغلق الباب
بالمفتاح ، ثم أقفز راكباً عربية من العربات لأمضى الى قضاء السهرة فى
«الجزر» . فكيف تستطيع أن تتبغنى والحالة هذه ؟

— ان على أن أذهب الى عمارتك أنا أيضاً ، لا الى بيتك أنت ، بل
الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأعتذر لها عن تخلفى عن حضور الجنازة .

— لك ما تشاء . ولكن صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها . فقد
ذهبت بالأولاد الى بيت سيدة هى صديقة قديمة لى تدير ملجأً للأيتام .
لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعت لها مبلغاً من المال لصغار كاترين ايفانوفنا
الثلاثة ، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذى تديره . وقد قصصت عليها
كذلك قصة صوفيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفى شيئاً . فكان
الأثر الذى أحدثته فى نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف . وذلك
هو السبب فى أن صوفيا سيميونوفنا قد دُعيت الى أن تذهب فى هذا اليوم

نفسه الى البيت الذى نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من اجازتها منذ
برهة •

- سأذهب مع ذلك الى صوفيا سيميونوفنا •

- افعل ما تشاء ، لكننى لن أصحبك • ما ذهابى الى هناك ؟ ثم
ها نحن قد أوشكنا أن نصل • قل لى : يخيل الى أنك انما تنظر الى
نظرة الريبة هذه لأننى كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن
أن ... أنت تفهم عنى ! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً ، أليس كذلك ؟
فهلاً أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب !

- وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب ؟

قال سفدرىجايلوف وهو يضحك :

- ها ... اذن ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه ! على كل حال ، كان
سيد هسنى أن لا تثير هذا الموضوع ! ها ها ها ! ولكن الواقع أننى لم
أسمع الا بضعة شذرات من جميع تلك المهازل التى كنت تقصها على صوفيا
سيميونوفنا ... وقد فاتتني خاتمة ذلك كله • قد أكون شخصاً متخلف
الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أى شئ • ولهذا نفسه انما أناشدك
الله يا صديقى أن تشرح لى ... أرجوك أن تثير عقلى على هدى مبادئ
العصر ...

- أنت تكذب ! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً !

- عجيب ! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أننى سمعت بعض الأشياء) •
لا ، ان كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تئن وتتوجع • ان شيللر
الذى يشوى فى نفسك يسبب لك اضطراباً فى كل لحظة • ثم أنت تريد
الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب ! فاذا كنت قاسياً الى هذا الحد ،
فهللم اعترف للسلطات وقل لها : « لقد أملت بى مصيبة ، لقد وقع خطأ

صغير فى نظرياتى الفلسفية • أما اذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن
أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رؤوس العجائز الصغيرات
اللواتى تقع عليهن يده ، فما عليك فى هذه الحالة إلا أن تبادر فتهاجر الى
مكان ما ، الى أمريكا مثلاً • • • لا أدري • • • وانما يجب أن تفعل ذلك
بأكبر سرعة • اهرب أيها الفتى ! لعله لم يفت الأوان بعد • انتى أكلمك
صادقاً وأخلص لك النصيح • ماذا ؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر ؟
سأعطيك ما أنت فى حاجة اليه •

قاطعہ راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز :

— لا يخطر هذا ببالي على الاطلاق •

— أفهم ذلك • ولا تكلف نفسك عناء الكلام ، فان لك أن لا تقول
شيئاً البتة • انتى أفهم المسائل التى تدور فى رأسك • • • هى مسائل • •
من نوع أخلاقى ، أليس كذلك ؟ أنت تتساءل هل تصرفت التصرف الذى
يليق بإنسان ، بمواطن ؟ ولكن دع هذه المسائل ، انبذها ! فيم يمكن أن
تفيدك الآن ؟ هى • هى • هى ! والا ، ما كان عليك أن تزج نفسك فى هذا
الأمر وأن تشرع فى عمل لست قادراً على المضى فيه الى النهاية • هيّا
هشّم دماغك ! لا تحب ذلك ؟

— لكأنك تحاول احناقى عامداً لأنصرف •

— غريب أمرك ! لقد وصلنا ، فما عليك إلا أن تكلف نفسك عناء
صعود السلم ! ها هو ذا باب صوفيا سيميونوفنا • انظر • ليس فى بيتها
أحد • ألا تصدقنى ؟ اسأل اذن آل كابرنائوف • انها تترك لهم المفتاح
دائماً • وهذه هى « السيدة » كابرنائوف بنفسها على كل حال • ماذا ؟
(انها صماء قليلاً) • هل خرجت صوفيا سيميونوفنا ؟ فالى أين ذهبت ؟
ها قد سمعت أنها ليست فى بيتها وأنها لن ترجع الا فى ساعة متأخرة من

الليل • تعال اذن معي ، الى بيتي • كنت تريد أن تجيء الى فعلاً ،
 أليس كذلك ؟ فها نحن في بيتي ! ليست السيدة ريسليش هنا • انها
 لا تنقطع عن الحركة ، لكنها امرأة طيبة ، أوكد لك ؛ وفي وسعها أن
 يمدك كثيراً اذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل • انظر : هأنا ذا آخذ من
 مكتبي سنداً مالياً (وأنت ترى أنني أملك سندات كثيرة أخرى) ، غير أن
 السند سيبدل منذ هذا المساء نقوداً رنانة • هل رأيت ؟ لم يبق لدى وقت
 أضيعه • هأنا ذا أغلق مكتبي ، وأغلق باب الشقة ، وها نحن نهبط
 السلم • هل تريد أن نركب عربة ؟ اتبني ذاهب الى « الجزر » كما تعلم •
 هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربة • انظر : هأنا ذا آخذ هذه
 العربة ، وأطلب من الحوذي أن يقودني الى جزيرة ايلاجين • ماذا ؟
 أترفض ؟ أنت منهوك القوى ؟ هيّا • • • لنقم بجولة صغيرة معاً ! أحسب
 أن المطر سيهطل ، ولكن لا ضير ، سترفع غطاء العربة •

كان سفدريجاييلوف قد استقر في العربة • واعتقد راسكولنيكوف ،
 في تلك اللحظة على الأقل ، أن شبهاته ليس لها ما يسوئها • فاستدار
 دون أن يجيب بشيء ، وسار في اتجاه « سوق العلف » • ولو قد التفت
 الى وراء لرأى سفدريجاييلوف ينقد الحوذي أجره بعد مائة خطوة ، ويعود
 يمشي على الرصيف • ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى
 شيئاً ، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع • ان اشمئزاً كان يدفعه
 بعيداً عن سفدريجاييلوف • هتف يتساءل رغم ارادته : « كيف أمكنني ،
 ولو خلال لحظة قصيرة ، أن انتظر شيئاً من هذا الانسان الدنيء الحقير !
 من هذا الوغد السافل المنحط ! » • ولكن الحقيقة هي أن حكم
 راسكولنيكوف على سفدريجاييلوف كان فيه شيء من تسرع وتعجل • ومهما
 يكن من أمر فان الجو الذي خلقه سفدريجاييلوف كان يضيف على
 سفدريجاييلوف شيئاً من شذوذ ، بل ويحيطه بشيء من السر • وظل

راسكولنيوف مقتنعاً بأن سفدريجاييلوف لن يدع أخته فى سلام • ولكن التفكير وإعادة التفكير فى هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف •

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل فى أحلام عميقة على عادته • حتى اذا وصل الى الجسر توقف قرب الافريز وأخذ يتأمل الماء ، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمل له هو • كان قد قاطعها عند أول الجسر تماماً ، ولكن دون أن يلاحظها • وهذه أول مرة تلتقى فيها دونيا بأخيها فى الشارع على هذا النحو ، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً حين رآته ، وتوقفت لا تدري أتصاديه أم لا • ثم لم تلبث أن لمحت سفدريجاييلوف على حين فجأة ، متجهاً نحو « سوق العلف » بخطى سريعة ، وكأنه يسير محاذراً متخفياً ؛ ولم يدخل الجسر ، بل توقف على الرصيف ، متحياً بعض التحى ، حتى لا يراه راسكولنيكوف • كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة ، وهو يحرك لها يديه بإشارات فهمت دونيا منها أنه يحضنها على أن لا تنادى أخاها ، وأن تتركه وشأنه ، وأن تلحق به هو •

وذلك ما فعلته دونيا : فيها هى ذا تتجاوز أخاها ، دون أن تقول كلمة ، وها هى ذى تقترب من سفدريجاييلوف •

دمدم سفدريجاييلوف قائلاً لها :

— تعالى بسرعة ! لا أريد أن يعلم روديون رومانتش بموعدنا • اعلمى اننى خارج من حانة قريبة وافانى فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه الا بكثير من المشقة والعناء ! لا أدري كيف سمع بأمر الرسالة التى بعثت بها اليك ، وهو الآن يشبه فى أن هناك شيئاً ما • أرجو أن لا تكونى أنت التى بحث له ببعض الأسرار • ولكن اذا لم تكونى أنت ، فمن عسى يكون ؟ ...

قاطعته دونيا تقول :

- لقد انعطفتنا وقطعنا ناصية الشارع ، فأصبح أخى لا يستطيع أن يرانا • لن أتبعك الى أبعد من هذا المكان • فقل لى كل شيء هنا • اننا نستطيع أن نتكلم فى الشارع •

- أولاً : لا يمكن أن يقال هذا فى عرض الشارع • ثانياً : ينبغى أن تسمى أيضاً صوفيا سيميونوفنا • ثالثاً : هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها • أخيراً : اذا كنت ترفضين أن تجيئى الى بيتى فسوف أمتنع عن كل شرح ، وسوف أنصرف فوراً • هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سرّاً شائعاً جداً ، متعلقاً بأخيك الحبيب ، يوجد بين يدي •

توقفت دونيا مترددة ، ورشقت سفدريجايلوف بنظرة نافذة ، فسألها سفدريجايلوف هادئاً :

- ممّ تخافين ؟ ليست المدينة كالريف • ثم انك فى الريف قد أسأت الى أكثر مما أسأت اليك • لذلك •••

- هل أطلعت صوفيا سيميونوفنا ؟

- لا ، لم أقل لها كلمة واحدة ، حتى اننى لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن فى بيتها • ولكن أغلب الظن أنها هناك • لقد دفنت اليوم قريبتها ، فما هذا يوم زيارات تقوم بها • على كل حال ، لن أحدث أحداً فى هذا الأمر الآن ، حتى ليؤسفنى أننى أطلعتك عليه ، فان أقل طيش يساوى هنا وشاية • انظرى : هذا هو المنزل الذى أقطن فيه ، أمامنا • والبواب يعرفنى جيداً • هذا هو يحيىنى كما ترين • انه يلاحظ أن معى سيدة • وطبعى أن صورة وجهك قد نقشت الآن فى ذاكرته • وينبغى لهذا أن يطمئنك اذا كنت تخافين منى وتشكين فى • اغفرى لك هذه

الفضاظة فى مخاطبتك • أنا هنا مستأجر عند مستأجرين ، وليس يفصلنى عن صوفيا سيميونوفنا الا حائط ، فهى أيضاً مستأجرة عند مستأجرين • الطابق كله مسكون ، فممّ خوفك ؟ ألا أن هذا الخوف لحوف طفلة صغيرة ! أنا مخيف الى هذه الدرجة ؟

قال سفدرىجايلوف ذلك وهو يصطنع ابتسامة. أراد لها أن تعبّر عن الطيبة والسماحة ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حداً لا يستطيع معه أن يحسن التمثيل • كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت أنفاسه مختنقة • وكان يعتمد أن يتكلم بصوت قوى ليخفى اضطرابه المتزايد ، ولكن دونيا لم تلاحظ هذا الاضطراب • لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذى يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة فى نظرها •

قالت بلهجة ظاهرها هادىء ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً :
- رغم اننى أعذك رجلاً لا شرف له ••• فانى لا أخاف منك البتة • تقدمنى !

توقف سفدرىجايلوف أمام باب صوتيا •

- اسمحى لى أن أسأل هل هى فى بيتها • لا ، ليست فى بيتها •
يا لسوء الحظ ! لكننى أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة • لئن تغيبت ، فما ذلك إلا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام • فاذا لم ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها اليك فى هذا اليوم ان رغبت فى ذلك • هذا مسكنى ، وهاتان هما الحجرتان اللتان أحتلهما • وراء هذا الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليش • والآن أنظرى هنا ، سوف أظهرك على وناثقى الأساسية • من غرفة نومى يفضى هذا الباب الذى ترين الى غرفتين خاليتين كل الحلو ، معدّتين للتأجير • انظرى •• يجب أن تنتبهى اليهما أكبر الانتباه •

كان سفدرىجايلوف يشعر، غرفتين مؤثنتين واسعتين • أجالت دونيا بصرها فيما حواها مرتابة • لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر • لا فى أثاث الغرفتين ولا فى ترتيبهما • رغم أنها كان يمكن أن تنبه الى أن شقة سفدرىجايلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً • يصل المرء اليهما لا من الممر رأساً • بل باجتياز غرفتين خاليتين لصاحبة البيت • وفتح سفدرىجايلوف باباً مقفلاً بالمفتاح • يقع فى آنر غرفة نومه • فأرى دونيا المسكن الخالى المعد للتأجير •

وقفت دونيا عند العتبة لا تدري لماذا يدعها سفدرىجايلوف الى أن تنظر • ولكن سفدرىجايلوف أسرع يمدّها بالشروح فقال لها :

- انظرى هنا • الى هذه الغرفة الثانية • لاحظى هذا الباب • انه مغلق بالمفتاح • وقرب هذا الباب يوجد كرسى • انه الكرسى الوحيد الذى يمكن العثور عليه فى هاتين الغرفتين • أنا الذى جئت به الى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب • ووراء هذا الباب مباشرة • توجد مائدة صوفيا سيميونوفنا • لقد كانت جالسة الى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانتش • فمن وضع جلوسى على هذا الكرسى • فى هذا المكان نفسه • ظللت أنا أتصت الى حديثهما مساءين متتاليين • خلال ساعتين فى كل مرة • فعرفت بعض الأمور طبعاً • ما رأيك ؟

- تنصت على الباب ؟

- نعم • تنصت على الباب • والآن فلنذهب الى غرفتي • هنا لا نستطيع أن نجلس •

قال سفدرىجايلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا الى الغرفة الأولى التى يتخذها صالوناً • ودعاها الى الجلوس • وجلس هو الى الطرف الآخر من المائدة • ولكن عينيه كانتا تسطعان بذلك اللهب نفسه الذى كان قد

روّع دونيا ترويعاً شديداً فى ذات يوم • ارتعشت دونيا ؛ ومرة أخرى نظرت فيما حولها مرتابة • كانت لا تريد أن تظهر ارتياها ، غير أن حالة العزلة فى شقة سفدرىجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً ، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة فى الدار على الأقل ، ولكن كبرياءها صدبتها عن هذا السؤال • وكان قلبها على كل حال يعانى ألماً أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه فى سبيل نفسها • وكان هذا الألم يعذيبها عذاباً شديداً •

بدأت تتكلم فقالت وهى تضع رسالته على المائدة :

— هذه رسالتك • هل ما أوردته فيها ممكن ؟ انك تلمع الى جريمة ارتكبتها أخى • لا تحاول أن تهرب وأن تملص الآن • ان الماعك أوضح من أن تنكره • واعلم أننى حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التى لا أصدق منها حرفاً واحداً • ان افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف فى آن واحد • اننى أعلم كيف لفقت هذه الخرافة • لا تستطيع أن تقدم أى برهان على ... لقد وعدتني بأن تبرهن : فتكلم اذن ! ولكن عليك أن تعلم سلفاً اننى لن أصدقك • لا ، لن أصدقك ! لا ، لن أصدقك !

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة ، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال فى لحظة •

قال سفدرىجايلوف :

— ولكن اذا كنت لا تصدقيني فلماذا جئت الى بيتى وحيدة ؟ نعم ، لماذا جئت الى بيتى ؟ هل بدافع الفضول وحده ؟
— لا تعذبنى ! تكلم ! تكلم !

- لا شك في أنك فتاة شجاعة • لقد ظننت أنك ستطلين من السيد رازوميخين أن يصحبك الى هنا • لكنه لم يظهر لا معك ، ولا حولك • لقد نظرت ملياً فلم أراه • هذه شجاعة منك • أنت تريدان اذن أن تنقذي أخاك روديون روماتش ! على كل حال ، فان كل ما فيك عظيم ، رائع ! ... أما أخوك ، فماذا أقول لك عنه ؟ لقد رأيته بنفسك ، فما رأيك في حالته ؟

- أرجو أن لا تكون حالته هذه هي الأساس الذي بنيت عليك اتهامك اياه !

- لا ، لا ، لم أبين اتهامي على حالته فحسب ، بل على أقواله أيضاً • على كل حال ، لقد جاء الى صوفيا سيميونوفنا مساءين متتالين ، فجلسا في المكان الذي أريتك اياه • وهناك اعترف لهما بكل شيء ، اعترافاً تاماً • انه قاتل • قتل العجوز المرابية التي كان قد رهن عندها أشياء ، وقتل اختها المتاجرة التي تسمى اليزابت والتي دخلت مصادفةً بينما كان يقتل العجوز • قتلها كليهما بساطور جاء به لانفاذ جريمته • قتلها ليسرق ، وقد سرق • أخذ مالا ، وأخذ أشياء صغيرة ! ... أنا انما أروى لك ما رواه هو نفسه ، كلمةً كلمةً ، لصوفيا سيميونوفنا التي تعرف وحدها السر والتي لم تشارك في جريمة القتل أية مشاركة ، لا بالقول ولا بالفعل ، حتى لقد روعتها هذه القصة كما تروّعك أنت الآن • لا تخافي ! لن تشي به !

تمت دونيا تقول وقد ابيضت شفتاها ، واحتنق صدرها :

- هذا مستحيل ! مستحيل ! ليس هناك أي سبب يدفعه الى ذلك ! ليس هناك أي باعث يحضه على ذلك ! ... هذا كذب ! كذب فظيع ! ...
- لقد سرق • هذا هو الدافع الوحيد • أخذ مالا ومجوهرات •

صحيح أنه ، كما قال ، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك المجوهرات ، بل مضى يخبئ كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والمجوهرات جميعاً • ولكن السبب في ذلك هو أنه لم يجرؤ •••

صاحت دونيا تقول وهى تنهض عن مكانها واثبة :

- ولكن هل يُعقل أن يكون قد سرق ؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً ؟ انك تعرفه ، انك رأيتَه ، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً ؟

لكانها كانت تتضرع الى سفدرىجايلوف • كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها •

- هناك يا آفدوتيا رومانوفنا أنوف وملايين من أصناف السارقين : رب رجل يسرق وهو يدرك في قرارة نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً • وقد سمعت مرة عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد ، فمن يدري ؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود ؟ لو كنت في مكانك لدُهِشت دهشتك هذه نفسها ، ولو روى لى هذه القصة شخص آخر لما صدّقه • ولكنى لا أستطيع أن أكذب أذننى • ان أخاك قد بسط لصوفيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذى حضته على ارتكاب فعلته ، فأبت هى نفسها أول الأمر أن تصدّق ، ولكنها لم تملك أخيراً إلا أن تصدّق ، حين رأت هيئته ••• فهناك الآذان ، وهناك الأعين أيضاً •

- وما هى تلك الدوافع ؟

- تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا • كيف أشرح لك ؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة التى تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل ••• فعلة شر واحدة فى مقابل مائة

فعل من أفعال الخير ! ثم ... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً ، زاحر بكبرياء لا حدود لها ، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله ، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ ؟ أضيفى الى ذلك حالة الحق المرضى الناشء عن جوعه المزمن ، وعن سكناه فى حجرة ضيقة مسرقة فى الضيق ، وعن ارتدائه اسمالاً بالية وخرقاً ممزقة ، وعن شعوره بكل ما فى وضعه الاجتماعى من بؤس وشقاء ، بالإضافة الى وضع أمه وأخته ، وهناك ، فوق ذلك كله ، الطموح ، والأنفة ، والغرور ، وربما عواطف طيبة أيضاً ... الله أعلم ! صدقى أننى لا أتهمه • ثم ان اتهمه ليس شأنى أنا • وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك - هى نظرية كآبة نظرية أخرى * - تلك التى تذهب الى أن الانسانية تنقسم الى فئتين ، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفذاذ الحارقين أى الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلى أن لا يصدّهم أى قانون من القوانين ، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم ، أى على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد ، الذين يتألف منهم القطيع ، الذين هم الغبار ! نظرية لطيفة كآبة نظرية أخرى ، أليس كذلك ؟ لقد فتنه نابوليون كثيراً ، أو قولى أنه انتقاد لاغراء ذلك الرأى الذى يرى أن العباقرة لا يكثرثون لحالات الظلم الفردية ، بل يتخطونها فلا يرتبكون بأمور هينة يسيرة • ولقد تخيل ، فيما يبدو ، أنه هو نفسه عبقرى ؟ أو قولى على الأقل أنه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن • وقد تعذب كثيراً كذلك ، وما يزال يتعذب ، فهو يدرك الآن أنه ان استطاع أن يضع نظرية ، فلقد عجز عن المضى قدماً بلا تردد ؛ أى لقد أدرك أنه ليس عبقرى • وهذا الادراك أمر يشعر منه الفتى ، اذا كانت نفسه زاحرة بالكبرياء ، يشعر منه بمذلة كبيرة واهانة عظيمة ، ولا سيما فى عصرنا هذا ...

... وعذاب الضمير ؟ أأنت تنكر عليه اذن أى حس أخلاقى ؟ أهو
... حقاً ... كما تصف ؟

— آه يا آفدوتيا رومانوفنا ! ان كل شىء قد اضطرب الآن واختل ...
ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد فى هذا العالم يوماً + ثم ان الروس
على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحية كأراضيههم ، وهم ميّالون
كثيراً الى الخيال والنزوة والفوضى + ولكن النفس الواسعة الرحية تكون
خطرة اذا لم يوهب لها شىء من عبقرية + تذكرى مناقشاتنا القديمة فى
هذا الموضوع هناك ، فى الشرفة المطلة على الحديقة ... لقد كنت تعيين
على سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان + من يدرى مع هذا ؟ لعله ، حينما
كنا نحن نتكلم ، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعه + ان مجتمعنا
المتقف لا يلمع بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا + بعض الناس يصنعون
لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق ، من كتب قرأوها ، وبعضهم
يستمدون أصباغ تقليد من بعض حكايات الماضى + ولكن هذا انما يصدق
على العلماء ، وأكثرهم يبلغ من الحماسة أن رجلاً من رجال المجتمع
الراقى يخجل من اقتفاء أثرهم واتخاذهم قدوة له + على أنك تعرفين
آرائى : أنا لا ألوم أحداً + كل ما هنالك اننى أتحاشى أن أقحم نفسى
فى شىء + لقد سبق أن تحدثنا فى هذا مراراً + حتى ان آرائى قد شرفها
أن حظيت باهتمامك ... انك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا +

— أنا أعرف نظرية أخى هذه + قرأت فى مجلة من المجلات مقالته
عن الرجال الذين يباح لهم كل شىء + ان رازومبخين هو الذى جاءنى
بتلك المجلة +

— السيد رازومبخين ؟ مقالة أخيك ؟ ولكنى كنت أجهل وجود
مقالة كهذه المقالة + لا بد انها شائعة جداً ! ... الى أين أنت ذاهبة
يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

- أريد أن أرى صوفيا سيميونوفنا • من أين يجب المرور للذهاب إليها ؟ لعلها عادت ! أريد أن أراها على الفور حتماً • يجب أن •••

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها ، فقد انقطع تنفسها فعلاً •

- لن تعود صوفيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل • هذا ما افترضه على الأقل • كان يجب أن تعود اما في وقت مبكر جداً واما في وقت متأخر جداً •••

- آ ••• الآن أرى أنك تكذب ! الآن أرى أنك تكذب ! أنت لم تزدد على أن كذبت ! اننى لا أصدق كلمة واحدة مما ذكرت ••• لا أصدق منه كلمة واحدة !

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها •
ثم تهالكت على كرسي أسرع يقدمه اليها سفدريجاييلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها •

- ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا ؟ عودى الى نفسك ! اليك ماء !
اشربى جرعة ماء !

قال سفدريجاييلوف لها ذلك ، ورشَّ وجهها بالماء ، فارتعشت وأفاقت •

فقدم يقول بينه وبين نفسه مقطَّب الوجه :

- ما أبلغ تأثير هذا الأمر في نفسها •

ثم قال لها :

- هدئي روعك يا آفدوتيا رومانوفنا ! أنت نعرفين أن له أصدقاء •
سوف تنقذه ، سوف نخرجه من المأزق ! هل تريدان أن أساعده على أن
يجاوز الحدود ؟ انتي أملك مالا • وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت
له جواز سفر • لقد قتل ، نعم ، ولكن هدئي نفسك • ما يزال في وقته
متسع لأن يقوم بأعمال خيرة كثيرة • ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً
عظيماً • ما بك ؟ ألا تشعرين الآن بتحسناً ؟

- رجل شرير ••• ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزئ !
عنى •••

- الى أين أنت ذاهبة ؟ الى أين ؟

- اليه ! أين هو ؟ هل تعلم أين هو ؟ لماذا هذا الباب مغلق ؟ من
هذا الباب دخلنا ، فمالى أراه الآن مقفلاً بالفتاح ؟ متى أتيح لك أن
نقله ؟

- لم يكن في الامكان أن نسمع جميع الغرف ما قلناه ! وأنا
لا أسخر ولا استهزئ البتة ، حتى اننى سئمت من الحديث في هذا الأمر
كله • غريب ! الى أين تريدان أن تذهبي ؟ أتراك تريدان أن تزجيه
في السجن ؟ لو ذهبت اليه لاشتعل غضباً وحنقاً ، ولمضى يشى بنفسه !
اعلمى أنه مراقب منذ الآن ، وأنهم يتبعونه • لسوف تكشفين أمره مزيداً
من الكشف ! انتظري ••• لقد رأيته منذ قليل وكلمته • ما يزال في
الامكان انقاذه • انتظري • اجلسي • سنفكر معاً • من أجل هذا انما
دعوتك ، من أجل أن نتحدث في خلوة وأن تعمق درس المشكلة • ولكن
هلاً جلست !

- بأية طريقة تستطيع أن تنقذه ؟ وهل يمكن انقاذه ؟
قالت دونيا ذلك وجلست ، فجلس سفدريجايلوف الى جانبها ، وبدأ

يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه ، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات :

- كل شيء متوقف عليك

فراجعت دونيا بضع خطوات ، مذعورة مرتجفة • وكان سفدريجاييلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين •

- أنت كلمة منك أنت وينقذ ! أنا أنا سوف أنقذه !
عندي مال ، ولى أصدقاء ! سأرحله فوراً ، وسأحصل أنا نفسى على جواز سفر • • سأحصل على جوازي سفر ، واحد له وواحد لى • لى أصدقاء • • رجال قانون • • هل تريدون ؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت ، ولأهلك • • ما حاجتك الى رازوميخين ؟ انتى أحبك مثلما يجبك • • أحبك حباً لا نهاية له • • دعينى أقبل حافة ثوبك ! دعينى أفعل هذا ، دعينى أفعل هذا ! أصبحت لا أطيق سماع حفيف ثوبك ! مرينى بما يجب أن أفعل فأفعل • سأفعل كل شيء ، سأفعل المستحيل ! أصدق كل ما تصدقنه وأومن بكل ما تؤمنين به ! أفعل كل شيء ، كل شيء ! لا تنظرى الى هكذا ، لا تنظرى الى هكذا ! هل تعلمين أنك تقتلينى • •

~~أخذ سفدريجاييلوف يهذى • ان شيئاً ما قد مسّه فجأة ، كأنه تلقى ضربة على رأسه • ونهضت دونيا بوثة • واندفعت نحو الباب ، وصاحت تقول وهى تهز الباب بكلتا يديها :~~

- افتحوا ! افتحوا ! ألا فتحم الباب ؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة

أحد ؟

كان سفدريجاييلوف قد جلس ، وما هو ذا ينهض الآن وقد أملت ابتسامة خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعشان •

قال بصوت خافت متقطع :

- ليس ثمة أحد • صاحبة الدار خرجت • تضيّعين وقتك سدى
بهذا الصراخ • تثيرين أعصابك فى غير طائل •

- أين المفتاح ؟ افتح الباب ! افتح الباب فوراً ! فوراً ! يا لك من
جبان حقير !

- أضعت المفتاح ، ولا أعر عليه !

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكأنها ميتة :

- آ ... هذا اغتصاب اذن !

وهرعت الى ركن من الغرفة ، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة
صغيرة كانت فى متناولها •

أصبحت الآن لا تصيح ، لكنها كانت مثبتة بصرها فى عدوها ترصد
بنظرة يقظة أيسر حركة من حركاته • وقد أصبح سفدرىجايلوف
لا يتحرك هو أيضاً ، ولبث واقفاً أمامها فى الطرف الآخر من الغرفة •
كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه ، فى الظاهر على الأقل • لكن وجهه
ظل أصفر كما كان قبل ذلك ، وما تزال ابتسامته الساخرة مرتسمة على
شفتيه • وقال أخيراً :

- لقد نطقت أنت بكلمة « الاغتصاب » يا آفدوتيا رومانوفنا • ولكن
إذا كان فى نيتى أن أغتصبك ، فلا بد أنى اتخذت احتياطاتى كما تقدرين •
ان صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها • ولكى تصلى الى أسرة كابرناؤموف ،
يجب أن تتجاذى خمس غرف هى الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح • ثم اننى
أقوى منك مرتين على الأقل ، هذا عدا اننى لست أخشى على شىء البتة ،
فلن يكون فى وسعك أن تذهبنى لتشتكىنى • لن تريدى أن تفضحى

أخاك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ثم ان أحداً لن يصدقك على كل حال ، فلماذا تذهب فتاة منفردة الى بيت رجل وحيد ؟ فحتى لو ارتضيت ان تضحي بأخيك ، فلن تستطيعي أن تبرهنى على شيء . نعم ، انه لمن الصعب جداً أن تثبتى أن « اغتصاباً » قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا .

دمدمت دونيا تقول حانقة :

- جبان !

- قولى ما تشائين ، ولكن لاحظى اننى لم أقدم الا افتراضات . وأنا شخصياً أوافقك فى رأيك كل الموافقة : ان الاغتصاب دناءة وحطة . لكننى أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك أى تعذيب اذا . . . اذا أنت ارتضيت ، بمحض ارادتك ، أن تنقذى أخاك ، كما اقترح عليك . فأنما أنت تخضعين عندئذ للظروف ، أو تخضعين للقوة اذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة . فكرى : ان مصير أخيك ومصير أمك بين يديك . أما أنا فسأظل عبدك المطيع . . . ما حيت . . . وسأظل أنتظرك هنا . . .

جلس سفدرىجايلوف على الأريكة ، على مسافة ثمانى خطوات من دونيا . لكن دونيا أصبحت لا ساورها أى شك فى أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع . لقد كانت تعرفه حق المعرفة .

فها هى ذى تسل من جيبتها مسدساً على حين فجأة ، فتحشوه بالرصاص بسرعة ، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخى المسدس ، فيتلفض سفدرىجايلوف وينهض عن مجلسه ، ويصبح مدهوشاً ، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً :

- آ . . . هكذا اذن ! لا ، لا ، ان هذا يغير الموقف تغييراً تاماً ، ويقلبه رأساً على عقب . أنت بهذا تيسرين على الأمور كثيراً يا آفدوتيا

رومانوفنا ! ولكن أين وجدت هذا المسدس ؟ هل السيد رازوميخين هو الذى ولكن عجيب هذا مسدسى أنا ! لطالما بحثت عنه ! ان دروس الرماية التى تشرفت باعطائك اياها فى الريف لم تذهب اذن سدى !

- ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد ، بل مسدس مارتا بتروفنا التى قتلتها ! لا شىء فى ذلك المنزل كان ملكك أنت ! لقد أخذت المسدس حين أخذت أشبهه فى نياتك وأدركت سفالتك • يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوة واحدة لقتلتك فوراً !

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدة صوابها ، وهى ممسكة بالمسدس متأهة لاطلاق الرصاص •

قال سفدرىجايلوف وهو ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه :

- وأخوك ؟ على اننى انما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر !

- أخى ؟ أبلغ عنه السلطات ان شئت ! لا تتحرك ، والا أطلقت الرصاص • لقد دسست لزوجتك السم فى الطعام ، أنا أعرف ذلك ، أنت نفسك قاتل !

- هل أنت على يقين من أننى دسست السم لمارتا بتروفنا ؟

- نعم ، أنت ! حتى لقد ألمعت الى هذا السم أمامى • وانى لأعلم أنك انما سافرت لتجىء به هيات كل شىء أنت القاتل ! لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقى !

- حتى اذا صح هذا ، فانك تكونين أنت السبب •

- كاذب ! أنا أحضتكَ دائماً ، دائماً !

- مهلاً مهلاً يا آفدوتيا رومانوفنا ... أرى أنك نسيت كيف كنت ، أثناء تمثيلك دور الواعظ ، تميلين على متلهفة النظرات • لقد قرأت الحب في عينيك ... ألا تتذكرين ذلك العنديل الذي كان يغنى في ضوء القمر ذات مساء ؟

- كاذب ! كاذب ! مقترع نمائم !

كان الحق يشتعل في عيني دونيا •

قال سفدريجاييلوف :

- كاذب ... لنسلم باتي كاذب ! على كل حال ، ما ينبغي للمرء أن يذكر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ...

وابتسم ، ثم أردف قائلاً :

- أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة ... فماذا تنتظرين ؟ أطلقى !

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجاييلوف وقد اصفر لون وجهها حتى لكأنه وجه ميت ، وابيضت شفتاها وأخذتا تختلجان اختلاجاً قوياً • كانت تنظر اليه بعينيها اللتين ترشقان شرراً ، وقد عزمَت أمرها فهي ترصد أيسر حركات الرجل •

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله في يوم من الأيام • ان اللهب الذي كان ينبجس من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه احراقاً • وتشنج قلبه ألماً •

وتقدم سفدريجاييلوف خطوة ، فانطلقت الرصاصة ، فلامست شعره • ومضت تضرب الحائط ورائه • فتوقف ، وأخذ يضحك في رفق وهدوء •

- وخزنتى النحلة ! انها تسدد الى الرأس ... ما هذا ؟ دم ؟
وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه
الأيسر : لعل الرصاصة قد خدشت الجلد المغطى بالشعر •
خفضت دونيا المسدس ونظرت الى سفدرىجايلوف • ان نظرتها
لا تعبر عن الذعر بقدر ما تعبر عن الانشدهاء • لكأنها لم تدرك ماذا فعلت
ولا ماذا ما حدث !

قال سفدرىجايلوف بصوت خافت ، مع ابتسامة حزينة :
- طاشت الضربة • هلاًّ أطلقت مرةً أخرى ! انى أنتظر ! والا
كان فى وقتى متسع لأن أقبض عليك قبل أن تشدّى الزناد مرة أخرى •
ارتعشت دونيا ، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية ، وشهرته
على سفدرىجايلوف من جديد • وقالت يائسة :
- دعنى ! يميناً لأطلقن مرة أخرى اذا لم تتركنى ! يميناً ...
لأقتلك ...

- وبعد ذلك ؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد
ثلاث خطوات ... ولكن ماذا لو أخطأتى مرة ثانية ، ما عساك فاعلة
حينذاك ؟ ...

قال ذلك وسطعت عيناه ، وتقدم خطوتين أخريين ، فضغطت دونيا
على الزناد ، ولكن الطلقة لم تخرج •
- لم تحسنى حشو المسدس ! لا بأس ! ما يزال عندك رصاصة •
أحكمى وضعها ! سوف أنتظر •

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر ، وينظر اليها بعينين

يتوهج فيهما لهيب ثقيل شهواني ، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم جنوني •

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تتصرف • « طيب ، طيب ، في هذه المرة ، وهو منها على بعد خطوتين فقط ، ستقتله فعلاً » • بهذا حدثت دونيا نفسها ، ولكن ها هي ذى ترمى المسدس فجأة •

قال سفدرىجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه :
- رميته ؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل ، حمل ليس مردّه الى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب ، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة ، وانما هو أحس أنه تخلص من شيء آخر ، من شعور أشد ايلاماً وأحلك ظلاماً ، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدّده •

واقترب من دونيا ، وضمّ اليه قامتها فى رفق وهدوء ، فلم تقاوم ، ولكنها نظرت اليه بعينين ضارعتين وهى ترتعش كورقة فى مهب الريح • ودّ لو يقول شيئاً ولكن شفّيته تقلصتا ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة •

قالت له متوسلة بصيغة المخاطب المفرد :

- اتركنى !

فاختلج سفدرىجايلوف • ان استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل •
سألها بصوت خافت :

— أأنت لا تحيينى اذن ؟

فحركت دونيا رأسها بإشارة النفى • فهمس يسألها يائساً :

— ولن ••• تستطيعى ••• أن تحيينى فى يوم من الأيام ؟

فأجابته هامسة :

— لا ، لن أستطيع ذلك فى يوم من الأيام !

نشبت فى نفس سفدرىجايلوف ، خلال لحظة من الزمن ، معركة خرساء رهيبة • كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل الى وصفها • وفجأة سحب يده ، واستدار ، وأسرع يتعد نحو النافذة ، ولبت هنالك جامداً لا يتحرك •

انقضت برهة أخرى •

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه ، فيضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا ، بل ودون أن يلقي عليها نظرة واحدة ، قائلاً لها :

— اليك المفتاح ! خذيه وانصرفى بسرعة !

كان ينظر الى النافذة فى عناد ، لا يحول بصره عنها يمنةً ولا يسرة • اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح • فقال سفدرىجايلوف مكرراً ، دون أن يتحرك أو أن يلتفت :

— بسرعة ، بسرعة •

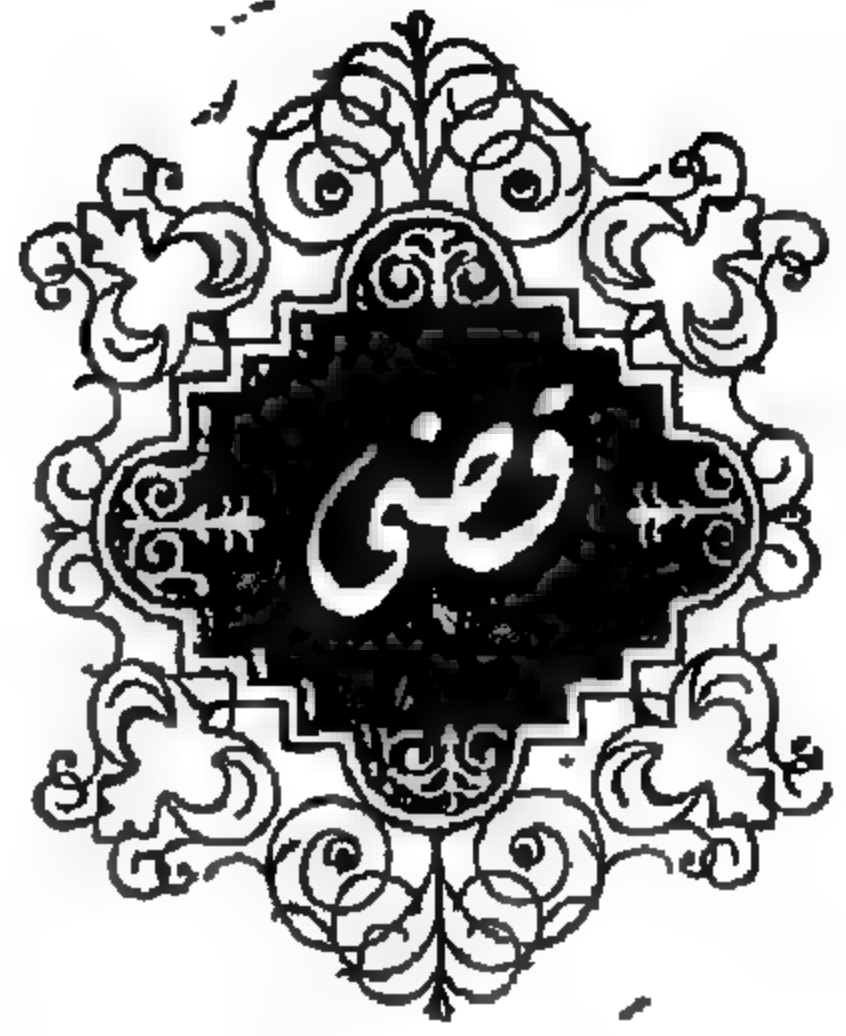
ولكن كلمة « بسرعة » هذه كان لها جرس رهيب !

لاحظت دونيا ذلك • وتناولت المفتاح ، واندفعت نحو الباب ففتحته ،

وهرعت تخرج من الغرفة • فما هي الا دقيقة واحدة حتى كانت تجرى
كالمجنونة على طول القناة في اتجاه جسر س •••

لبث سفدريجايلوف أمام النافذة ثلاث دقائق • ثم التفت ببطء ،
ونظر حواليه ، ومرّ بيده على جبينه في رفق • ان ابتسامة غريبة تعقف
الآن شفّته ، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة ، ابتسامة هي ابتسامة ألم كبير
ويأس شديد • وكان الدم قد جف على يده ، فنظر اليه نظرة تفيض
بغضاً ، ثم بلل خرقةً بالماء فمسح بها صدغه • ووقع بصره على المسدس
الذي كانت قد رمته دونياً فتدحرج على الأرض • انه مسدس صغير
للجيب ، من طراز قديم ذي ثلاث طلقات • ان فيه الآن طلقتين وكبسولة •
ما يزال يمكن استعماله مرة • فكّر سفدريجايلوف لحظة ، ودسّ
المسدس في جيبه ، ثم تناول قبعته وخرج •

الفصل السادس



السهرة حتى الساعة العاشرة في الحانات والمحلات
المشبوحة متنقلاً بينها • وعثر في مكان ما على
كاتيا • كانت كاتيا ما تزال تغني أغنياتها المألوفة
التي تتحدث عن « الطاغية الحفير »

الذي أخذ يقبل كاتيا

فسقاها سفدريجاييلوف وسقى صاحبها الصغير ، العازف على أرغن
بارباريا ، وسقى الخدم والمغنين ، واثنين من صغار الموظفين جذبته اليهما
أن أنفهيهما معوججين ، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً الى اليمين ،
وثانيهما كان أنفه منحرفاً الى الشمال ، فلفت هذا الأمر انتباه
سفدريجاييلوف وخطف بصره • وقاده الموظفان أخيراً الى حديقة ملاه ،
فدفع عنهما رسم الدخول وثمان الشراب •

كان في الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر لم يبق لها إلا
ثلاثة أفرع ، وكان في الحديقة كذلك مبنى أطلق عليه اسم «فوكسهول»*
من باب التفخيم وما هو في حقيقته إلا خمارة صغيرة يُشرب فيها الشاي
أيضاً • أن في الخمارة عدة موائد صغيرة ، وكراسي خضراء ؛ وفيها
جوقة هزيلة من المغنين ، وألماني بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من
ممثل مهرج أحمر الأنف ، لكن وجهه يظل كالحا الى أقصى حد ،

لا يذوى المرء كثيراً لماذا) ، وكانت مهمة الجسوة والألماني تسليية الزبائن •

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك ، حتى أوشك التشاجر أن يصير الى تماسك بالأيدي • واحتكم المشاجرون الى سفدرىجايلوف ، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم موضوع التشاجر ، ولكنه لم يفلح فى ذلك من شدة صراخ هؤلاء وأولئك • أغلب الظن فيما أشارت اليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد سرق شيئاً من الأشياء واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً ، ولكن السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه • واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل «فوكسهول» ، وقد تمّ تعرفها ، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة • فما كان من سفدرىجايلوف الا أن دفع ثمن الملعقة ، ونهض ، وغادر حديقة الملاهى •

كانت الساعة تقرب من العاشرة • لم يشرب سفدرىجايلوف خمرة طوال تلك السهرة ، وانما كان يكتفى بطلب كأس من الشاي • وحتى هذا انما كان يفعله من باب التقيد بالشكل • وكان الحر أثناء ذلك ثقيلًا وكانت السماء مكفهرة • وفى نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم كبيرة من جميع أطراف الأفق ، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل غزيراً كأنه السيول • كان الماء لا يتساقط قطرات ، وانما هو شلالات تضرب الأرض • وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً ، فلا يكاد يستطيع المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة ومضة • وابتل سفدرىجايلوف بالماء حتى العظام ، ووصل أخيراً الى بيته ، فأغلق على نفسه الباب ، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته ، ومزّق بعض الأوراق ، حتى اذا فرغ من دسّ أمواله كلها فى جيبه ، بدا له

أن يبدل ملابسه ، لكنه بعد أن ألقى نظرة الى النافذة وأصاخ بسمعه الى هزيم الرعد وتساقط المطر ، حرك يده بإشارة تنم على عدم الاكتراث ، وتناول قبعته ، وخرج دون أن يغلّق الباب وراءه ، ومضى الى صونيا رأساً ، فوجدها فى غرفتها •

لم تكن صونيا وحدها ، وانما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة • كانت صوفيا سيمونوفنا تسقيهم شايًا • واستقبلت سفدرىجايلوف بصمت واحترام ، ونظرت مدهوشة الى ثيابه المبتلة ، لكنها لم تقل كلمة واحدة • أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالب •

جلس سفدرىجايلوف الى المائدة ، ورجا صونيا أن تجلس قربة ففعلت ، وتهيأت لأن تصغى اليه خجلة وخجلة •

قال سفدرىجايلوف :

- صوفيا سيمونوفنا ، ربما سافرت الى أمريكا ، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا ، لذلك جئت أأخذ بعض الاجراءات • لقد رأيت اليوم تلك السيدة ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف ما قالته لك ، فلا حاجة الى أن ترويّه لى (هنا حرّكت صونيا يدها بإشارة واحمر وجهها) • ان لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً • على كل حال ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير ، فان مستقبلهما مؤمن ؟ لقد توليت بنفسى دفع المال الذى يجب أن يثول اليهم ، وأخذت به ايصالات • خذى ، اليك الايصالات • بهذا تسوّى المسألة • واليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل • هذه لك أنت • أرجو أن يبقى هذا الأمر سرّاً بيننا لا يعلم به أحد ، مهما تسمى من كلام • سوف تحتاجين الى هذا المال يا صوفيا

سيميونوفنا ، فان الحياة التى عشتها حتى الآن سيئة ، فلن تضطرى اليها بعد اليوم •

تمت صونيا تقول :

- غمرتني بنعم وآلاء كثيرة ••• أنا ••• والأيتام ••• والمرحومة أيضاً ••• وحتى الآن لم أشكر لك جميلك • لا يذهبن بك الظن خاصة الى أن •••

- رحماك ! رحماك !

وتابعت صونيا كلامها فقالت :

- أما هذا المال يا أركادى ايفانوفتش ، فأننى أشكره لك أجزل الشكر ••• لكننى لست فى حاجة اليه • اننى وقد أصبحت وحدى أستطيع أن أجنى رزقى • لا تحسبن هذا عقوقاً • وما دمت انساناً محسناً الى هذا الحد ، فان هذا المال يمكن دائماً أن •••

- بل هذا المال لك أنت يا صوفيا سيميونوفنا ، وكفى كلاماً ، أرجوك ! ليس فى وقتى متسع • لك أنت ، سيكون هذا المال مفيداً • لا يملك روديون روماتشش الا أن يختار أحد أمرين : فاما رصاصة فى رأسه ، واما طريق فلاديمير * •

نظرت اليه صونيا مروعة وأخذت ترتجف • وتابع هو كلامه يقول :

- لا تقلقى ! لئن كنت أعرف كل شيء ، فلأنه هو الذى روى لى كل شيء ! ••• واذ كنت امرءاً قليل الثروة ، فلن أذكر لأحد شيئاً • أنت أسديت له فى ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً ، هى أن يشى بنفسه ويعترف بجريمته • وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله • ومتى حانت ساعة الرحيل الى سيبيريا ، فسيرحل اليها ، وستبعينه أنت ، أليس

كذلك ؟ فأنت اذن فى حاجة الى مال • سوف تحتاجين الى هذا المال من أجله هو ، هل تفهمين ؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأنتى أعطيه هو اياه • ثم انك قد تعهدت لآماليا ايفانوفنا بأن تدفعى الديون التى لها على أسرتك • هذا سمعته بنفسى • ولكن لماذا يا صوفيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأنٍ أو تروء ؟ ان كاثرين ايفانوفنا هى المدينة للألمانية ، لا أنت • فكان ينبغى لك أن لا تحفلى بهذه الألمانية وأن لا تكثرنى لها • ما هذا أسلوب سليم فى الحياة ! على كل حال ، اذا استجوبوك فى يوم من الأيام - غداً أو بعد غد مثلاً - اذا استجوبوك عنى ، أقصد عن أمرى (وسيستجوبونك عن أمرى حتماً) ، فاياك أن تذكرى شيئاً عن زيارتى هذه خاصة ، واياك أن تتيحى لأحد أن يفترض أننى أعطيتك مالاً • والآن ، الى اللقاء !

قال سفدرىجايلوف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً :

- تحياتى لروديون روماتش ••• بالمناسبة : اخزننى المال عند السيد رازومبخين الى حين الحاجة اليه • تعرفين السيد رازومبخين ، أليس كذلك ؟ تعرفينه حتماً ! انه فتى طيب شهم ! فاحملى اليه المال غداً ، أو ••• حين يأزف الوقت ! والى أن يأزف الوقت ، خيئه عن الأنظار •

كانت صونيا قد نهضت هى أيضاً وشخصت ببصرها اليه مذعورة • ودّت لو تقول شيئاً ما ، ودّت لو تطرح سؤالاً ، لكنها لم تجرؤ فى البداية ، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تتدبر أمر اللقاء السؤال • وقالت أخيراً :

— لكن .. لكن ... هكذا .. هكذا .. تخرج ... تحت هذا

المطر ؟

— هه ! هل يخشى المرء المطر اذا كان يتهيأ للسفر الى أمريكا ؟
استودعك افى يا صوفيا سيميونوفنا العزيزة • أتمنى لك أن تعيشى
طويلاً ، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين • بالمناسبة : أبلغى السيد
رازومبخين تقديرى • قولى له بالنص : ان أركادى ايفانوفتش
سفدريجايوف يبلغك تقديره • لا تنسى •

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا فى جمود وذعر ، وقد استولى عليها
شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث •

وقد عُرِف فيما بعد أن سفدريجايوف ، فى ذلك المساء نفسه ،
بعد الساعة الحادية عشرة ، قد قام بزيارة أخرى ، زيارة بعيدة جداً ،
غير متوقعة أبداً • كان المطر ما يزال يهطل غزيراً • وها هو ذا ، فى
فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ، يدخل البيت الصغير الذى
يقطنه أهل خطيته بالزقاق الثالث من فاسيلفسكى اوستروف عند ناصية شارع
نفسكى • كان مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً • لقد طرق الباب مدة طويلة ،
ففتحوا له آخر الأمر ، فأحدث ظهوره فى البداية اضطراباً كبيراً ؛ لكن
أركادى ايفانوفتش قد أوتى موهبة حسن الحيلة ولباقة السلوك وجمال
التصرف متى شاء ، لذلك فان الظن الأول الذى قام فى وهم أهل خطيته
(وهو ظن لطيف ، فقد اعتقدوا أنه سكر فى مكان ما فأصبح لا يدرى ماذا
يفعل) ، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه • وبادرت أم الخطيبة ، المرأة
الحنون الشفوق العاقلة ، فجزّت مقعد الأب الهرم الحرف العاجز حتى
صار قرب أركادى ايفانوفتش ، وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها
بالبقاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (ان هذه المرأة لا تلقى فى يوم من الأيام

أسئلة مباشرة : انها تبدأ بأن تبسم وتأخذ تفرك يديها ، فاذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادى ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذى ينوى تحديده للاحتفال بزواجه ، طفقت تسأل الرجل بكثير من الشوق وانسراة عن باريس ، وعن حياة المجتمع الراقى هناك ، ثم لا تصل الى فاسيلفسكى أوستروف والى ما يجب أن يحدث فيها الا رويداً رويداً . ولقد كان يمكن ، فى ظروف غير هذه الظروف ، أن يصغى سفدرىجاييلوف الى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم ، لكنه بدا فى هذه المرة نافذ الصبر جداً ، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيبته فوراً (رغم أنه كان قد أعلم ، منذ أولى الكلمات التى جرى بها الحديث ، أنها قد نامت) . فقال لها أركادى ايفانوفتش بدون لف أو دوران ان عليه ، بسبب ظروف طارئة استثنائية ، أن يغادر بطرسبرج الى حين ، وانه اذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل ، أوراقاً مالية وسندات ، راجياً أن تقبلها هدية منه اليها ، وانه على كل حال كان ينوى منذ مدة طويلة أن يقدم اليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج .

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر ، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء فى منتصف الليل تحت وابل المطر . ومع ذلك لم يعترض أحد أى اعتراض . وحتى الأسئلة وصيحات التعجب المعهودة كانت فى هذه المرة معتدلة جداً ، على خلاف العادة . وتدفق الشكر فى مقابل ذلك حاراً غنياً ، حتى أن الأم العاقلة ذرفت فى سيل الشكر دموعاً . ونهض أركادى ايفانوفتش ، وابسم وقبل خطيبته ، وربت على خدها فى رفق ولين ، وأكد مرة أخرى أن غيابه لن يطول ، واذ لاحظ فى عيني الخطيبة الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً فى آن واحد ، وتساؤلاً أبكم ، فكّر لحظة ، وقبلها مرة أخرى ، وشعر فى الوقت نفسه بحسرة حقيقية لأنه قدّر أن الأم العاقلة ستخبي الهدية مقفلة عليها

بالمفتاح • وخرج آخر الأمر ، تاركاً جميع من بالبيت فى حالة احتياج شديد خارق • وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً ، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدرىجايلوف رجل ذو سلطان ، رجل له أعمال وصلات ، وأنه على جانب عظيم من الثراء الطائل ، والله يعلم ما الذى خطر بباله لكنه قد عنَّ له أن يسافر فسافر ، ثم عنَّ له أن يهب مالاً فوهب ، فلا داعى الى التعجب والدهشة والحالة هذه • صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب ، ولكن أغلب الظن أن هذه خصلة من خصال الانجليز وعادة من عاداتهم • انها الشذوذ والتفرد ، أليس كذلك ؟ ثم ان أبناء المجتمع الراقى لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم ، فهم لذلك لا يتخرجون • حتى ان من الممكن أن يكون أركادى ايفانوفتش قد تعمد المجيء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً • ولكن ينبغى خاصة أن لا تقال كلمة واحدة لأى انسان عن هذه « المغامرة » ، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذى قد تنقلب اليه هذه الأمور كلها • ويجب اخفاء المال والاقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة ، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت فى المطبخ • نعم ، يجب خاصة أن لا يقال لأحد شئ • • • هست • • • هست ! • • • ما من كلمة اذن ، لا لتلك الذبابة الصغيرة ريسليش ، ولا للآخرين ، وهلمَّ جرأ ، وهلمَّ جرأ • • وظلوا يثرثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح • لكن الخطية مضت تمام قبل ذلك بكثير ، وهى تشعر بشئ من الدهشة وكثير من الحزن •

وفى أثناء ذلك ، عندما دقت الساعة منتصف الليل ، كان سفدرىجايلوف يجتاز جسر « • • • كوف » فى اتجاه « حى بطرسبرج » • كان المطر قد انقطع عن الهطول ، لكن الريح ما تزال تزمجر • أخذ

سفدريجاييلوف يرتعد من البرد ، ونظر خلال دقيقة من الزمن ، بنوع من الاستطلاع الخاص ، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم ، نظر الى المياه السوداء ، مياه نهر « نيفا الصغير » . لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو . فاستدار ، واتجه نحو شارع « س + + + » .

ظل سفدريجاييلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة ، في ذلك الشارع الذي لا نهاية له ، وتعثرت قدماء بالرصيف الخشبي مراراً في الظلام ، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد في الجهة اليمنى من الشارع . انه حين مرّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح في مكان ما ، على اليمين ، فندقاً لا بد أن اسمه « فندق آندرينوبل » اذا صدقت ذاكرته . ان هذا الفندق هو في هذا الحى التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى في الظلام الدامس . هو مبنى طويل من خشب ، اسودّ من كثرة السنين التي تعاقبت عليه ، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدم الليل ، وكانت تلاحظ فيه حركة وجلبة .

دخل سفدريجاييلوف الفندق ، فالتقى في الدهليز بخادم بائس المظهر خلق الثياب ، فطلب منه غرفة . فبعد أن ألقى عليه الخادم نظرة ، هزّ جسمه ، وقاده فوزاً الى حجرة صغيرة لا هواء فيها تقع في ركن تحت السلم عند آخر الممر . لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية ، فجميع الغرف مشغولة .

نظر الخادم الى سفدريجاييلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة . فسأله سفدريجاييلوف :

— هل عندكم شاي ؟

— يمكن أن نهيب لك شايًا .

— ماذا عندكم أيضاً ؟

— لحم عجول ، فودكا ، مقبلات •

— جئنى بلحم عجول وشاى •

سأل الخادم متردداً بعض التردد :

— ولست فى حاجة الى أى شىء آخر ؟

— لست فى حاجة الى أى شىء آخر ؟

فانصرف الخادم وقد خاب قأله •

حدث سفدرىجايلوف نفسه قائلاً : « لا بد أنه محل مريب • كيف لم يخطر هذا ببالى ؟ آآآ • لا شك أن هيئتى أنا أيضاً هيئة رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة فى الطريق • ليتنى أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل ! » •

وأشعل سفدرىجايلوف شمعة وفتش الغرفة تفتيشاً دقيقاً • هى حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة ، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة كقامة سفدرىجايلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها ، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قذر ومنضدة مدهونة وكرسى عتيق • أما الجدران فكأنها من ألواح خشبية انفكت المسامير التى تربط بعضها ببعض ؛ وهى مغطاة بورق ملطخ مهترىء ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميز فيه أى رسم ، ولا يكاد يرى منه الا لون أرضيته (الصفراء) • وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة ، شأن جميع الحجرات التى تقع تحت الأسطح ، غير أن السلم يمرُّ هنا فوق الزاوية المقطوعة •

وضع سفدرىجايلوف الشمعة على السرير ، وغرق فى أفكاره وخواطره • غير أن دمدمة غريبة متصلة كانت تعلو فى الغرفة المجاورة

وتصل الى حد الصراخ أحياناً ، فما لبثت أن استرعت انتباهه • ان هذه الأصوات لم تنقطع فى الواقع منذ دخل • أصاخ سفديجاييلوف بسمعه : كان هناك شخص يقرع شخصاً آخر ويضرب عليه أنواع اللوم ، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكى • ليس يميز المرء الا صوتاً واحداً •

نهض سفديجاييلوف ، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة ، فسرعان ما أضاء شق صغير فى الجدار ، فاقرب سفديجاييلوف من الشق ونظر • الغرفة أوسع قليلاً من غرفته ، وفيها رجلان أحدهما أجعد الشعر محمر الوجه قد وقف متخذاً وضع الخطيب ، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه ، وأخذ يلطم صدره لاثماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقى تافه ليس له أى رتبة ، وليس له أى كرامة اجتماعية ، مذكراً اياه بأنه هو الذى أخرجه من الماء ، ففى وسعه أن يعود فيغطسه فى الماء متى شاء ، وان عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله • وكان الرجل الثانى الذى ينصب عليه هذا التقريع وهذا التأنيب جالساً على كرسى ، وهيئة هيئة رجل يود لو يعطس لكنه لا يفلح فى ذلك على أى نحو من الأنحاء ، وهو يلقي على الخطيب من حين الى حين نظرة مضطربة بلهاء • كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الاطلاق •

وعلى المائدة ، حيث كانت توجد شمعة ذائبة توشك أن تنطفىء ، كان يوجد أيضاً ابريق فودكا يكاد يكون فارغاً ، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة ، وخبز ، وخيار مخلل ، ورغم أن الشاى قد شرب منذ مدة طويلة حتماً ، فان الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة •

تأمل سفديجاييلوف هذه اللوحة بانتباه ، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراث ، وعاد يجلس على السرير •

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاى ، لم يستطع أن يمتنع

عن سؤال سفدريجاييلوف مرة أخرى أليس فى حاجة الى شيء آخر ، فلما سمع جواب النفى من جديد انصرف أخيراً الى غير رجعة • وأقبل سفدريجاييلوف على الشاى التماساً للدفع ، فاحتسى منه كأساً ، لكنه لم يستطيع أن يذوق اللحم ، فقد كان لا يشتهى أن يتناول أى طعام •

واضح أن الحمى كانت قد ألت به • وخلع معطفه وسـتـرتـه ، واضطجع على السرير ، ومدّ على نفسه الغطاء • كان مستاءً ممتعضاً • « ان من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الطرف » ، كذلك قال يحدث نفسه ، وضحك ساخراً •

كان جو الغرفة خانقاً ، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً ، وكانت الريح فى الخارج تزمجر ، وكانت فأرة تخدش شيئاً من الأشياء فى مكان بأحد أركان الغرفة ، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فئران وجلد على كل حال •

لبث مضطجعاً غارقاً فى أحلامه • كانت الحواطر تتعاقب فى خياله ، يطرد بعضها بعضاً • كان كمن يريد أن يتشبث بشيء ما فى الخيال بكل ما أوتى من قوة • قال يحدث نفسه : « لا شك أن تحت النافذة حديقة تهز الريح أشجارها فتهمهم ! آه ••• لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء العاصفة فى الظلام ! يا له من احساس كريبه ! » • وفى هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروففسكى ، مشمئزاً • وتذكر عندئذ مروره بجسر « ••• كوف » على نهر « نيفا الصغير » أيضاً ، فأحس بتلك البرودة نفسها التى أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر • « أنا لم أحب الماء يوماً ، ولا فى مناظر الطبيعة » ، بهذا حدث نفسه ، ثم اذا بفكرة غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحك سخرية • قال يخاطب نفسه : « يخيّل الىّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغى أن لا تثير اهتمامى اليوم وأن تدعنى غير مكترث بها أى اكتراث ، فما بالى

أعنى بها أشد العناية ؟ ألا اننى لأشبه الحيوان الذى يهتم به أشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً مناسباً • • فى حالة كهذه الحالة ! لقد كان الأفضل أن أستمّر فى السير حتى أصل الى جزيرة بتروفسكى ! لكننى وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة ! هـى هـى هـى ! انى لأكاد أنشد الاحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة ! بالمناسبة : لماذا لا أطفى الشمعة ؟ »

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها ، واذ لم ير ضوءاً فى شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال : « نام جيرانى ! هلمّى يا مارتا بتروفا ! الآن ، الآن انما ينبغى لك أن تجيئى شاكية ، فالظلام دامس ، والمكان مناسب ، واللحظة فريدة • ومع ذلك لا تجيئين اليوم ! » •

وتذكّر فجأة ، دون سبب ظاهر ، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصّح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا فى حماية رازوميخين • قال يحدث نفسه : « حقاً • • • لا بد أنى قلت ذلك من باب التبجح ، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً ! انه لماكر ، هذا الفتى راسكولنيكوف ! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته • ولكى يصبح المرء ماكرأ كبيراً لا بد له من وقت ، لا بد له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات • وهو الآن « مسرف » فى حب الحياة • من هذه الناحية يتصف جميع هؤلاء الناس بأنهم جبناء • ولكن ما بالى أهتم بهم ! ليذهبوا الى الشيطان ! ألا فليفعلوا ما يشاءون ، فذلك لا يعنينى ! » •

وظل سفدرىجايلوف عاجزاً عن النوم • وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رآها منذ قليل ، فسرت فى جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة • قال يخاطب نفسه وقد ثاب الى صوابه : « لا ، يجب على الآن أن أتخلص من هذا كله • يجب أن أفكر فى شيء آخر • مضحك أمرى • • مضحك : اننى لم أكره أحداً فى يوم من الأيام ، بل اننى لم تراودنى

رغبة قوية فى الانتقام قط • هذه علامة سيئة ! لا ولا أحييت يوماً أن
أشاجر ، وأن أندفع وأتحمس ! هذه أيضاً علامة سيئة ... ولكن ما أكثر
الوعود التى بذلتها لها منذ قليل ! مع ذلك ، كان يمكنها أن تصنع منى
رجلاً آخر •

وصمت سفدرىجايلوف وكرّ أسنانه • وعرضت له صورة دونيا من
جديد ، تماماً كما رآها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب
فأرخت المسدس وهى تنظر اليه بعينها الواسعتين ... حتى لكان يمكنه أن
يمسكها مرتين لا مرة واحدة دون أن تستطيع اظهار أية مقاومة • لقد
عنى هو نفسه بأن يردّها الى ادراك الواقع ! وتذكر أيضاً أنه شعر فى تلك
اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرافة بها ، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً
شديداً • « سحقاً لهذه الحواطر ! ... يجب التخلص من هذا كله ! يجب
التخلص من هذا كله ! ... » •

وأخذ النعاس يدب الى جفنيه ، وأخذت رعدة الحمى تهدأ • وتراعى
له فجأة أن تحت الغطاء شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه • فارتعش ،
وقال : « آ ... لكانها فأرة ! طبعاً ... لأننى تركت اللحم على المائدة ! »
كره كرهاً فظيماً أن يكون عليه أن يكشف الغطاء عن جسمه ، وأن
ينهض ، وأن يتعرض للبرد • لكن شيئاً لامس قدمه مرة أخرى ملازمة
كريبه مزعجة ، فرمى عنه الغطاء وأشعل شمعة • ثم مال يتفحص السرير
وهو يرتجف من الحمى ، فلم يجد شيئاً • حتى اذا نفّض الغطاء قفزت الى
السرير فأرة على حين بغتة ، فأسرع يريد القبض عليها ، ولكن الفأرة
أخذت ، دون أن تغادر السرير ، ترسم خطوطاً متعرجة فى كل اتجاه ،
وتتملص من بين أصابعه ، وتركض على ذراعه ، ثم اندست تحت المخدة •
فرمى المخدة على الأرض ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة نفسها بشيء يشب

عليه ، ويتنطط على طول قامته ، ويصبح فوق ظهره ، تحت قميصه •
فارتعش سفدريجاييلوف ارتعاشة عصبية واستيقظ من نومه •
كان لا يزال راقداً على السرير ، متكوماً تحت الغطاء • وكانت
الريح ما تزال تهمهم تحت النافذة •

قال لنفسه غاضباً : « يا له من حلم وسخ ! » •
ونفض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره الى النافذة « الأفضل
أن لا أنام البتة » • على هذا حزم أمره • وكان يهب من النافذة هواء رطب
بارد ، فشد سفدريجاييلوف الغطاء وتدنثر به دون أن يبارح مكانه • ولم
يشعل الشمعة • كان لا يفكر في شيء ، ولا يريد أن يفكر في شيء على كل
حال • لكن الصور كانت تلاحق الصور في خياله ، وكانت شذرات أفكار
تتابع في ذهنه فوضى لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل • لقد أصبح
فيما يشبه النوم • هل يرجع هذا الى البرد والظلمات والرطوبة والريح
التي ترمجر تحت النافذة وتهز الأشجار ؟ المهم أن أحلامه أخذت تتخذ
أشكالاً غريبة ، وأخذت توقظ في نفسه رغبة ، وكانت أزهاراً تتراعى له
بغير انقطاع • هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره • نهار مضى ، دافئ ،
يكاد يكون حاراً • هو يوم عيد العنصرة • منزل ريفي أنيق ثري ،
على الطراز الانجليزى ، ينتصب في وسط مروج مزهرة ، وتحيط به
أحواض موقوفة على زراعة الأزهار • نباتات متسلقة تتلفف فوق درجات
مدخل المنزل غارقة تحت الورود • وعلى طول سلم كبير ، مضى ، مضى ،
مغطى بسجادة فخمة ، تترتب أواني خزف صيني تضم أزهاراً نادرة •
ولاحظ سفدريجاييلوف بوجه خاص ، على حواف النوافذ ، فى أوان
ملأى بالماء ، باقات نرجسات بيض تميل على سيقانها الخضراء وتشر عباقاً
نافذاً • كان سفدريجاييلوف يود أن لا يتعد عن هذه الأزهار ، ولكنه
صعد السلم ودخل قاعة كبيرة عالية السقف • هناك أيضاً كانت الأزهار

منتشرة فى كل مكان : على النوافذ ، قرب الباب الكبير الذى يطل على الشرفة ، وفى الشرفة نفسها • أرض القاعة مفروشة بعشب فوّاح أخضر نضر • مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها الى القاعة أنسام لطيفة • العصاير تغرّد تحت النوافذ • ولكن فى وسط الغرفة ، فوق منضدة فرشت بغطاء من قماش الساتان الأبيض الذى يُستعمل للموتى ، كان هناك تابوت • ان التابوت منجّد بنسيج من ساتان نابولى السميك ، ومحفوف بابزيم سميك ، أبيض اللون أيضاً • ان حبلاً من أزهار تطوّق التابوت من جميع الجهات • وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدى ثوباً من نسيج التول الأبيض ، قد عقدت ذراعيها على صدرها وشدت احداهما الى الأخرى حتى لكأنهما منحوتتان فى المرمر • غير أن شعرها المبثر ، الأشقر ، رطب مخضّل • وعلى جبينها اكليل من الزهر يطوّقه • ان وجهها الذى يظهر من جانب ، ويعبر عن قسوة ، ويبدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً فى مرمر أيضاً ، ولكن ابتسامة شفيتها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له ، حزن ليس من الطفولة ، حزن كبير • ان سفدرىجايلوف يعرف هذه البنية • لم يكن الى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء ، ولا شموع مشتعلة ، وليست تتلى عليها صلوات • ان هذه البنية قد انتحرت غرقاً • عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً ، لكن قلبها قد تحطم وهى فى تلك السن : لقد سعت الى الموت ، لأنها وقعت ضحية اهانة روتت ضميرها الى الأبد ، وملأت نفسها بعار لا يستحقه وجدان الطفلة ، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة اختنقت فى الظلمات والبرد والجليد الذائب وزمجرات الريح •••

استيقظ سفدرىجايلوف من نومه ، فترك سريره واتجه نحو النافذة ، واهتدى الى المزلاج ففتحها ، فاندفعت الى الحجرة الصغيرة هبة ريح صفعت خدّه وصدره الذى لا ينطيه الا القميص ، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج •

وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل رواد الفندق يقضون فيها أوقات بهجة ومسرة أحياناً ، فتُغنى فيها الأغاني ويُقدَّم فيها الشاي على موائد صغيرة نهاراً • أما الآن فان قطرات ماء تسيل على النافذة آتية من الشجيرات المحيطة ، وان الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميّز الا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمه •

لبث سفدريجاييلوف خمس دقائق ، مائلاً الى أمام ، متكئاً بكوعيه على حافة النافذة ، محدقاً الى الظلام لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • وفجأة ، فى وسط الظلمات ، دوّت طلقة مدفع أولى فثانية •

قال سفدريجاييلوف يحدث نفسه : « هذا هو الانذار ! المياه تعلو ، فما ان يطلع الصبح حتى تتدفق فى الشوارع فيضانات تفرق الآقية • الفئران ستطفو على سطح الماء ميتة • وتحت المطر والريح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم الى الطوابق العليا ، وقد تبللت أجسامهم وانهدت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون ... لكن كم الساعة الآن ؟ » •

وفيما كان سفدريجاييلوف يفكر فى هذا ، اذا بساعة جدار فى مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق •

قال سفدريجاييلوف لنفسه : « آ • • بعد ساعة يطلع الصبح • فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار ؟ سأنصرف حالاً • سأمضى قدماً الى جزيرة بتروفسكى ، فأختار دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين القطرات • • • » وابتعد عن النافذة قليلاً ، فأغلقها ، ثم أشعل شمعة ، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعته ، ومضى الى الممر حاملاً شمعته ، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذى لا بد أنه نائم فى ركن من الأركان التى تودع فيها الأشياء البالية • كان سفدريجاييلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق • وقال يحدث نفسه : « هذه خير لحظة • لا يمكن اختيار لحظة أفضل • » •

لبث يطوف فى الدهليز الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقى بأحد . فلما همَّ أن ينادى اكتشف على حين فجأة ، فى ركن مظلم ، بين خزانة قديمة وباب ، شيئاً غريباً ، شيئاً بدا له حياً . فمال على الشئ . والشمعة بيده ، فرأى طفلة عمرها خمس سنين فى أكثر تقدير ، ترتدى ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الحرق التى تغسل بها الصحون ، وهى ترتجف من البرد وتبكي . لم يظهر عليها زعر حين رأت سفدرىجايلوف ، ولكنها حدقت اليه بعينها السوداوين الكبيرتين مبهوتة . وكانت تشهق من حين الى حين ، كما يشهق طفل لبث يبكي مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء ، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينة . كانت الطفلة شاحبة الوجه مشعثة الهيئة ، وكان واضحاً أن البرد قد بلغ منها العظام . ولكن كيف أمكن أن تقع فى هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت فى ركن ولم تتم طوال الليل !

أخذ سفدرىجايلوف يستجوبها . فانتعشت الطفلة فجأة ، وأسرعت تتدفق فى الكلام فتروى بلغتها الطفولية قصة فحواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً .

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف ؛ وفى وسع المرء أن يحزر مما روته وقصته أنها ليست محبوبة ، وأن أمها (وهى طباحة تظل دائماً سكرى ، ولعلها طباحة هذا المحل) تروّعها وتضربها ، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة ؛ وأنها اضطرت أن تختبئ مدة طويلة فى مكان ما من الحوش ، تحت المطر ، ثم استطاعت أن تتسلل الى هذا المكان خلصة ، فاختبأت وراء الخزانة ، وقضت الليلة هنالك مرتعدة من البرد مرتجفة باكية .

تناول سفدرىجايلوف الطفلة بذراعيه ، وعاد الى غرفته فوضعها على سريريه وأخذ يخلع لها ملابسها . كان حذاءها مقطعين ، مبتلين بالماء

ابتلالاً شديداً لكنهما قد نُقعا في غدير ليلة كاملة • ولم يكن لهما جوربان •

فلما فرغ سفدريجاييلوف من خلع ملابسها عنها ، أرقدها ودثرها بالغطاء حتى العنق ، فما لبثت أن نامت فوراً • وما ان انتهى من هذا حتى عاد ينفق في أحلامه المظلمة وخوابره القاتمة •

قال يحدث نفسه : « هذا ما كنت في حاجة اليه أيضاً ! أن أقحم نفسي في مثل هذه القصة ! يا للحماقة ! » • وتناول الشمعة مغتاظاً ليمضي باحثاً عن الحادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة • فلما همَّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة ، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها • رفع الغطاء محاذراً • كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً • لقد دفأها الغطاء ، حتى ان خديها قد استردتا لونهما منذ الآن • ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطع اتقاداً مما يلاحظ في الأطفال الآخرين • فقال سفدريجاييلوف لنفسه : « ان بها حمى » • لكنها قد شربت ، لكنها قد سُقيت كأساً من الحمر كبيرة مترعة • ان شفيتها الحمراوين تبدوان كالمحترقتين • « ماذا ؟ ما هذا ؟ » • لقد رأى سفدريجاييلوف فجأة أن أهداب الصبية ، الطويلة السوداء ، تختلج وترتعش كأنها تنفتح ، ورأى من تحت الأهداب نظرة مأكرة حادة ليست نظرة أطفال ، تتسلل اليه ، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنوم • نعم ، ذلك ما كان ••• وانفجرت شفتا الصبية عن ابتسامة ، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنها تحاولان كظم ضحكة • ولكن محاولة الكظم تنتهي ، فتنتلق الضحكة • انها ضحكة صريحة ، وقحة ، فيها تحدٍ واستفزاز ، تتفجر في وجه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة • هو الآن وجه العهر والانحلال ، وجه وقح زاييله الحياء ، وجه امرأة مثل « كاميليا » * مثل « غادة الكاميليا » ، وجه مومس تتعاطى البغاء

فى سبيل المال ، مومس فرنسية + وها هى ذى البنت ، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه ، ها هى ذى تفتح عينيها ، وتلفه بنظرة عنيفة محترقة ، فى غير تحفظ أو احتشام + ان عينيها تناديانه ، وتضحكان + + + وان هناك شيئاً دنساً مسيئاً مهيناً فى هذه الضحكة ، وفى هاتين العينين ، وفى كل هذا الوجه الذى أصبح لا يعبر الا عن الرجس والعار + « وكيف ؟ أفى هذه السن ؟ أفى الخامسة من العمر ؟ » ، بهذا تتم سفدرىجايلوف مذعوراً . ولكن ها هى ذى تدير نحوه وجهها المتقد ، وتمد اليه ذراعيها ، فيقول مروّعاً : « آه + + + يا للمعونة ! » ، ويشهر عليها ذراعه + + + ولكنه استيقظ من نومه فى تلك اللحظة .

كان لا يزال راقداً على سريره متدثراً بالغطاء . ولم تكن الشمعة مشتعلة ، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ .

« كوابيس طوال الليل ! » . كذلك قال سفدرىجايلوف ، ثم نهض منتصباً على سريره فى غيظ وحنق . كان يحس بأنه محطّم . انه يشعر بوجع فى جميع عظامه . وفى الخارج كان يتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية . لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة . لقد نام مدة طويلة جداً .

وقام سفدرىجايلوف ، فارتدى سترته ومعطفه اللذين ما يزالان مبتلين ؛ وبعد أن تلمس مسدسه فى جيبه ، أخرجه فثبت من الكبسولة ، ثم جلس ، وتناول دفترأ صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة . حتى اذا أعاد قراءة الأسطر التى كتبها ، رجع يترسل فى أحلامه من جديد ، متكئاً بكوعيه على المائدة . المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه . وقد استيقظ الذباب فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التى لم يمسهها . ظل سفدرىجايلوف ينظر الى الذباب برهة طويلة ، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التى كانت طليقة . ولكن لم يفلح فى ذلك رغم الجهود الكثيرة التى بذلها .

وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل ، فثاب إليه صوابه ، وارتجف ، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة . فما هي الا لحظة حتى كان في الشارع .

ان ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة . وسار سفدريجاييلوف على أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة ، في اتجاه نهر « نيفا الصغير » . كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت أثناء الليل ، وعن تخيل جزيرة بتروفسكى ، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال التي يتقاطر منها الماء ، ثم الدغل المقصود !... واغتاز من ذلك فأخذ يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره الى شيء آخر . لم يكن في الشارع أحد من المارة ، ولم يكن فيه أية عربة . والمنازل الخشبية الصغيرة ، الصفراء الفاقع لونها ، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة ، قدرة المظهر كالحلة الهيئة .

أخذ سفدريجاييلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذا فيه . فاذا وقع بصره على لافتة دكان من الدكاكين بين الحين والحين ، أخذ يقرأ الكلمات مدققاً متفحصاً .

ها قد انتهى الشارع المبكّطة أرضه بالخشب . لقد وصل سفدريجاييلوف الى مبنى كبير من حجر . وهذا كلب صغير بشع يمر أمامه قاطعاً الشارع ، واضعاً ذيله بين قائمته . وهذا رجل سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر ، قد رقد على الرصيف عرّضاً ، لابساً معطفاً سميكاً ، واضعاً وجهه على الأرض .

نظر سفدريجاييلوف اليه ثم تابع طريقه . وظهر له برج كبير على شماله فجأة . فهتف يقول لنفسه : « آ... وجدت المكان المناسب . علام الذهاب الى جزيرة بتروفسكى ؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد

شاهد رسمى » • وكاد يتسهم حين خطرت بباله هذه الفكرة ، ثم انعطف
يدخل شارع « س • • • » • هناك كان يتصبب المبنى الذى يعلوه برج * •
وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهره رجل " قصير القامة
متدثر بمعطف رمادى اللون من معاطف الجنود ، وعلى رأسه خوذة من
نحاس كخوذة آخيل • رشق الرجل سفدرىجايلوف بنظرة باردة تعبر
عن النعاس • ان فى وجهه تلك الكآبة الحاقدة الساخطة التى عمرها مئات
السنين ، تلك الكآبة التى تطبع فى كثير من المراة قسمة وجوه جميع
الناس الذين يشتمون الى ملة اليهود • وتفحص كل من سفدرىجايلوف
وآخيل صاحبه مدة من الوقت فى صمت • ورأى آخيل أخيراً أن من غير
الطبيعى أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً ، أن يقف على بعد ثلاث
خطوات منه ، ويأخذ يحدق اليه ويتفرس فيه دون أن ينطق بكلمة • فقال
بسأله ، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك :

— هيه ! عمّ تبحث ؟

فأجابه سفدرىجايلوف :

— لا أبحث عن شيء أيها الأخ • صباح الخير •

— امض فى طريقك !

— هل تعرف أيها الأخ ؟ أنا مسافر الى الخارج ؟

— الى الخارج ؟

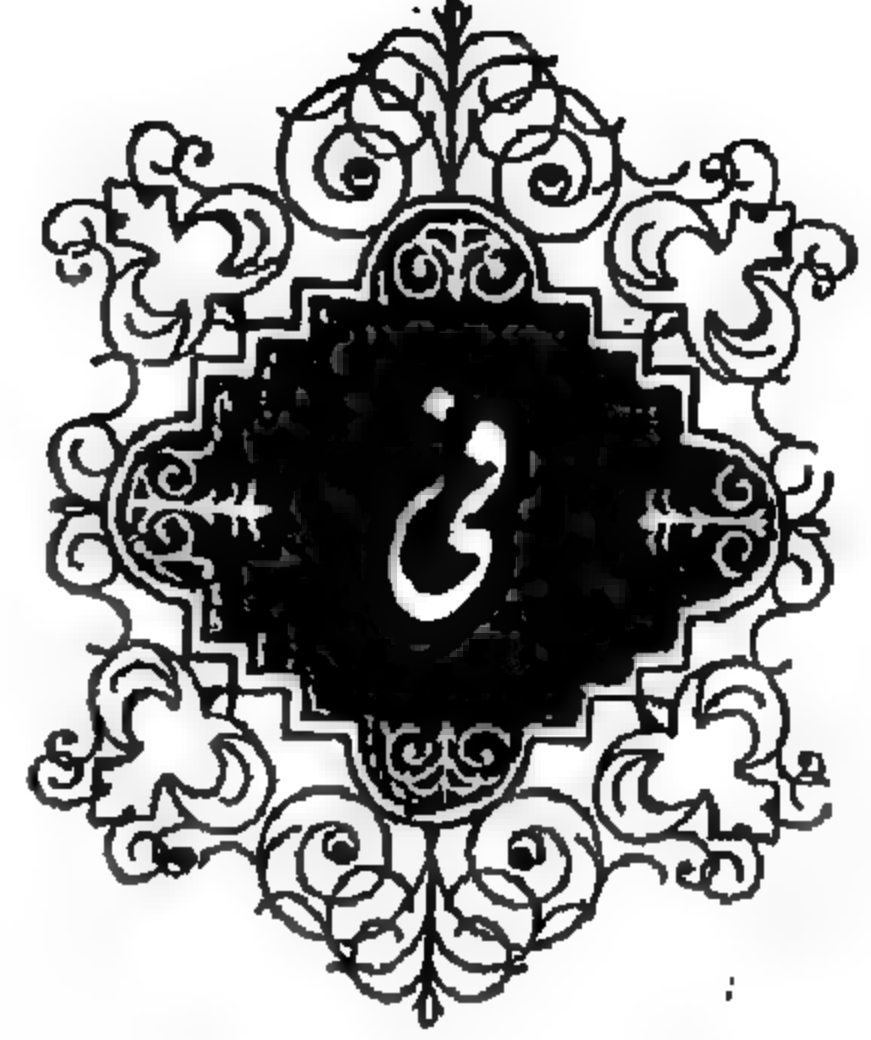
— الى أمريكا •

— الى أمريكا ؟

تناول سفدرىجايلوف مسدسه وحشاه • فرفع آخيل حاجبيه •
وصاح يقول :

- ما هذا المزاج ؟ ليس هذا هو المكان ...
- ولماذا لا يكون هو المكان ...
- لأنه ليس هو المكان ...
- دعك يا صاحبي ، لا ضير ... هذا المكان مناسب مع ذلك . فإذا سئلت فقل اني سافرت الى أمريكا .
- قال سفدرىجايلوف ذلك ووضع المسدس على صدره الأيمن .
فنبه أخيل يقول له مندفعاً محملاً مزيداً من الحملة :
 - ممنوع هنا . ليس هذا هو المكان .
 - وضغط سفدرىجايلوف على الزناد .

الفصل السابع



ذلك اليوم نفسه ، عند المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ذهب راسكولنيكوف الى مسكن أمه وأخته ، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميكين في عمارة باكالاييف . ان مدخل السلم يطل على الشارع . كان راسكولنيكوف يتقدم متردداً ، متباطئاً ، الحطو . ولكن ما كان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال ، فقد اتخذ قراره وعزم أمره . كان يقول لنفسه : « انهما ، على كل حال ، لا تعرفان شيئاً حتى الآن ، وقد ألقنا أن تعداني شاذاً . . . » . كانت ثيابه في حالة رهيبية ، فانه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل . وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والاجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . كان قد قضى الليل وحيداً ، لا يعلم الا الله أين ، ولكنه كان قد عقد العزم على انفاذ الأمر .

طرق الباب ، ففتحت له أمه . كانت دونيا قد خرجت . وكانت الخادمة نفسها غائبة في هذه الساعة . خرست بولشيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر ، ثم أمسكت يده وقادته الى الغرفة . وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت :

— آ . . . هانت ذا أخيراً ! لا ترعبل يا روديا اذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية . اننى أضحك . اننى لا أبكى . أتظن أننى

أبكى ؟ لا ، أنا سعيدة • ولكن هذه عادة سخيفة من عاداتى • دموعى
تسكب لغير سبب ••• منذ مات أبوك أصبحت أبكى لأنفسه أمر من
الأمور • اجلس يا حبيبى ، لا بد أنك متعب ، أنا أرى هذا واضحاً ! آه
••• ثيابك متسخة جداً !•••

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماء !
فاندفعت بولشيريا ألكسندروفنا تقاطعه بقوة قائلة :

— لا ، لا ، لا يذهبن بك الظن الى أننى استجوبك ، على عادتى
القديمة المتعبة • اهدأ بالاً ، فأننى أفهم الآن كل شيء • لقد تعلمت عادات
الناس هنا ، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك • وأيقنت أنه ليس
من حقى أن أحاول معرفة أفكارك ، وأن أحاسبك • الله يعلم ما هى الخطط
والشئون التى تملأ رأسك ، وما هى الخواطر التى ترهقك ، فهل يجوز
لى أن أشدك من ذراعك وأسألك : « هيا ، هيا قل لى ، قل لى فيم
تفكر ؟ » ما حاجتى الى هذه الثروة أخبط فيها خبط عشواء ! هل تعلم
يا روديا ؟ أنا الآن أقرأ ، للمرة الثالثة ، المقالة التى نشرتها فى ••• فى تلك
المجلة • لقد جاءنى بها دمترى بروكوفتش • فما ان رأيتها هى صحت
أقول : آه ••• من فرط دهشتى ! قلت لنفسى : « ما كان أغباني وأشد
حماقتى • هذا هو اذن ما يشغل باله • هذا يفسر كل شيء • كذلك هو
شأن جميع العلماء • انه يدير فى رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها ، وأجىء
أنا فأزعجه وأعذبه ••• » • اننى أقرأ مقالاتك يا بنى ؛ فيها أشياء
لا أفهمها طبعاً • ولكن لا غرابة فى ذلك ، فما أنا الا امرأة بسيطة •

— أرينى تلك المقالة يا أمى •

تناول راسكولنيكوف المجلة ، وألقى على مقالاته نظرة عجلى •

فشعر ، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة ، شعر بتلك العاطفة الغريبة ، بتلك العذوبة الحادة ، بتلك الحلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين) • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة • فبعد أن قرأ الأسطر الأولى ، تقطب حاجباه ، وانقبض صدره ، واختنق قلبه بحزن رهيب • ان جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن الى ذاكرته دفعةً واحدة • فها هو ذا يرمى المجلة على المائدة بحركة اشمزاز ولوعة •

- مهما أكن غبية يا روديا فانتى أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف ، ان لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء! ••• هه! ••• ومع ذلك تتجاسروا فزعموا أنك مجنون! ها ها ها! ••• لعلك لا تعرف هذا ، ولكنهم زعموه ، ودار في خلدكم! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض! مساكين! أننى لهم أن يفهموا ما هو الذكاء! ولكن ما بال دونيا ، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدق ذلك هي أيضاً؟ ••• أهذا ممكن؟ ان المرحوم أباك قد أرسل ••• انتاجه مرتين الى احدى المجلات ، مرة شعراً (ما زلت أحتفظ بالدفتر ، وسأريك اياه يوماً) ومرة قصة (وقد رجوته أن يسمح لى بنسخها) ، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا له انتاجه ذاك • ولكنهم لم ينشروه! هل تعلم يا روديا؟ اننى منذ خمسة أيام أو ستة قد حزنت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن؟ ولكنى أدرك الآن أننى كنت غبية فى هذه المرة أيضاً ، فلو قد شئت لثلت كل شىء دفعةً واحدة بفضل ذكائك وموهبتك • ولكنك فى أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن ، لأنك مشغول عنه بأمور أهم شأناً •

— أليست دونيا فى البيت يا أمى ؟

— لا يا روديا ، انها تخرج فى أكثر الأحيان وتدعنى وحدى • لقد تلطفت دمتري بروكوفتش فجاء يزورنى ويقضى بعض الوقت فى صحبتى • انه يكلمنى دائماً عنك • انه يحبك ، ويقدرك حق قدرك يا بنى • لا أزعج بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصورة فى حقى ، فلست ألومها ، ولكن لها طبعها ولى طبعى • وهى تخفى أسراراً صغيرة لا حصر لها ، تخفيها عنى ولا تطلعنى عليها • أما أنا فلست أخفى عنكما أى سر • أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً ، وأنها كذلك تضمر لى ، وتضمر لك أنت أيضاً ، كثيراً من العاطفة والحنان • ولكنى لا أدرى كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها • لقد أسعدتنى بمجيئك كثيراً يا روديا ، ولكن ها هى ذى قد خرجت فى الوقت الذى جئت أنت فيه ! سأقول لها حين تعود : « جاء أخوك فى غيابك ، فأين كنت خلال ذلك الوقت ؟ » • ولكن لا تدللنى كثيراً يا روديا : تعال الىّ ان استطعت ، فان لم تستطع أن تجىء فلا ضير ، وسأنتظرك على كل حال ، وسأعرف دائماً أنك تجبى ، وهذا يكفينى • سوف أقرأ مؤلفاتك ، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك ، وسوف تجىء أنت الىّ من حين الى حين • ما عساي أتمنى أكثر من ذلك ؟ هأت ذا قد جئت اليوم لتواسى أمك ، اننى أرى هذا واضحاً ، فهل يمكن أن أطلب المزيد ؟

هنا أخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى فجأة •

— آه ••• هأتا ذا أعود الى البكاء ! لا تنظر الىّ يا بنى ! ما أنا الا

حمقاء !

ثم هتفت تقول وهى تنهض واثبة :

— آ ••• ما بالى أظل جالسة هذا الجلوس ! عندنا قهوة ولا أقدم

لك منها ••• هذه أثنائية المسنين ! حالاً ! حالاً ! •••

— أماء ! دعى هذا ! أنا ذاهب بعد لحظة ! ما من أجل ذلك جئت •
أرجوك ، أصفى الى !

اقتربت منه بولشيريا الكسندروفنا وجلة • فقال يسألها طافح القلب ،
دون أن يفكر ودون أن يزن كلامه :

— أتظلين تحييتنى ، يا أماء ، كما تحييتنى الآن ، مهما تسمعى عنى ،
ومهما تعلمى من أمرى ؟
فأجابت الأم :

— روديا ، روديا ، ماذا بك ؟ كيف يمكنك أن تلقى سؤالاً كهذا
السؤال ؟ من ذا الذى يجرو أن يقول فيك سوءاً ؟ وهب أحداً قال فيك
سوءاً ، فانى لن أصدق له • لن أصدق أحداً يجرو أن ••• سوف أطرده
من يجرو ••• سوف أطرده •••

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول :

— جئت ' لأؤكد لك أننى أحيتك دائماً ؛ وانه ليسرنى أن نكون
الآن وحيدين ، وأن لا تكون دونيا هنا • لقد جئت لأقول لك بصراحة ان
عليك ، مهما يصبك من شقاء ، أن تعلمى أن ابنك يحبك أكثر مما يحب
نفسه ، وان كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتى وقلة
عاطفتى انما هو باطل • واننى لن أكف عن حبك يوماً ••• كفى هذا
الآن ، وانما أنا قدّرت أن على أن أبدأ به •••

ضمّت بولشيريا الكسندروفنا ابنها صامته ، وشدته الى صدرها ،
وبكت فى رفق • وقالت أخيراً :

— لا أدري ماذا بك يا روديا • كنت أقدر حتى هذه اللحظة أن كل
ما فى الأمر هو أنك قد ضقت بنا • ولكننى أدرك الآن أدراكاً واضحاً أن

آلاماً كبيرة تنتظرك ، وأن هذا هو السبب فى حزنك • لقد أحسست بشيء من هذا احساساً غامضاً منذ مدة يا روديا • سامحنى اذا أنا حدثتك فى ذلك ، ولكننى دائمة التفكير فيه ، حتى أنه يؤرقنى ويحرمنى من النوم • كانت أختك فى هذه الليلة تهذى ، وتكلمت أثناء هذيانها عنك • ميّزت بعض الكلمات ، لكننى لم أفهم شيئاً • وظللت طوال الصباح كمن ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه ؛ نعم ، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث ، وها هو ذا الشيء الذى توقعته يحدث فعلاً ! روديا ! روديا ! الى أين أنت ذاهب ؟ ستسافر ، ستسافر ، أليس كذلك ؟

— نعم ، سأسافر •

— ذلك ما كنت أقدره ! ولكن فى وسعى أن أسافر معك ، اذا كان ذلك ينفعك • ودونيا أيضاً تحبك ، تحبك كثيراً ؛ ولتأت معنا صوفيا سيميونوفنا أيضاً اذا وجب ذلك ! اننى مستعدة لأن أقبلها بتألى • وسيساعدنا دمترى بروكوفتش فى الاستعداد للسفر • ولكن الى أين تريد أن تسافر ؟

— استودعك الله يا أماء !

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها الى الأبد :

— كيف ؟ أفى هذا اليوم نفسه ؟

— لا أستطيع التأخر ••• آن الأوان ••• يجب حتماً أن •••

— وأنا ؟ ألا أستطيع أن ••• أذهب معك ؟

— لا • ولكن اركعى وصلى لى ، فلعن الله يستجيب لصلاتك !

— دعنى أرسم عليك اشارة الصليب ، دعنى أباركك • نعم ، هكذا ،

هكذا ! رباه ••• ماذا نفعل ؟

نعم ، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً بأن البيت خالٍ ليس فيه أحد ، كان سعيداً بأن يخلو الى أمه ، حتى لكأنه بعد جميع العذابات الرهيبة التي عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعة واحدة ؛ فيها هو يرتدى على قدمي أمه فيقبِّلهما ، وها هما يبكيان كلاهما ويتعانقان . والأم في هذه المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقى سؤالاً . لقد أدركت أن ابنها يعاني أموراً فظيعة ، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد قليل ، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً .

قالت ناشجة :

- روديا ، يا بني الحبيب ، يا أول ولد لي ، هأنا ذى أراك الآن كما كنت في صغرك تماماً . كنت تجيء الىّ على هذا النحو نفسه ، فتطوقني ، وتقبِّلني ، بهذه الطريقة نفسها . وحين كان أبوك ما يزال معنا ، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة ، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك . وبعد أن دفنت أباك ، كم من مرة بكينا على قبره ، أنا وأنت ، متعانقين . كنعانقنا الآن ! لئن كنت أبكي منذ مدة ، فلأن قلبي - قلب الأم - قد أوجس أن شراً سيقع ، أن مصيبة ستزل . حين رأيتك أول مرة مساءً يوم وصولنا الى هنا حزرت كل شيء من رؤية نظرتك وحدها ، فسرعان ما ارتعش قلبي ؛ واليوم ، حين فتحت لك الباب ، نظرت اليك فلم ألبث أن قلت لنفسى : لا شك أن الساعة المشؤمة قد حانت . روديا ، روديا ، أنت مسافر فوراً ؟

- لا .

- هل ستعود ؟

- نعم ... سأعود .

— روديا ، لا تزعل ، أنا لا أجرؤ أن أسألك ، أنا أعرف أنتى لن أجرؤ ، ولكن قل لى كلمة واحدة فقط : هل المكان الذى ستسافر اليه بعيد ؟

— بعيد جداً •

— ما الذى يدعوك الى هناك ؟ وظيفة ، عمل ؟

— ما يرسله الى الله ... ولكن صلى من أجلى !

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب ، غير أن أمه تشبثت به ، ونظرت اليه محدقة فى عينيه وقد عبّر وجهها عن يأس شديد ، وانقلبت سحتتها خوفاً وذعراً •

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء :

— كفى يا أماه !

— لست تسافر الى الأبد ، ليس كذلك ؟ لست تسافر الى الأبد بعد ، أليس كذلك ؟ وسترجع غداً ، ألن ترجع غداً ؟

— سأرجع ، سأرجع ، أستودعك الله !

وانتزع نفسه منها أخيراً •

كان المساء ناعماً طرياً صافياً • لقد صبحا الجو منذ الصباح • وعاد راسكولنيكوف الى بيته • كان مسرعاً • كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس • وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً • فلما كان صاعداً الى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تتابعه بنظراتها • قال يسأل نفسه : « أياكون أحد عندى ؟ » • وتذكر بورفير مشمئزاً ممتعضاً • لكنه حين وصل الى غرفته وفتح الباب ، رأى دونيا • كانت جالسة على الديوان ، غارقة فى تأمل عميق • وكان واضحاً

أنها قد انتظرتة مدة طويلة • وقف على العتبة • ان نظرتها المحدثّة اليه
الثابتة عليه تعبّر عن دعر هائل وحزن لا نهاية له • أدرك من هذه النظرة
وحدّها أنها تعرف كل شيء •

سألها حائراً :

- أأدخل أم أنصرف ؟

فقلت :

- قضيت النهار كله عند صوفيا سيميونوفنا • كنا ننتظر كلكنا •
وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي •

دخل راسكولنيكوف ، وتهوى على كرسى ، مهدود القوى ،
وقال :

- أشعر بضعف ووهن يا دونيا ، انتى متعب جداً ، وأنا فى هذه
اللحظة خاصة انما احتاج الى قواى كلها •

ونظر اليها نظرة ارتياب •

- أين كنت طوال الليل ؟

- لا أتذكر جيداً • لقد أردت يا أختى أن اتخذ قراراً حاسماً ،
ومضيت عدة مرات الى قرب نهر نيفا • هذا أتذكره • أردت أن أنهى
الأمر هنالك •••

وأضاف راسكولنيكوف يقول متمتماً وهو يلقي على دونيا تلك النظرة
المرتابة نفسها :

- ولكننى ••• لم أعزم أمرى •••

— الحمد لله ! •• ليتك تعلم كم كنا خائفين ، أنا وصوفيا سيميونوفنا ،
من أن تفعل ذلك ! اذن ما زلت تؤمن بالحياة ! الحمد لله ! الحمد لله !

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة • وقال :

— كنت لا أؤمن بها ، ولكنى آمنت منذ قليل ، حين تعانقنا أنا وأمى ،
وبكىنا • أنا لست مؤمناً ، ومع ذلك طلبت من أمى أن تصلى من اجلى
وأن تدعو الله لى • الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا ! على كل حال ،
لست أفهم من الأمر شيئاً !•••

هتفت دونيا تقول مذعورة :

— كنت عند أمنا ؟ وقلت لها ؟•• هل جرؤت حقاً أن تقول لها ••
— لا ، لم أقل شيئاً ••• لكنها فهمت أشياء • لقد سمعتك تهذين
فى الليل • وانى لواتق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن • لا أدري لماذا ذهبت
اليها • أنا انسان سيء يا دونيا !

— أأنت انسان سيء ، أنت الذى ترضى أن تقبل الألم ؟ ذلك أنك
تقبل الألم ، أليس كذلك ؟

— نعم ، الآن أقبله • انتى من أجل أن اتحاشى هذا العار ، اردت
أن أغرق نفسى يا دونيا • ولكنى حين ملت فوق مياه النهر ، قلت : ما دمت
أعد نفسى رجلاً قوياً فما ينبغى أن أراجع أمام العار • هذه كبرياء
يا دونيا ، أليس كذلك ؟

— نعم ، هى كبرياء يا روديا !

لكن شعله قد عادت تنقد فى عيني راسكولنيكوف المنطفئين : كان
ما يزال يسره أن يكون ذا كبرياء !

وسأل أخته وهو يتسم ابتسامة رهبة ويحدّق الى عينيها بنظرة ثابتة :

- قولى يا أختى ، هل تعتقدين أن الخوف من الماء وحده هو الذى صدّني عن الانتحار غرقاً ؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة :

- كفى يا روديا !

وساد الصمت دقيقتين •

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين • وكانت دونيا واقفة
عد الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبّر وجهها عن ألم شديد •
ونفض راسكولنيكوف فجأة • وقال :

- تأخرت • حانت الساعة • سأمضى أشى بنفسي • ولكنى لا أدري
لماذا أشى بنفسي !

فانحدرت على خدى الفتاة دموع كبيرة •

قال راسكولنيكوف :

- تبكين يا أختى ؟ ولكن هل تقبلين أن تمدى الىّ يدك ؟

قالت :

- هل يساورك شك فى هذا ؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضمّاً قوياً • وهتفت تقول وهى ما تزال تعانقه
وتقبّله :

- ألسن تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم ؟

فصاح يسألها فى سورة من غضب شديد :

- جريمة ؟ أية جريمة ؟ أياكون جريمة قتل قملة قدرة ضارة ، قتل مرابية عجوز لا يحتاج اليها أحد ، مرابية تمتص دماء الفقراء ؟ الا ان قتلها ليمحو أربعين خطيئة ! لا أظن أن هذا الفعل جريمة ، ولا أريد أن أظهر منه وأكفر عنه . ما بالكم جميعاً تكرررون على مسامعى : « جريمة ، جريمة » ؟ نعم ، انتى وقد قررت أن أتحمّل هذا العار الذى لا طائل تحته ، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جنبى من سخف . ان الصغار والعجوز وحدهما هما اللذان يدفعاننى الى أن . . . وربما أضيف اليهما المنفعة . . . كما . . . كما كان يقترح على ذلك . . . بورفير !

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها كرب شديد :

- أخى ، أخى ، ما هذا الذى تقوله ؟

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره :

- دم يسفحه جميع الناس ، يجرى وسيظل يجرى على الأرض أنهاراً . . . نعم . . . يسكبها جميع الناس كالشمبانيا ، ومن أجله يتوج بعضهم فى « الكايتول » ، ويسمى بطلاً من الأبطال الذى أحسنوا الى الانسانية ! أنعمى النظر قليلاً واحكمى فى الأمر ! أنا قد أردت أن أصنع للبشر خيراً ، وكنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألوف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة . . . بل قولى عن تلك الحرافة البسيطة ، لأن الفكرة فى ذاتها لم تكن حمقاء الى الحد الذى يبدو الآن ، بعد ان أخفقت (نعم ان كل من يخفق يبدو غيياً أحمق) . الخلاصة انتى رجوت بهذه الحماقة - ولنسلّم بأنها حماقة - أن أخلق لنفسى وضعاً مستقلاً ، أن أخطو خطوة أولى ، أن أحصل على موارد ، فاذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو مفيد ، عادل ، مرض . . . كل ما هنالك انتى منذ الخطوة الأولى قد ترنحت لأنتى جبان . تلك هى الحقيقة ! وذلك هو السبب فى

أننى شقى : فلو قد نجحت لوضعوا على رأسى أكاليل الغار ، أما الآن فانهم يلقوننى الى الكلاب ...

- ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ! ما هذا الذى تقوله يا أخى ؟

- صحيح أننى لم أراع الأشكال ، لم أراع الأشكال البديعة التى توجبها قواعد الجمال . ولكن هل تعتقدن حقاً أن قذف القنابل على سكان آمين ، أثناء حصار ، أكثر مراعاة للأشكال البديعة وأكثر تقيداً بقواعد الجمال ؟ ثم ان الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز ... اننى لم أحسّ هذه الحقيقة فى يوم من الأيام كما أحسها الآن ، ولا عجزت فى يوم من الأيام عن أن أفهم ما هى جريمتى كما أعجز عن هذا الآن ! لم أكن فى يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً منى فى هذه اللحظة ! ...

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه المخربّ الشاحب احمراراً قانياً على حين فجأة . لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه مصادفةً بنظرة دونيا ، فقرأ فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة أن راسكولنيكوف لم يلبث أن تاب الى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه رغم ارادته تقريباً . لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكيتين . انه هو السبب مهما يكن من أمر ! ... قال :

- دونيا العزيزة ! اذا كنت مذنباً فاعفري لى (رغم أن الغفران مستحيل اذا كنت مذنباً) . أستودعك الله ! كفى مناقشة ! لقد آن الأوان حتى لقد تأخرت ! لا تتبعينى ، أرجوك ! هناك زيارة أخرى يجب أن أقوم بها ... وانصرفى حالاً وابقى الى جانب أمنا ، أرجوك ، أضرع اليك ! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به اليك . لا تتركها لحظة واحدة . لقد ودعتها وهى على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها ... فاما أن

تموت واما أن تُجنَّ • فابقى اذن بقربها ! وسيكون رازوميين الى جانبكما ، لقد كلمته فى الأمر ••• لا تبكى على ••• سأحاول أن أكون طوال حياتى شريفاً وشجاعاً ، رغم أننى قاتل • وقد تسمعين باسمى فى يوم من الأيام • لن أُلطخ شرفكم بالعار • سوف ترين • سوف أبرهن •• وأسرع راسكولنيكوف يقول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذل تلك الوعود أن عينى دونيا قد التمع فيهما تعبير غريب :

— والآن ، الى اللقاء • لماذا تبكين هكذا ؟ لا تبكى ! لا تبكى ! انب لا نفرق الى الأبد ! ها ••• نعم ••• انتظرى ••• نسيث !•••

واقترب من المائدة ، فتناول منها كتاباً ضخماً غشاه الغبار ، ففتحه ، فسحب منه صورة صغيرة لوجه مرسوم بالألوان المائية على عاج ، كانت موجودة بين أوراق الكتاب • انها صورة بنت صاحبة البيت ، الفتاة التى ماتت من الحمى وكانت فى الماضى خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير • تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير المعبر المتألم ، ثم قبّل الصورة ومدّها الى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن :

— كثيراً ما كلمتها هى أيضاً عن « ذلك الأمر » • لقد بحث لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحقّقاً جهنمياً !

وأردف يقول لدونيا :

— لا تقلقى يا دونيا ! كانت لا تؤيد آرائى أو تحبّها أكثر مما تؤيدنيها أو تحبّينيها أنت ! وانى لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم ! ثم هتف يقول فجأة وقد عاد اليه عذابه :

— المهم ، المهم أن كل شيء سيتغير ، وأن الانفصال عن الماضى سيكون تاماً • نعم ، كل شيء ، كل شيء سيتغير ! ولكن هل أعددت نفسى لهذا ؟

وهل أنا أريده حقاً؟ يقال ان هذه المحنة لازمة لى ، ولكن فيم هذه المحنة السخيفة كلها؟ ما فائدتها؟ ما جدواها؟ هل سأكون أقدر على الفهم ، حين أصبح ، بعد عشرين سنةً من الاعتقال ، شيخاً مرهقاً هدَّه الألم ودمَّره العذاب وصار أبله معتوهاً؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد ذلك؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة؟ آه... لقد أدركت حقاً أنني جبان رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا في هذا الصباح عند الفجر!

وخرج الاثنان أخيراً • كانت دونيا تتألم كثيراً ، ولكنها كانت تحب أخاها • وابتعدت • غير انها ما ان سارت خمسين خطوة حتى التفت الى وراء لتتظر اليه • كان راسكولنيكوف ما يزال يرى • وحين وصل الى ناصية الشارع التفت هو أيضاً ، فالتقت نظرتهما آخر مرة • لكنه حين لمح أن أخته تنظر اليه حرَّك يده بإشارة تلمل بل بإشارة غضب ، ليومئ لها بأن عليها أن تتابع السير في طريقها • وأسرع يغيب هو أيضاً عند منعطف الشارع •

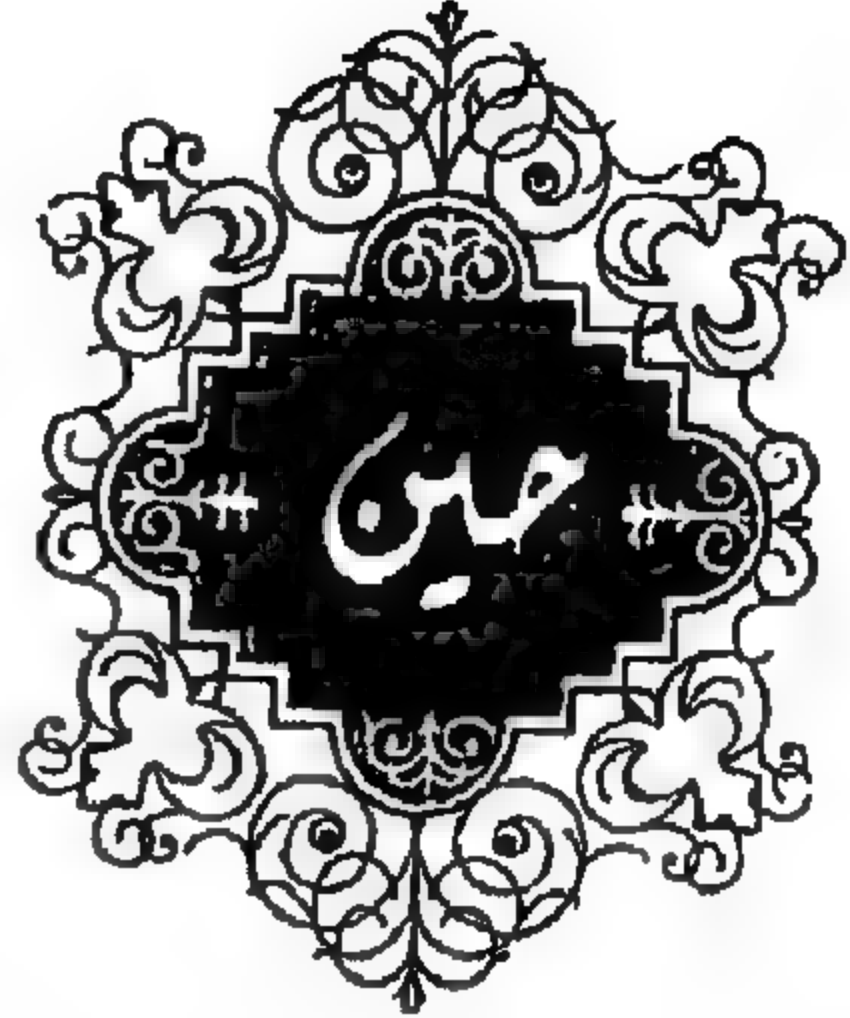
وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التلمل أو الغضب التي بدرت منه : « أنا شرير ! واضح أنني شرير !... ولكن لماذا تحبني أختي كل هذا الحب ما دمت لا أستحقه؟ آه... لو كنت وحيداً ، لو لم يكن هناك أحد يحبني ، » اذن لما حدث شيء من ذلك كله ! والآن أود لو اعرف هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من الاعتقال في السجن ، هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً الى الحد الكافي الذي يجعلني أمضى الى جميع الناس أذرف أمامهم الدموع ، وأعلن لهم أنني وغد؟ طبعاً ، هذا هو السبب الذي يحضهم على ارسالي الى السجن ؛ ذلك هو ما يريدون... آه... أنني أراهم جميعاً يذهبون ويحيئون في الشوارع • انهم جميعاً جبناء حقيرون أوغاد ، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون ! ومع

ذلك يكفى أن أحاول تحاشي السجن حتى تثور مشاعرهم النيلية فإذا هم مستاءون ساخطون ! آه ... اننى أكرههم ! أمقتهم ! ...

وغرق راسكولنيكوف فى خواطره وتأملاته ، فكان يتساءل : « كيف سأنتهى شيئاً فشيئاً الى الشعور بالمذلة أمامهم جميعاً على اقتناع منى بذلك؟ ولكن لم لا ؟ لا شك أن الأمر سيجرى هذا المجرى • ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة الى بلوغ هذا الهدف ؟ الماء يأكل الصخر • ولكن اذا صحَّ هذا ، فعلام أحيا ، علام أحيا ؟ نعم ، علام أذهب الى هناك مع اننى أعلم منذ الآن أن كل شيء سيجرى على نحو ما أتبساً ، لا على أى نحو آخر ؟ » •

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة • لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى السير •

الفصل الثامن



دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط . لقد انتظرتة صونيا طوال النهار وهى فى حالة قلق رهيب . انتظرتة مع دونيا . ان دونيا قد جاءت الى صونيا فى الصباح اذ تذكرت أن سفدرىجايلوف قال لها ان صونيا « تعرف » . لن نروى تفاصيل ، الحديث الذى جرى بين دونيا وصونيا ، ولن نتحدث عن الدموع التى ذرفتاه ، وعن التفاهم الذى نشأ بينهما . وحسبنا أن نقول ان دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بغراء كبير : ان أخاها لن يكون وحيداً . فلها ، لصونيا ، انما أفضى بسرّه وباح بجريمته قبل أى شخص آخر ؛ وفيها ، فى صونيا ، انما التمس انساناً يركن اليه حين أحس أنه فى حاجة الى انسان يركن اليه . فهى التى ستبعه اذن أينما ترسله الأقدار . لم تلق دونيا أى سؤال عن هذا الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث . حتى لقد كانت تنظر الى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا فى أول الأمر ، وخجلت منه ، وكاد يبكيها ، من فرط قوة اعتقادها بأنها أهون شأنًا وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها الى دونيا . ان صورة دونيا الرائعة الفاتنة ، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقاتهما فى بيت راسكولنيكوف ، قد انحفرت فى نفسها الى الأبد صورة من أجل وأروع ما رأت فى حياتها من صور جميلة رائعة .

ونفذ صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتتظر أخاها فى بيته . لقد بدا لها أنه سيذهب الى هناك أولاً . فلما خلت صونيا الى نفسها عاودها

الخوف الرهيب من أن يكون راسكولنيكوف قد ينتحر • وكانت دونيا ،
هى أيضاً ، تخشى ذلك • ولكن كلاً منهما كانت قد ظلت تقنع الأخرى
بأن هذا التصور ليس له مايسوغه وأن الأمر يستحيل أن يقع ، مستدتين
فى ذلك الى جميع الأدلة والحجج التى يمكن تخيلها • لهذا كانتا هادئتين
بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما • ولكن ما ان افترقتا حتى أصبحتا
كلتاهما لا تفكران الا فى هذا • تذكرت صونيا أن سفدرىجايلوف قال
لها أمس ان أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما : فاما سيبيريا واما
••• وكانت تعرف من جهة أخرى كبرياء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة
عاطفته الدينية ، فكانت تتساءل قلقةً أشد القلق : « هل يمكن أن يكون
الخوف من الموت كافياً وحده لصدّه عن الانتحار وجعله يتشبث بالحياة ؟ »

وكانت الشمس تميل الى الغروب فى أثناء ذلك • وكانت صونيا
واقفة قرب النافذة تحدّق الى الخارج حزينةً ملتاعة • ولكن جداراً
مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن
تراه العين من هناك • وأخيراً ، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين
قد مات ، دخل عليها راسكولنيكوف •

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح ، ولكنها حين تفرست فى
وجهه ملياً اصفر وجهها فجأة •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

— هيه صونيا ! لقد جئت آخذ صلبانك ! ألم تأمرينى أنت نفسك
بأن أمضى أعترف على رؤوس الأشهاد ؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت
أن أضع ذلك موضع التنفيذ ؟

كانت صونيا تنظر اليه مذهولة مبهوتة • لقد بدت لها هذه اللهجة
غريبة • وسرت فى جسمها رعدة باردة ، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة

أن كل شيء - اللهجة والكلمات - لم يكن الا تظاهراً وتصنعاً • لقد كان يكلمها متهرباً من نظراتها • وأردف يقول :

- اسمعى يا صونيا ، لقد وجدت أن من مصلحتى أن أتصرف هذا التصرف ، فإن هناك ظرفاً خاصاً يجعلنى ... ولكن الامر يطول شرحه ... ثم لا قيمة لهذا ... ولكن هل تعلمين ما الذى يغيظنى ويحنقنى ؟ اننى أجنُ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفأة الأغبياء الوحوش يزدحمون حولى ويحيطون بى ويحملقون فىّ ، وحين أتصور جميع الأسئلة البلهاء التى سيلقونها علىّ والتى سيكون من واجبى أن اجيب عنها ؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشيرون الىّ بأصابعهم ... هه ! هل تعلمين ؟ لن أذهب الى بورفير • لقد أزعجنى كثيراً • وانما سأذهب الى صديقى « بارود » • وبذلك أدهشه أشد دهشة • لا شك اننى سأثير فى نفسه دهشة كبيرة ! ولكن ينبغى أن أكون أكثر هدوءاً ، وقد أصبحت فى الآونة الأخيرة نائر الأعصاب ! هل تصدقين ؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختى بىدى مهدداً متوعداً ، لا لشيء الا لأنها التفتت تلقى علىّ نظرة أخيرة ! آه ... انه لعار أن أكون فى مثل هذه الحالة العصبية ! اترانى هبطت الى مثل هذا الدرك الأسفل ؟ والآن ، أين الصلبان ؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو فى حالة سنوية • كان لا يستطيع أن يستقر فى مكانه دقيقة واحدة ، ولا أن يركز انتباهه على أى شيء • كانت أفكاره تختلط فى أحاديثه وتشابك وتضطرب • وكانت يدها ترتجفان قليلاً •

سلّت صونيا صليبيها من علبة صغيرة دون أن تقول شيئاً : الصليب الخشبى المصنوع من خشب السرو ، والصليب النحاسى • ورسمت على

نفسها اشارة الصليب ثم رسمت اشارة الصليب على راسكولنيكوف ، ثم علقت صليب خشب السرو فى عنقه •

- يرمز هذا اجمالاً الى اننى أحمل صليبي ••• ها ها ها !•••
كأننى ما تأملت ألماً كافياً حتى الآن ! ان الصليب الخشبي هو صليب ابناء الشعب ! أما الصليب النحاسى ، أى صليب اليزابت ، فانت تحتفظين به لنفسك • أرينيه ! اذن كانت اليزابت تحمله فى ذلك الأوان ! ••• انا أيضاً أعرف صليبين من هذا النوع ، بل صليباً من فضة ووساماً • رميتهما فى ذلك اليوم على صدر العجوز • فانظري ماذا يجب علىّ أن أضع فى عنقي اليوم ! على كل حال ••• أنا أقول سخافات ، وأنسى الأمر الأساسى ••• اننى ذاهل ••• اسمعى يا صونيا : لقد جئت لأبلغك ••• نعم ، يجب أن تعلمى ••• أنا لم أجيء الا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدر ان أقول أكثر مما سأقول) ••• اسمعى : أنت التى حضضتى على أن افعل ما سأفعل ••• سوف أنفذ ارادتك فأدخل السجن • ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً ؟ كفى كفى ! كفى بكاءً ! آه ••• لشد ما يؤلمنى هذا كله !

تأثر راسكولنيكوف تأثراً شديداً ، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكى • وتساءل : « وهذه ، لماذا تتألم هذه ؟ ماذا أنا عندها ؟ ما بالها تبكى ؟ ما الذى يجعلها تهتم بى كأنها أمى أو أختى ؟ ما الذى يحملها على ان تصاحبنى الى نهاية الشوط ؟ آه ••• سوف تكون لى بنشابة المربية للطفل » •

تضرعت اليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش :

- ارسم اشارة الصليب ! صلّ مرة واحدة على الأقل !

- اذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات ! سأفعله راضياً

كل الرضى يا صونيا !

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً •
 وها هو ذا يرسم إشارة الصليب عدة مرات • وتناولت صونيا شالها
 فغطت به رأس راسكولنيكوف • هو خمار أخضر من جوخ السيدات ،
 لعله « شال الأسرة » الذى تكلم عنه مارمیلادوف • وضمت هذه الفكرة
 فى ذهن راسكولنيكوف خلسة ، ولكنه لم يلق أى سؤال • لقد بدا
 يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيماً ، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً •
 خاف • وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا
 تنهياً لصاحبه •

صاح يقول لها غاضباً :

— ماذا تفعلين ؟ الى أين أنت ذاهبة ؟ ابقى ! ابقى ! سأذهب وحدى •

واتجه نحو الباب شبه زعلان ، وتمتم يقول وهو يخرج :

— أنا فى حاجة الى خفير ؟

بقيت صونيا فى وسط الغرفة • لقد أهمل حتى توديعها • نفسها منذ
 الآن • هنالك فكرة واحدة تثيره وترهقه • تساءل وهو يهبط
 السلم : « هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً ؟ أليس من الممكن أن أتوقف ،
 أن أنكص على عقبي ، أن أدبر الأمور ••• أن لا أذهب الى هناك ؟ » •

ومع ذلك واصل سيره • لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من
 التساؤل وأن ساعة التردد قد مضت • حتى اذا صار فى الشارع تذكر انه
 لم يودّع صونيا ، وأنها بقيت فى وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ
 أن تتحرك مخافة أن تغضبه • فتوقف لحظة • ولكن فكرة مباغتة وافته
 فى تلك اللحظة نفسها ، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافيه •
 تساءل قائلاً : « لماذا ذهبت اليها ؟ لقد قلت لها اتى انما جئت لها تنفيذاً

لمهمة يجب على أن أقوم بها ؟ ما هي تلك المهمة ؟ ليس هناك أية مهمة تدفعني الى زيارتها ! أبلغها أنتي « ذاهب الى هناك » ؟ أكان هذا ضروريا ؟ أتراني أحبها ؟ لا ، لا ، غير معقول ! ... ألم أدفعها عني منذ لحظة كما يدفع كلب ؟ هل صليها اذن هو ما كنت في حاجة اليه ؟ آه ... لقد هبطت الى الدرك الأسفل ! لا ، لا ، وانما أنا كنت في حاجة الى دموعها . كنت في حاجة الى أن أرى رعبها وذعرها ، كنت في حاجة الى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق . كنت في حاجة الى أن أتشبث بشيء ما ، الى أن أكسب وقتاً ، الى أن أتأمل انساناً ! هذا ما كنت في حاجة اليه ، ومع ذلك تجرأت في يوم من الأيام فتخيلت أن مصيراً عظيماً يناديني اليه ، واعتمدت على نفسي فأقدمت على أمور كتلك الأمور ، أنا الذي لست الا انساناً حقيراً تافهاً جباناً ، جباناً ! ، ،

كان يسير على طول رصيف القناة . لم يبق بينه وبين الوصول الا مسافة قصيرة . لكنه حين وصل الى الجسر توقف لحظة ، ثم لم يلبث ان مضى يعبر الجسر ، فنأى بذلك عن طريقه ، واتجه نحو « سوق العلف » .

كان ينظر يمنة ويسرة بشراهة ، ويحاول أن يتفحص كل شيء من الأشياء متمعناً ، لكن انتباهه لم يستطع أن يتركز على أي شيء من هذه الأشياء . فكل شيء يتهرب منه ويغيب عنه . وخطرت بباله خاطرة : حدث نفسه قائلاً : « بعد شهر ، بعد أسبوع ، سيعبرون بي هذا الجسر ماضين بي الى مكان ما على عربة سجناء ، فأية نظرة سألقى على هذه القناة نفسها يومذاك ؟ هل سأذكر أنني رأيتها على نحو ما أراها الآن ؟ وهذه اللافتة ؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها ؟ هذه كلمة « شركة » . فهل سأذكر هذه « الشين » ، هل سأذكر حرف « الشين » هذا ؟ واذا تلبثت عيناى بعد شهر على هذا الحرف نفسه فهل سأنظر اليه كما أنظر اليه

الآن ؟ نعم ، ما عسى تكون احساساتى وأفكارى حينذاك ؟ أوه ... ما اتفه وما أسخف هذه ... المشاغل ! ... لا شك أن هذا أمر غريب ... (ها ها ها ... ماذا أيضاً ؟) اننى أرتد الى الطفولة ، فاصطنع أوضاعاً أنظر اليها وأعتز بها . ولكن لا ، لماذا أخجل من نفسى ؟ أوه ... ما أكثر التزاحم والتصادم فى هذا المكان ! هذا هو ، الرجل السمين ذاك ... لا شك أنه ألمانى ... هو الذى صدمنى ودفعنى . فهل يعلم أنه صدمنى ؟ وهذه المرأة العجوز التى تجر طفلاً وتستجدينى صدقة ، هل تظن اننى أسعد منها ؟ طيب ... على كل حال ... على أن أنفحها صدقة ، هكذا ، من باب اللعب ، على سبيل العبث ... حسن ، بقى لى خمسة كوبكات ! ترى من أين هما آتيان ؟

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسوالة :

— خذى ، خذى ، أيتها الأم الطيبة !

فقالت المتسوالة بصوت فيه بكاء :

— الله يحميك !

ودخل راسكولنيكوف « سوق العلف » . كان يشعر من ملامسة كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس ، كان يشعر باحساس مزعج كرهه أليم ، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه الى حيث يحتشد الناس أكثر احتشاد . كان مستبعداً لأن يضحى بكل شئ فى سبيل أن يخلو الى نفسه ، ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو دقيقة واحدة . هذا رجل سكران يصخب ويعربد : انه يحاول أن يرقص ، ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه . واجتمعت حوله جمهرة من الناس . شق راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد ، ونظر الى السكران بضع لحظات ، فاذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة .

ثم ما ان مضت دقيقة حتى كان قد نسي الرجل ، وحتى أصبح لا يراه ، رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه • وانصرف أخيراً عن المكان الذى كان فيه ، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف • ولكنه حين وصل الى وسط الميدان حدث فى فكره شيء ، وسرت فى جسمه رعدة •

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة : « اذهب الى ميدان من الميادين ، فسلّم على الشعب ، وقبل الأرض لأنك أثبتت فى حقها أيضاً ، وقل بصوت عالٍ حتى يسمعك جميع الناس : اننى قاتل » •

فما ان دارت فى ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الراس الى القدمين • ان الآلام الرهيبة والتباريح الفظيعة التى عاناها فى الايام السابقة ، ولا سيما فى الساعات الأخيرة ، قد بلغت من ارهاقه أنه استسلم استسلاماً كاملاً لهذا الاحساس الجديد الشامل • اعتراه نوع من نوبة عصبية • ان شرارة قد انبعثت فى نفسه فأشعلتها دفعة واحدة • ثم استولى عليه حنان واسع فسالت دموعه على خديه • وتهالك على الأرض حيث كان •••

ركع فى وسط الميدان ، ثم سجد ، وقبل الأرض الموحلة منتشياً ثملاً سعيداً • ونهض ثم سجد مرة أخرى •

قال فتى على مقربة منه :

— هيه ! على أى شيء يقبض هذا ؟

وضجّ الناس من حوله بضحك صاخب • وأضاف بائع صغير ثمل بعض الثمل :

— لا شك أنه منسافر الى القدس يا أصحابى ، فهو يودع أولاده ، ووطنه ، ويسلّم على الناس جميعاً ، ويهب قبلةً أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبرج ، ولأرضها •

وقال ثالث :

- ما يزال في ريعان الشباب !

وعقب رابع بصوت جازم :

- وهو من أسرة الكريمة .

وأضاف خامس :

- أصبح المرء لا يميّز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا أبناء
أسر كريمة !

هذه التعليقات المتفككة كلها أوقفت على شفتي راسكولنيكوف كلمتي:
« أنا قاتل » اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه . ومع ذلك
تحمل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء ، ومضى يسير في شارع صغير
يؤدي الى قسم الشرطة ، دون أن يلتفت الى وراء . وفيما كان يمشي
عرضت لعينه صورة ، ولكنه لم يدهش ، فانه كان قد تنبأ بأن هذا هو
ما سيحدث . انه حين سجد في « سوق العلف » سجدة ثانية ، قد التفت
يسرة فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة . كانت لحرصها على ان
لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبي كان قائماً في الميدان ، ولكنها كانت
قد تبعته في صعوده على « الرابية التي يعلوها صليبه » .

في تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون
معه الى الأبد ، وأنها ستتبعه ولو الى آخر العالم ، ستتبعه الى أي مكان
يقوده اليه قدره . فاضطرب من ذلك قلبه . . . ولكن ها هو ذا يصل الى
المكان المحتوم .

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة . كان عليه أن يصعد الى الطابق
الثاني . قال لنفسه : « من هنا الى أن أصبح فوق . . . » . وبدأ له أن هناك

زمناً طويلاً سينقضى قبل أن يصل الى فوق ، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال
يمكن أن توافيه ، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة •

السلم مملوء بالأقذار نفسها والقشور ذاتها ؛ والأبواب مفتوحة على
مصاريعها كما كانت فى المرة الماضية ؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة
العفونة والنتن • ان راسكولنيكوف لم يرجع الى هذا المكان بعد زيارته
الأولى له •

كانت ساقاه متخدرتين وكاتتا تترنحان ، ولكنه ظل يتقدم • وتوقف
لحظة ليسترده أنفاسه ، وليسترجع رباطة جأشه ، من أجل أن يظهر بالمظهر
الذى يجب أن يظهر به « رجل » • ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به
من جهد فتسائل : « ولكن لماذا ؟ ما فائدة هذا ؟ ما دام يجب على أن
أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة أو
بتلك ؟ بالعكس ... فكلما كنت منفراً باعثاً على الاشتزاز كان ذلك
أفضل ! » • وفى تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفش ،
الليوتنان « بارود » • فتسائل : هل يجب حقاً أن أذهب اليه هو ؟ ألا
يمكن أن أتجه الى شخص آخر ؟ ولماذا لا أتجه الى نيكوديم فومتش ؟
وماذا لو عدت أدراجى فذهبت الى مفوض الشرطة ألقاه فى بيته ؟ ميزة
هذه الطريقة ، على الأقل ، أن الأمور تجري عندئذ فى جو كأنه جو
أسرة ! ... لا ، لا ، بل اتجه الى « بارود » الى الليوتنان « بارود » !
ما دام يجب على أن أشرب الكأس فلأشربها دفعة واحدة !

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعي ما يفعل • فى هذه المرة لم يكن
هناك الا قليل جداً من الناس • لا أحد الا ابواب ورجل من الشعب
ينتظران • شرطى الحرس وراء شباكهم لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه •
مرّ راسكولنيكوف الى الغرفة المجاورة • وحدث نفسه قائلاً : « لعننى

ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً • • هذا كاتب من القسم يرتدى
ردنجوتاً قد مال على مكتبة يكتب شيئاً ما • وهذا كاتب آخر مستقر في
ركن • ليس زامبوتوف هناك ، ولا نيكوديم فومتش طبعاً •

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه :
- ألا يوجد أحد ؟

- من تريد ؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً :

- آ ••• آ ••• آ ••• لا حاجة الى أذنين ، ولا حاجة الى عيني
••• غريزتي أثباتني بوجود رجل « روسي » ••• كما تقول الحكاية •
تحياتي واحترامي •

أخذ راسكولنيكوف يرتجف • ان الليوتنان « بارود » الذي انبجس
من غرفة ثالثة يقف الآن أمامه • حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً :
« هذه هي الأقدار • لماذا هو هنا ؟ » •

وعاد ايليا بتروفتش يصيح ، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل
ومحتاج الأعصاب قليلاً :

- أنت عندنا ؟ اذا كنت آتياً لعمل ، فالوقت مبكر جداً • أنا نفسي
انما ••• بمصادفة محضة ! ••• على كل حال ، اذا كنت أستطيع •••
أعترف لك ••• نعم ••• كيف ••• كيف أنت ••• معذرة •••

- أنا راسكولنيكوف •

- طبعاً ، طبعاً راسكولنيكوف ! هل تخيلت ، ولو لحظة واحدة ،
أنتي نسيت •• أرجوك ، لا تصدقني اذا •• يا روديون رو •• رو •••
روديونتش ، أليس كذلك ؟

- روديون روماتش •

- نعم نعم نعم ، روديون روماتش ! روديون روماتش ! ذلك هو الاسم الذى كنت أحاول تذكره ! لقد سألت عن أخبارك مراراً ! اننى آسف حقاً - اعترف لك بذلك - للطريقة التى تصرفنا بها معك فى ذلك اليوم • وقد ذكروا لى فيما بعد ... لقد علمت فيما بعد أنك شاب اديب، بل وعالم ... وأنت تخطو خطواتك الأولى ان صحَّ التعبير • أى اديب وأى عالم لا يقوم بأمور فيها شيء من الشذوذ والتفرد فى بداية حياته الأدبية أو العلمية ؟ انا ، أنا وزوجتى ، نعشق الأدب ، حتى أن امرأتى تبلغ فى ذلك حد الوله والتدله ! ... الأدب والفن ! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت ، ولكن الشيء الهام هو ما يناله بالموهبة ، بالعلم ، بالعقل ، بالعقريّة ! ما قيمة قبة مثلاً ؟ القبة قرص أستطيع أن اشتريه من محل تسيمرمان، أما ما هو تحت القبة ، أما ما تغطيه القبة ، فذلك لا أستطيع أن اشتريه ! ... أعترف لك بأننى قد تمنيت أن أذهب اليك ، لأعذر لك ، ولكنى قدّرت أنك قد ... بالمناسبة : أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن ! وصلت أسرتك ، أليس كذلك ؟

- نعم ، أمى وأختى •

- لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك • انها فتاة مثقفة رائعة • اعترف لك بأننى آسف لاندفاعنا أنا وأنت ... كانت قصة مؤسفة ! ولكن لئن نظرت اليك نظرة اشتباه عند اغمالك ، فان أسباب هذا الاغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً ! لقد كان ذلك منى نزقاً وتعصباً لا أكثر ! اننى أفهم استيائك ! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلك ، أليس كذلك ؟

- ل ... لا ... وانما جئت ... لأسألك ... لقد كنت اتصور

أننى سأجد زامبوتوف •

- ها ... نعم ... أصبحتما صديقين ... سمعتُ عن هذا ! ولكن زاميو توف تركنا ، فلن تجده بعد اليوم هنا ! نعم ، لقد فقدنا ألكسندر جريجوريقتش ... منذ أمس ! قدّم استقالته ، حتى انه عند انصرافه قد بادلنا جميعاً كلمات خسنة • نعم ... مضى في قلة التهذيب الى ذلك الحد ... انه صبي ، انه صبي ، انه طائش ! صحيح أن آمالاً كانت تعقد عليه ، ولكن كيف السبيل الى الاتكال على شبابنا اللامع هذا ؟ انه يريد ، فيما يبدو ، أن يتقدم الى امتحان مسابقة ، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الثروة والمفاخرة ! ذلك هو امتحان المسابقة الذي يريد أن يدخله ! ليس هو مثلك ، أو مثل صديقك رازوميخين ... فانك أنت قد اعتنقت رسالة العلم ، وما من اخفاق يمكن أن يحرفك عنها • جميع مباهج الحياة هي في نظرك أنت باطل ... « عدم » * ، أليس كذلك ؟ أنت ، أنت رجل زاهد متقشف ، أنت راهب ، أنت ناسك • المهم في نظرك أنت انما هو القلم وراء الأذن ، وانما هو البحث العلمي • نعم ، ذلك هو في نظرك الشيء ال ... وأنا أيضاً ، الى حد ما ... هل قرأت « مذكرات » ليفنجستون ؟ *

- لا !

- أما أنا فقد قرأتها • ثم ان عدد الذين يعتقدون المذهب العدمي قد ازداد في هذه الايام ازدياداً كبيراً ، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً • في اى عصر نعيش نحن ؟ اننى ألقى عليك ذلك السؤال ! ولكن ما بالى أحدثك أنت ... أنت لست من معتقى المذهب العدمي ، أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة ، بصراحة •

- ل ... لا •

- لا ؟ ولكن في وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة • نعم ، لا تتخرج ، كلمنى كما لو كنت تكلم نفسك • العمل شيء وال ...

شئ آخر • كنتَ تظن أنني سأقول : « الصداقة » ، أليس كذلك ؟ اذن
لقد أخطأ ظنك • ليست الصداقة هي ما أردت أن أشير اليه ، وإنما أردت
أن أشير الى عاطفة الانسان والمواطن ، الى العاطفة الانسانية ، وكذلك الى
الحب الذي يحملة المرء للعلی القدير • صحيح أنني موظف حكومة ،
صحيح أنني شخص رسمي ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أشعر دائماً
بأنني مواطن ، بأنني انسان ، وأن أحسب حساب ذلك • اليك هذا المثال :
لقد تكلمت أنت عن زامبوتوف • ولكن زامبوتوف شخص يحدث صخباً
وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية في أسوأ المحال سمعة لا لشيء الا
لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون ••• نعم ، ذلك هو
صاحبك زامبوتوف ! أما أنا فأنني احترق نشاطاً وحماسةً ان صبح التعبير •
العواطف الكبيرة تلهبني ، ثم انني أملك رتبة وأشغل منصباً • وأنا متزوج ،
ولي أولاد ! انني أقوم بالواجب الذي يقع على عاتق انسان ومواطن ، أما هو
فهلأ قلت لي ما الذي يعمله ؟ انني أحدثك حديثي الى رجل صقلته الثقافة
وسمت به • اليك هذا المثال أيضاً : لقد تكاثرت القابلات في أيامنا هذه
تكاثراً تجاوز الحدود •••

نظر اليه راسكولنيكوف مبهوراً • ان جميع الكلمات التي قالها ايليا
بتروفتش - واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رنّت في
أذنيه رنين كلمات لا معنى لها • ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو
ما استطاع • وألقى على ايليا بتروفتش نظرة مستفهمة وهو لا يدري كيف
سينتهي هذا كله •

تابع ايليا بتروفتش الذي لا ينضب لكلامه معين ، تابع كلامه فقال :

- انني أطلق هذا اللقب على هاته الفتيات ذوات الشعر المقصوص
لأنه يبدو لي موفقاً جداً •• هي • هي ••• انهن يدخلن مدرسة الطب* ،

ويتعلمن التشريع ، ولكن قل لى : أترانى اذا مرضت أدعو احدى هذه
الآنسات لمعالجتي ؟ هـ هـ هـ !

انفجر ايليا بتروفتش ضاحكاً ، وقد رضى عن أقواله الحسنة وكلماته
الجميلة كل الرضى !

ثم تابع كلامه فقال :

- لنسلم بأن الدافع الى ذلك ظمأ الى التعلم والتثقف لا يرتوى ،
ولكن يخيّل الى أن على الانسان ، متى تعلم ، أن يتوقف ، أن يكف .
فلماذا الاسراف والافراط ؟ لماذا تهمان شخصيات نبيلة ، كما يفعل ذلك
الرجل الثاقه زامبوتوف ؟ أشخاص مثل زامبوتوف يهيننى أنا ؟ ثم تلك
الانتحارات التى تتكاثر ؟ . . . يأكل أحدهم آخر قرش ثم يتحر ! بنات ،
شباب ، شيوخ ! . . . اليك هذا المثال : فى هذا الصباح نفسه ، أبلغنا أن
أن سيداً كان قد وصل الى هذه المدينة منذ مدة قصيرة . . . هـ هـ هـ !
نيل بافلتش . . . يا نيل بافلتش . . . ما اسم ذلك السيد الذى أطلق على
رأسه رصاصة عند ضفة النهر . . . أقصد عند الضفة الأخرى من نهر
نيفا ؟

أجاب صوت أبج غير مكترث ، صوت رجل فى الغرفة الأخرى ،
أجاب يقول :

- اسمه سفدرىجايلوف .

فارتجف راسكولنيكوف ، وصاح يسأل :

- سفدرىجايلوف ؟ سفدرىجايلوف أطلق على رأسه رصاصة ؟

- هل تعرف أنت سفدرىجايلوف ؟

- نعم . . . أ . . . أعرفه . . . لقد وصل فى الآونة الأخيرة

فعلاً ! . . .

- نعم ، فى الآونة الأخيرة ... كانت زوجته قد ماتت منذ حين ...
ثم ان هذا الرجل الذى كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من
مسدس فجأة ... وقد فعل ذلك فى ظروف فاضحة يستحى المرء حتى
أن ... لقد ترك بضع كلمات فى دفتره قائلاً انه يموت مالكا كل عقله
فما ينبغي اتهام أحد بقتله . يقال انه كان يملك ثروة طائلة . ولكن كيف
عرفته ؟

- تعرفت ... تعرفت عليه ... لأن أختى كانت تعمل معلمة فى
منزلهم ...

- هه ... هه ... اذن تستطيع امدادنا بمعلومات عنه . الست
تشبه فى أحد ؟

- رأيت أمس ... وكان ... يشرب خمراً ... ولم أطلع على
شئ ...

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره
يسحقه سحقاً .

- لكأنك تصفر من جديد . لا شك أن الجو هنا خانق ...

تمتم راسكولنيكوف يقول :

- أن لى أن أنصرف . اغفر لى ازعاجك ...

- ولكنك لم تزعجنى البتة ! أنا فى خدمتك ! ثم انك قد سررتنى ؛
ويسعدنى جداً أن أقول لك ...

ومدّ ايلىا بتروفتش اليه يده .

جمعهم راسكولنيكوف يقول :

— كنت أريد ... فقط ... أن ... أن أرى زامبوتوف ...

— فهمت ، فهمت ، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك ...

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يبتسم :

— أنا سعدت بلقائك ... استودعك الله ...

وخرج مترنحاً • كان يشعر بدوار فلا يكاد يدرى أهو ما يزال منتصباً على ساقيه • وأخذ يهبط السلم ، متكئاً بيد اليمنى على الحائط • تراءى له أن بواباً فى يده سجل قد صدمه ليدخل الى قسم الشرطة ، وان كلباً كان ينبح فى مكان ما ، وأن امرأة كانت ترمى للكلب فطيرة لتسكته • فلما بلغ أسفل السلم دخل الفناء •

كانت صونيا واقفةً فى الخارج ، غير بعيد عن الباب ، صفراء كصفرة الموتى ، تنظر اليه مروعة متقلبة السحنة • وقف أمامها ، فتشنجت قسماً وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع ؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن -
يأس وارتسمت على شفتيها ابتسامة تيه وشروود •

توقف راسكولنيكوف لحظة ، فابتسم ، ثم قفل راجعاً الى المكتب الذى بارحه منذ قليل •

كان ايليا بتروفتش جالساً ينقّب بين أوراقه ، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذى صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلم •

فما ان رآه ايليا بتروفتش حتى صاح يسأله :

— أهذا أنت أيضاً ؟ هل نسيت شيئاً ما ؟ ولكن ماذا بك ؟ ماذا

أصابك ؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيئاً ، أبيض الشفتين جامد النظرة ،

واقترَب من المائدة فأَسند إليها إحدى يديه ، وأراد أن يقول شيئاً ما ، ولكنه لم يستطع ذلك • لم تُسمع منه إلا جمجمات لا تَين عن شيء • هتف ايليا بتروفتش :

— بماذا تحس ؟ هل تشعر بمرض ؟ هاتوا كرسيّاً ، بسرعة ! خذ ، اجلس ، اجلس هنا ، هاتوا ماءً !

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قُدِّم إليه ، ولكنه لم يحوّل بصره عن وجه ايليا بتروفتش الذي دَهِش من ذلك أشدَّ الدهشة • وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما الى الآخر ويتنظر • وجيء بماء • بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— أنا الذي ...

— اشرب جرعة ماء !

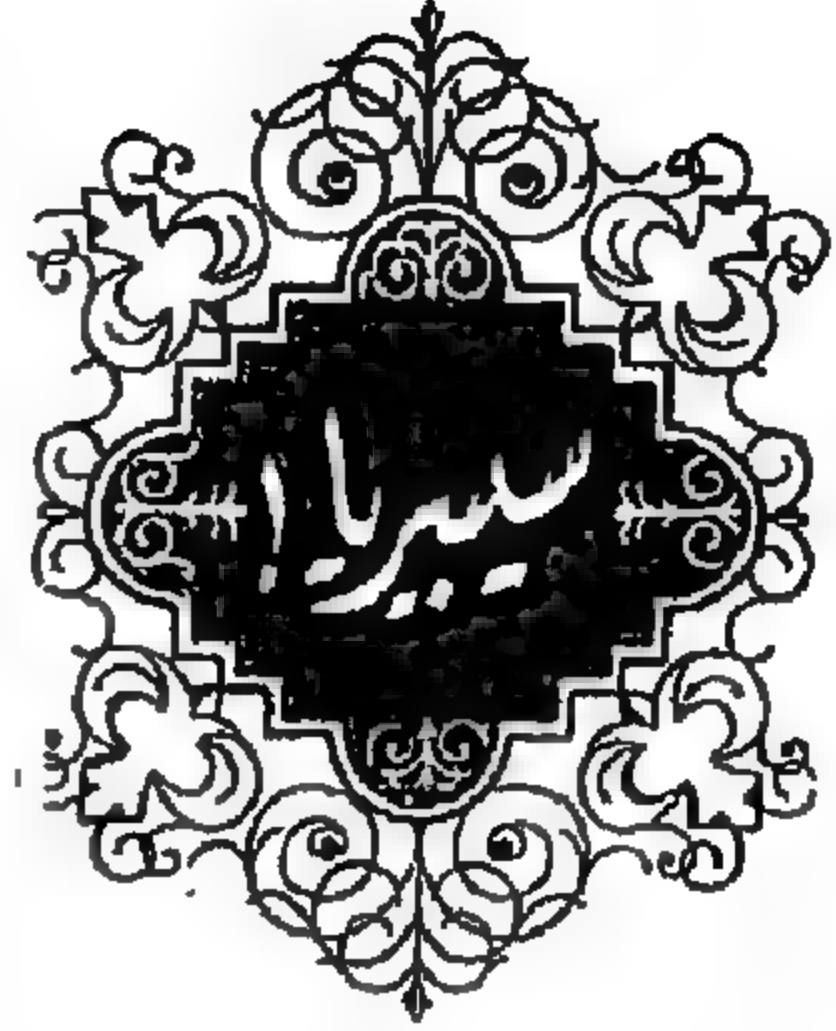
أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه باحدى يديه ، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز ، مع وقفات بين الكلمات :

— أنا الذي قتل ، بضربات ساطور ، العجوز التي تقرض على رهن ، واختها اليزابت ، وأنا الذي سرقتهما •

لبث ايليا بتروفتش فاغر الفم ، وهُرع ناس من كل جهة • واعد راسكولنيكوف الادلاء بافادته

حفايمة

الفصل الأول



على الشاطئين المقفرين من نهر عريض ، تقوم
مدينة هي أحد المراكز الحكومية بروسيا . ان
في المدينة قلعة ، وان في القلعة سجنًا . وفي هذا
السجن حبس ، منذ تسعة أشهر ، السجين
المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية ، روديون رومانوفتش ،
الذي انقضت سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته .

لقد سارت اجراءات المحاكمة بدون مضاعف . كرر المجرم افادته
بشأن ووضوح ودقة ، لم تتداخل الظروف في أقواله ، ولا حاول ان
يخفف من شأن جرمه ، ولا هو شوّه الوقائع ، أو أسقط منها شيئًا .
حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه ، وأوضح سر «الرهن» - اللوح
الصغير والصفحة المعدنية - ؛ وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز
مفاتيحها ، ووصف هذه المفاتيح ، ووصف الصندوق ؛ وعدد بعض الأشياء
التي كان يضمها الصندوق ؛ وأوضح أيضاً سر مقتل اليزابت ؛ وروى
كيف جاء كوخ فقرع الباب ، وكيف جاء بعده الطالب ؛ وذكر الأقوال
التي تبادلها كلاهما ؛ وقصّ كيف أنه ، هو القاتل ، قد هرب راكضاً على
السلم فسمع هنالك صرخات نيقولا ودمتري ، فاختبأ في الشقة الخالية ، ثم
عاد الى بيته . وختم ذلك كله بأن عيّن صخرة موجودة في فناء أحد المنازل
بشارع « ف . . . » ، قرب باب الفناء ، حيث عُثر على الأشياء والمحفوظة
المسروقة . الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها في الظل

شئ • وقد دُهِشَ المحققون والقضاة دهشة خاصة اذ علموا أن الجانى قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها ، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التى سرقها تذكراً صحيحاً ، حتى لقد اخطأ فى عددها • أما قوله انه لم يفتح المحفظة مرة واحدة بل وانه يجهل المبلغ الذى تحتويه فقد لم بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبيّن أن المحفظة كانت تضم ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبكاً ؛ كما أن الأوراق المالية التى كانت فوق ، وهى أكبرها ، قد ساءت حالها من طول اقامتها تحت الصخرة •) • وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب فى هذه النقطة ، مع أنه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق من تلقاء نفسه • ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلّموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر فى المحفظة فعلاً ، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون ان يعرف ما تحتويه • غير أن هؤلاء أسرعوا يستتجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد ارتكبت الا فى نوبة جنون طارئة ، أى فى لحظة « مونومانيا » القتل والسرقة ، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة ؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون الموقت ، وهى النظرية التى يحاول بعضهم فى كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم فى هذه الأيام • ثم أن حالة الوسواس (الهيوكوندريا) المزمّن التى كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود ، جازمين قاطعين ؛ فمن هؤلاء : الدكتور زوسيموف صديقه القديم ، ورفاقه القدامى ، وصاحبة البيت الذى كان يقطنه ، والخدم • ذلك كله ساهم كثيراً فى تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم عادى ، قاتل أو سارق ، أى شبه على الاطلاق ، وأن شأنه شأن آخر ، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف • ولكن الجانى نفسه

لم يحاول أن يدافع عن نفسه ، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية
أشد الأسف . حتى اذا ألقى عليه السؤال عن السبب الذى دفعه الى
القتل والسرقة ، أعلن بوضوح تام ودقة كاملة أن فقره ، وعجزه عن
الخروج منه ، ورغبته فى تأمين خطواته الأولى فى الحياة ، بمعونة ثلاثة
آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند العجوز ، أن ذلك كان فى الأصل
سبب كل شيء . ولما سئل عن الدافع الذى حدا به الى الوشاية بنفسه
والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوبة
مخلصة .

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة ، بل كان فيه غلظة
وفظاظة !...

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه فى جريمة كهذه
الجريمة ، وربما كان مرد ذلك الى أن الجانى لم يحاول أن يسوِّغ نفسه ،
حتى لقد أظهر رغبة فى اتهام نفسه مزيداً من الاتهام . ولقد نُظر بعين
الاعتبار الى جميع الظروف العجيبة الخاصة التى لابتست القضية . من ذلك
أن حالة المرض والعوز التى كان عليها المتهم قبل انفاذه لجريمته لم توضع
موضع الشك . كما أن عدم استفادة الجانى من المسروقات قد نُسب الى
الندامة وعذاب الضمير تارة ، ونسب تارة أخرى الى حالة قواء العقلية
التي لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة . وكان مقتل الزابت ، دون
عمد ، مثلاً على هذا الافتراض ودليلاً يدعمه ويؤيده : نحن ههنا ازاء
رجل يرتكب جريمتى قتل ، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً ! ذلك
كله بالاضافة الى أن الجانى قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه فى
اللحظة التى اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الافادة الكاذبة
التي أدلى بها شخص مهووس مختل العقل (نيقولا) ، بل وفى اللحظة
التي لم يكن فيها أى دليل واضح يدين القاتل الحقيقى ، بل ولم تبق فيها

أية شبهة تحوم حوله • (لقد حافظ بورفير بتروفتش على وعده وبرّ بعده تماماً) • ذلك كله قد أسهم في حمل المحكمة على أن تسلّم للجاني بظروف مخفّفة •

يضاف الى ذلك أن وقائع في مصلحة راسكولنيكوف قد انبجست فجأة على نحو لم يكن في الحسبان البتة • فان الطالب السابق رازوميشين قد استطاع أن يعثر - لا يدري أحد من أين - على شهادات ثبت صدقها ، بأن القاتل راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد ، أثناء دراسته بالجامعة ، على رفيق فقير مصاب بداء السل ، فقام بأوده وسدّ حاجاته وخفّف عنه خلال ستة أشهر كاملة • حتى اذا مات رفيقه ذاك ، اهتم راسكولنيكوف بأبيه ، وهو شيخ عاجز بقى وحيداً في هذه الحياة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره منده الوحيد) ، ثم أدخله مأوى للشيخوخ ، حتى اذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة ، تكفل راسكولنيكوف بنفقات دفنه •

هذه المعلومات كلها كان لها أثر في مصير راسكولنيكوف • وقد شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه راسكولنيكوف (وهى أم خطيبة المتوفاة) ، شهدت من جهتها أن راسكولنيكوف ، حين كانوا ما يزالون يسكنون في شارع « الأركان الأربعة » ، قد أنقذ ، أثناء حريق ، في ذات ليلة ، طفلين صغيرين من مسكن شُيِّت فيه ألسنة النيران واشتعل ، حتى أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعدة حروق • وقد جرى تحقيق دقيق في هذه الواقعة ، فشهد بصدقها شهود كثيرون • الخلاصة أن كل شيء قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثماني سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط ، لأنه اعترف بجريمته من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة •

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر في الدعوى • واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلها الى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة . لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل اليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى أفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة .

وكان مرض بولشيريا الكسندروفنا اصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الاضطراب الدماغى ان لم يكن كاملاً فهو يدعو رغم ذلك الى القلق . ان دونيا ، حين عادت الى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة ، قد وجدت أمها فى حالة حمى بالغة وهذيان شديد . فاتفقت مع رازوميخين فى ذلك المساء نفسه على الأجوبة التى ينبغى أن يجيبا بها بولشيريا الكسندروفنا متى سألتها عن ابنها ، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر ، سفر بعيد ، سفر الى مكان على حدود روسيا ، فقد كلّف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة ، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة . فما كان اشد دهشتها حين لم تطرح عليهما بولشيريا الكسندروفنا أى سؤال ، لا فى ذلك الحين ولا بعده ؛ حتى انها ، على خلاف ذلك ، قد تخيلت هى نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتة ؛ وقد قضت عليهما ، وهى تبكى زيارة ابنها لها مودّعاً ، وألمعت فى هذه المناسبة ، ببعض الاشارات والتلميحات ، الى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية ، قائلة : ان لابنها روديا خصوماً أشداء عتاة ، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار . أما غن مستقبل ابنها ، فانها لا تشك فى أنه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية ؛ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح فى المستقبل « رجل دولة » ؛ فان مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوى على ذلك . وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع ، حتى لقد كانت تقرأها فى بعض الأحيان بصوت عال ، وتوشك أن تنام معها

فى الليل • ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا فى ذلك الأوان ، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أى حديث عنه (وكان حرياً بهذا أن يثير شبهاتها طبعاً) • وأصبح رازوميين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولشيريا ألكسندروفنا آخر الأمر • حتى لقد كانت لا تشكو من أنها لا تتلقى أية رسالة من ابنها ، مع أنها كانت قبل ذلك ، فى مدينتها الصغيرة ، لا تحيا الا على الأمل فى تلقي انباء ابنها الحبيب روديون • ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلي الأخير ، وكان لها بمثابة انذار ، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذى حلَّ بابنها ، وأنها لا تريد أن تسألها ، لحشيتها من أن تعرف شيئاً أقطع • ومهما يكن من أمر ، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولشيريا ألكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة •

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجَّهت الحديث توجيهها ما كان للشبايين أن يجيبا معه عن أسئلتها اجابة تامة دون أن يشيرا لها الى المكان الذى يوجد فيها روديا • حتى اذا جاءت الاجابات متحفظة مشبهة وقعت الأم فى حالة حزن رهيب • وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق ، وانتهت الى هذه النتيجة ، وهى أن التزام الصمت التام فى النقاط الحساسة أفضل وأسلم • ولكن أخذ يتضح مزيداً من الاتضاح شيئاً بعد شيء أن الأم المسكينة تشبه فى شيء ما ، فى شيء مروّع فظيع • وتذكرت دونيا ، فيما تذكرت ، بعض أقوال أخيها • ألم يقل لها ان بولشيريا ألكسندروفنا سمعتها تهذى ، فى الليلة التى سبقت اللحظة الحاسمة من لقاتهما الأخير ، بعيد المشهد الذى حدث مع سفدرىجايلوف؟ ألم تسمع بولشيريا ألكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء ، ففهمت شبه فهم ؟ وكثيراً ما أصبح يحدث ، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين ودموع خرساء ، أن ينتاب المريضة انتعاش مرضى ونشاط هسترى ، فتأخذ

تتكلم عن ابنها ، وعن آمالها ، وعن المستقبل ، متدفقة تدفقاً سريعاً ، بغير توقف تقريباً !... وكانت أخيلتها فى بعض الأحيان عجيبة حقاً ! فكان الشابان يتظاهران بمشاركتها آراءها ومواساةً لها ، وتسريةً عنها ، (ولعل موافقتهما هذه على آرائها لم تكن تنطلى عليها) ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها اثرً الذى لا ينضب له معين . . .

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمته . . . وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف فى السجن كلما تمكن من ذلك . وكذلك كانت تفعل صونيا . . . وأزفت أخيراً ساعة الفراق . . . فحلفت دونيا لأخيها على أن الفراق لن يكون ابدياً . . . وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك . . . وقد ترسخت فى دماغ رازوميخين ، فى دماغه الفتى الفائر المتحمس المندفع ، ترسخت ترسخاً قوياً ، فكرة المشروع الذى قام فى ذهنه ، وهو أن يرسى قواعد مصيره المقبل ، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية ، فيدّخر مبلغاً كافياً من المال ليمضى يقيم فى سيبيريا ، حيث الأرض غنية ، وحيث الأيدي العاملة ورعوس الأموال قليلة . . . فهناك سيستقرون ، بالمدينة نفسها التى سيكون فيها روديا ، وهناك . . . سيدأون جميعاً حياة جديدة !

وبكى الجميع فى ساعة الفراق . . . كان راسكولنيكوف ، خلال الأيام الأخيرة مغموماً جداً ، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمه ، ويظهر قلقاً شديداً عليها . . . وكان يتعذب عذاباً قوياً يخيف دونيا وينذرهما بأسوأ العواقب . . . ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولشيريا ألكسندروفنا معرفة دقيقة ، أصبح قاتم النفس مظلم المزاج . . . ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة ، فهو لا يبوح لها بما فى نفسه . . . وكانت صونيا ، بفضل المال الذى تركه لها سفدريجاييلوف ، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التى ستضم راسكولنيكوف . . . انهما لم يبحثا هذا الأمر معاً فى يوم من

الأيام ، ولكنهما يعرفان كلاهما أن الأمر سيكون كذلك • وفى اللحظة الأخيرة ، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة غريبة حين سمع التأكيدات الحارة من أخته ومن رازومихين عن المستقبل الجميل الذى ينتظرهم جميعاً عند خروجه من السجن • لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً •
وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا •

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا رازومихين • وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً ، وكان يرين عليه جو الحزن • وكان بين المدعوين بورفير بتروفتش وزوسيموف • وقد اكتسب رازومихين فى الآونة الأخيرة مظهر رجل قوى العزيمة ثابت الرأى • وكانت دونيا تؤمن ايماناً أعمى بأنه سيحقق جميع مشاريعه • وكان لا يمكنها ، على كل حال ، إلا أن تؤمن بذلك : فإن ارادة حديدية كانت تتجلى فى هذا الرجل • ولقد استأنف ، خاصة ، متابعة دروس الجامعة لينهى دراسته • وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل ، وكانا كلاهما ينتويان حقاً أن يرحلا الى سيبيريا بعد خمس سنين • والى أن يحين ذلك الحين ، كانا يتكلمان على صونيا •

وقد باركت بولشيريا ألكسندروفنا زواج ابنتها ورازومихين وفرحت به ، لكنها سرعان ما سقطت فى حزن أشد وأسى أعمق وأكبر • ومن أجل أن يهيئ لها رازومихين بضع لحظات من فرح قصص عليها قصة الطالب وأبيه العاجز ، وحكى لها حكاية الحريق الذى برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة اللهب • فكانت القصص تلقى بولشيريا ألكسندروفنا التى كان عقلها قد أهدت وأصابه اختلال ، كانت هذه القصص تلقىها فى نشوة تشبه أن تكون وجداً ، حتى أصبحت لا تتكلم الا عن هذا ، وحتى مضت فى ذلك الى حد استيقاف الناس فى الشارع لتقص عليهم هى أيضاً ••• (هذا رغم أن دونيا ترافقها حينما تذهب) • أصبحت بولشيريا ألكسندروفنا تتجه الى أول انسان تلقاه ، فى الشارع ، فى الدكاكين ،

فى أى مكان ، فتأخذ تكلمه عن ابنها ، وعن مقائمه ، وتأخذ تشرح له مسهبةً مفيضةً كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف أنه اقتحم ألسنة اللهب أثناء حريق ، وهلمّ جرا . وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئها . كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة ، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع أحد أسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها .

وقد اكتشفت بولشيريا ألكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين انقذهما روديا ، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر . وبلغ قلقها إبعاداً خطيرة فى النهاية . فهى تارة تنفجر باكية ناشجة ، وهى تارة أخرى تتكلم هارفة هاذية . وفى ذات صباح أغلنت فجأة أن روديا - وفقاً لحساباتها - عائد فى القريب ، فقد وعدّها - وهى تتذكر وعده - أنه سيرجع بعد تسعة أشهر .

وسرعان ما شرعت ترتب الشقة استعداداً لعودته . فهيأت له غرفتها هى ، ودلكت الأثاث ، وغسلت ، ومسحت ، وعلقت ستائر جديدة ، النج . ولم تقل دونيا شيئاً ، رغم جزعها ، بل ساعدتها فى هذه الاستعدادات . وبعد أن قضت بولشيريا ألكسندروفنا ذلك النهار كله فى تخيل أشياء تبلغ غاية الجنون ، وفى البكاء والانقياد للأحلام ، مرضت فى تلك الليلة نفسها ، فما طلع الصباح حتى كانت فى حالة هذيان ، فقد اعترتها حمى حارة ، ثم ماتت بعد أسبوعين .

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصير الرهيب الذى آل إليها ابنها أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها ، وتفترض ابتها .

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله إلى مسيريا . كانت

صونيا تكتب الى رازوموخين كل شهر دون تخلف ، وكل شهر ايضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج . وفي أول الأمر رأت دونيا ورأى رازوموخين أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبث على كثير من الرضى . ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك ؛ وأن من السهل عليهما أن يكوّنا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التي يعيش فيها أخوهما البائس . كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية ، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التي يحياها راسكولنيكوف في المعتقل . كانت لا تقول شيئاً عن آماله ، وعن أحلامه المتصلة بالمستقبل ، لا ولا عن عواطفه الشخصية . كانت صونيا في هذه الرسائل ، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية ، تذكر وقائع جرت له ، وتنقل أقوالاً قالها ، وتقدم تفاصيل عن صحته ، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التي عبر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك ، وما كلّفها بأن تنقله اليهما ، الخ . وكانت هذه الأخبار كلها مفصلة ، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها ، ولم يكن من الممكن أن يحدث أى خطأ ، لأن جميع الوقائع كانت صادقة .

غير أن جميع هذه الأنباء ، ولا سيما في البداية ، لم تحمل الى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة . كانت صونيا تبلغهما أن راسكولنيكوف لا يبرح قاتم المزاج مظلم النفس صموتاً قليل الكلام ؛ وأنه لا يكاد يهتم بالأخبار التي تنقلها اليه كلما تلقت رسالة منهما ؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب ، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثّر في نفسه تأثيراً كبيراً ، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل .

وكانت صونيا تقول لهما أيضاً انه رغم انطوائه على نفسه دائماً ، يبدو

راضياً بحياته الجديدة بصدق واستقامة وبساطة ، وانه يدرك الوضع الذى هو فيه ، ولا يتوقع أن يتحسن مصيره فى مستقبل قريب ، وانه لا يراوده أى أمل فى غير محله (كما يحدث عادة للسجناء) ، وانه لا يدهش من شئ ، رغم ما هناك من تعارض وتناقض بين حياته الراهنة وحياته السابقة . وكانت تقول لهم ان صحته حسنة ، وانه يمضى الى الشغل دون تهرب أو تملص ، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة . وانه لا يكاد يهتم بأمر الطعام ، ولكن هذا الطعام ، فى غير أيام الأحاد وأيام الأعياد ، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هى صونيا ، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شئ من الشئ (أما فيما عدا ذلك ، فقد رجاها أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به ، وقال لها ان عنايتها به تثقل على نفسه وتضايقه) .

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه فى السجن يسكن مع السجناء الآخرين فى مهجع مشترك ، وأنها لم تدخل المباني ، ولكن ظاهر المباني يدل على أن المكان ضيق قدر غير صحى ؛ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى بلباد ، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر ؛ وانه على كل حال ، اذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة الى هذا الحد ، لا يفعل ذلك التزاماً بفكرة سابقة أو تقيداً بمبدأ معين ، بل لأنه لا يكثر للظروف المادية ولا يحفل بها .

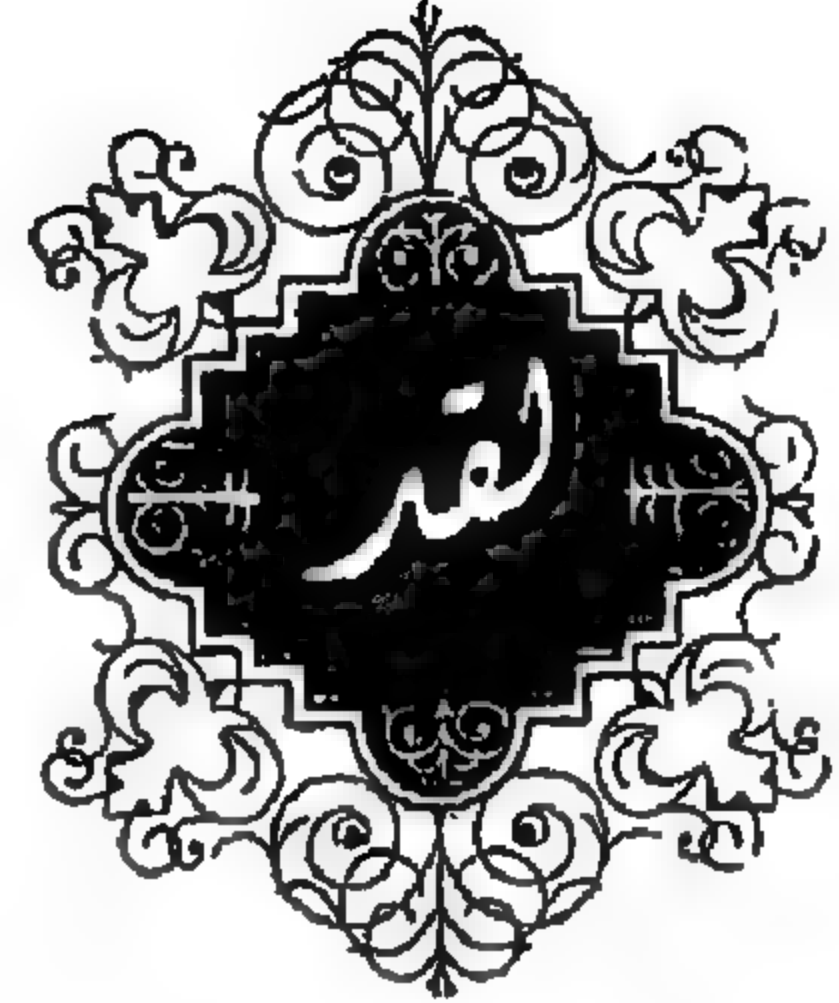
وكتبت صونيا بصراحة أنه ، فى أول الأمر خاصة ، لم يكن يعبأ بزياراتها ، حتى ائد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء ، ولا يفتح فمه بكلمة ، ويعاملها معاملة أميل الى الفظاظه . غير أن لقاءاتها أصبحت عادة له بعد ذلك ، وأوشكت أن تصبح حاجة ، حتى ان الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التى لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألم بها . انها فى أيام الأعياد تراه من وراء القضبان الحديدية ، أو تراه فى غرفة هيئة

الحرس التى يؤتى به اليها بضع دقائق • وأما فى الأيام الأخرى فانها تراه أثناء الشغل ، فى ورشات العمل ، أو فى مصانع الآجر ، أو فى المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايريتش * • أما عنها هى فلم تزد على أن أشارت الى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها فى المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها ؛ وأنها تعمل فى الحياطة ، وأنها لقله الحياطات فى المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا تستغنى عنها • ولكن صونيا أسقطت أن تذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه ، بفضلها هى ، أن يحظى بشيء من العطف عليه ، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المראה ، وكانت الأشغال التى يُعهد بها اليه غير شاقة كثيراً ، الخ •••

ثم وصل النبأ الذى يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصبية فى الرسائل الأخيرة التى بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذى يقول ان راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين ، وان هؤلاء لا يحبونه كثيراً ، وانه يظل صامتاً ساعات بكاملها ، وان شحوبه يزداد شيئاً بعد شيء •

وكتبت صونيا أخيراً فى ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً ، وانه يعالج الآن فى مستشفى المعتقل •••

الفصل لثانى



كان مريضاً منذ مدة طويلة ، ولكن لا الأهوال
التي تشتمل عليها حياة السجين ، ولا الأشغال
الاجبارية الشاقة ، ولا الطعام الرديء ، ولا حلق
شعر الرأس ، ولا الأسماك البالية ، لا شىء من
هذا كله هو الذى حطّمه ! لا ، لا ، ان جميع هذه الأنواع من البؤس
والعذاب لا تعنيه فى شىء ! بالعكس : لقد كان يرضيه أن يكون عليه ان
يعمل عملاً مضمناً . انه حين يرهقه العمل الجسمى يستطيع على الأقل أن
يتمتع ببضع ساعات من نوم هادىء مريح . أما الطعام الرديء ، أما حساء
الكرنب ذاك الملىء بالصراصير ، فانه لا يهمه البتة . ألم يتفق له ، حين
كان طالباً ، فى أول عهده بالحياة ، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام ؟ واما
ملابسه فقد كانت تكفل له الدفء ، وهى تلائم طراز الحياة الجديدة التي
يحياها ، فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ وأما الأغلال الحديدية ، فقد كان
لا يكاد يحسّها . . . وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه مخلوقاً ؟
يخجل ؟ يخجل أمام من ؟ أمام صونيا ؟ ان صونيا تخاف منه وتخشاه ،
فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل ؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا (صونيا التي ينتقم منها
فيعاملها باحتقار وفضاظة) . ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالحزى
والعار لا يرجع لا الى أن شعر رأسه مخلوق ، ولا الى أنه مكبل
بالسلاسل ! ان ما كان يشعره بالحزى والعار ، وما كان يؤلمه ايلاًماً شديداً

حتى جعله مريضاً ، انما هو الجراح التى أصيبت بها كبرياؤه ! اه ...
 لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان فى وسعه أن يتهم نفسه وان
 يدين نفسه ! لو استطاع ذلك اذن لكان يمكن أن يحتمل الحزى وان
 يحتمل العار ! ولكنه مهما تشدد قسوته فى الحكم على نفسه ، فان ضميره
 المتصلب كان لا يجد فى ماضيه أية خطيئة فظيعة ، اللهم الا أن تكون هذه
 الخطيئة هى أن « ضربته قد أخفقت » • صحيح أن هذا يمكن ان يقع
 لجميع الناس ، ولكنه كان يشعر بالحزى من أنه ضاع بمثل هذه العماوة ،
 بمثل هذه الحماسة ، بمثل هذا الانهيار ، ومن أنه خاصة مضطر ، هو
 راسكولنيكوف ، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعمى ، وأن يخضع امام
 « سخافة » هذا الحكم ، اذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة •

ان قلقاً لا موضوع له ولا غاية له فى الحاضر ، وان تضحية متصلة
 غير منقطعة فى المستقبل ، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض !
 فأية فائدة اذن فى أن يقول لنفسه انه بعد ثمانى سنين لن يكون عمره قد
 تجاوز اثنين وثلاثين سنة ، وانه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته ؟
 علام يحيا ؟ ما هى الغاية التى ما يزال يستطيع أن يلاحقها ؟ ما هو الهدف
 الذى ما يزال يمكنه أن يسعى اليه ؟ ماذا يفيد وماذا يجديه أن يستمر
 فى الصراع والكفاح ؟ أيعيا من أجل أن يوجد ؟ ألا انه كان طوال حياته
 مستعداً لأن يضحي بوجوده ألف مرة فى سبيل فكرة ، فى سبيل امل ،
 بل وفى سبيل تحقيق نزوة ! ان الوجود فى حد ذاته لم يكن كافياً له فى
 يوم من الأيام ، وانما هو كان يطعم دائماً فى أكثر من ذلك ! ولعل عنف
 رغباته كان وحده السبب فى أنه ظن نفسه انساناً يجوز له ما لا يجوز
 لغيره •

ولو أن القدر قد اختار له الندامة - الندامة المحرقة التى تحطم
 القلب وتطرد النوم - الندامة التى تجعل صاحبها يفكر فى الانتحار شقاً

أو غرقاً ، اذن لكان سعيداً كل السعادة ! ان ألم الدموع حياة ! ولكن
راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته •

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته ، كما غضب في الماضي
من أفعاله الشاذة الغبية التي قادت به الى المعتقل • أما وقد أصبح الآن في
المعتقل ، وأصبح يستطيع أن يفكر في تلك الأفعال « بحرية تامة » ، فانه
لا يراها شاذة ولا سخيفة الى الحد الذي تراه له قبل ذلك في اللحظة
المحتومة المشئومة •

انه الآن يقول لنفسه : « هل فكرتني أغبي من تلك الأفكار والنظريات
التي تجرى في هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم ؟ يكفي أن نواجه
الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحررة من الأحكام السابقة اليومية حتى
ندرك أن فكرتي ليست غريبة الى ذلك الحد من الغرابة الذي قد يتوهمه
بعضهم ••• ايه ايها الجاحدون ، أيها الفلاسفة التافهون ، لماذا تتوقفون
في منتصف الطريق ؟ غريب ! لماذا تبدو لهم فعلتي شاذة الى هذا
الحد ؟ لأنها جريمة ؟ ماذا تعني كلمة : جريمة ؟ ماذا تعني كلمة :
جريمة ؟ ان ضميري مرتاح • صحيح أن جريمة قد وقعت • صحيح أن
نص القانون قد اخترق وأن دماً قد سُفك • فإذا كان الأمر أمر تقييد
بنص القانون ، فاقطعوا رأسي ، ولنسكت ! ولكن يجب أن نذكر في هذه
الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا الى الانسانية ولم يكونوا قد
ورثوا السلطة وراثته وانما استولوا عليها استيلاً ، كان ينبغي أن تقطع
رعوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى • ان الفرق الوحيد بين هؤلاء وبينى
هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم ، فكان ذلك « مبرراً » لهم ، أما أنا فلم
أقدر على الصمود • اذن كان لا يحق لى أن أجيز لنفسي القيام بتلك
المحاولة • •

تلك هى الخطيئة الوحيدة التى كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها : وهى أنه لم يستطع أن يصمد ، بل مضى يشى بنفسه ويعترف بجريمته .

وكان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال : لماذا لم ينتحر حينذاك ؟ لماذا ، حين مال على ماء النهر ، آثر أن يشى بنفسه ؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة ، يصعب التغلب عليه الى هذه الدرجة من الصعوبة ؟ ان سفدرىجاييلوف الذى كان يخشى الموت مع ذلك ، قد استطاع أن ينتصر على حب الحياة هذا !

كان راسكولنيكوف يعانى من القاء هذه الأسئلة عذاباً شديداً ، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أوجس فى نفسه وفى اقتناعاته كذباً . انه لم يدرك أن هذا النوجس يمكن ان يكون علامة انعطاف مقبل فى حياته ، وبشارة انبعاث جديد ، واستباقاً لتصوره الحياة فى المستقبل تصوراً آخر . وانما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريزة ، وعطالة الحركة ، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على تلك العطالة . وكان اذ يلاحظ رفاقه فى الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً ، ويظلون متعلقين بها تعلقاً شديداً . حتى لقد كان يبدو له أنهم يحبونها ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراراً طلقاء . ومع ذلك ما أقسى انواع العذاب ، وما أشد ضروب الآلام التى كان يعانىها بعضهم ! المتشردون مثلاً . . هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها ، فى نظرهم ، لشعاع من شمس ، لغابة متوحشة ، لنبع ماء بارد فى قرارة الأحراج (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين ، فأصبحت صورته تلازمه حتى لكأنها صورة لقاء حب) ، لنبتة عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع ، لطير يغرد فى الأدغال ؟

وأمن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الامعان ، فكانت تفجأ بصره ، وتثير دهشته أمثلة أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً • ان في المعتقل أموراً كثيرة كانت تفوته ، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال • لقد كن يعيش غاضباً بصره خافضاً عينيه ان صح التعبير • كان النظر الى ما حوله يثير اشمئزازه • غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه ، فاذا هو ، على غير علم منه تقريباً ، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في خلدته أو يخطر بباله قبل ذلك • ولعل ما أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو الهوة الرهية ، هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها ، أعنى الهوة التي تفصله عن هؤلاء الناس • لكنهم ينتمون الى أجناس مختلفة • انهم ينظرون بعضهم الى بعض نظرة شك وعداوة • وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر ، ولكنه لم يتصور في يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة •

وكان في السجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا الى سيبيريا لجرائم سياسية • فكان هؤلاء ينظرون الى الآخرين نظرتهم الى رعاع ، ويعاملونهم معاملة احتقار * ، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك في هذا الرأي • ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاع كانوا من نواح كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم • وكان بين الرؤس أيضاً اناس يزدرون رفاقهم ، ولا سيما ضابط سابق ، ورجلان مثقفان • وقد ادرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً •

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد ، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته • حتى لقد انتهى بهم الأمر الى كرهه • لماذا ؟ ليس يدري ! كان بعضهم ، وهم أشد اجراماً منه ، يحتقرونه ويستهزئون به ، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكه وضحك ! كان هؤلاء يقولون له :

— أنت سيد ! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات ساطور ؟ ليس هذا شأن سيد من السادة !

وفى الأسبوع الثانى من « الصوم الكبير » ، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه . فعل كما فعل الآخرون ، فذهب الى الكنيسة وصلى . ولكن مشاجرة شبت فى ذات يوم دون أن يعرف لماذا . لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد ، وأخذوا يصيحون قائلين له :
— أنت ملحد ! أنت لا تؤمن بالله ! يجب قتلك !

انه لم يكلمهم فى يوم من الأيام عن الله ، ولا عن الدين . ولكنهم يريدون قتله بحجة انه ملحد لا يؤمن بالله . لم يعترض بشئ ، وصمت . ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسعوراً . فانتظره راسكولنيكوف هادئاً صامتاً . لم يحرك ساكناً ، لم يتحرك من مكانه ، ولا اختلجت قسمة من قسمة وجهه . واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف فى اللحظة التى هم فيها الرجل أن يفتك بالضحية ، فلو تأخر الحارس لحظة واحدة لسال الدم .

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلاً : لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها ؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم . وكانوا لا يلقونها الا فى مناسبات نادرة ، أثناء العمل ، حين تجيء لتراه دقيقة واحدة . ومع ذلك عرفوها جميعاً ، وعرفوا جميعاً أنها تبعته « هو » ، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن . وهى لا تهب لهم مالاً ، ولا تقدم اليهم خدمات خاصة . مرة واحدة ، فى عيد الميلاد، حملت هدية الى السجن كله : فطائر صغيرة وخبزاً أبيض . غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شئ : أصبحت تتولى عنهم كتابة رسائل الى أسرهم ، وتضع الرسائل فى البريد . والى صونيا انما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة ، يعهدون بالأشياء أو

حتى بالأموال التي يريدون إرسالها اليهم ، بإشارة من السجناء أنفسهم • كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين إليها في بيتها • وكان السجناء ، اذا هي ظهرت في ورشات العمل ترى راسكولنيكوف ، أو صادفت فريقاً منهم ذاهباً الى العمل ، يرفعون لها طاقياتهم احتراماً ويحيونها جميعاً • كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الذين دُغوا بالدناءة يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة : « ماتوتشكا » * ، صوفيا سيميونوفنا ، أنت أمنا الجنون الشفوق • وكانت صونيا ترد على تحيتهم ، وتبتسم لهم ، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم • كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي ، فاذا مرت التفتوا يتابعونها بنظراتهم • كانوا لا يقولون فيها الا مدحاً ، كانوا يمدحون حتى ضالتها • أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح • واذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً •

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها ، وأسبوعاً آخر • فلما أصبح في دور النقاهة تذكر الأحلام التي راها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان • لقد حلم ، طوال مدة مرضه ، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مضيئة رهيبة لا عهد بمثلها من قبل ، مضيئة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا ؛ وأن جميع الناس سيهلكون الا قلة قليلة مختارة • ان طفيليات من نوع جديد قد ظهرت ، واختارت أجسام البشر مسكناً لها • غير أن هذه المخلوقات المكرو سكوبية كائنات مزودة بعقل واردة ؛ والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانيين مسعورين ، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزرعه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط ؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرأون من الخطأ ، في أحكامهم ، في نتائجهم العلمية ، في مبادئهم الأخلاقية والدينية • ان قرى ومدناً وأمماً بكاملها قد سرت إليها هذه العدوى ، وفقدت العقل • أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون ، لا يفهم

بعضهم عن بعض شيئاً ، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً ؛ كل واحد يؤمن بأنه الانسان الوحيد الذى يمتلك الحقيقة ، فاذا نظر الى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعقف يديه لوعة وحسرة . أصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغى أن يعد شراً وما ينبغى أن يعد خيراً . أصبحوا لا يستطيعون أن يدينوا ولا أن يبرئوا . أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يفهم . هم يجتمعون ليؤلفوا جيوشاً كبيرة ، فما ان يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق فى جميع الصفوف فتتحل الجيوش ، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض ، فيعض بعضهم بعضاً ، ويدبح بعضهم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً . فى المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار ، ويستنفر الشعب . ولكن من الذى يستنفره ؟ ولماذا يستنفره ؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً . الرعب يستبد بجميع الخلق . المهن العادية هجرها أصحابها ، لأن كل واحد يعرض آراءه واصلاحاته ، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد . الزراعة أهملت اهمالاً تاماً . هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك ، متعاهدين بأغلظ الأيمان على ان لا يفترقوا قط ، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا فى شيء لا يمت بأية صلة الى ما عقدوا النية على القيام به ، ثم ما يلبثون أن يأخذوا فى التراشق بالتهم ، ثم ما يلبثون أن يقتلوا فيذبح بعضهم بعضاً . وتشتعل الحرائق ، وتظهر المجاعة . كل شيء يصيبه الدمار ، وجميع الناس تقريباً يهلكون . البلاء ما ينفك يشتد قوة ويتسع مدى . ولا ينجو من البلاء الا عدد قليل من الناس : هم الأنقياء الأطهار ، المصطفون الأخيار ، الذين كتب عليهم ان ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة ، أن يجددوا الأرض ويطهروها . غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد فى مكان ، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم .

ان الشيء الذى كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهذيان السخيف يترجّع فى ذاكرته ترجعاً أليماً ، وأن الانطباع الذى خلفته تلك الأحلام لا يمتحى الا ببطء .

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح . أصبحت الأيام دافئة مضيئة . هى أيام ربيع حقاً . فتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هى نوافذ ذات قضبان حديدية يحرسها خفير) .

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره الا مرتين ، وقد اضطرت فى المرتين كليهما أن تطلب اذنًا بذلك ، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً . لكنها كثيراً ما كانت تأتى الى فناء المستشفى ، ولا سيما عند هبوط الليل لتتظر الى النوافذ من بعيد ، ولتمكث فى الفناء بضع دقائق أحياناً .

ففى مساء من الأماسى ، وكان راسكولنيكوف قد أبلّ من مرضه تقريباً وكان نائماً ، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة ، فاذا هو يلمح صونيا تحت ، قرب الباب . كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً . ف شعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنة نفذت فى قلبه . فارتعش واسرع يبتعد عن النافذة .

ولم تجيء صونيا فى غد ، ولا جاءت بعد غد . فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر . وأُخرج أخيراً من المستشفى ، فلما عاد الى السجن علم من السجناء أن صوفيا سيميونوفنا مريضة ، وأنها ملازمة غرفتها لا تبرحها .

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً ، وأرسل يسأل عنها . فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً . وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتألم من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت اليه برسالة كتبها بالقلم الرصاص ، وفيها تنبّه بأن صحتها تحسنت كثيراً ، وأن مرضها لم يكن الا برداً بسيطاً ،

وأنها ستمضى تراه أثناء العمل فى أقرب فرصة • فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة •

كان النهار فى هذه المرة كذلك مضيئاً دافئاً • ومضى راسكولنيكوف الى العمل على ضفاف النهر فى ساعة مبكرة من الصباح هى الساعة السادسة • وذلك تحت سقيفة أعدَّ عندها فرن لطبخ الرخام • لم يرسل الى هذا المكان الا ثلاثة عمال من السجناء • فأما الأول فقد عاد مع المراقب الى السجن ليحجىء بالأدوات • وأما الثانى فكان يهيبىء الحطب للفرن • وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطئ وجلس على احدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر • ان المرء يرى • من على هذه الضفة العالية • مساحةً واسعة • ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن • ان هناك فى المرج الذى تغمره الشمس • والذى يمتد على مدى البصر • خيام • بدو رحل تبدو للناظر اليها نقاطاً صغيرة سوداء • هناك الحرية • هناك يعيش بشر آخرون • يختلفون كل الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا • هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر ابراهيم وقطعانه لما ينصرم بعد • كان راسكولنيكوف ينظر الى ذلك المشهد جالساً فى مكانه جامداً على وضعه • لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • لقد انزلق فكره نحو الاسترسال فى الأحلام والاستغراق فى التأمل دون أن يحس • أصبح لا يفكر فى شيء • واجتاح نفسه حزنٌ كبير •

وفجأة وقفت صونيا أمامه • كانت قد دنت منه دون ضجة • وهامى ذى تجلس الى جانبه • ان برودة الصباح لم تكن قد خفّت بعد • وكانت صونيا ترتدى معطفاً فقيراً • وتضع الشال الأخضر • وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير • ابتسمت له فى رقة ولطف • مريحة الهيئة • ولكنها على عادتها لم تمدد اليه يدها الا خجلة وجلة •

كانت دائماً تمد اليه يدها على خجل ووجل ، وكانت في بعض الأحيان لا تمدها اليه البتة ، كأنما هي تخشى أن يدفعها عنه • كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتناع ، وكان يبدو عليه دائماً انه يستقبل الفتاة باستياء ومضض • وفي بعض الأحيان كان يصصرُ على الصمت في عناد طوال مدة الزيارة • وكانت صونيا في بعض الأيام ترتعش امامه ، ثم تنصرف وفي نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة • أما في هذه المرة فان يديهما لم تحاولا أن تنفصلا • ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة ، ولم يقل شيئاً ، وخفض عينيه • كانا وحيدين • لم يكن يراها أحد • كان الحارس قد ابتعد لحظة •

لا يدري راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث ، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقيه على قدمي صونيا • لقد ارتدى راسكولنيكوف على قدمي صونيا ، وبكى ، وضم ركبتيها الى صدره • ذُعرت في أول الأمر ذعراً شديداً ، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى • ثم نهضت فجأة ، ونظرت اليه مرتجفة مرتعشة • ولكنها سرعان ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة • أخذت عيناها تشعان بسعادة لا حدود لها • لقد فهمت - وليس يخالجهما الآن في ذلك أي شك - فهمت انه يحبها ، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية ، وأن تلك الدقيقة قد آن اوانها أخيراً ...

أرادا أن يتكلما ، ولكنهما لم يستطيعا • امتلأت عيناها دموعاً • كانا كلاهما أصفرى الوجه هزيلى الجسم ؛ ولكن هاهو ذا فجر مستقبل جديد يسطع في وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً الى حياة جديدة • لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً ، ان قلب كل منهما يفجر في قلب الآخر يتابع حياة لا تنضب •

قررا أن ينتظرا وأن يدعنا • ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين

أخرى فى سبيريا • صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا تطاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود ! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً • هو يعرف ذلك • هو يحس ذلك بكيانه كله • وهى، أليست تحيا بحياته، أليست حياتها من حياته ؟

فى ذلك المساء، فى القاعة المقفلة، فكّر راسكولنيكوف فى صونيا وهو راقد على مضجعه • وبدا له، فى ذلك المساء أيضاً، أن جميع السجناء، جميع أعدائه القدامى، نظروا إليه نظرة جديدة، ورأوه باعين أخرى • لقد خاطبهم، فأجابوه برقة ونعومة • هو يتذكر ذلك الآن، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون : أليس يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم ؟

فكّر فى صونيا • فتذكر أنه قد عذبها دائماً، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً • تذكر وجهها الصغير الشاحب الذى نحل نحولاً شديداً، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه • فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحبٍ لا نهاية له •

ثم، ما قيمة تلك الآلام الماضية « كلها » الآن ؟ ان كل شيء، حتى الجريمة التى ارتكبها، وحتى الحكم الذى صدر عليه، وحتى النفى الذى يقاسى منه، ان كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاع الأولى، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتأوله هو • ثم ان راسكولنيكوف كان فى ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة : فانما هو يشعر باحساسات، ولا شيء غير الاحساسات • لقد حلت الحياة محل الجدل ؛ وفى أعماق نفسه أصبح ينضج شيء آخر تماماً •

وكان تحت وسادته انجيل، فتأوله بحركة آلية • كان هذا الكتاب

لصونيا ، وهو بعينه الكتاب الذى قرأت له فيه فى الماضى قصة انبعاث لعازر .
كان زاسكولنيكوف يقدّر فى أول عهده بالسجن أن صونيا ستصدّع رأسه
بالكلام على الدين ، وأنها ستحدثه عن الانجيل بغير انقطاع ، وأنها ستحاول
أن تفرض عليه كتباً دينية . فما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا
الموضوع فى يوم من الأيام ، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالانجيل قط .
انه هو الذى طلب منها ذلك بعد مرضه ، فحملت اليه الكتاب دون ان تقول
كلمة واحدة .

وهو لم يفتحه فى تلك المرة ، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن
بسرعة كومبض البرق : « هل يمكن أن لا يكون ايمانها الآن هو ايمانى ؟
أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هى عواطفى
وأشواقى ؟ » .

وقد اضطربت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هى أيضاً ،
وألمّ بها المرض مرة أخرى فى تلك الليلة . ولكن سعادتها كانت تبلغ
من القوة ، وكانت تبلغ من المباغتة ، أنها تكاد ترعبها ! سبع سنين ، سبع
سنين « فقط » !

ومرّت بهما فى البداية ساعات نشوة كانا فيها كمن يعد السنين
السبع أياماً سبعة . كان زاسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة
الجديدة لن توهب له بغير تضحية ، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً ، وأن
يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية .

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى ، قصة تجدد انسان شيئاً بعد شيء ، قصة
انبعاثه رويداً رويداً ، قصة انتقاله من عالم الى عالم آخر متدرجاً ، قصة
معرفته بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل .

هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة ، أما قصتنا التى نرويها
الآن فهى تنتهى هنا .

حواش

الصفحة

١٤ ★ « وأنه ما من انسان ٠٠٠ » : وردت في النص باللاتينية Nihil humanum ، وهي اشارة الى جملة قيرانس المشهورة: «انا انسان ، فلا شئ مما هو انساني بغريب عني» .

١٩ ★ عهد « النقد المفيد » : الاشارة هنا الى مطلع الستينات من القرن التاسع عشر بروسيا ، حين أخذت الجرائد تهاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي ، في جو يسوده شئ من الحرية . ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٦١ ، نددت عدة صحف ، ومنها جريدة «الزمان» التي كان يصدرها دوستويفسكي ، نددت بسيد اسسفه كوزليانينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية في القطار .

١٩ ★ « الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة العصر » : في عام ١٨٦١ نددت المجلة الأسبوعية «العصر» ، (في رسالة من مراسلها بمدينة برم) ، بالتمثيلية اليمائية الخلية التي قدمتها سيدة قرأت قصة بوشكين « ليالى مصر » التي يصف فيها غراميات كليوباتره . وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة « العصر » وتسفه تدخلها هذا . وقد شارك دوستويفسكي في تلك المساجلات (في مجلته «الزمان») ، متهما على الصحفيين الذين يأخذون مأخذ الجد أمرا تافها لا قيمة له .

٢٢ ★ « أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعي لم تمسنا بشيء » : ان قانون الاصلاح الزراعي الذي صدر في ١٩ نيسان (أبريل) سنة ١٨١٦ ، لم يهب للأقنان الذين أعتقهم الا الاراضي الصالحة للزراعة التي كانوا يزرعونها هم ، أما الغابات والمراعي فقد ظلت ملكا للسادة .

٢٢ ★ « مطاعم دوسيو » : هو فندق ومطعم فرنسي كان له صيت ذائع حينذاك ، وقد أقام فيه دوستويفسكي زمنا . والحديث عن

- « الحلقات » اشارة الى مكان بجزيرة ايلاجين اسمه « الحلقة » ،
وهو محل ملاه ومباهج وملذات شعبية .
- ٢٣ ★ « يونانى صغير من نيبجين » : فى عام ١٧٧٩ نزع عدد كبير من
يونان القرم فى عهد كاترين الثانية ، الى مدينة نيبجين ، وهى
مدينة صغيرة من مدن أكرانيا لا تبعد كثيرا عن مدينة كييف .
وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجارا أغنياء .
- ٢٤ ★ « لأن خمرتى فسدت » : بالفرنسية فى الأصل ، والمقصود
بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل الى الشراب .
- ٢٤ ★ « بيرج » : المانى كان يعلم رقص الباليه ويتعاطى الطيران
بالمنطاد ، وقد نظم فى بطرسبرج نزعات طيران بالمنطاد .
- ٢٥ ★ « محطة مالايا - فيشيرا » : محطة تقنع على خط موسكو -
سان بطرسبرج ، وتبعد عن العاصمة مسافة ١٥٠ كيلومترا .
- ٢٧ ★ « آنيسكا » : تصغير تحقيرى لاسم آنيسيا .
- ٢٨ ★ « فيلكا » : تصغير تحقيرى لاسم فيليب .
- ٣٦ ★ من المعروف أن دوستويفسكى كان معجبا أشد الاعجاب بلوحة
رافائيل « مادونا سيكستين » التى تأملها كثيرا بمدينة درسدن ،
وكان يحتفظ فى حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها .
- ٣٦ ★ « عمارة فيازمسكى » : عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج
كانت فيما مضى ملكا لأسرة الأمراء فيازمسكى . وهى فى العهد
الذى تجرى فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جدا ، وتضم
بيوتا مشبوهة وماوى ليليا .
- ٥٥ ★ أن اسم رازوميين مشتق من كلمة رازوم الروسية ومعناها
« العقل » . وهنا يتظاهر لوجين بنسيان الاسم ، ويحل محله
اسم رازودكين ، المشتق من كلمة رازودوك الروسية ومعناها
« الذكاء » .
- ٧٢ ★ « ضعيف » : وردت الكلمة بالالمانية فى الأصل Schwach
ويجب أن يشار هنا الى أن مشروع رازوميين الذى يدور عليه

الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتاعب التي لقيها دوستويفسكى نفسه من الناشرين ، وعن الحلم الذى كان يحلمه دائماً وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه .

١٠٠ ★ « أين الحديث عن قيام لعازر ؟ » : يجب أن نتذكر أن قاضى التحقيق كان قد سأل راسكولينكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر (الجزء الثالث ، الفصل الخامس) .

١٠٠ ★ « الفرسخ السابع » : كان يوجد ، فى أوديدلنايا ، على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج ، مستشفى للمجانين ؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى ، كما يطلق اسم «العباسية» فى القاهرة على مستشفى الامراض العقلية الموجود فى حى العباسية بها .

١٠١ ★ « سترى الله » : اشارة الى الآية الواردة فى انجيل متى : «طوبى للأطهار ، لأنهم سيرون الله» (الاصحاح الخامس ، ٨) .

١٠٢ ★ انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر .

١٠٨ ★ انجيل مرقس (الاصحاح العاشر ، ١٤)

١١١ ★ كان مفوضو التحقيق جزءاً من الشرطة ، فلما صدرت قوانين الاصلاح القضائى فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر ١٨٦٤) ، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل .

١٢٠ ★ « ذلك واجب لا مفر منه » : بالفرنسية فى الأصل .

١٢١ ★ « فستتغير أسماؤنا على الأقل » : اشارة الى قوانين الاصلاح القضائى المرتقب (راجع حاشية الصفحة ١١١) ، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخاً هو تموز (يوليو) ١٨٦٤ .

١٢٤ ★ « بعد معركة ألما رأساً » : هى معركة ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٤ التى خسرها الجيش الروسى فانكفأ الى سيباستوبول أثناء حملة القرم .

١٢٧ ★ اشارة الى بداية حملة ١٨٠٥ حين أفسد نابليون خطط «المجلس الحربى الأعلى» (هوفكريسجرات) بالنمسا ، وأسر فى أولما الجنرال النمساوى ماك هو وجيشه . ان تلك الأحداث قد وصفها

تولستوى فى روايته الكبرى «الحرب والسلام» (الجزء الاول)
الذى بدأ نشره فى مجلة «الرسول الروسى» (كانون الثانى
وشباط - يناير وفبراير) عند بدء نشر الاجزاء الاولى من رواية
الجريمة والعقاب هذه .

١٤٤ * « بقساوسة ونواب » : من الأنظمة المتبعة فى بداية تحقيق
قضائى أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه «اليمين» ويؤتى
أيضا بنائب من نواب طبقته الاجتماعية ليعرف بهويته .

١٦٩ * « متجر كنوب أو المتجر الانجليزى » : متجران شهيران فى قلب
سان بطرسبرج تباع فيهما أدوات الترف الراقية .

١٧١ * « يسمون تقديمين أو عدميين أو مصلحين » : كانت هذه الأسماء
الثلاثة تطلق على التيار الراديكالى السائد بين الشبيبة فى ذلك
الأوان . ومن المعروف أن اسم «العدمى» انما أوجده تورجنيف
وكان قد استعمله فى روايته « الآباء والابناء » .

١٨٣ * « لقد مضينا فى اعتقاداتنا الى مدى أبعد . . » : ان ليبنرياتنيكوف
يعرض هنا آراء بيزاريف (١٨٤٠ - ١٨٦٨) المتطرفة الموعلة فى
الراديكالية ؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبروليوبوف (١٨٣٦ -
١٨٦١) الذى كان كذلك راديكاليا جدا ، ويهاجم الناقد الكبير
بيلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) .

١٨٥ * « بل انه لأكبر كثيرا من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين » :
ان ليبنرياتنيكوف يبالغ فى آراء بيزاريف وتلميذه زاييتسيف
الذين كانا يدافعان عن مذهب المنفعة ، ويناديان بأن حذاء من
الحذاءين أنفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين .

٢٠١ * « السيدة الليوتنانة » : باللغة البولندية فى الأصل .

٢٢٨ * بالألمانية فى الأصل .

٢٣٩ * « العرض العام للمنهج الوضعى » : كتاب ظهر ببطرسبرج سنة
١٨٦٦ يضم ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين :
فيرشوف ، كلود برنار ، موليشنوت ، تيودور بيدرييت («الدماغ
والفكر») ، آدولف فاجنر (« ما يدل عليه الاحصاء من أن الافعال
التي تبدو حرة فى الظاهر انما هى حتمية فى الواقع ») .

- ٢٨٣ ★ « سيميون زاخارتش » : هو مارميلادوف .
- ٢٨٤ ★ « باولين ميخائيلوفنا » : هي بوليتشكا .
- ٢٨٥ ★ لعل الاستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسي فرانسوا لوريه (١٧٩٥ - ١٨٥١) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للمجنون» (١٨٣٨)
- ٢٩٣ ★ « لينيا ، انصبى قامتك » : بالفرنسية في الأصل .
- ٢٩٥ ★ « الفارس المتسكى على سيفه » : هذه هي الكلمات الاولى من قصيدة « فراق » للشاعر الرومانسى باتيوشكوف ؛ وقد لحنت القصيدة سنة ١٨١٤ ، وراجت رواجاً كبيراً .
- ٣٠٤ ★ « لك ماس ولآلى » : مطلع أغنية عاطفية من شعر هاينى .
- ٣٠٤ ★ « تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان » : مطلع قصيدة للشاعر ليرمونتوف عنوانها «الحلم» (١٨٤١) ، وفيها يرى الشاعر نفسه فى واد بالقوقاز ، يحتضر وحيداً .
- ٣١٥ ★ « جزيرة كرسستوفسكى » : جزيرة من أنأى جزر نهر نيفا .
- ٣٢٧ ★ «الدكتور ب . . . » : أغلب الظن أنه الدكتور سرجى بتروفتش بوتكين (١٨٣٢ - ١٨٨٩) ، وهو طبيب شهير فى ذلك الأوان .
- ٣٣٣ ★ « دون جدوى » : بالألمانية فى الأصل .
- ٣٣٦ ★ « الى صباح غد » : بالألمانية فى الأصل ، (Morgen früh) وهو تعبير ألماني يستعمل بمعنى قولنا : « دعك من هذا الكلام ! لا أصدقك ! » .
- ٣٧١ ★ « كما يدل على ذلك اسمه . . . » : كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت ، وكانت هذه الأسماء تستمد أحياناً من مزايأ روحية ، فأنتم دوبروليوبوف

يعنى « محب الخير » ، واسم زدرافوزميسلوف يعنى « السديد
الرأى » ، واسم رازوميين مشتق من كلمة رازوم ومعناها العقل .

٣٧١ ★ « باراشا » : تصغير اسم براسكوفيا .

٣٧٩ ★ « الطبيعة والحقيقة » : بالفرنسية فى الأصل . أن سفديريجايلوف
يحب استعمال عبارات فرنسية ويكثر منها فى حديثه .

٤١١ ★ « فوكسهول » : كانت هذه الكلمة الانجليزية فى أول الأمر
اسما لضاحية من ضواحي لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية فى
القرن الثامن عشر . وقد أنشئت حدائق مشابهة لها فى القارة
الأوربية أطلق عليها هذا الاسم نفسه ؛ ومنها حديقة فى روسيا
قريبة جدا من محطة بافلوفسك ؛ وقد أصبحت الكلمة فى نطقها
الروسي الآن (فوكسال) تعنى كل محطة من محطات السكة
الحديدية .

٤١٤ ★ « فلاديمير » : العاصمة القديمة لروسيا فى القرن الثالث عشر
والقرن الرابع عشر ، وهى تقع شمال شرق موسكو . وقد
أصبحت الطريق الذى تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم
بالأشغال الشاقة ، للوصول الى سيبيريا ؛ وهكذا فان « طريق
فلاديمير » تعنى « المعتقل » .

٤٢٩ ★ ان رواية ألكسندر دوما « غادة الكاميليا » (١٨٤٨) والمسرحية
التي تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا رواجاً كبيراً جداً فى
روسيا . وأصبح اسم « كاميليا » يعنى « البغى الراقية » .

٤٣٢ ★ « المبنى الذى يعلوه برج » : هو ثكنة لرجال الاطفاء ؛ وخوذة
آخيل هى الخوذة التى يحمون بها رؤوسهم .

٤٦٢ ★ « عدم » : باللاتينية فى الأصل nihil est ، اشارة الى
المذهب العدمى .

٤٦٣ ★ « مذكرات ليفنجستون » : ان كتاب ليفنجستون « استكشافات
فى داخل أفريقيا الوسطى » قد ظهر بلندن سنة ١٨٦٥ . وقد
ترجمه الى الروسية وأصدره سنة ١٨٦٧ ، نيقولا ستراخوف
صديق دوستويفسكى .

٤٦٤ * لم تكن مدرسة الطب بمدينة بطرسبرج إحدى كليات الجامعة ،
كما في المدن الأخرى ، وإنما كانت «أكاديمية للطب والجراحة»
مستقلة .

٤٨٢ * « على ضفاف نهر إيريتش » : أن هذا النهر الذي تقع على شاطئه
مدينة أومسك ، قد سبق أن ذكره دوستويفسكى في كتابه
« ذكريات من منزل الأموات » .

٤٨٧ * الإشارة هنا إلى السجناء البولنديين السياسيين الذين سبق أن
تحدث عنهم دوستويفسكى في كتابه « ذكريات من منزل
الأموات » . ألم يقل أحدهم ، وهو ميريكى ، ألم يقل عن المجرمين
العاديين : « اننى أكره قطاع الطرق هؤلاء ! » .

فہرس

الصفحة

الجزء الرابع

[illegible]

الجزء الخامس

[illegible]

الجزء السادس

[illegible]

الخاتمة

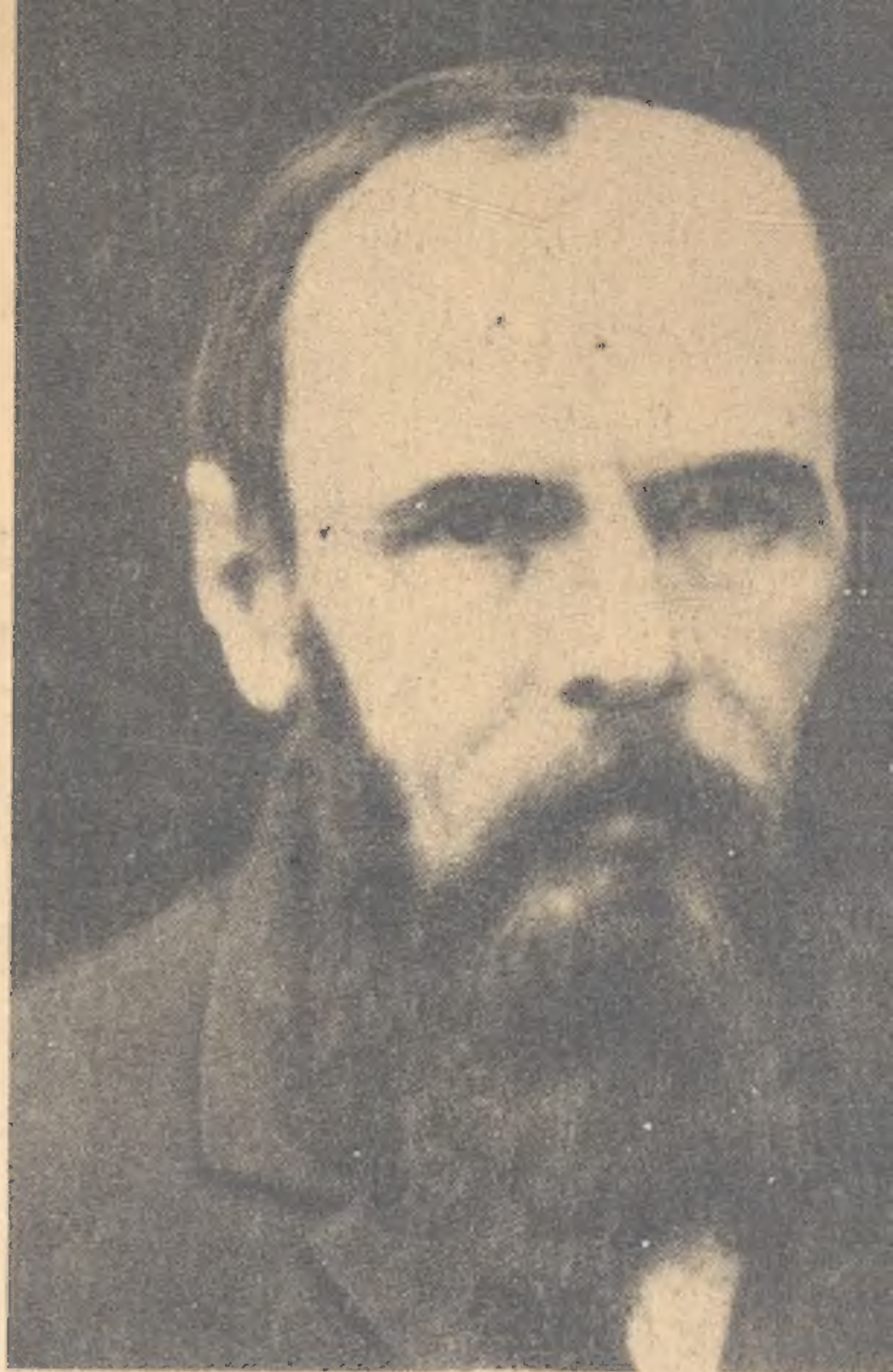
[illegible]

أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة

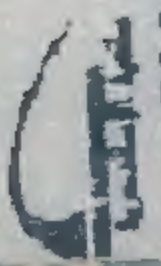
المجلد ٧	المجلد ١
المقامر	الفقراء
الزوج الأبدى	المثل
المجلد ٨	قلب ضعيف
الجريمة والعقاب ١	المجلد ٢
المجلد ٩	نيتوتشكا نرفانوفنا
الجريمة والعقاب ٢	الليالى البيضاء
المجلد ١٠	بروخارتشين
الإبله ١	الجارة
المجلد ١١	المهرج
الإبله ٢	السارق الشريف
المجلد ١٢	البطل الصغير
الجن ١	قصة فى تسع رسائل
المجلد ١٣	شجرة عيد الميلاد والزواج
الجن ٢	زوجة آخر ، ورجل تحت السرير
المجلد ١٤	المجلد ٣
المراهق ١	قرية ستيباتشيكوفو وسكانها
المجلد ١٥	حلم العم
المراهق ٢	المجلد ٤
المجلد ١٦	مذلولون مهانون
الأخوة كارامازوف ١	المجلد ٥
المجلد ١٧	ذكريات من منزل الأموات
الأخوة كارامازوف ٢	المجلد ٦
المجلد ١٨	فى قبوى
الأخوة كارامازوف ٣	قصة أليمة
المجلد ١٩	ذكريات صيف عن مشاعر شتاء
من « يوميات كاتب »	التمساح
رسائل	

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٤٠٨ / ١٩٧٠



Bibliotheca Alexandrina



0685693

الرئاسة المصرية العامة للتأليف والنشر

الشمس ٦٠ قرشًا